مايلز كوبلاند

القصة الدامية لاختراق أنظمة الحكم العربية

وكتابه

لعبة الأمم

the GAME of NATIONS

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديم: مجدي كامل

مايلز كوبلاند ولعبة الأمم

القصة الدامية لاختراق
أنظمة الحكم العربية

اسم الكتاب: لعبة الأمم

اسم المؤلف: مايلز كوبلاند

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٨/٣٤٣١

الترقيم الدولي: 977-376-389-7

التنفيذ الفني: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفني: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكر كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النوري - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني - ت: ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٨

سوريا- دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢/٢٣٩٣٣٦٧١

لبنان - تلفاكس: ٠٥/٤٣٤١٨٦ تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات

E-mail:darkitab2003@yahoo.com

E-mail:darkitab-Nassif@hotmail.com

مايلز كوبلاند

القصة الدامية لاختراق أنظمة الحكم العربية

وكتابه

لعبة الأمم

الطبعة الأولى
الناشر
دار الكتاب العربى
٢٠٠٨

تقديم

من لم يسمع عن كتاب اهتز له العالم كما هو الحال بالنسبة لكتاب مايلز كوبلاند: «لعبة الأمم» الذى صدر فى عام ١٩٦٩، ويصور فيه الأمم على أنها بيادق يجرى تحريكها فى وزارة الخارجية الأمريكية، بحسب سيناريوهات تتفق و«لعبة الأمم»!!

قبل ٣٧ عاماً كتب مايلز كوبلاند، كتابه الشهير «لعبة الأمم» أخلاقيات سياسات القوة»، ونفدت طبعته اللندنية الأولى فى ثلاثة أيام فقط، ومنذ ذلك التاريخ، بدأ العالم يدرك أن السياسيين بشر مثلنا، وقد يخطئون وقد يصيبون، ولهم اجتهاداتهم، ولهم قرارات تأخذ المجتمع للدمار، ويفاوضون، وقد تنجح المفاوضات وقد تخفق، مثلها مثل أى صفقة تجارية، وقد تكون لهم مصالح شخصية، وقد يتستخدمون وسائل غير مشروعة، ومن هنا فإنه ليس كل ما يقوم به الساسة الأمريكيون شريفاً فى العادة، وأنه ليس كل ما يقوله، أو يزعمه الأمريكيون بالشىء المقدس!!

ومن خلال كتاب كوبلاند أدرك العالم كيف يلجأ السياسيون - أحياناً - إلى تنفيذ ما أسماه بـ «أسلوب المحاكاة» حيث يتقمص عملاء المخابرات الأمريكية شخصيات الزعماء والرؤساء، لتحديد رد فعلهم والتنبؤ بقراراتهم، بهدف وضع وفرض السيناريوهات المطلوبة، وتستمر التمثيلية الواحدة عدة ساعات وقد تصل إلى عدة أيام، أو ربما عدة سنوات، يمثل خلالها كبار المسؤولين والخبراء مواقع وشخصيات معينة، وكأنهم حقيقة.

نحن لا نزال إذن، أمام كتاب مفتوح للعبة الأمم، بدأت فصوله منذ ٣٧ عاماً، ولا تزال تضاف وتتجدد فصوله، وتتلون وفق مصالح الدول الكبرى!!

وإلى كوبلاند يعود تدشين مصطلح «اللعبة» فى السياسة الدولية، ودخول مفهوم لعبة الأمم إلى ساحة العلاقات الدولية لأول مرة كأحد المداخل المهمة لدراسة الأزمات الدولية، وعلاقتها بسعى الدول من أجل مصالحها ومعادلة مصالحها بمصالح الآخرين.

لعبة الأمم كتاب مصنف «خطير جداً» لأنه يتضمن أسرارا تتعلق بأزمات سياسية بقيت فى طى النسيان، وزعامات زلزل الكتاب الأرض تحتها، ودفع البعض لإعادة تقييم مواقفها من الأحداث، التى شهدتها فترات حكمها!!

فمن خلال كتاب «لعبة الأمم» اتهم كوبلاند زعماء عربا بالخيانة، وآخرين بالعمالة وكشف عن كثير من دبلوماسية ما وراء الكواليس، فأظهر سلوك حكام ورجالات السياسة العرب فى صور مغايرة لما كان شائعاً ومعروفاً عنهم قبل خروج كتابه للنور، وكان دوره المحورى فى الأحداث، أو معايشته لما يجرى، كما قدم نفسه فى الكتاب، بصفته وسيطاً بين الأمريكيين وبعض الزعماء أو «عميلا» كما يقول فى مواضع عن نفسه، كان هذا الدور الذى نسبه لنفسه، هو مصدر قوة الكتاب، الذى يثير إشكاليات كثيرة فى عالمنا العربى حتى يومنا هذا!!

ومن بين ما يتناوله كوبلاند فى كتاب «لعبة الأمم» كيف أشرف على تنفيذ كثير من الانقلابات فى العالم العربى، ويتحدث عن عمالة محمد حسين هيكل للمخابرات الأمريكية، وجهود أمريكا فى استبعاد الإسلام عن أى سلطة، وتشجيعها جمال عبد الناصر فى مصر شعار «القومية العربية» على الرغم من أن الشعار الإسلامى سيعطيه مساحة جماهيرية أكبر، ولكنهم خافوا من انتشار الإسلام، كما أرادوا أن تكون القومية العربية أداة لكبح جماح التيار الإسلامى المتنامى، فحصل المراد وتم ضرب ذلك التيار فى مصر وكثير من الدول العربية ضربة كبيرة كما يقول كوبلاند!!

كما تحدث عن ناصر وصدام معتبراً إياهما «صناعة أمريكية» وقال إن هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى ستة أيام، جاءت بسبب انشغال عبد الناصر بتثبيت سلطانه فى اختيار القيادات الزائفة والمنافقة، وتقديم أهل الولاء والنفاق على أهل الخبرة!!

كتاب لعبة الأمم أهم الكتب التى تتحدث عن نشاط المخابرات الأمريكية فى المنطقة العربية، وأخطر وأشهر عملية فضح لـ «لعبة السياسة» والدمى السياسية «الزعماء» التى تتحرك على المسرح السياسى فى العالم!!

الناشر

من هو كوبلاند
وحكايته مع العرب!!

ولد مايلز آكس كوبلاند فى السادس عشر من يوليو عام ١٩١٦ فى أسرة ميسورة الحال، بمدينة «برمنجهام» بولاية «ألباما» الأمريكية وبدأ حياته كموسيقى، ثم تحول إلى رجل أعمال، ثم انخرط فى سلك المخابرات الأمريكية ليتحول مع الوقت إلى واحد من أشهر عملائها ما لم يكن هو أشهرهم!!

وخلال عمله فى وحدة استخباراتية أمريكية فى لندن أثناء الحرب العالمية الثانية، تعرف كوبلاند على فتاة تدعى «لورين إيدى» وكانت ضابطاً من ضباط المخابرات البريطانية، ليتزوجها، ولتكون أم ابنه الأول الأشهر الآن فى أمريكا «مايلز كوبلاند الثالث».

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، انتقل كوبلاند وزوجته وابنه إلى واشنطون، حيث عهدوا إليه، هو ومجموعة من رجال المخابرات المتميزين بمهمة إعادة تنظيم المخابرات الأمريكية، وتجنيد أفضل العناصر، ومن خلال جهود كوبلاند ومن معه تم تأسيس وكالة المخابرات الأمريكية «سى آى إيه» لتظهر للوجود لأول مرة فى عام ١٩٤٨.

ومن بين ما قام به كوبلاند فى تلك الأثناء هو متابعة أبحاث العلماء الأمريكيين فى مجال السيطرة على العقل أو غسل الأدمغة، وأيضاً التجارب السرية التى كانت وكالة الاستخبارات الأمريكية قد بدأت تجربها فى مجال التأثير والسيطرة على سلوك الإنسان وقد أعطت الوكالة لهذا المشروع الاسم الكودى «UL TRA. MK»!!

وكانت جريدة «نيورك تايمز» أول من نبه الرأى العام الأمريكى فى ديسمبر ١٩٧٤ عن وجود هذه التجارب غير القانونية حيث كانت تجرى على أفراد دون علمهم بماهية التجارب ولا عن نوع العقاقير التى كانت تعطى لهم.

بعد انكشاف أمر التجارب شكل الكونجوس الأمريكى سنة ١٩٧٥ لجنة تحقيق التى أمرت بعد انكشاف الأمر بإيقاف التجارب وتعويض المتضررين. وكان ريتشارد هيلمز مدير الـ «سى آى إيه» من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣ واحد مهندسى المشروع، وقبل تركه رئاسة الوكالة عام ١٩٧٣ قد أمر بإتلاف الوثائق والملفات الخاصة بمشروع «UL TRA. MK» إلا أن القليل من هذه الوثائق نجا من الإتلاف ووجد طريقه إلى الصحافة سنة ١٩٧٤ وفى عام ١٩٧٧ كشف كوبلاند أسرار هذه التجارب، وصدم الأمريكيين عندما قال فى الصحف إنها «مازالت مستمرة».

وذكر كوبلاند أن أغلب المعلومات عن مشروع «UL TRA. MK» قد أخفيت عن لجنة التحقيق!!

وقال: «كان الهدف الأساسى من التجارب هو اكتشاف عقاقير لغسل أدمغة الأفراد ليكونوا عملاء وجواسيس دون علمهم، وكانت تستعمل فى التجارب مواد مخدرة أهمها مخدر إل إس دى «LSD» بالإضافة للتنويم المغناطيسى».

بعد ذلك، تم إرسال كوبلاند إلى سوريا تحت وظيفة مزيفة هى «ملحق ثقافى» بينما كانت مهمته الأساسية هى الإطاحة بنظام الحكم السورى - آنذاك - وهى كما يقول التاريخ السياسى الدموى الأمريكى هى أول عملية قلب حكم دولة أجنبية تقوم به الولايات المتحدة!!

فى تلك الفترة استطاع كوبلاند تحسين لغته العربية حتى أتقن هذه اللغة تماماً لحاجته لتفعيل نشاطاته الاستخباراتيه، وتنفيذ المهمة الكبرى، التى كانت ستسند إليه، وهى اختراق الأنظمة العربية، ومحاولة تجنيد كل من يستطيع من مسؤوليها من الرؤساء إلى الصحفيين!!

وفى عام ١٩٥٣، تم إطلاق كوبلاند على جمال عبد الناصر، ويقول آرون ستيبكوفيتش فى استعراضه لسير مايلز كوبلاند على موقع:
http://www.milescopland.net

إن «كوبلاند استطاع أن يصبح أكبر مستشارى الرئيس جمال عبدالناصر الغربيين»!!

وفى مصر تحولت لورين زوجة كوبلاند إلى عالمة آثار، وراحت - كما تقول سير كوبلاند الإنجليزية المشار إليها - «راحت تجمع كل ما هو قديم من العملات إلى أجزاء المومياوات الفرعونية»!!

أما قصة كوبلاند مع العرب، والتى بنى عليها كتابه لعبة الأمم - شهرته المدوية - فقد بدأت مع انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج انجلترا منتصرة ولكنها منهكة ضعيفة بعد حرب دامت طويلاً مع خصم عنيد فعشرات بل مئات الغارات الجوية على لندن وجميع المدن البريطانية وحجم الدمار الهائل والخراب والأطلال يحتاج إلى إعادة بناء.

وكان السؤال الذى كان يلح على قادة بريطانيا كيف سنقوم بذلك كله وفى نفس الوقت علينا إدارة مستعمراتنا فى الشرق؟ ومنها قطعاً مصر، إذا نترك المستعمرات لأهلها، ولكن من أين لنا بالأموال والمواد الخام التى تمدنا بها مستعمراتنا؟

وقد تفتق ذهن القيادة البريطانية على عقد صفقة مع أمريكا بمقتضاها تحل أمريكا محل انجلترا فى مستعمراتها الشرقية وخاصة مصر، وكان لدى أمريكا رغبة قوية فى السيطرة على المنطقة من أجل تثبيت دعائم دولة إسرائيل الوليدة وتقوية مركزها خاصة وأن الأخطاء من حولها كبيرة والعرب لن يقبلوا بها بسهولة رغم نكبة ٤٨.

وبناء على هذه الصفقة أرسلت أمريكا رجل الـ سى آى إيه مايلز كوبلاند إلى مصر فى آواخر الأربعينيات من القرن المنصرم.

وقد أشار مايلز كوبلاند إلى اتصال السكرتير الأول للسفارة البريطانية فى واشنطن سيشل بمساعدة وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى - وأفريقيا ليسلمه رسالة تشير إلى اعتزال بريطانيا إلى إنهاء وصايتها على بعض أرجاء العالم لأزمة مالية تمر بها فإنها لن تتمكن من القيام بأعباء مقاومة الشيوعية فى كل من تركيا واليونان.

ويشير مايلز كوبلاند فى كتابه لعبة الأمم إلى هذه الحقائق حين قرر:

● لقد كان من المفهوم فى التقارير والوثائق السرية للحكومة الأمريكية فى أوائل عام ١٩٤٧ أن دبلوماسيتنا وأجهزة مخابراتنا بالحالة التى كانت عليها فى ذلك الوقت يجب أن تعمل لإحداث تغييرات فى قيادات بعض دول الشرق الأوسط. ويشير المؤلف فى الفصل الثانى من كتابه إلى حضور السفير البريطانى إلى وزارة الخارجية الأمريكية لإبلاغها بقرار الحكومة البريطانية وقف مساعدتها لحكومتى تركيا واليونان ويفسر ذلك بأن معناه انسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط وضرورة حلول أمريكا محلها فى المنطقة لملء الفراغ.

● على العموم فإن ما كنا نحاوله هو ملء الفراغ الناتج من انسحاب بريطانيا من اليونان

وتركيا - هذا الفراغ يشمل كما قلنا من قبل جميع منطقة الشرق الأوسط، ثم يشير المؤلف إلى قرار وزير الخارجية الأمريكية دين أتشيسون بالتدخل ولو بالأساليب غير النظيفة.

● ونتيجة لذلك فإنه فى نهاية ١٩٥١م قرر تشكيل لجنة خبراء سرية لدراسة العالم العربى فيما يتعلق على الخصوص بالنزاع العربى الإسرائيلى لاستعراض المشاكل واقتراح الحلول سواء كانت تتفق مع أساليب العمل الحكومى النظيف أم لا. ص٤٨ ويشير بعد ذلك إلى تدخلهم فى انقلاب حسنى الزعيم فى سوريا والدروس التى استفادها منها، ثم استعدادهم للعملية الكبرى فى مصر.

● كان روزفلت غير واثق من الانقلابات العسكرية بعد أن رأى ما أدت إليه فى سوريا من فوضى ولكنه وافق على أن يقابل الضباط الذين قدمتهم له المخابرات المركزية الأمريكية على أنهم زعماء التنظيم السرى العسكرى الذى يدبر انقلاباً عسكرياً فى مصر. ثم يشير إلى أن من أهداف هذا الانقلاب استبعاد الثورة الشعبية التى يسعى لها - بجد - الإخوان المسلمون وللتمويه يضيف والشيوعيون.

ودخل كوبلاند مصر تحت غطاء شركة «بوزآلن أند هملتن» باعتباره موظفاً يجيد اللغة العربية عام ١٩٥٢، ونجح الأمريكان فى إجراء اتصالات مع أعلى القيادات المصرية، خاصة جمال عبد الناصر قبل أن يصبح رئيساً!!

وعلى حد اعترافات كوبلاند فى كتابه «اللاعب واللعبة» نجح فى أن يخلق مركز دعاية للولايات المتحدة الأمريكية فى إحدى الصحف المصرية التى وصفها جمال عبدالناصر فى ذلك الوقت بأنها وزارة خارجية أمريكية تحت الأرض.. وفيما بعد أطلق على جمال عبدالناصر فى تقارير المخابرات الأمريكية «الديك الرومى» لأنه الرئيس الذى يزهو بنفسه منفوش الريش والذى يسهل استفزازه»!!

وقام كوبلاند بتمهيد البلد لزيارة أمريكى آخر هو كريملت روزفلت وكيل وزارة الخارجية الأمريكية وعميل مهم للمخابرات أيضاً، وحضر الرجل لمصر فى آخر سنة ٥١ واستمر حتى ٢٠ يناير ١٩٥٢.

وبدأ الرجل سريعاً فى الاتصال بالملك فاروق الأول ملك مصر والسودان، فوجد الملك ذا شخصيتين مختلفتين إحداهما مساء على موائد القمار فاسد وماجن والأخرى صباحاً فى

مكتبه يحاول أن يظهر كأمير مؤمنين، وعلى هذه الصورة تأكد أن الملك فاووق ليس هو رجل الساعة والذى يمكن أن يعتمد عليه فى الحفاظ على إسرائيل فكان لابد من البحث عن شريك آخر.

والحقيقة لم يتعب كثيراً فى البحث عن هذا الشريك، والسبب هو ظهور ما يسمى بحركة الضباط الأحرار فى الجيش المصرى اعتراضاً على النكبة والأسلحة الفاسدة.

وقد كانت أول مواجهات الحركة ضد القصر فى انتخابات نادى السيارات المصرى، وقد تنافس على منصب الرئاسة كل من عزيز باشا المصرى - ذلك القائد المصرى الوطنى الذى أراد أن يعطى الألمان خطط الإنجليز فى حرب العلمين لقاء صفقة يعتقدها مع الألمان تكون مصر بمقتضاها دولة حرة بعد الحرب ولكن طائرته اصطدمت بسلك الكهرباء وفشلت الخطة - وحيدر باشا وزير الحربية والمدعوم من القصر الملكى، وكان عزيز باشا المصرى مدعوما من الضباط الأحرار وطبعاً انتصر عزيز المصرى، وكان انتصاره بمثابة تقديم أوراق اعتماد الضباط الأحرار لدى القيادة الأمريكية، ومن الملاحظ يا بنى أنه حتى ذلك الوقت لم يكن الضباط الأحرار يفكرون مجرد تفكير فى القيام بثورة ولم يجول ذلك بخاطرهم أبداً لأنه لو كان ذلك هدفهم ما ظهروا فى انتخابات نادى السيارات ويعلنون عن أنفسهم مخاطرين بالقبض عليهم وفشل خططهم.

المهم أن كوبلاند عميل المخابرات الأمريكية استطاع تجنيد أحد الضباط الأحرار وهو حسن التهامى، والذى استطاع بدوره ترتيب لقاء بين كل من عبد الناصر وعبد الحكيم ومايلز كوبلاند وكرملت روزفلت، وتم الاتفاق على قبول قيام الحركة بانقلاب عسكرى يتم بمقتضاه خلع الملك على أن يتنازل عن الحكم لابنه أحمد فؤاد الثانى مع فترة من التريث فإذا قبل الشعب يقوم الانقلاب بتغيير نظام الحكم فى مصر.

وكان أهم شروط الأمريكان ألا يبدأ عبد الناصر أى حرب مع إسرائيل - والتاريخ يحكى أن عبد الناصر التزم ولم يبدأ حرباً مع إسرائيل - أن يبحث عبد الناصر عن عدو آخر للشعب ليخفف من حدة عداوة الشعب لإسرائيل - فكان الإقطاع والرأسمالية المستغلة والأحزاب الفاسدة - ويسمح الأمريكان لعبد الناصر ببعض الإصلاحات «مجانية التعليم - الإصلاح الزراعى - السد العالى وغيرها» والحقيقة أن عبد الناصر التزم فى تطبيق بنود هذه الاتفاقية بحذافيرها فلم يبدأ أى حرب مع إسرائيل.

ولكن واجهتهم مشكلة كبيرة فالملك لم يكن عدوا للشعب بل على العكس كان محبوبا فكيف سيكون ضده انقلاب؟ فالملك يملك ولا يحكم والشعب لديه دستور يحترم الحريات وأحزاب قوية وحياة نيابية ورئيس وزراء وبرلمان منتخب بطريقة شرعية، وفوق كل هذا كانت الحالة الاقتصادية لمصر متينة قوية فقط كانت مصر دائنة لبريطانيا وكان الجنيه الورقى المصرى أغلى من الجنية الذهب فكان الأخير بـ ٩٧,٥ قرش مصرى لا غير فكيف سيقبل الشعب هذا الانقلاب؟

وتفتق ذهنهم عن حيلة خبيثه وهو حريق القاهرة ثم يدعون أن الملك هو الذى حرق البلد ويكون هذا تمهيداً لزرع بذور الكراهية فى نفوس الرعاع ضد ملكهم الشرعى، مع أنه فى الحقيقة الملك ليس لديه سبب واحد لحرق بلد هو يحكمها إلا أن يكون نيرون آخر قد ظهر وفاروق فى الحقيقة ليس نيرون، وتم حرق دور السينما وأماكن أخرى فى القاهرة فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ وانظر تاريخ الحرق هو بعد حوالى شهر من لقاء روزفلت وبعد حوالى خمسة أيام من سفره لأمريكا، وكريملت روزفلت هو أبن أخت رئيس الولايات المتحدة روزفلت.

كان كوبلاند الساعد الإقليمى لمسؤول الوكالة فى الشرق الأوسط كيرميت روزفلت أو «كيم» - كما كان يناذى - وبعد أن أثار كتاب كوبلاند الكثير من عواصف الغضب عليه، لكن المثير للدهشة أنه طلب تأشيرة لدخول مصر وحصل عليها بعد نشره الكتاب، ووجد طريقه من دون مشقة إلى فندق «هيلتون النيل» رغم اتهامه جمال عبدالناصر بأنه من إنتاجهم.

ولكن ذات ليلة وهو عائد إلى فندقه فوجئ بشاب قوى يعترض طريقه ويصر - فى استفزاز واضح - على أن يبيع له بعض منتجات «خان الخليلى» التى يشتريها السياح، وبدا واضحاً أن البائع «المزعوم» له هدف آخر، ومرسل من جهة ما، فى مهمة ما، ولكن تدخل بعض المارة أفسد خطته!!

فى اليوم التالى فى ميدان «العتبة» كان هناك من كان قادراً على تنفيذ الهدف، فقد عاد كوبلاند من جولة لم تكتمل فى الميدان القديم، وقد امتلأ وجهه بالجروح وجسده بالكدمات، فقد افتعل رجال الأمن السريون معه مشاجرة كان هو الوحيد الخاسر فيها.

وفهم كوبلاند الرسالة وغادر القاهرة على أول طائرة، ولم يعد إليها إلا بعد رحيل جمال عبدالناصر.

وفى كتابه «قصة السويس» يقول هيكل: إن كوبلاند كغيره من موظفى الوكالة لا يستطيع أن يكتب أو ينشر بغير إذن - بمعنى ذلك أن ما كتبه ونشره كان محل موافقة من وكالة المخابرات المركزية التى يهمها تلطيخ الثورة المصرية والإساءة إلى قائدها جمال عبدالناصر كما دفع هيكل!!

وقد نشر كوبلاند فى كتاب آخر هو «بلا خنجر وبلا عباءة» لم يحظ بشهرة كتابه «لعبة الأمم»، وإن كان قد أضاف فيه بعض التفاصيل وكشف فيه بعض الأسرار يمكن أن نعتبرها مكملة لما جاء فى «لعبة الأمم» أو على الأقل موضحة لها.

ومما قاله كوبلاند فى صفحتى ٥٢ و٥٣ من هذا الكتاب: «ليس ضرورياً أن يكون الإنسان عميلاً بالمعنى الشائع للعمالة، لكى يؤدى الخدمة المطلوبة، إنما يكفى أحياناً مع بعض الأشخاص أن تعقد المخابرات معهم نوعاً من الاتفاق الودى لتبادل المعلومات لكى يصبح بالنسبة لهم أكبر أهمية من أكبر عميل»!!

وقال إن كيرميت روزفلت جاء إلى مصر قبل الثورة وحاول إقناع الملك فاروق بالقيام بثورة سلمية بيضاء لتقوية نظام حكمه المعتدل لتفويت الفرصة على قوى الشيوعيين والإخوان فى القضاء عليه.

وكانت الخطة - التى سميت فى ملفات المخابرات المركزية بعملية «الزير السمين» - تقضى بأن يقوم الملك بحملة تطهير كبيرة للقضاء على الفساد المستشرى فى أوصال النظام، وبأن يعيد تقديم نفسه فى صورة الحاكم التقى الورع، ولكن كيم شعر باليأس بعد أن قابل الملك فاروق أكثر من مرة، ووجده على حد وصفه «من أصحاب الأجسام الثقيلة والعقول الخفيفة» وهو ما جعل كيم يبحث عن بديل آخر، وهكذا اتجه بصره إلى الجيش، على حد رواية كوبلاند.

ولم يمر وقت طويل حتى أدرك الملك أن كيرميت روزفلت هو حفيد الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت!!

كان تحريك الأحداث فى الظلام يجذب كيرميت روزفلت وتلميذه مايلز كوبلاند، ويثيرهما أكثر من مجرد جمع المعلومات، وانتقلا بذلك من التحليل إلى التآمر، وحتى يقفز رجلان من المخابرات هذه الخطوة الواسعة فإن عليهما أن يكونا شبكة معقدة من العملاء والعلاقات تفيده فى الوقت المناسب!!

وقد تحقق لهما ذلك عندما كوّن كيرميت روزفلت فى عام ١٩٥١ جمعية الصداقة العربية الأمريكية، التى اتخذت من بيروت مقراً رئيسياً لها وامتدت فروعها إلى القاهرة ودمشق وعمان وبنغازى وتونس والرباط.

وكما يقول آلن جران فى كتابه عن رجال المخابرات المركزية «ترجمه جورج عبدو ونشرته دار المروج فى بيروت» فإن تحت شعار تعزيز الروابط الثقافية والعلمية بين الولايات المتحدة والعالم العربى قام «مناضلو» هذه الجمعية بنشاط تجسسى خطير للغاية، وقد حانت الفرصة لكيرميت روزفلت لتجريب مواهبه فى تدبير الانقلابات فى إيران عندما طرد الدكتور محمد مصدق وأعاد الشاه للسلطة!!

وحسب رواية كوبلاند: فإن كيم أمضى فى القاهرة الشهرين الأولين من عام ١٩٥٢ مع الملك فاروق يلهوان بتنفيذ مخطط الثورة السلمية، وذلك بدفع رجل الحكم القوى مرتضى المراغى لخلق أزمة وزارية، وقام الملك بتكليف نجيب الهلالى، الذى كان هيكل على علاقة متينة به، لتسليم الوزارة، وقد اتصل به كيم وطلب منه تطهير جهاز الدولة من الفساد، فربما أصبح زعيم الثورة السلمية، لكن ما جرى هو أن الضباط الأحرار قد سارعوا بالاستيلاء على السلطة ولم يتسن لنجيب الهلالى تنفيذ مخطط محاربة الفساد، فهل كان كيرميت روزفلت وراء ما فعله الجيش كما يدعى خصوم جمال عبدالناصر؟

لقد قال كوبلاند أن كيم عرف بأمر تنظيم الضباط الأحرار فى شهر مارس ١٩٥٢، أى قبل الثورة بأربعة أشهر تقريباً، ويقول كوبلاند أيضاً: «إنه سعى إلى الاتصال بهذا التنظيم بعد أن أدرك أن المراهنة على الجيش هى الحل الوحيد المتاح» ولأن كيم لم يبدأ - حسب المصدر نفسه - فى رهانه على الجيش إلا فى شهر مايو ١٩٥٢ فإن الفترة التى يكون قد تم فيها الاتصال بينه وبين تنظيم الضباط الأحرار هى ما بين مايو ويوليو أى حوالى الشهرين فقط.

وفى الجزء الأول من كتابه الشهير «قصة ثورة يوليو» يقول أحمد حمروش: «إن منشورات الضباط الأحرار وانتصارهم فى انتخابات نادى الضباط استثارت رجال المخابرات المركزية فى القاهرة، فبذلوا غاية جهدهم للتعرف عليهم واكتشاف آرائهم ومحاولة اجتذابهم» و«كانت حلقة الاتصال مع ضباط فى المخابرات المصرية تسمح طبيعة عمله بالاتصال بالملحقين العسكرين الأجانب بينما هو مرتبط بالضباط الأحرار وبجمال عبد الناصر شخصيا». لم

يذكر أحمد حمروش اسم هذا الضابط.. وربما يكون على صبرى، وهو بالمناسبة سافر قبل عام ١٩٥٢ فى بعثة إلى الولايات المتحدة لدراسة المخابرات الحربية، وبصفة خاصة مخابرات الطيران، وعندما عاد عين مديراً لمخابرات الطيران، وأصبح على صلة بالملحق الجوى الأمريكى فى القاهرة.

وبعد تقاعده من المخابرات بعد سنوات فى الشرق الأوسط، تفرغ كوبلاند لكتابة مذكراته، وتدريس العلوم السياسية فى الجامعات الأمريكية، ثم أمضى بقية حياته فى بيت أجداده الذى ولد فيه فى مدينة «برمنجهام» بولاية «ألاباما».

وقد توفى كوبلاند فى ١٤ يناير عام ١٩٩١ عن ٧٥ عاماً، وترك وراءه ثلاثة أبناء هم مايلز كوبلاند الثالث، ويان كوبلاند كاتب سيناريو ومخرج سينمائى، وستيوارت كوبلاند عازف الإيقاع وابنة واحدة هى لينى كوبلاند.

ولمايلز كوبلاند الثالث ابن مايلز فرقة لـ «الرقص الشرقى» هى الأشهر فى أمريكا ويقول دائماً إنه اهتم بالرقص الشرقى بسبب إقامته مع الأب رجل المخابرات الأمريكية مايلز فى الشرق الأوسط.

ولمايلز كوبلاند ٣ كتب أشهرها «لعبة الأمم: أخلاقية سياسات القوة»، أما الآخران فهما «بلا عباءة أو خنجر: حقيقة الجاسوسية الجديدة» وصدر عن دار نشر سايمون آند شيستر بنيويورك فى عام ١٩٧٤، وكتاب «اللاعب واللعبة» اعترافات عميل سياسى فى «سى آى إيه» وصدر عن دار آورمان برس فى عام ١٩٨٩.

«لعبة الأمم» وحقيقة علاقة عبد الناصر بـ «سى.آى.إيه»!!

منذ رحيل الرئيس المصرى جمال عبدالناصر قبل ٣٦ عاماً، والحديث لا ينقطع عن الرجل، ورغم أن هناك سيلاً من الكتب، التى ظهرت فى حياته، وبعد مماته، تتناول سيرة الرجل، وتكشف جوانب من فترة حكمه، بكل ما تكتنفه من أسرار، إلا أنه لا يوجد كتاب واحد أثار ولا يثير الجدل حول شخصية عبد الناصر، وطريقة ظهوره بقوة على المسرح السياسى المصرى على مدار ١٨ عاماً، مثل كتاب «لعبة الأمم» الذى فاجأ رجل المخابرات الأمريكى مايلز كوبلاند به العالم أثناء وجود ناصر فى السلطة، لدرجة أن الرئيس المصرى الراحل نفسه تفاعل مع الكتاب وعلق عليه.

ومن أكثر القضايا المثيرة للجدل، وتتناولها الكتب حتى يومناً هذا، هى تلك المتعلقة بعلاقة ناصر بالولايات المتحدة الأمريكية، وعلى وجه الخصوص بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية الـ «سى.آى.إيه».

فهناك من كتب – وفى مقدمتهم ميلز كوبلاند فى كتابه الشهير «لعبة الأمم» أن ثورة يوليو والضباط الأحرار كانت صنيعة المخابرات المركزية الأمريكية، بل هناك من وصل به الأمر إلى حد الادعاء أنها كانت من صنع جهاز المخابرات العامة الإسرائيلية الموساد ويستشهد على ذلك الادعاء بوجود علاقات بين عبد الناصر وبين عدد من اليهود على رأسهم ايجال آلون أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

وكان مايلز كوبلاند قد تحدث فى كتابه الشهير عن «اللا أخلاقية فى سياسة القوة الأمريكية» وقال إن: «الشرط اللازم لبقاء أى حاكم أو مجموعة حكام فى سلطة هو أن يظهر بمظهر يستحيل القول معه أنه صنيعه لنا «أمريكا»، وأن يتصرف بطريقة لا تظهر أى انسجام مع أذواقنا، وميولنا».

و«باختصار فإن مساندتنا لأى زعيم، للوصول إلى سدة الحكم والبقاء هناك، حتى يحقق لنا بعض المصالح، التى نريدها لابد أن يرتطم بالحقيقة القاسية، وهى أنه لابد له من توجيه بعض الإساءات لنا حتى يتمكن من المحافظة على السلطة، ويضمن استمرارها، فى لعبة الأمم التى نتبعها مع غير العالم الغربى، نقبل انتساب عدد من اللاعبين ونرحب بجلوسهم معنا إلى طاولة اللاعب دون أن يكون سولكهم كما نحب ونهوى تماماً، إلا أننا نعتقد أنه بإمكاننا أن نفوز عليهم بمجرد اتباع طرق وألاعيب خاصة، ولكنها تختلف كل الاختلاف عن تلك التى نتبعها فى لعبة الصراع، مع خصومنا كالسوفييت والصينيين، أو تلك التى نتبعها فى لعبة التعاون مع أصدقائنا»!!

واتخذ كوبلاند من ناصر فى كتابه نموذجاً يدلل به على كلامه، وقال كوبلاند إنه أثناء احتدام المعارك فى حرب ١٩٤٨م وقبل الاتفاق على الهدنة تمت لقاءات أولية بين إيجال آلوان وضابط إسرائيلى آخر هو بروحام كوهين وبين الصاغ جمال عبد الناصر الذى كان - حينذاك - ضابطاً للعمليات فى الكتيبة السادسة التابعة لسلاح المشاة المصرى والتى كانت محاصرة فى الفالوجا.

وكان عبد الناصر يتزعم فى ذلك الوقت حركة الضباط الأحرار السرية، وكان آلوان قائداً للجبهة الجنوبية، وتعددت لقاءات بروحام كوهين بجمال عبدالناصر حتى وصلت خمسة عشر لقاء، وكان اللقاء الخامس عشر حينما جاء عبد الناصر إلى منطقة الفالوجا لتحديد موقع جثث القتلى اليهود فى معارك ١٩٤٨م، وكان يرافقه فى هذه المهمة حسن صبرى الخولى الذى عينه فيما بعد ممثلاً شخصياً له، وكان هذا اللقاء يجرى تحت مظلة جماعة الكوكيرز الأمريكية.

ويذهب بعض المؤيدين لما كتبه كوبلاند إلى أن الطريقة التى عرضت بها مبادرة السلام المصرية فى القدس يرجع الفضل فيها لاتصالات جمال عبد الناصر عام ١٩٤٩ هذه، والتى أجراها تحت ظل الأعمال الإنسانية، والبحث عن جثث القتلى اليهود فى حرب ١٩٤٨، أى أن البعض يرجع مبادرة السلام للسادات لخط سياسى فى حياة عبد الناصر وقد بدأه وسعى فيه للسلام مع إسرائيل عام ١٩٤٩.

وآلون - كما هو معروف - أصبح فى منتصف السبعينيات وزيراً للخارجية الإسرائيلية.

وهناك من قال إن عبد الناصر كانت له علاقة أثناء حرب فلسطين بضابط مخابرات إسرائيلى اسمه بورهان كوهين، وغير ذلك من الأقوال والاتهامات.

ولكن هناك من يرفض ما جاء به كوبلاند، ويرى أن ما كتبه عن عبد الناصر، من أنه صنيعة أمريكية، هو الأخطر، وأكثر ما انقسم الناس حوله - فيما بعد - ووصفه بعض هؤلاء بأنه لم يكن سوى محاولة لتشويه صورة عبد الناصر وإظهاره، وإظهار ضباط ثورة ٢٣ يوليو معه على أنهم كانوا صنيعة المخابرات المركزية الأمريكية.

ويرى هؤلاء أن كتاب «لعبة الأمم» الذى كتبه مايلز كوبلاند ضابط المخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط فى الخمسينيات والستينيات، هو حكم إدانة ظالم لناصر، فى الوقت الذى يقول آخرون إن ما كتبه كوبلاند هو الحقيقة!!

ففى هذا الكتاب، الذى كتبه ونشره كوبلاند بعد وفاة عبد الناصر وبالتحديد فى عام ١٩٧١، تمت أكبر محاولة لأمركة ثورة يوليو ورمزها عبد الناصر.

فقد ادعى فيه كوبلاند أن نظام وثورة عبد الناصر كان لعبة أمريكية فى «حياة الأمم»، وأن الذى قام بهذه اللعبة هو «كيرميت روزفلت» الضابط المعروف فى المخابرات المركزية الأمريكية، والذى ازدادت شهرته مع تولى «الآن دالاس» رئاسة جهاز المخابرات فى الفترة من ١٩٥٣-١٩٦١.

ويقول كوبلاند فى الكتاب أن كيرميت زار مصر قبل الثورة، والتقى الملك فاروق، وكان يخطط لثورة سلمية فى أعقاب حريق القاهرة، ولكنه تخلى عن هذه الفكرة بعدما تعرف على الضباط الأحرار، وقرر التخلى عن فكرة الثورة السلمية بقيادة فاروق، والتى كانت تهدف لإحباط وإجهاض محاولات الثورة المتكررة ضد نظام هذا الملك.

ويقول كوبلاند فى «لعبة الأمم» إنه وبدلاً من فكرة الثورة السلمية قرر كيرميت روزفلت حفيد الرئيس تيودور روزفلت الاتفاق مع جمال عبد الناصر فى مارس ١٩٥٢ على دعم ثورة الضباط الأحرار، على أن يكون الثمن هو الولاء الكامل من عبد الناصر بعد نجاح الثورة، والوقوف مع الأمريكان والأحلاف التى أرادوها فى الشرق الأوسط، لمواجهة الاتحاد السوفيتى، فى إطار الحرب الباردة التى كانت أوزارها قد بدأت تستعر فى تلك الفترة.

ولم يتوقف كوبلاند فى كتابه عند هذا الحد، فقد استشهد بعبد الناصر، وبعض قراراته

المصيرية والتاريخية، ليؤكد أن هذه القرارات، اتخذت بعد أن دفعته أمريكا بدهاء إليها، لأنها كانت تخدم مصالحهم.

وجاء استشهاد كوبلاند بعبد الناصر وقراراته الكبرى، التى صنعت شعبيته فى مجال محاولته فى كتابه لإثبات أن كثيراً من الأحداث فى العصر الحديث صنعتها الدول الكبرى، حيث يتوصل إلى أن الأجهزة الأمريكية دفعت جمال عبد الناصر إلى قرارين تاريخيين ومصيريين تريدهما أمريكا هما:

الأول: تأميم قناة السويس الذى أدى إلى العدوان الثلاثى، والذى ألهت به أمريكا الاستعمارين: الفرنسى والإنجليزى فى البلاد العربية، والذى جاء كما ذكر مايلز كوبلاند فى كتاب «لعبة الأمم» بعد أن سحبت أمريكا عرضها لتمويل السد العالى، فتوجه إلى تأميم قناة السويس، وهو الفعل الذى أرادته أمريكا، فقد ذكر مايلز كوبلاند الذى يمثل دور جمال عبدالناصر فى طاولة «لعبة الأمم» أنه قد أمم قناة السويس قبل أن يأممها جمال عبد الناصر.

الثانى: إيقاف أمريكا تمويل مصر بالقمح المجانى عام ١٩٦٧، فسحب جمال عبد الناصر البوليس الدولى الذى كان يفصل مصر عن إسرائيل، وهو الفعل الذى كان تريده أمريكا وإسرائيل، واعتبرته الأخيرة تهديداً يرقى إلى مستوى إعلان الحرب، وردت على ذلك بحرب الأيام الستة فى ٥ حزيران ١٩٦٧، وأدت تلك الحرب إلى احتلال إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية.

ومن بين من رفض ما ذكره كوبلاند فى «لعبة الأمم» كان الكاتب المصرى محمد حسنين هيكل، الذى كان مقرباً من الرئيس الراحل عبد الناصر، وأقرب المدافعين عنه بعد رحيله، وحتى يومنا هذا.

وقد انبرى هيكل للرد على ما جاء فى كتاب كوبلاند «لعبة الأمم» فى أحاديث وكتابات كثيرة آخرها كان بقناة «الجزيرة» القطرية، والتى كشف فيها عن المراسلات التى بعث بها مايلز كوبلاند لجمال عبد الناصر، وحاول - حسب ما قاله هيكل بالحرف الواحد - أن يعرض خدماته على عبد الناصر، إلا أن عبد الناصر رفضها جميعاً.

وأكد هيكل أن هناك جوانب صحيحة من كتاب لعبة الأمم مايلز كوبلاند، ولكن جميع

الأجزاء الخاصة ب لعبة الأمم التى لعبتها المخابرات المركزية الأمريكية مع عبد الناصر بدءا من أوهام تجنيده وتدبير انقالبه حتى ١٩٦٧ كلها كانت من صنع الخيال.

وإذا كان من المشاع أن هيكل هو الذى كان يكتب خطب عبد الناصر، فقد زعم كوبلاند فى كتابه غير ذلك حيث قال حرفياً:

«هل تعلمون من كان يعد الكثير من تصريحات عبد الناصر وسيل الدعاية المعادية للولايات المتحدة المتدفق من إذاعة القاهرة - أقوى وسائل الدعاية فى الشرق الأوسط - التى أزعجت الدبلوماسيين المحترفين فى وزارة خارجيتنا؟ طبعاً أنتم لا تعرفون أننا كنا نحن نعدها. ذلك لأننا كنا ندرك مثلنا مثل عبد الناصر نفسه أن قبضة العهد الجديد على البلاد تتوقف على قدرته فى الاستمرار بالعداء لأمريكا بشكل مقنع وأن ليس فى مقدور عبد الناصر المخاطرة بمجرد إبداء أى عقلانية فى مواقفه حيال سياساتنا المختلفة فى الشرق الأوسط.

ويقول: «حتى لو استطعنا تنويم عبد الناصر مغنطيسياً بحيث يطيع أوامر واشنطن دون تردد لأحجمنا عن حمله على التصرف تصرفاً نعلم مسبقاً بأنه انتحارى، لذلك ساعدناه فى دعايته المعادية لأمريكا ومن ناحية أخرى بذلنا مجهوداً كبيراً لجعل تلك الدعاية تأتى بنتائج عكسية إذ ضمناها الكثير من السخافات الواضحة مع بقائها بكامل السيطرة على إنتاجها. وذهبنا فى اتقاننا لهذه العمليات إلى استقدام بول لاينبارغر، ولعله أقوى الدعائيين السود فى التاريخ، إلى مصر لتدريب الفريق المصرى الأمريكى المسؤول عن إنتاج الدعايات المذكورة«!!

حكاية برج القاهرة
أو «وقف روزفلت»!!

من أبرز معالم العاصمة المصرية والذى يقع فى منطقة الجزيرة برج القاهرة الذى يعد تحفة معمارية بناها المصريون على شكل زهرة اللوتس الفرعونية الأصل رمزًا لحضارتهم التى هى محط أنظار سائحى العالم.

يرتفع برج القاهرة شامخًا فى سماء القاهرة بطول ١٨٧مترًا ويفوق الهرم الأكبر فى ارتفاعه بنحو ٥٠مترًا ويتكون من ١٦ طابقًا ويقف على قاعدة من أحجار الجرانيت الأسوانى التى سبق أن استخدمها المصريون القدماء فى بناء معابدهم ومقابرهم وفى هذه الأيام نلاحظ تزايد أعداد السائحين الذين يذهبون لزيارة البرج والصعود إلى سطحه الذى يطل على القاهرة بأكملها.

وتستغرق الرحلة داخل مصعد البرج للوصول الى نهايته ٤٥ ثانية لتشاهد عندما تقف على القمة بانوراما كاملة للقاهرة، الأهرامات، مبنى التليفزيون، (أبو الهول)، النيل، قلعة صلاح الدين، الأزهر تشعر وأنت تنظر فى النظارة المكبرة أنك تزور مصر كلها فى لحظة واحدة، ليس هذا فقط ولكن يمكن للأسرة العربية أن تتناول غداءها فى أحد مطاعم البرج ففى الطابق ١٤ وعلى ارتفاع ١٦٠ مترًا يوجد المطعم الدائرى والذى يدور حول نقطة ارتكاز لترى القاهرة مع عائلتك فى ذلك المطعم الذى يضم ١٩ منضدة تتسع كل منها لخمسة أفراد، أيضًا يوجد فى الطابق الـ ١٥ كافتريا علوية تستطيع أن تتناول فيها العصائر والمشروبات وأن تستمتع برؤية القاهرة من أعلى.

برج القاهرة تم بناؤه فى عام ١٩٦١ فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر وتكلف بناؤه ٦ ملايين جنيه مصرى ويقول مايلز كوبلاند فى كتابه «لعبة الأمم» أن هذه الملايين كانت «رشوة» قدمها الرئيسى الأمريكى تيودور روزفلت لعبد الناصر، بهدف التأثير على مواقفها فبنى بها ناصر البرج!!

قال كوبلاند إن كيرمت روزفلت وهو من كبار رجال الاستخبارات الأميركيين الـ «سى. آى. إيه»، وحفيد الرئيس الأميركى الأسبق فرانكلين روزفلت، الذى كان له مكانة خاصة فى تاريخ الرؤساء الاميركيين، والذى تم تعديل الدستور الاميركى من اجل التجديد له أكثر من مرتين، قد التقى كيرمت روزفلت حسن التهامى ووجد فيه ميلاً لإقامة علاقات مع الأميركيين، ففاتحه حول إمكانية أن يقدم «هدية» للرئيس عبد الناصر، وهى عبارة عن مبلغ نقدى قدره ٣ ملايين دولار، فقال له حسن التهامى: إننى إذا فاتحته بذلك أو نقلت إليه المبلغ دون «مشاورته»، فإنه قد يغضب، ويعتبرنى شريكا فى محاولة رشوته.

ويمضى كوبلاند فيقول: فطلب منه كيرمت روزفلت أن يفاتح عبد الناصر فى الأمر مسبقًا، ليرى ما هى ردود الفعل عنده، وعلى ضوء ذلك يقرر ما اذا كان ممكنًا إيصال المبلغ إليه.

ويتابع كوبلاند فى رواية ذكرياته فيقول إن التهامى أبلغ عبد الناصر بالأمر، فقال له عبد الناصر: اذهب وأتنى بالمبلغ.

وعلى سبيل الطرافة يقول كوبلاند إن التهامى «عدّ» المبلغ أمام الرئيس جمال عبد الناصر فوجده ناقصًا عشرة دولارات. فقال له عبد الناصر، اذهب وقل له إن المبلغ «ناقص ١٠ دولارات»!.

أما ماذا فعل عبد الناصر بالمبلغ- حسب رواية كوبلاند- فإنه أراد أن يبرهن للأميركيين، أنه يريد أن يقيم شاهدًا دائمًا فى القاهرة على وجوب عدم قبول الحاكم الصالح للرشوة، فأمر بان يبنى بالمبلغ برج القاهرة، الذى لا يزال قائما حتى اليوم!

والمعروف أن حسن التهامى كان قد أقصاه عبد الناصر . فيما بعد . وقد تلقفه السادات بعد أن خلف ناصر ورقاه» إلى مرتبة نائب رئيس وزراء!!

وعندما تم بناء البرج كان له اسمان فالأميركان أطلقوا عليه «شوكة عبد الناصر»، أما المصريون فقد أطلقوا عليه اسم "وقف روزفلت".

ويقول البعض إن برج القاهرة ، الذى استغرق بناؤه ٥ سنوات، واشترك؛ فى بنائه ٥٠٠ عامل، يعتبر أكبر وأطول "لا" فى التاريخ لأن الملايين لم تخدع عيون الرئيس عبد الناصر لتغيير موقفه تجاه القضايا العربية، ورفض حتى أن يخصصه للإنفاق على البنية الأساسية

فى مصر رغم احتياج البلاد وقتها لهذا المبلغ، ولكن أراد عبد الناصر أن يبنى بناءً يظل علمًا بارزًا مع الزمن يرمز للكرامة، وحتى وإن كانوا فى أشد الاحتياج رغم أن المبلغ حمله حسن التهامى- كما كشف كوبلاند فى الكتاب. الذى كان يشغل وقتها منصب مستشار رئيس الجمهورية، وجاء بالمبلغ فى حقيبة سلمها للرئيس بعد عودته من زيارة للولايات المتحدة، التى لم تكن العلاقات بها قد ساءت تحت مسمى مساعدة رؤساء الدول الصديقة، ولكن رفضها عبد الناصر!!

كوبلاند جاسوس «سى. آى. إيه» في مكتب عبد الناصر!!

ورغم مرور سنوات وسنوات على رحيل كوبلاند إلا أن العالم لا يزال ينبش فى سيرة حياة رجل المخابرات الأمريكى العتيد، ويتم بين الحين والآخر الكشف عن سر جديد من أسرار هذا العميل الأمريكى الأشهر.

وقد كشفت صحيفة "كوريير ديلا سيرا" الإيطالية فى السابع عشر من ديسمبر عام ٢٠٠٧ عن عمليات تجسس قامت بها وكالة الاستخبارات الأمريكية "سى. آى. إيه» والمخابرات الإسرائيلية "الموساد" للتجسس على رؤساء عرب من بينهم الرئيسان الراحلان جمال عبدالناصر وأنور السادات، رغم ما كانا يحظيان به من إجراءات أمنية مشددة، أو هكذا كانا يتخيلان.

ففى تقرير لها تحت عنوان «التجسس على رؤساء الدول العربية»، ذكرت الصحيفة أن الحالة النفسية للرؤساء العرب ظلت تشغل دومًا بال الـ سى. آى. إيه" و"الموساد»!!

وأضافت أن رجل المخابرات الأمريكية "مايلز كوبلاند" كان المنوط بجمع المعلومات وتسجيل الملاحظات حول صحة الرئيس عبد الناصر، حيث كان يقيم بالقاهرة كمدير لفرع إحدى الشركات الأمريكية فى حقبة الستينيات.

وأوضحت أن كوبلاند كان يذهب باستمرار إلى مكتب عبد الناصر ومنزله كأحد رجال الأعمال الأمريكيين، الساعين لتقوية العلاقات الصناعية بين مصر والولايات المتحدة، وكان يقوم فور إنهاء زيارته بإبلاغ جميع الملاحظات التى يراها على الرئيس الراحل للأطباء النفسيين التابعين لـ سى.آى. إيه".

وأشارت الصحيفة إلى أحد تقارير المخابرات الأمريكية التى أفادت أن عبد الناصر كان

يتمتع بحالة نفسية قوية رغم الضغوط الداخلية والخارجية عليه، كما أنه لا يزال يتمتع بكاريزما قوية تجذب إليه الشعب المصرى.

ونقل عن الصحيفة الإيطالية قولها: إن "سى. آى. إيه". قامت بالتجسس على الرئيس السادات بعد قيام الثورة الإيرانية خوفًا من إبرامه أى معاهدة مع قائد الثورة الإسلامية الخومينى، مشيرة إلى أن السادات كان يصاب دائما بنوبات من القلق العصبى الشديد فى الليل كما أنه كان يدخن بشراهة فى الأوقات العصيبة، استنادًا لتقارير المخابرات الأمريكية".

دريفوس يهاجم كوبلاند
فى "لعبة الشيطان" !!

وعلى أية حال ظهر فى السوق الأمريكية مؤخرًا كتاب جديد للرد على ما ذكره كوبلاند فى لعبة الأمم، الكتاب الذى لا يزال يثير، وأحيانًا يسفتز عقول وأقلام عدد كبير من المؤرخين والمفكرين والكتاب السياسيين.

الكتاب عنوانه: "لعبة الشيطان"، أما مؤلفه فهو روبرت دريفوس، وهو من أشهر المحللين السياسيين الأمريكيين، وله كتب عديدة عن المخابرات الأمريكية عن شبكات الإرهاب العالمية.

وفى هذا الكتاب، يفند دريفوس: أوهام ما يسمى بـ العلاقات الخفية والسرية بين عبدالناصر ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية".

ويؤكد الكاتب ـ فى رده على كوبلاند ـ أنه منذ أن ظهر جمال عبد الناصر على المسرح السياسى المصرى وأصبح اللاعب الأهم والرئيس فيه وأصبح هدفا رئيسيا لثلاث مخابرات هى: وكالة المخابرات الأمريكية والموساد وجهاز المخابرات البريطانية فى عهد إيدن. وأن الثلاثة حاولوا بجميع الطرق قتل عبد الناصر وإنهاء نظامه بأى صورة لخطورته الشديدة على مصالح هذه الجهات الثلاث. بل ويشير الكتاب إلى أن محاولة الأغتيال لجمال عبد الناصر والتى قامت بها جماعة الإخوان المسلمين كانت بتدبير خفى مع وكالة المخابرات الأمريكية.

فى فصل كامل تحت عنوان الحرب ضد ناصر ومصدق يكشف الكتاب عن محاولات وكالة المخابرات الأمريكية إزاحة كل من عبد الناصر فى مصر ومحمد مصدق فى إيران من السلطة. يقول الكتاب فى بداية الخمسينيات ظهر على مسرح الشرق الأوسط اثنان من الزعامات القومية فى اثنين من أقوى بلاد الشرق الأوسط وهما مصر وإيران فى مصر نجحت مجموعة من الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر فى خلع الملك الفاسد الذى كان يحكم مصر فى هذه الفترة وهو الملك فاروق وكان لذلك تأثير هائل على الأحداث فى العالم العربى

والشرق الأوسط، لأن الثورة التى قام بها عبد الناصر هددت باندلاع ثورات أخرى فى العالم العربى.

وتتيجة لمخاطر هذه الثورة ومحاولات رئيس الوزراء الإيرانى محمد مصدق تأميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية أن قررت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ال سى. آى. إيه وجهاز المخابرات البريطانية إم. آى ٦ التخطيط للتخلص من الاثنين: عبد الناصر ومصدق. وقد نجح جهازى المخابرات الأمريكى والإنجليزى فى خلع وطرد مصدق ولكنها فشلت فشلاً ذريعا مع عبد الناصر.

ويقول الكتاب إن جهازى المخابرات الأمريكى والإنجليزى قد اعتمدا بصورة أساسية على جماعة الإخوان المسلمين واستخدامها كمخلب قط فى الإطاحة بعبد الناصر. وهذا يعكس بداية لسلسلة من الأخطاء التى ارتكبتها أمريكا فى العالم العربى والإسلامى حيث إنها تلجأ للحركات الدينية الإسلامية للإطاحة بمن لا ترغب فيهم من الحكام والنتيجة أن الجن يخرج من القمقم وينقلب السحر على الساحر.

وفى إيران لجأت المخابرات الأمريكية لمجموعة من آيات الله للإطاحة بمصدق وكان هؤلاء هم القادة الروحيين لآية الله الخومينى قائد الثورة الإسلامية فى ١٩٧٩ وعدو أمريكا اللدود. كان كل من جمال عبد الناصر ومحمد مصدق انعكاسا حقيقيًا لآمال الشعوب فى مصر وإيران ولكن أمريكا ومخابراتها لم تفهم ذلك.

منذ عام ١٩٥٤ التى عزز فيها قبضته على السلطة فى مصر، وحتى ١٩٧٠ كان عبد الناصر هو القائد الأسطورى لمصر والعالم العربى، وقد ذكر أندريه مالرو أن عبد الناصر سيدخل تاريخ مصر ويصبح رمزها مثلما أصبح نابليون بالنسبة لفرنسا، وقد شيع جنازته ٥ ملايين من البشر خلاف عشرات الملايين من العرب الذين طووا أحزانهم الخاصة عليهم داخل أنفسهم.

ولكن على مدار سنوات الخمسينيات والستينيات حاولت أمريكا ومخابراتها بكل وسيلة ممكنة الإطاحة بعبد الناصر. ويقول إيد كين مدير محطة عمليات المخابرات الأمريكية فى القاهرة فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، لم يكن للمخابرات الأمريكية هم فى هذه المرحلة سوى الإطاحة بعبد الناصر.

وقد اعتمدت المخابرات الأمريكية فى تحقيق هذا الهدف على عناصر من النظام القديم من ملاك أرض وصناعيين وغيرهم من أعداء وكارهى عبد الناصر إلا أن كل هذا فشل. لقد جاءت ثورة عبد الناصرز فى وقت كان يعيش فيه العالم العربى عصر الجليد السياسى وكانت القاهرة هى العصب السياسى والاقتصادى لهذا العالم. ثم جاء عبد الناصر فأشعل هذا الجليد وخلق حالة إلهام لكل الثائرين ضد النظم.

ومن خلال راديو صوت العرب وكايرزما عبد الناصر سقطت نظم فى العراق. واشتعلت ثورات فى لبنان والأردن واتحدت سوريا مع مصر فى ١٩٥٨.

ولهذا السبب قررت ثلاث عواصم هى: لندن وواشنطن وتل أبيب تعبئة مخابراتها للإطاحة بناصر. ورغم أن عبد الناصر لم يكن شيوعيا إلا أنه مثل أنظمة أخرى فى أندونيسيا وجواتيمالا والكونغو كانوا يثيرون نزعة استقلالية ضارة بالأمريكان فى سنوات الحرب الباردة مع السوفيت. لكن عبد الناصر كان أكثر من هذا. وكان يهدد آبار البترول الضخمة فى الخليج.

ويقول أيدكين فى البداية وفى الفترة من ١٩٥٢ و١٩٥٤ كان عبد الناصر يتمتع بتأييد من الغرب، ويضيف روبرت دريفوس أنه لا يوجد ما يؤكد كلام مايلز كوبلاند ضابط ال سى. آى. إيه فى كتابه لعبة الأمم، بأن المخابرات الأمريكية جندت عبد الناصر قبل الثورة بعد أن نفضت يدها من الملك فاروق ولا يوجد فى أرشيف المخابرات الأمريكية والذى اطلعت عليه بالكامل ولا يوجد أى فرد من أفرادها عملوا فى هذه المرحلة يؤكد ما زعمه كوبلاند حول لعبة الأمم وتجنيده وتجنيد ثورة الضباط الأحرار لصالح المخابرات الأمريكية.

حتى ضابط المخابرات الأمريكية الأسبق الذى عمل فى نفس الفترة مع كوبلاند واسمه جونيل جوردون ألف كتابا مهما بعنوان حركة ناصر المباركة ذكر فيه أنه استعرض أرشيف المخابرات الأمريكية بالكامل فلم يجد ما يقدم دليلا واحدًا على الادعاءات التى ذكرها كوبلاند فى كتابه.

وبالعكس فلقد وجد جوردون أنه حتى الصلات بين السفارة الأميركية فى ذلك الوقت ٥٢. ١٩٥٤ وعبد الناصر لم تكن بالشدة التى تحدث عنها البعض وذلك لسبب بسيط هو أن الإنجليز كانوا يغلون من الغضب لأى محاولة تقارب أو اتصال بين السفارة الأمريكية والضباط الأحرار.

كان الإنجليز يدركون بعد تزايد لغة عبد الناصر الثورية مخاطرة على آبار النفط فى الخليج والعراق ولم يكن عداؤهم له خوفهم أنه سيقع فى حضن الشيوعية العالمية.

ويمضى كتاب لعبة الشيطان يقول فى بدايات ١٩٥٦ أصبح عبد الناصر مصدر قلق شديد للندن وواشنطن خوفا من أن تتحد مصر والسعودية فى دولة واحدة ويتحول الاثنان لقوة عربية هائلة. كانت مصر فى ذلك الوقت ١٠ ملايين نسمة وهى مركز القوة الاقتصادى والسياسى ولحد ما العسكرى فى المنطقة بينما السعودية ترقد على ما يقدر بـ ٢٠٠ مليار برميل من البترول.

وهكذا وبعد فترة الغزل الأولية التى اندلعت بين عبد الناصر والأمريكان ممثلين فى جون فوستر دالاس وزير الخارجية وأخوه آلان دالاس مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ٥٣ و١٩٦١ وضابطه كيرميت روزفلت تحول الأمر إلى حرب باردة انضمت فيها واشنطن إلى لندن فى مواجهة عبد الناصر.

فمنذ عام ١٩٥٣ كان أنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا يكره ناصر بشدة مع ازدياد لمعان وتكشف دوره وراء الانقلاب على فاروق فى ١٩٥٢ ولذلك قرر التخطيط لانقلاب ضده. كانت القوة الجاهزة لكى يستخدمها الإنجليز فى ذلك بعد يأسهم من الجيش هى جماعة الإخوان المسلمين والتى كان هناك متعاطفون معها داخل النظام الجديد وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب الذى استخدمه ناصر فى البداية كواجهة للحركة. وهو الأمر الذى أدركه وليم لاكلاند مدير محطة المخابرات الأمريكية فى القاهرة حيث يقول: لقد أدركنا مع مرور الوقت أن نجيب هو مجرد واجهة لناصر. إلا أن نجيب ركانت له علاقات جيدة مع الإخوان ومرشدهم حسن الهضيبى.

كان البريطانيون يأملون فى أن يندلع صراع على السلطة بين ناصر ونجيب ويدعمون فيه نجيب من خلال ضمان دعم الإخوان له ويستولون على السلطة فى النهاية. وكان يأمل الإنجليز أن علاقة عبد الناصر المتذبذبة مع الإخوان وخصوصًا بعدما أدرك أنهم يريدون استخدامه لتحويل مصر لدولة دينية أصولية وأدرك أنهم يعارضون سياسات الإصلاح الزراعى وتطوير التعليم سوف تصب فى غير مصلحته فى النهاية، وتؤدى إلى تحالف بين نجيب وبينهم فى مواجهته.

ويذكر الكاتب أن سعيد رمضان أحد قيادات الإخوان وقريب حسن البنا قال للسفير الأمريكى جيفرى كافرى فى ذلك الوقت إنه اجتمع مع الهضيبى وأن الأخير عبر عن سروره البالغ من فكره الإطاحة بعبد الناصر والضباط الأحرار. بل إن تريفور إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية عقد على الأقل اجتماعا مع حسن الهضيبى لتسيق التعاون مع نجيب للانقلاب على ناصر وهو ما كشفه عبد الناصر فيما بعد وقرر مواجهة الحركة الأصولية.

وهكذا فى عام ١٩٥٤ بدأ إيدن يطلب رأس عبد الناصر ولذلك قرر جهاز المخابرات البريطانية الخارجى إم. آى٦ القيام بمحاولة لاغتيال عبد الناصر وقام مدير هذا الجهاز فى ذلك جورج يونج بإرسال تليجراف عاجل إلى آلان دالاس مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية من خلال مدير محطتها فى لندن جيمس ايلجلبيرجر وطالب فيه بكل صراحة بالتعاون لاغتيال عبد الناصر مستخدما عبارة تصفية.

وقال إيدن فى ذلك الوقت لا أريد سماع كلام فارغ عن عزل ناصر أريد قتله هل تفهمون. ومنذ بداية ١٩٥٤ بدأت الاضطرابات تجتاح القاهرة والتوتر الشديد يسود العلاقة بين ناصر من جهة ومحمد نجيب والإخوان المسلمين من جهة ولم تكن أصابع المخابرات البريطانية والأمريكية والإسرائيلية بعيدة عن ذلك. كانت المخابرات الأمريكية والبريطانية تسجل جميع تحريات الإخوان وعلى علم واتصال بقيادتهم. وكما يقول روبرت باير مدير العمليات الخارجية السابق فى وكالة المخابرات الأمريكية قررت الوكالة الانضمام للمخابرات البريطانية فى اللجوء لفكرة استخدام الإخوان المسلمين فى مواجهة عبد الناصر.

ويقول كان البيت الأبيض على علم أولا بأول بما يجرى واعتبر الإخوان حليفا صامتا وسلاحًا سريا يمكن استخدامه ضد الشيوعية وتقرر أن تلعب أمريكا دورا فى تمويل الإخوان المسلمين للتحرك فى الانقلاب ضد عبد الناصر كان البيت الأبيض بغباء شديد يعتقد أن عبدالناصر شيوعى، وقرر البيت الأبيض أن يكون هناك تحرك ضد عبد الناصر وأن تكون جماعة الإخوان هى رأس الحربة فى ذلك ولكن بشرط ألا يكون هذا التحرك بأمر مكتوب منه وألا يتم تقديم أى تمويل أمريكى من الخزانة الأمريكية. أى بصراحة مجرد موافقة بهز الرأس ودون أن تكون مسجلة بأى صورة.

وهكذا قامت أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية بإعداد فرق الاغتيالات فى الإخوان وذلك بالتعاون مع منظمة فدائى الإسلام الإيرانية التى لعبت الدور الرئيسى فى إسقاط محمد مصدق رئيس وزراء إيران.

وقد قام وفد من جماعة فدائى الإسلام بزيارة القاهرة فعلا فى ١٩٥٤ لتنسيق التعاون مع الإخوان، وكان هذا الوفد بقيادة زعيمهم ناواب سفافاى وزاروا القاهرة فى يناير ١٩٥٤ وهو التاريخ الذى بدأ فيه التوتر يدب بين ناصر والإخوان.

لم يكن عبد الناصر يتصور أن الإخوان سيصل بهم الحال للتنسيق لاغتياله وأن يكونوا مخلب قط لأجهزة مخابرات عالمية ولذلك لم يلتفت إليهم وكان مشغولاً بصراعه ضد نجيب طوال شهرى فبراير ومارس ١٩٥٤، ولكن فى أبريل قدم عبد الناصر أول مجموعة من قيادات الإخوان للمحاكمة وتصاعدت المواجهة معهم ووصل الحال فى شهر سبتمبر ١٩٥٤ بمنع سعيد رمضان و٥ من زملائه من السفر لسوريا لتعبئة أفرعهم فى السودان وسوريا والعراق والأردن ضد عبد الناصر.

ثم جاء يوم ٢٦ أكتوبر ليشهد محاولة اغتيال عبد الناصر من قبل أحد أعضاء الإخوان ولم يكن التدبير بعيدا عن أيدى المخابرات البريطانية وعن علم المخابرات الأمريكية فقد كنت هناك لقاءات متوالية لهم مع الإخوان وكانت التعليمات من إيدن ومن البيت الأبيض وأيزنهاور أن يتم الأمر دون أن يكون هناك أى أثر على تورط بريطانى أمريكى فى تلك العملية التى استهدفت رأس عبد الناصر حسبما طلب إيدن شخصيا.

إلا أن المخابرات البريطانية والأمريكية لم يهدءا بعد فشل محاولة الاغتيال فقررا اللجوء لأساليب أخرى. قرر الاثنان تسريب أموال لمصر لرشوة طبيب عبد الناصر الخاص لتسميمه من خلال وضع سم قاتل فى بعض قطع الشيكولاته ماركة كروجى المصرية الشعبية المعروفة، وحاولوا حتى اتباع أساليب جيمس بوند من خلال إعداد علبة سجائر خاصة تقدم لعبدالناصر وبمجرد ان يشعل سيجارة منها تتحول إلى سهام من السموم. كما حاولوا وضع حبة سم فى القهوة التى يشربها عبد الناصر.

إن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وخصوصا بعد توقيع الجلاء. إلا أن المواجهة العلنية جاءت فى حرب ١٩٥٦.

ويقول مؤلف كتاب لعبة الشيطان إن بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى عدوانهم الثلاثى كان تصورهم أنه بعد الإطاحة بعبد الناصر سيكون البديل هو نظام يقف على رأسه محمد نجيب ويسانده الإخوان المسلمون وقد حاولوا فعلا الاتصال بالكولونيل نجيب. كما قامت المخابرات البريطانية من خلال ضباطها نيل ماكلين وجوليان آرى بتنظيم حركة معارضة لعبد الناصر فى جنوب فرنسا وفى سويسرا . بل طلبوا من نورمان داربشاير مدير محطة المخابرات البريطانية فى جنيف فتح اتصال مع أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الفارين إلى سويسرا بقيادة سعيد رمضان وكان المطلوب منهم الاستعداد للوقوف بجوار محمد نجيب بعد تمكينه من السلطة بعد الإطاحة بعبد الناصر والبدء بسرعة فى تشكيل حكومة فى المنفى من أجل هذا الغرض.

ولكن الكل يعرف ما حدث فقد فشل العدوان بعد أن أدانته الولايات المتحدة التى خافت من آن يحصد السوفيت مكاسب من وراء هذا العدوان علاوة على رغبة الرئيس ايزنهاور فى فتح صفحة جديدة مع عبد الناصر، إلا أن هذه الصفحة سرعان ما انطوت لأن الإخوان دالاس وزير الخارجية جون فوستر دالاس وأخاه مدير وكالة المخابرات الآن دالاس قررا العودة لنفس أساليبهما القديمة فى مواجهة عبد الناصر والقومية العربية.

ويقول مؤلف كتاب لعبة الشيطان إن مايلز كوبلاند الذى حاول تلطيخ صورة عبد الناصر من خلال كتاب لعبة الأمم كان فى هذه الفترة بعد فشل عدوان ١٩٥٦ من أشد المعجبين بعبدالناصر وقد وصفه قائلاً إنه من أكثر الزعماء شجاعة وحصانة ضد الفساد وأكثر الزعماء القوميين إنسانية فى المبادئ ويقول جون فول الخبير فى شؤون الإسلام كان من الطبيعى أن تسعى وكالة المخابرات الأمريكية ومعها المخابرات البريطانية فى دعم جماعة الإخوان المسلمين فى صراعها ضد عبد الناصر لأنها كانت البديل الوحيد له وكان من الغباء ألا يكون لهذه الأجهزة المخابراتية علاقات معهم باعتبارهم الكارت الوحيد الباقى على ساحة السياسة فى مصر فى النصف الأول من الخمسينيات.

ويختتم مؤلف كتاب لعبة الشيطان هذا الجزء من كتابه والذى جاء تحت عنوان الحرب التى شنتها المخابرات الأمريكية ضد عبد الناصر فى فترة الخمسينيات منوها إلى توجهات السياسة الخارجية الأمريكية التى مازالت ترتكب الأخطاء حتى الآن.

فبدلا من التعاون البناء مع عبد الناصر كما يقول الكتاب تعاملت معه بعجرفة شديدة ثم

انخرطت فى عمليات سرية ضده من أجل اغتياله وذبحه مستخدمه فى ذلك عناصر اليمين الإسلامى وبدعم مالى من أنظمة يعاديها.

ولم تكن الولايات المتحدة تدرى بذلك أنها تقوم بإعداد القمقم الذى سينطلق منه المارد الذى سيصوب سهامه نحوها فيما بعد.

لقد حركت أمريكا مارد الأصولية والتطرف الإسلامى ضد الزعماء الوطنيين ليس فقط فى مصر ولكن فى إيران وأندونيسيا وافغانستان وغيرها حتى انقلب عليها هذا المارد فيما بعد وهو الآن يشكل أكبر تحد لها .

كولاند على حق.. شهادة بتوقيع الرئيس محمد نجيب!!

وفى إطار العواصف التى أثارها كتاب مايلز كوبلاند، كان محمد نجيب أول رئيس لمصر بعد ١٩٥٢، قد كشف قبل وفاته عن رسالة كتبها عام ١٩٧٣ ولم تنشر أنذاك - رسالة موجهة للكاتب الصحفى المصرى الراحل إحسان عبد القدوس رئيس مجلس إدارة مؤسسة "أخبار اليوم" - آنذاك - ردا على مقال كتبه الصحافى محمد حسنين هيكل فى جريدة الأهرام.

وفى الرسالة يقول نجيب إن هيكل هاجمه بسبب حوار أجرته مجلة "الحوادث" مع الرئيس محمد نجيب وفى رسالته لإحسان يقول: "قد كتبت عن الأستاذ محمد حسنين هيكل أن له صلة بالأمريكان".

وهو يزيد الأمر توضحيًا عندما يتحدث عن تقرير رسمى عرض عليه فى هذا الشأن ويعقب على كلام هيكل قائلا: "محاولة طمس فكرة وجود تقرير المخابرات المشار إليه عن طريق القول بان عرضه على لا يستقيم مع عرضه على جمال عبد الناصر الذى كان هيكل قريبا منه".

ويشير بعد ذلك إلى تقرير مخابراتى آخر وضعه حسن التهامى أحد ضباط يوليو قائلا: "ألم يعلم - يقصد حسنين هيكل - بأه قد كُتب بعد نشر كتاب لعميل المخابرات الأمريكية مايلز كوبلاند يروى فيه قصة الثلاثة ملايين دولار التى ترتبط بأسماء معروفة محددة، وهل يعتقد الأستاذ هيكل أن هذا التقرير الذى كتبه مرؤوس يمكن أن يعتبر مستندا تاريخيا وهو بمثابة محاولة للتبرئة وصرف الأنظار سجلها الذين ارتبطت أسماؤهم بما كتبه عميل المخابرات المركزية الأمريكية؟!

والسؤال هو: هل هناك إذن مصداقية لما رواه كوبلاند فى كتابه "لعبة الأمم" أدت إلى حروب إعلامية وإصدار تقرير - وربما أكثر - لصرف الأنظار كما يبدو من سطور رسالة رئيس

مصرى سابق، وهو ما يجعل لما أورده كوبلاند في كتابه أهمية كبيرة.

لا بأس هنا من الإشارة إلى أن هيكل كان قد رد على كوبلاند نافيا فكتب كوبلاند متحديا هيكل بأن ما نشره موثق. وكوبلاند فى النهاية ليس ملاكا ولا ينبغى أخذ روايته على علاتها، لكن خطاب العداء للولايات المتحدة ولد فعليا فى مصر فى هذه الفترة وليس ثمة تفسير منطقى للظاهرة التى ما زالت تتزايد بوتيرة لا صلة لها لا بمجريات الأحداث فى المنطقة ولا بالموقف الأمريكى من إسرائيل، فالعلاقات العربية الأمريكية لا يتكون جدول أعمالها من بند واحد ولا يستطيع أى تيار سياسى أن يدعى أن القضية الفلسطينية همه الوحيد، بل إن القوميين العرب وهم الأعلى صوتا فى رفع شعار العداء المطلق للولايات المتحدة لم يجدوا حرجا فى أن يعلنوا قبل سقوط النظام العراقى أن القضية الفلسطينية تراجعت فى ترتيب أولوياتهم لتحل محلها "القضية العراقية"، ما قد يعنى أن الموقف الأمريكى المنحاز لإسرائيل مجرد «كسارة جليد» تستخدم بدهاء شديد!!.

السادات يستشهد بكوبلاند ولعبة الأمم لذبح هيكل!!

من أكثر الأمور اللافتة للنظر فى كتاب لعبة الأمم أنه قد تحول فى عالمنا العربى مع الوقت إلى "وثيقة إدانة"، يستخدمها البعض لتوثيق اتهاماته للبعض الآخر، فى نفس الوقت الذى يستخدمه البعض أيضًا لتبرئة ساحته من اتهامات يسوقها ضده البعض الآخر!!

الغريب أن استغلال الكتاب لم يكن مقصورًا على الصف الثانى من السياسيين، ولمن كان ورقة يلوح بها الزعماء والقادة كلما شعروا بحاجة إليها!!

وهنا سوف نتطرق بسرعة لعلاقة الرئيس المصرى الراحل محمد أنور السادات بهيكل، وكيف سارت بعد رحيل ناصر، حتى وصلت لدرجة يستحيل معها التعايش، وفى تلك اللحظة، أمسك السادات بكتاب لعبة الأمم ليذبح هيكل متهمًا إياه وعلى لسان كوبلاند بـ «العمالة»!!

وكان هيكل قد نجح فى علاقته مع عبد الناصر، فى حين أن السادات كان اتجاهه متناقضًا تماما مع اتجاه عبد الناصر والعهد الناصرى ورموزه رغم أنه كان واحدًا من هذا العهد، فلم يعد يحتاج إلى الكفاءات "الناصرية" القديمة، وإنما أصبح يبحث عن مجموعات شابة أخرى تتعلم فى «مدرسته» الخاصة، ويكون ولاؤها له قبل أى شىء آخر. ومن ثم وجد هيكل نفسه خارج حسابات السادات!!

بعد أن تحالف هيكل مع السادات ضد مجموعة مايو وساهم بأسلوبه فى توطيد حكم الرئيس الجديد، فإن غيومًا كثيرة بدأت تتجمع فى سماء العلاقة بين الرجلين، وخلافات عميقة بدأت تتراكم شيئًا فشيئًا حتى وصلت بالعلاقة إلى حد القطيعة النهائية.

ويعتقد هيكل أن مجموعة الخلافات التى حدثت بينه وبين الرئيس أنور السادات تنحصر أسبابها فى:

❖ اختلاف فيما قاله السادات عن سنة ١٩٧١ باعتبارها "سنة الحسم"، ولم يرها هيكل كذلك لأكثر من سبب. "وحتى إذا كانت كذلك فلم يكن ينبغى الإعلان".

❖ اختلاف فى الطريقة التى عالج بها مظاهرات الطلبة فى أواخر سنة ١٩٧١، ولم يكن يرى أن العنف هو وسيلة الحوار مع الشباب.

❖ اختلاف فى علاج موضوع الفتنة الطائفية، فقد كان السادات يرى تفجير المشكلة، أما هيكل فيراها مشكلة لا تصلح فيها ساسة الصدمات الكهربائية، وإنما لابد من علاج حذر لأسبابها وعوارضها، ولجذورها قبل الفروع.

❖ اختلاف فى موضوع الوحدة مع ليبيا، وكان هيكل من أنصارها، ويراها مختلفة عن تجربة الوحدة مع سوريا بسبب عنصر الاتصال الجغرافى والسكانى، فهى تشكل عمقا للمعركة بثلاثة آلاف ميل على شاطىء البحر الأبيض، كذلك فإن الثروة السائلة الليبية تتكامل مع الإمكانيات البشرية والطاقة الإنتاجية المصرية ـ وكان السادات يتهمه بالانحياز لمعمر القذافى وهو يعلم أنه لم يضع قدما فى ليبيا منذ سنة ١٩٧٠ حين زارها لآخر مرة فى صحبة جمال عبد الناصر.

❖ اختلاف حول الصورة الجديدة لعلاقاته مع بعض العناصر فى المملكة العربية السعودية.

❖ اختلاف حين اعتذر هيكل عن إجراء مفاوضات سرية مع كيسنجر، لأن موقفهم التفاوضى وقتها لم يكن قويًا فى تقديره، وكذلك لأن هدفه من التفاوض لم يكن واضحًا أمامه.

❖ أختلاف فى قرار السادات بنقل ثمانين صحفيًا إلى وظائف فى مصلحة الاستعلامات، وبينهم بعض أبرز أصحاب القلم (وبينهم من أسرة الأهرام أحمد بهاء الدين ويوسف إدريس ولويس عوض ومكرم محمد أحمد وزكريا نيل وأمينة شفيق، إلى جانب رئيس قسم المعلومات فى الأهرام محمد حمدى)، واعتذر عن تنفيذ القرار فيما يتعلق بالأهرام ووضع أمام السادات استقالته.

فى هذا كله، كان حريصًا على أن يظل الخلاف فى حدوده.. "فهو رئيس الدولة وصاحب القرار ـ ولى الحق أن أبدى رأيى ـ ولكنه المسئول وحده أولاً وأخيرًا".

❖ ثم جاء الخلاف الأكبر حول الإدارة السياسية لحرب أكتوبر وكان يرى نتائج الحرب تضيع

واحدة بعد واحدة، وراح يكتب رأيه بصراحة لا لبس فيها فى مجموعة مقالات امتدت من أكتوبر ١٩٧٣ إلى أول فبراير ١٩٧٤، وصدرت هذه المقالات فى مجموعة واحدة على شكل كتاب فيما بعد تحت عنوان "عند مفترق الطرق".

وفى أخر شهر ديسمبر ١٩٧٣ طلب السادات من هيكل أن يلتقيا فى نادى الرماية عند سفح الأهرامات وهناك قال له "إن مقالاتك تحدث بلبلة فى الرأى العام كله".

وكان السادات قد غضب أشد الغضب من مقال كتبه هيكل بعنوان "أسلوب التفاوض المصرى"، وقرأه فى طائرة كانت تقله إلى السعودية، وعاد من رحلته، وقد بلغت ثورته مداها.

وذكر أيضًا أنه لم يعد صحفيًا وإنما أصبح سياسياً ولابد أن يترك الصحافة إلى السياسة، وكان من رأيه أنه ليس من حق الصحفى أن يناقش القرار السياسى فتلك مسؤولية الرئاسة، وكان رأى هيكل أن حرية الصحافة فى صميمها هى مناقشة طريقة صنع القرارات إلى جانب نتائج القرار. ثم خيره بين العمل فى الوزارة (نائبا لرئيس الوزراء) أو فى الرئاسة (مستشارا للرئيس لشؤون الأمن القومى).

وكان رد هيكل: "إنه يستطيع أن يقرر أنه لم يعد يريد بقائى فى الأهرام، ولكنى وحدى أقرر ماذا أفعل بعد ذلك».

واعتبر أن هيكل يريد أن يملى عليه آراءه ويفرض تصوراته. ثم انتهيا من مشادة حامية وقد ترك له "الفرصة للتفكير".

هذه مجموعة أسباب الاختلاف التى أوردها هيكل. بقى أنه يمكن لنا إضافة مجموعة من الأسباب الأخرى المتعلقة برؤية السادات للعلاقة.

بدأ الرئيس أنور السادات مبكرًا فى التخلص من حلفائه الذين ساندوه فى توطيد حكمه، وضرب مجموعة مايو، حيث لم تمر سنة على الأحداث حتى قام بإزاحة الفريق محمد صادق من قيادة القوات المسلحة، وهو أهم شريك له فى انتصاره فى صراع مايو ١٩٧١، كما وجد اللواء الليثى ناصف، القائد السابق للحرس الجمهورى والذى اعتقل مجموعة مايو، منتحرًا فى شقته فى لندن، حيث ألقى بنفسه من النافذة فى ظروف غامضة، كما سجن حليف السادات محمد عبد السلام الزيات.

وكان طبيعيًا أن يصل الدور إلى محمد حسنين هيكل، فالسادات اتبع خطة ذكية، وهى التخلص من الذين ساعدوه فى إقامة حكمه حتى لا يمنون عليه فى أى يوم من الأيام بأنهم شركاؤه، وحتى لا يمارسون صلاحياتهم القوية التى استمدوها من أدوارهم فى أحداث مايو ١٩٧١.

ومهما حاول هيكل أن يتفادى الصراع، فإن الصدام كان سيحدث حتمًا لأن السادات لم يكن فى حاجة إلى شركاء فى السلطة.. وكان يسير منذ البداية نحو الانفراد بكل شىء.

واجه هيكل الحملة الشرسة التى شنت عليه فى الصحافة المصرية بهدوء كبير، متفاديًا كل رد فعل متشنج، ومحافظًا على بعض الجسور بينه وبين الرئيس أنور السادات.

وهو ما جعل الحملة الموجهة ضده تتوقف فى أواخر سنة ١٩٧٤ والنصف الأول من ١٩٧٥، وعادت الصلات بينه وبين الرئيس و"أمسك الآخرون أعصابهم".

ففى خريف ١٩٧٤، اتصل به السادات فجأة وبغير مقدمات له أنه يريد أن يراه، وحدد له موعدًا ثم قال "..... لقد ابتعدنا ستة شهور لم نلتق فيها، وكان لى موقف من بعض ما حدث، وكان لك موقف، فاذا سمحت لى بمكان ومكانة الصديق فإننى أستطيع أن أعود للتعرف على مجرى الأحداث وقد نستطيع أن نصل إلى تفاهم أعمق". وكان الرئيس ودودًا فى قبوله رأيه. وهكذا عاد إلى الاقتراب منه وأصبح يراه بانتظام ويتحدثان فى كل شىء.

وفى تلك الفترة تابع عن قرب محادثاته مع "هنرى كيسنجر" فى أسوان، وكانت المحاولة الأولى فى المرحلة الثانية من فك الاشتباك، ولم تنجح ويتصور هيكل أن مناقشاته مع السادات فى مخاطر ما كانت تعرضه إسرائيل فى ذلك الوقت كان لها أثر فى موقفه، وكان رأيه أنه أقوى بغير اتفاق منه باتفاق سىء، وتفهم الرئيس رؤيته وتقبلها.

كما تولى كتابة خطابه فى مجلس الشعب الذى شرح فيه أسباب فضل الاتفاق.

وقدم له فى إطار مشروع هذا الخطاب اقتراح فتح قناة السويس بقرار مصرى وإرادة مصرية، وكان يتصور أن ذلك يقلل من تلهفة على الوصول إلى اتفاق، فقد كان يريد دخل قناة السويس ودخل بترول سيناء.

وقال له هيكل: «بهذا الاقتراح تستطيع بغير اتفاق أن تحصل على نصف ما تريد دون حاجة إلى شروط مجحفة».

وقبل رايه كاملاً، وحيث رأى أثر فتح قناة السويس على العالم كله كان بالغ السعادة، وكانا يلتقيان كل يوم.

ثم كتب خطابه أمام مجلس الشعب عن إعادة تنظيم العمل الداخلي، وكان يريد إسناد رئاسة الوزارة لممدوح سالم".

ومما يدل على أنه مازال قريبًا من الرئيس، ومازال موضعًا للثقة، أن الرئيس السادات قام وطلبه للقاء فى "استراحة القناطر" مساء يوم ١١ أبريل ١٩٧٥، وهناك عرض عليه منصب نائب رئيس الوزارة للإعلام فى وزارة ممدوح سالم التى كان يجروى تشكيلها فى ذلك الوقت... ووجد أنه مناسب ولائق أن يذهب إلى الرئيس ظهر يوم ١٤ أبريل ليرجوه نهائيًا إعفاءه من قبول هذا المنصب لعدة أسباب... وتصور السادات أنه لا يريد العمل فى الوزارة فعرض عليه أن يكون مديرآ لمكتب رئيس الجمهورية بدرجة نائب رئيس الوزراء، ومرة أخرى اعتذر.

لكن لم يستطع هيكل أن يبقى على علاقة جيدة مع السادات، فأصبحت علاقتهما تزداد توترًا كل يوم.

وعندما ظهر كتاب هيكل "الطرق إلى رمضان" اعتبر السادات أن الكتاب لم يعطه حقه وكان هذا حكمًا بناه على بعض ما نشرته الصحف من أجزاء الكتاب.

وبعد نشره فى لندن فى شهر مايو ١٩٧٥، شنت عليه الصحف المصرية حملة عنيفة وكان ذلك بمقولة أن هيكل زيف التاريخ، وذلك بعد أن اتهمه الرئيس السادات فى كل خطبه بهذه التهمة، ثم اتهمه السادات، وبإيعاز منه - فيما بعد - هذه الصحف بـ "العمالة للمخابرات المركزية الأمريكية "سى. آى. إيه" مستشهدًا" بما كتبه "مايلز كوبلاند" فى كتابه "لعبة الأمم"!!

ويعتقد الباحثون الأكاديميون بأن مَا قاله كل من الرئيس المصرى الراحل محمد نجيب والرئيس السوفيتى الراحل نيكيتا خروتشوف كان تصديقًا على ما قاله مايلز كوبلاند من ناحية، وما قاله السادات مستشهدًا بكوبلاند من ناحية أخرى!!

فقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة أجنبية "أمريكا" فى كتابه (كلمتى للتاريخ).. كما اتهمه مايلز كوبلاند بالعمالة المخلصة.. كما اتهمه خروتشوف بالتهمة نفسها، وذكره بالمبالغ والشيكات التى تسلمها من وكالة المخابرات المركزية فى اجتماع كان يعقد فى

موسكو أمام جمال عبد الناصر، مما اضطر هيكل إلى ان يقفل راجعًا إلى مصر فى اليوم الثانى من الرحلة!!

وفى حوار أجرته مجلة «الحوادث» اللبنانية مع اللواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر إثر سقوط النظام الملكى عام ١٩٥٢، والذى أبعد عن الحكم عام ١٩٥٤، من قبل عبدالناصر: أنه رفض أن يقابل محمد حسنين هيكل أربع مرات لأن معلومات زوَّده بها جهاز الاستخبارات المصرية تقول بأن هيكل هو عميل لدوائر المخابرات!!

لعل أبرز ما يمكن أن يهتم به الباحثون والدارسون مسألة التهم التى وجهت إلى هيكل حول ارتباطه بالمخابرات المركزية الأمريكية، ويرون أنه لم يدافع عنها دفاعًا قويًا! ويقولون إنه كان عليه أن يكون أقوى مما بد عليه، ويتساءلون: لمذا يهرب من وجه خروتشوف مثلاً؟.... ولماذا لم يذكر قيمة الاجور التى تسلمها من الصحف الأمريكية لقاء نشر مقالاته فيها؟.. ويقولون إن الأمر الملفت للنظر، أن هذه التهم التى حبكها خصومه ضده.. لا تختلف فى شىء من الأشياء عن التهم التى كان قد نسجها هو نفسه ضد كل من أساتذته فى المهنة: على أمين ومصطفى أمين!!

مصطفى أمين من سجنه لناصر اتصلت بكوبلاند بناء على طلبك!!

تناول كوبلاند فى كتابه الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين كأحد من كان يتقابل معهم من المقربين من عبد الناصر. ورغم أن الكاتب الكبير أقام علاقته بكوبلاند ومسئولين وسياسيين أمريكيين بإيعاز من ناصر، إلا أن الأخير اعتقل أمين فجأة بتهمة "التخابر مع الأمريكان" وورد اسم كوبلاند من بينهم.

وقد دافع أمين فى معتقله عن التهمة، وتناول فى التماس لعبد الناصر كوبلاند.. وها هى القصة التى رواها الكاتب فى رسالة التماسه. بعد أن ورد اسم كوبلاند من بين من وردت أسماؤهم من الأمريكيين كذريعة لاعتقال عبد الناصر، للراحل مصطفى أمين، ودافع الكاتب الكبير عن نفسه فى رسالة كتبها داخل السجن بعد إلقاء القبض عليه بتهمة التخابر مع أمريكا، وجهها إلى جمال عبد الناصر، ويذكره بكل ما دار بينهما قبل القبض عليه، مؤكدا علم عبد لناصر بكل التفصيل عن لقاءات مصطفى أمين بضباط المخابرات الأمريكية وخاصة مايلز كوبلاند، وأن هذه اللقاءات كان متفقا عليها مع عبد الناصر للحصول على معلومات محددة من جانب، وتوصيل معلومات محددة لأمريكا من جانب آخر!!

وكان أول من نشر نص هذه الرسالة هو الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور أحد تلامذة أمين فى كتابه "عبد الناصر المفترَى عليه والمفترِى علينا"، وحمل غلاف طبعته الأولى عام ١٩٨٨ إشارة إلى أنه يتضمن "خطاب مصطفى أمين إلى الرئيس عبد الناصر" حيث اتهم أمين بالتخابر مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن المؤبد ثم أفرج الرئيس السابق أنور السادات عن أمين "صحيا" عام ١٩٧٤. وكان صورة الغلاف تحمل فى أعلاها أقلاما تنزف دماء أو حبرًا على وجه عبد الناصر وهو جالس فوق كرسى يحمله عرايا مذعورون نحيلو الأجساد منكسو الرؤوس. أما غلاف الطبعة الجديدة عن دار نهضة مصر فيصور عبد الناصر فى حالة غضب تعبر عنه قبضته الحديدية.

وتضمن الكتاب رسالة مطولة هى مذكرة تحمل شعار وزارة العدل بتاريخ الخامس من أغسطس آب ١٩٦٥ مرفوعه إلى عبد الناصر من "المتهم" امين يشرح فيها أنه كان يتصور قدرته على انتزاع معلومات مهمة للبلاد "ولقد سبق أننى جئت إليك بأكبر الأسرار وأخطرها مستفيدا من صلاتى العديدة بالأمريكيين من رجال السفارة الأمريكية والمخابرات الأمريكية ولقد هيأ لى الوهم أننى حر فى التحرك ما دمت قد نلت منك الإذن فى الاستمرار فى اتصالاتى" مضيفا أنه أساء إلى عبد الناصر بحسن نية حين نسب إليه كلاماً "بغير استئذانك وبغير علمك" فى تلك اللقاءات.

كما يشير أمين فى "هذا الإقرار والالتماس المكون من ستين صفحة" إلى أن المقابلات مع رجال السفارة الأمريكية تمت بموافقة السلطات المصرية وبعضها كان بحضور أشخاص منهم الكاتب محمد حسنين هيكل. ويضيف أن عبد الناصر وافق "على أن أؤلف داخل (مؤسسة) أخبار اليوم جهازا لجمع المعلومات" مؤلفا من صحفيى المؤسسة وأن هذا الجهاز كان موضع رضا عبد الناصر ولم يتوقف عمله حتى بعد تأميم الصحافة عام ١٩٦٠ حيث أوفد عددا منهم "فى مهمات فى سوريا أثناء الوحدة وفى العراق وفى الأردن وفى غيرها ... وكنت أتحدث إلى سيادتكم يوميا تقريبا وأبلغكم أولا بأول بكل جديد .... ولم يكن أحد من أعضاء هذا الجهاز يعلم أنه عضو فى جهاز سرى لجمع المعلومات".

ويقول الكاتب الراحل فى رسالته لعبد الناصر:

"ذات يوم فى أثناء ثورة لبنان فى النصف الثانى من سنة ١٩٥٨، علمت من السفير الأمريكى بالقاهرة «هير» أنه تلقى رسالة من وزير خارجية أمريكا يطلب إليه أن يقدم إنذارا إلى الرئيس جمال عبد الناصر بأن الأسطول الأمريكى سيضرب فينا إذا اعتدى على الجنود الأمريكيين الذين نزلوا فى لبنان، وأنه لم يتقرر بعد الموعد الذى يقدم فيه الإنذار رسميا.

ولم تكن سيادتكم موجودين فى القاهرة، فأسرعت وذهبت بعد منتصف الليل إلى منزل السيد على صبرى بمصر الجديدة، وأبلغته بما سمعنا من هير. فقال على صبرى: إن الأمر خطير جدا ولا يمكن أن نسكت على هذا، وأصر على استدعاء هير وإيقاظه من نومه وذهبه إليه فى قصر القبة، وتم اللقاء بينهما وأبلغه على صبرى بأن الجمهورية العربية سترفض هذا الانذار إذا وجه إليها. وكانت قد وصلت إلى المخابرات الأمريكية فى بيروت بأن الجمهورية العربية أصدرت قرارا سريا بأن يغتال عدد من رجال الأسطول الأمريكى فى لبنان.

وفى هذه الأثناء، قامت أخبار اليوم بحملة عنيفة جدا ضد الشيوعية وتعرضت أخبار اليوم للاتهام فى كثير من الدوائر بأن هذه الحملة موعز بها من أمريكا.

وتعلمون سيادتكم بأنكم الذين أمرتمونى بهذه الحملة، وأنكم الذين طلبتم منى طبع كتاب "المحن" وهى الكراسة الحمراء التى دفعت الحكومة المصرية نفقات طبعها وأن جميع هذه الحملة كنت أستشير سيادتكم فيها وذلك فى أثناء تنظيم حملتنا على الشيوعية بعد خطاب سيادتكم فى دمشق، وكذلك الحملة التى قامت بها أخبار اليوم عن مذابح الموصل بعد ثورة الشواف.

وقد سافرت بعد ذلك إلى أمريكا فى مهمة أوفدتمونى سيادتكم فيها وقد عرضت على سيادتكمم بعد عودتى كل خطواتى ومقابلاتى واجتماعاتى وقد وفقت فيها بأن أحصل للصحافة المصرية على ورق بمليون جنيه مجانا من أمريكا، وتولى مستر هير السفير الأمريكى فى القاهرة إبلاغ سيادتكم ذلك بنفسه.

وكنت على اتصال يومى بسيادتكم، وكنت أبلغكم تفصيليًا بكل مقابلاتى مع الرجال الأمريكيين الذين اتصلت بهم، وكل ما كانت أحصل عليه من أنباء ومعلومات وأسرار بحيث كنا نعرف أولا بأول كل الأنباء التى يهمنا أن نعلم بها سواء ما يجرى فى أمريكا أو يجرى فى المنطقة العربية.

وكنتم سيادتكم تطلبون منى الاستفسار عن مسائل معينة أو إبلاغهم مسائل معينة.

وكان الأستاذ سامى شرف يتصل بى ويطلب منى أن أحصل على معلومات معينة من أصدقائى الأمريكيين، وأعتقد أننى كنت أحصل على بيانات تهم بلادى فى فترات عصيبة مختلفة.

وحدث بعد تعيين الأستاذ خالد محيى الدين رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم أن قررت إيقاف اتصالى بأى أمريكى وسألت الاستاذ سامى شرف فطلب إلى الاستمرار كما أنا.

هذه هى مجمل الأحاديث التى دارت تقريبا، ويمكن تلخيص علاقاتى مع الأمريكيين" بأن علاقتى الشخصية كانت طيبة دائما بالسفراء الأمريكيين فى مصر، ورجال السفارة الأمريكية، وكان هدفى الوحيد دائما من هذه العلاقات، فى ذلك الوقت وفيما بعد، خدمة بلادى.

واستمر الحال هكذا بعد أن جاء إلى مصر مستر بروس أوديل الذى بدأ طريقته فى المناقشات مثل طريقة سيدل، ثم حدث فى الشهور الثلاثة الأخيرة أن أصبح يوجه إلى أسئلة محددة، ويشير إشارات جعلنى أشعر صراحة بأنه يعمل فى المخابرات الأمريكية، فقد حدث أن سألته عن عنوان بيته فى الإسكندرية فرفض، وطلب منى عدم التردد على منزله فى الإسكندرية، كما طلب منمى عندما اتصل بمنزله وقت غيابه فى أثينا أن لا أذكر اسمى كاملا، بل أذكر اسم مصطفى فقط، كما طلب أيضا أنه يريد أن تكون مقابلاته لى فى الإسكندرية غير ملحوظة لأحد، وكان عندما يريد إبلاغ توجيهات من الحكومة الأمريكية للرئيس جمال عبدالناصر يطلب أن أبلغها للرئيس بطريقة كأنها صادرة منى وبدون الإشارة إليه أو ذكر اسمه.

وبهذه المناسبة أذكر أنه طلب ما يأتى منى أن أبلغ الرئيس جمال عبدالناصر بهذا الأسلوب ما يأتى:

١- أن الحكومة الأمريكية قررت ألا تدفع لمصر سنتا واحدا من المعونة إلا اذا سحبت كل قواتها من اليمن، وإلا إذا توقفت عن مساعدة الكونغو، وإلا اذا هادنت إسرائل.

ولم أبلغ سيادتكم هذا التهديد، ثم عاد وسألنى: هل أبلغت الرئيس بما قلته؟ فكذبت عليه وقلت: نعم.

٢- أن الحكومة الأمريكية قررت انتهاج سياسة القوة والحزم، قاصدا من ذلك تخويف الرئيس جمال عبد الناصر وإجباره على اتباع السياسة التى تتلاءم مع سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة.

ولم أبلغ سيادتكم هذا التهديد، ثم عاد وسألنى فى الأسبوع التالى: وسألنى هل أبلغت الرئيس بما قلته لك فكذبت عليه وقلت: نعم.

٣- إشعار الرئيس جمال عبد الناصر دائما بأن شخصية جونسون عنيدة غير مرنة، ويتجه إلى الاندفاع واستعمال القوة لتنفيذ رغباته.

ولم أبلغ سيادتكم بهذا التهديد، ثم عاد وسألنى فى الأسبوع التالى: هل أبلغت ما قلته لك للرئيس عبدالناصر، فكذبت عليه وقلت له: إننى تحدثت تليفونيا مع سيادتكم وأبلغتكم كل ما قاله فى هذا الشأن، ولم أرسل لسيادتكم الكتاب كما طلب منى.

٤- محاولة الوقيعة بين مصر والاتحاد السوفيتى: فقد أعطانى عدة مرات مقالات نشرت فى صحف شيوعية وسوفيتية، فيها ما يمس مصر وطلب منى إرسالها للرئيس جمال عبدالناصر، وكان المقصود بهذا: الوقيعة بين مصر والكتلة الشرقية.

٥- محاولة الإيقاع بين مصر المالى: فقد طلب منى أن أبلغ سيادتكم بأن قررت ألا تعتمد قروضها لمصر إذا ثبت لها أن الولايات المتحدة لن تستأنف إرسال المعونة.

ولم أبلغ سيادتكم هذا الخبر، وسألنى بروس بعد ذلك باسبوع فكذبت عليه وقلت: نعم أبلغت الرئيس.

وتنحصر باقى أهدافهم علاوة على إيصال هذه التوجيهات إلى سيادتكم فى الحصول على معلومات بعضها سياسى، وبعضها عسكرى وبعضها اقتصادى.

وقد كنت أرد على أسئلة بروس بإجابات مضللة وغير صحيحة فى رأيى، ولأضفى عليها صفة الأهمية كنت أنسبها أو بعضها إلى أحاديث مزعومة مع سيادتكم ، وإلى بعض المسئولين المهمين.

وكانت إجاباتى عن الأسئلة كلها توهمه بأن مصر فى حالة سيئة، وأنه على وشك أن يحدث فيها انقلاب شيوعى ضد الرئيس جمال عبدالناصر، وأنه قلق، وأن هناك خلايا سرية فى الجيش وأنه لو أصيب عبدالناصر فى حادث اغتيال فسوف يحدث فى مصر انقلاب شيوعى وتعم الشيوعية فى المنطقة كلها، وإننى أرغب فى الحصول على إجازة طويلة: حتى لا أتعرض لأخطار الشيوعية فى حالة حدوث انقلاب شيوعى.

إن هذا التصرف من جانبى، دون توجيهات من سيادتكم كان خطأ، وإننى أعترف بخطئى، إلا أن دافعى فى هذا أن أستدرجه: لأحصل على أكبر قسط من المعلومات مما يفيد البلاد، ولا أمكنه من الوصول إلى أهدافه.

بقى موضوع آخر أحب أن أوضحه على حقيقته بصراحة تامة، مهما كان يتضمن من أخطاء، وهو العلاقات المالية مع الأمريكيين: فقد حدث أن قال لى بروس أنه لو أراد أن يكون مليونيرا لاستطاع ذلك، فإن كثيرين من الدبلوماسيين يعملون فى التهريب ويربحون أرباحا طائلة.

وبعد ذلك طلبت إليه أن يأخذ خمسة آلاف جنيه مصرى ويحولها إلى لندن فقال إنه لا يستطيع ان يفعل ذلك: لأن تعليمات السفير مشددة فى عدم (.........)، ولكن يمكن أن يحولها لى بصفته الشخصية بواسطة صديق له (..........) يجب أن تحول أولا إلى ليرات ثم بعد ذلك إلى جنيهات استرلينية، نظير عمولة بسيطة، وأن يتم البيع فى السوق السوداء.

وفى حديث آخر، عدت إلى مناقشة هذا الموضوع معه، وأشعرنى أولا أنه لا يستطيع أن يجزم بأن فى مقدوره أن يقوم هو بهذا العمل، بل يجب عليه أن يسأل أولا عن إمكانية ذلك.

وبعد ذلك، أفهمنى أنه يستطيع تنفيذ ما أطلبه منه.

وعليه، سلمته خمسة آلاف جنيه مصرى فى شهر مايو، وطلبت منه أن يودع المبلغ فى بنك ميلالاند فى لندن، وأبلغنى بعد ذلك بثلاثة أسابيع تقريبا أنه قد تم إيداعها فعلا فى البنك المشار إليه فى لندن.

ثم بعد ذلك سلمته خمس عشرة ألف جنيه على دفعتين، دفعة عشرة، ودفعة خمسة، واتفقنا على أن يحولها إلى بيروت، إلى ليرات لبنانية ثم دولارات، ويفتح حسابا لى باسمى فى بنك؛ فى بيروت.

وقد أفادنى بأنه باع هذا المبلغ فعلا فى السوق السوداء، إلا أنه قد باع المبلغ بسعر زهيد: بسبب إغراق سوق بيروت بالجنيهات المصرية، حسب ما ذكر لى، نتيجة المؤتمر الفلسطينى بالقاهرة.

وكان المفروض أن يبلغنى يوم القبض على اسم البنك الذى أودع فيه فى بيروت المبلغ، ولكن عملية القبض حدثت قبل ذلك.

وعندما تقرر سفر أخى على أمين مندوبا متجولا فى أوربا، مركزه لندن، رأيت أن ما يفيده: أن يكون له اتصالات باكبر عدد من الدوائر فيها، خلاف الدوائر البريطانية، واعتقدت أن على أمين يستفيد صحفيا من أن تكون له علاقات طيبة مع السفارة الأمريكية في لندن باعتبارها مركز أخبار هام، نظرا لنفوذ أمريكا فى أوربا.

وفى مقابلة لى مع بروس فى أوائل شهر مايو من هذا العام أخبرته بالموعد الذى سيسافر ء على إلى الندن، وأنه تقابل مع الملحق الصحفى البريطانى لوجود شخص يمكن أن تتحدث

معه الحكومة البريطانية: إذ أنهم لا يرتاحون للاتصال مع السفارة المصرية هناك، وأنه سيتقابل مع السفير البريطانى بعد ذلك.

وقد سألنى بروس فى هذه المقابلة إن كان يعرف على أمين حقيقة عمل بروس وجماعته، وهل سبق له أن اتصل بأحد من المخابرات الأمريكية، وسألنى إن كان على أمين يعرف اسم بروس وإن كان لم يقابله ، فأجبته بالنفى.

وقد سألنى بروس: هل يقبل على أمين أن يتصل بالمخابرات الأمريكية؟

فقلت إن على أمين يرحب بالاتصال بهم كصحفى.

وفى مقابلة أخرى مع بروس أخبرته أن على أمين تقابل فعلا مع السفير البريطانى بالقاهرة، وتكلم عن موضوع التعويضات البريطانية كإحدى المشكلات القائمة بين البلدين. ثم فى المقابلة التالية بعد ذلك باسبوع، ذكرت لبروس على لسان سيادتكم أنكم قلتم لعلى أمين فى المقابلة التى تمت معكم أنك تعتبر على أمين السفير فى لندن، وأنك أمرته بأن يبعث رسائل يقوم بإرسالها عن طريق السفير باسمكم مباشرة، إذا كانت على مستوى عال من السرية، أو باسم سامى شرف بالنسبة للرسائل الأخرى، على أن تكون كلها فى مظاريف مغلقة ومختومة، وهى غير الطريقة المتفق عليها كما تعلمون سيادتكم.

وقد تقابلت مع بروس بعد ذلك فوجدته يسألنى عن إمكانية مقابلة على خارج لندن فأجبته بأن ذلك ممكن، فقال إنهم يخشون أن تحس المخابرات الإنجليزية بمقابلاتنا مع على أمين، فاقترحت عليه أن يقول للشخص الذى سيقابله إنه من طرفى، وإن مصطفى قال إننا تقابلنا خارج لندن إذا حصلت على دعوة والتذاكر وقد سألنى هل ناقشت هذا الموضوع مع على أمين قبل سفره وأنه من الممكن ان يتقابل مع أحد رجال المخابرات الأمريكية؟ فأفدته بالإيجاب، ولكن الحقيقة يا سيادة الرئيس أننى لم أفاتح على أمين فى هذا الموضوع.

وحدث فى هذه المقابلة أن تحدثنا عن إمكانية التعرف بعلى أمين فى لندن، فاقترحت أن يتصل به رجلهم تليفونيا، فإذا به يرفض ذلك بشدة، معللا أن هذا سوف يثير شكوك المخابرات الإنجليزية. وفى الأسبوع التالى، سألنى بروس إذا كنت أذكر شخصا كان فى القاهرة سنة ١٩٤٤ اسمه ارشيليد روزفلت فقلت له نعم، فقال بروس إنه يعرفنى وشقيقى على، وذكر أن أرشى هو رجلهم فى لندن، وتساءل إذا كان على سوف يذكره فأفدته أن أعرف

روزفلت وأنه صديقى، ولكن لا أعرف إذا كان على سوف يذكره، فاقترح أن أكتب خطابا يوصله أرشى إلى على حتى يتم التعارف أو يتذكره.

وذكر فى هذه المحادثة أن المخابرات الامريكية ليست واثقة إن كان الإنجليز يعرفون حقيقة عمل أرش روزفلت. وأنه على أى حال، يجب أن لا تلفت مقابلاته مع على أمين أنظار المخابرات الإنجليزية.

وذكرت له أن على أمين سوف يكون شخصية مهمة فى لندن، وأنه سيقوم بكثير من الاتصالات الهامة.

وتكلمنا فى الخطاب الذى أرسله الى أرشى، وفعلا كتبت الخطاب وذكرت فيه ان الذى يحمل هذه إليه هو الصلة ، وأنه يمكنه الاعتماد عليه، كما اعتمدنا على ابن عمه فى كل ما يريد، وذكرت فى الخطاب خروج السيد عين من الصحافة، وأن هذا سوف يتأخر إلى آخر شهر سبتمبر تقريبا بعد التغييرات المرتقبة فى الاتحاد الاشتراكى، وأن الرئيس جمال عبدالناصر سوف يسافر الجزائر فى آخر هذا الشهر، ثم يسافر بعد ذلك إلى يوغوسلافيا، وأننى لا أتوقع حدوث أى تغيرات فى الصحافة قبل ذلك الوقت، كما أننى علمت من الصحفى الأستاذ السعدنى أنه أصبح عمدة لندن "المقصود على أمين" وأنه أصبح معروفا، وذكرت له رأيى فى كتاباته الأخيرة.

كان هذا الخطاب بتاريخ ٦٥/٦/١٦ ومحررا باللغة العربية وسلمته إلى بروس ليرسله بدوره إلى أرشى روزفلت.

حدث بعد ذلك فى المقابلة التالية، أن ذكر لى بروس أنه تلقى رسالة يسألونه فيها إن كان على أمين قد وصل إلى لندن من عدمه وانه رد عليها بأنه وصل فعلا، وأن عنوانه فندق هيلتون فى لندن.

وفى مقابلة لى مع بروس فى آخر شهر يونيو أخبرته بأن على أمين اتصل بى تليفونيا يوم الأحد السابق وانه لم ير ارشى روزفلت بعد، وسألت على إن كان قد تلقى خطابى فأفاد بالنفى، وقد قال لى بروس: لا تندهش من هذا، فأنا أرسلت الخطاب ويجب أن يمر على ست جهات مختلفة قبل أن يصل إلى ارش.

وفى المقابلة التى تلت ذلك فى ٧/٧ ذكر لى بروس خلال مقابلتى معه أنه لا يستطيع ان يؤكد إن كان أرش قد تقابل مع على أو لا حتى ذلك التاريخ .

واحب ان اذكر سيادتكم أننى كنت دائما على اتصال بالأمريكيين، ومنهم من يعملون فى المخابرات الأمريكية، وأن هذا تم بعلم سيادتكم، وأن مهمتى التى وافقتم عليها عدة مرات، ووافقتم على أن اقوم بها، هى أن أحاول أن أحصل على معلومات، وأن أفهم سياستهم نحونا، وأن أحصل على برقيات سرية منهم بالطريقة التى أراها .

وفى الوقت نفسه وافقتم سيادتكم على أن أولف داخل أخبار اليوم جهازا لجمع المعلومات، وقد قدم هذا الجهاز لسيادتكم معلومات كثيرة ومتعددة، وفى كثير من النواحى، كانت موضع رضا سيادتكم، وانه بعد إتمام تنظيم الصحافة سألت سيادتكم: هل أستمر فى القيام بهذه العملية، فأجبتم بالإيجاب. ثم حدث ان سألتكم مرة أخرى بعد أن عينت رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم: هل أستمر فى هذه العملية أم لا، فأمرتمونى سيادتكم بأن استمر فيها .

ولقد كان هذا الجهاز مؤلفا من مخبرى أخبار اليوم، ولقد حدث فى أكثر من مرة أن وافقتم سيادتكم على إيفاد عدد مهم فى مهمات فى سوريا أثناء الوحدة وفى العراق وفى الأردن وفى غيرها، وقد كنت أرسل لسيادتكم تقاريرهم الهامة، وكثيرا ما تفضلتم سيادتكم وأبديتم رضاءكم عن عملية جمع المعلومات التى يقوم بها هذا الجهاز، وكنت أحاول باستمرار أن أجعل سيادتكم على علم تام بما يدور، وما نصل عليه من أنباء وكنت أتحدث إلى سيادتكم يوميا تقريبا، وأبلغكم أولا بأول بكل جديد .

ثم حدث بعد ذلك أن انقطع اتصال التليفون اليومى بسيادتكم، ومع ذلك فقد حدث أكثر من مرة أن اتصل بى الأستاذ سامى شرف، وسأل عن معلومات وطلب جمعها وأذكر على سبيل المثال مسألة إضراب سائقى التاكسى.

وعندما كنت أتحدث مع سيادتكم عن هذا الجهاز، والأخبار التى حصل عليها سواء فى مصر أو خارجها، كنت أشعر باستمرار أن سيادتكم لا تعارضون فى هذه العملية بل على العكس تؤيدون وترحبون بها .

وفى أثناء مقابلاتى مع الأمريكيين، وبعضهم يعمل فى مخابراتهم، كنت أستفيد من مناقشاتى بهذه المعلومات: لأصحح الصورة الخاطئة لديهم: أو لإقناعهم بأننى فى بعض

الأحيان أدس عليهم معلومات صحيحة، وسط المعلومات غير الصحيحة: حتى لا يفقدوا الثقة فيَّ.

وفى مجلس الأمة اعتمدت على تقارير قدمها أحمد نجم عضو مجلس الأمة والذى عينه الأستاذ خالد محيى الدين لتغطية أخبار اللجان فى المجلس بمكافأة شهرية قدرها أربعون جنيها، والأستاذ أحمد يونس عضو مجلس الأمة وشقيق الأستاذ اسماعيل يونس المحرر بأخبار اليوم، ومما أذكره لهذه المناسبة أنه لما طلب منى بروس نص حديث سيادتكم فى مجلس الأمة، كان عندى هذا الحديث عن طريقهما: نجم ويونس، إلا أننى لم أسلمه إليه كما يظهر ذلك فى التقاير المضبوطة.

وأمدنى (.........) مندوب أخبار اليوم فى الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة بخبر عن الجزائر، ذكر أنه استفاده من برقية بالشفرة، وأعلم تماما أن هذه البرقية غير صحيحة.

ففى يوم ٢٦ مايو قلت لبروس: إن عندى ورقا فى حقيبة، وإن عددها حقيبتان، وسألته هل من الممكن أن أرسلهما إلى بيروت فأمهلنى حتى يأخذ الرد، وقال إنه سيسأل جماعته إذا كان فى الإمكان نقلها وقلت له: إننى أريد أن أرسلها لأخى على أمين.

فسألنى: هل على أمين فى حاجة إليها الآن؟ فقلت: نعم، إنه يحتاجها، وقد يكون فى خلال سنة.

وكانت وجهة نظرى بأن على أمين يقيم فى الفندق لمدة ستة أشهر على الأقل، وأنه سوف ينقل إلى بيت بعد ذلك.

وفى خلال الحديث، قلت له هل من الممكن أن آخذها معى عند سفرى أم لا؟

فاعترض على ذلك وقال: لا.

فأفهمته أنها عبارة عن أوراق هامة، وفى مقابلة ٦/٢ سألته عما إذا كان قد تلقى ردا بخصوص نقل هذه الأوراق، فأجابنى بأنه يمكنه أن يأخذها ويرسلها للخارج، وتساءل: أين يجب أن يرسلها؟ فسألته إذا كان من الممكن أن يرسلها إلى بيروت للأستاذ سعيد فريحة وسألته هل هو شخص مؤتمن؟

فأجاب بالنفى معلنا بأنه لا يدرى ما سوف يفعل سعيد فريحه بمثل هذه الأوراق إذا حصل عليها.

وقال إنه مندهش كيف أنني أحتفظ بهذه الأوراق في بيتي فأبديت رغبتي في نقلها بسرعة، فسألني أين أحتفظ بها، فقلت إنها موجودة في بيتي، وإنني حريص في نقلها بسرعة.

وفي مقابلة بعد ذلك بأسبوع مع بروس، سألته: متى يحضر سائقي بالأوراق؟ فقال: إني أخذت رفتا طبيا: لأن عائلته ستسافر إلى الإسكندرية، واقترح أن أرسل الأوراق إليه في اليوم التالي، وأنه سيخلي منزله من الخدم، وطلب أن يحضر السائق بعد المغرب في الساعة الثامنه والنصف مساء يوم ١٩٦٥/٦/١٤ وقال إنه سيترك باب الجراج مفتوحا وأن على السائق أن يدخل مباشرة داخل الجراج، وفي الدقيقة التي سيصل فيها السائق سيخرج ويقفل باب الجراج، وذكر أن الأميرة دينا تسكن إلى جواره، وأن لديها حارسين أحدهما من رجال البوليس، والثاني من رجال عبد الناصر وقلت لبروس إنني سأخبر السائق إن هذه كتب علي.

وقد طلب مني بروس أن أطلب إلى السائق بأن يدخل الجراج بهذه السيارة وأن يدخل السيارة بكاملها داخل الجراج.

وقد أرسلت له الحقائب في الموعد المحدد كالنظام المتفق عليه، وكان عددها أربع حقائب حجمها ٨٠ك ٥٠ك ٤٠ك تقريبا من حقائب الملابس وكانت تحتوي على خطابات على أمين الخاصة ومجموعات من مقالات على أمين ومجموعات من فكرة ومذكرات عن ثورة ١٩١٩ وحركة محمد فريد وصور فوتوغرافية.

وحدث في اجتماع بيني وبين بروس تم بين منتصف أبريل وأوائل مايو، أو حوالي ذلك أن قال لي بروس إنه تلقى تقريرا من ليبيا يثبت أن الناصريين في البلاد العربية أصبحوا اضعف من أن يقتلوا ذبابة، وأن الشباب القوميين في ليبيا كانوا في الماضي متحمسين لناصر، وكانوا يريدون ان ينتهزوا فرصة وفاة الملك إدريس ليقوموا بضم ليبيا إلى مصر ولكن هؤلاء الشبان أنفسهم تحولوا بعد اكتشاف البترول في ليبيا، وتدفقه وانقلبوا إلى فكرة أن ليبيا لليبيين.

ومضى مصطفى أمين في رسالته لجمال عبد الناصر يتحدث عن علاقته بكيم روزفلت وارشي روزفلت منذ عام ١٩٤٤، ثم علاقته بالسفير الأمريكي قبل وبعد الثورة.

وتعرفت في هذه الفترة أيضا بمستر مايلز كوبلاند ضابط المخابرات الأمريكي وكان يعمل في سفارتهم بالقاهرة، وعرفني به وزارني نائب مدير مكتب الاستعلامات الأمريكي بالقاهرة في ذلك الوقت، وكانت علاقتي به جيدة، وكان يحضر إلى مكتبي وأحيانا في منزلي.

واستمرت علاقتى مع ما يلزم طول فترة وجوده فى القاهرة وبعد أن انتقل إلى بيروت وعمل مديرا لإحدى الشركات الأمريكية هناك، ولازلت أتقابل مع مايلز كوبلاند كما تعلمون سيادتكم فى كل مرة يحضر فيها إلى القاهرة، أو أتوجه فيها إلى بيروت، وإن كان مقابلات بيروت لم تزد عن مرتين، وكان يطلب منى خدمات وهى أن أتوسط لدى سيادتكم فى مسائل تجارية ولم أتحدث إلى سيادتكم بخصوصها، وهى بشأن شراء مصر لميكنات حسابات للحكومة المصرية على حساب المعونة الأمريكية.

وفى بعض الأحيان، يكتب إلى طالبا تحديد موعد لمقابلة سيادتكم وكانت محادثاتى مع مايلز كوبلاند تتصف بنفس الأسلوب وهى المناقشات السياسية، وهو يطوف المنطقة بعد سفره إلى بيروت ولاحظت عند مقابلتى له الأخيرة فى بيروت وأنه واسع النشاط والاتصالات، وأنه ينتقل بين السعودية ولبنان ومصر وتكلم معى فى موضوع السجن وذكر أن من مصلحتنا أن ننسحب فورا من اليمن، ورأيى فى عمل كوبلاند الحالى أنه عميل مخابرات منظمة باسم شركة.

وفى سنة ١٩٥٦ قدمنى الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى مستر وليام دوران ميلر الملحق السياسى بالسفارة الأمريكية وهو كما علمنا فيما بعد أنه أحد ضباط المخابرات الأمريكية خلال فترة اتصالاتى به خلال تأميم قناه السويس والعدوان الثلاثى وما بعدها.

ومكث فى مصر فترة طويلة، كنت أتقابل معه خلالها باستمرار إما فى مكتبى بالجريدة وفى بعض الأحيان فى منزلى حيث كنا نناقش كالعادة فى الموضوعات السياسية وفى العلاقات المصرية الأمريكية وسياسة مصر بصفة عامة.

وكنت أطلع سيادتكم يوميا على هذه الاتصالات وكنتم سيادتكم تسمونه "ربيكا"، وقد أصبح ميلر الآن منذ عهد كنيدى نائبا لمدير الاستعلامات الأمريكى وهو منصب كبير جدا هناك، وأنا مازلت على اتصال به كلما يحضر إلى القاهرة.

ولم يحدث أن سافرت إلى أمريكا بعد أن عين فى منصبه هذا، وتذكرون سيادتكم أنه قبل وقوع عدوان إسرائيل أخبرنى ميلر بالأمر الذى سيصدر للأمريكيين بمغادرة مصر، وأبلغت سيادتكم بذلك.

وعندما وقع العدوان، كنت أنا ومحمد حسنين هيكل على اتصال يومى، بل وعدة مرات فى اليوم بمستر ميلر.

ولقد كنا يومها على اتصال مستمر بسيادتكم، وكنا نبلغ أمريكا باستمرار أثناء المعركة، وبطريقة سريعة، غير الطريقة الدبلوماسية، بوجهة نظر بلادنا وذلك عن طريق ميلز كما تعلمون.

وتذكرون أن فكرة البوليس الدولى ولدت أثناء اجتماعاتنا فى أخبار اليوم بحضور محمد حسنين هيكل.

ثم تفضلتم وأوفدتمونى فى مأمورية أثناء العدوان فى أمريكا لنشر صور العدوان، وفى واشنطن علمت أن الولايات المتحدة مترددة فى قبول وجهة نظرنا بالجلاء بلا قيد ولا شرط وقمت بعدة اتصالات، وصلت بفضلها إلى حل: وهو أن أكتب مشروع تصريح تدلون به سيادتكم من القاهرة، ينشر فى أمريكا، وعلى أثره تؤيد الولايات المتحدة موقفنا، وأرسلت لسيادتكم المشروع تلغرافيا، وحرصت فى مشروع التصريح أن يعبر عن رأى سيادتكم، وليس فيه ذرة من التفريط فى أى حق من حقوق الوطن، ولكنه فى الوقت نفسه يزيل المخاوف التى ترددت فى الأوساط الفكرية نتيجة للمناورات البريطانية والفرنسية.

واقتصرت مهمتى فى أمريكا أن أتقابل مع كبار المسئولين هناك، وهم على وجه التحديد شيرمان ادامس مساعد أيزنهاور، وهمفرى وزير المالية ووزير الحربية والسيناتور فولبرايت وهمرشولد ولودج مندوب أمريكا فى مجلس الأمن.

وحدث عند اجتماعى بشيرمان ادامس مساعد أيزنهاور أن سألنى عما إذا كان من نتائج العدوان على مصر انتشار الشيوعية فيها؟

فأخبرته بأن موقف أمريكا فى أثناء العدوان كان عاملا خلق نوعا من التوازن فى المنطقة: إذ أنه لطف من الإنذار الروسى الذى لو بقى وحده دون موقف أمريكا لكان بلا جدال عاملا قويا فى انتشار الشيوعية فى هذا البلد.

فقلت إنه يجب أن تعمل أمريكا على الإسرع من الجلاء، وبعد ذلك تقدم مساعدات لمصر.

وفى هذه المناقشات: اقترح أن أقابل ألن دالاس مدير المخابرات المركزية حتى نتكلم فى موضوع أثر العدوان فى انتشار الشيوعية، وقال إنه سيدبر لى هذا اللقاء وتقابلت مع كريت روزفلت وأخبرته بما حدث فقال ان هذا أمر مستحيل.

ثم حدث ان اتصل بى كيم، وقال لى إن أدامس دبر موعدا لك مع مدير المخابرات المركزية.

وقابلت مستر ألن دالاس فى مكتبه لمدة ١٥ دقيقة، وقد شرحت له وجهة نظر بلادنا باختصار ورغبتنا فى الإسراع بجلاء قوات العدوان، فى أسرع وقت، وأن أى تأخير سيؤدى إلى كارثة، وقدمت تقريرا بذلك إلى سيادتكم فور عودتى شرحت فيه كل هذه المقابلات واحدة ونَص ما جرى فيها.

وفى سنة ١٩٥٨ التقيت عند الاستاذ محمد حسنين هيكل بمستر جون برنم وهو يتولى منصب الملحق السياسى بالسفارة الأمريكية وكنا نتقابل فى أخبار اليوم ونتقابل فى المنزل إذا كان معه زوجته ولكن مقابلات المكتب أكثر بطبيعة الحال.

وينتقل مصطفى أمين بعد ذلك لتناول علاقاته بعدد من المسئولين وضباط المخابرات المركزية التى كانت تتم كلها بعلم عبد الناصر ويضيف:

أما بخصوص الأوراق التى ضبطت مع بروس يوم القبض على يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٦٥ والتى أطلعتنى عليها نيابة أمن الدولة فأقرر بشأنها أننى لا أعلم شيئا عن ورقة الأسئلة من عدمه، ولم يخرجها أمامى فى أثناء الحديث، إلا أنه سألنى عن السؤال الأول وهو ما أتوقع أن يكون خطاب السيد الرئيس يوم ٢٢ يوليو، ولم أقل له أكثر من كلمة أننى أتوقع أن يتناول الخطاب المسائل الداخلية والدولية وما قدمه الاتحاد السوفيتى لنا من معونة القمح الروسى دون أن يطلب شروطا، ولم يكن يكتب فى ورقه أمامى، وإن كانت عادته فى المرات السابقة أن يخرج ورقة ويكتب رؤوس مواضيع فقط، وإننى أستشهد برئيس النيابة الذى أتم عملية القبض بأن الورقة المضبوطة لم تكن أمامى ولا أمامه، وإنما كانت فى جيبه، وقد ذكرت هذا فى أقوالى.

سيادة الرئيس

وأحب أن أثير سؤالاً: هل كان المقابل الذى حصلت عليه من اتصالاتى بالمخابرات الأمريكية أو الأمريكيين المسئولين يساوى ما قدمته لهم؟

والجواب على ذلك، أننى لم أتقاض ثمن هذه الصلة، مالا أو مرتبا شهريا أو سنويا إنما جاء المقابل فى الصور الآتية فقط:

١- أخبار أمدنى بها المسئولون الأمريكيون رجال المخابرات الأمريكية، خلال هذه السنوات العديدة، وكنت أنوى نشرها فى أخبار اليوم والأخبار وباقى صحف الدار، وتتفرد بها دون باقى الصحف الأخرى التى تصدر فى القاهرة، أدت إلى زيادة توزيع صحف أخبار اليوم، وبالتالى أدت إلى زيادة إيرادتها.

ومن هذه الأخبار: خبر مفاوضات الهدنة بين الحلفاء والنازيين، وكانت تجرى سرا فى أوربا فى ذلك الحين، وكانت أخبار اليوم أول جريدة فى العالم سبقت بنشر هذا النبأ، كذلك خبر عن أول تفصيلات من اختراع القنبلة الذرية، كذلك خبر عن موعد ومكان فتح الجبهة الثانية فى أوربا، وكذلك خبر عن موعد الهجوم المنتظر الذى سيقوم به هتلر على روسيا، وكذلك أول خبر عن مفاوشات إيطاليا للتسليم للحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكذلك أول خبر عن أن الروس بدأوا يعرفون سر القنبلة الذرية.

٢- وبهذه الصلة حصلت على امتياز إصدار مجلة المختار، وهو يدر على أخبار اليوم مبلغا طائلا سنويا، وقد وافقتم سيادتكم على ان نحصل على امتياز إصدار هذه المجلة.

٣- وبهذه الصلة حصلت على امتياز طبع مجلة الصداقة، وهو يدر على أخبار اليوم مبلغا كبيرا سنويا.

٤- وبهذه الصلة حصلت على ورق من أمريكا لمصر بحوالى ٢ مليون جنيه، وهو الورق الذى تسلمته الحكومة المصرية، ولكنى كصاحب أخبار اليوم استفدت من هذا الورق: لأنه وزع على الصحف بنسبة توزيعها فحصلت أخبار اليوم من الحكومة على نسبة كبيرة من هذا الورق، وكان الورق الذى اشتريناه من الحكومة أرخص من ورق السوق، فربحنا بطبيعة الحال.

٦- حاولت أن أستفيد من هذه الصلة بشراء مطابع جديدة من أمريكا، وطلبت منهم أن يعاونونى فى أن أحصل على قرض من بنك التسليف والاستيراد الأمريكى: لشراء مطبعة وكان المبلغ المطلوب ١٠٠ ألف جنيه، فلم يوافق البنك: لأنه يطلب ضمانا من الحكومة المصرية: ولأن تقاليد البنك هو قروض الصحف.

وبهذه الصلة أمكننى أن أوفد أم كلثوم لتعالج فى أمريكا بالذرة بدون مقابل وفى الوقت نفسه حصلت لبلادنا من الأمريكيين على معلومات هامة وخطيرة عن موعد هجوم إسرائيل سنة ١٩٥٤، نوهتم سيادتكم بفضل هذه المعرفة فى كسب المعركة. وجميع الأخبار عن الحالة

فى سوريا من الانفصال وانقطاع وسائل الاتصال بالإقليم السورى، وجميع الأخبار عن الحالة فى العراق بعد نزاعنا مع عبد الكريم قاسم، وجميع أخبار الموقف فى السعودية بعد الأزمة التى وقعت بيننا وبين سعود.

مصطفى أمين

هذا الإسقرار والالتماس المكون من ستين صفحة الموقع عليه محرر بمعرفتى وقد ضمنته تفاصيل اتصالاتى برجال السفارة الأمريكية التى تمت بعد استئذان السلطات وموافقتها وليست هناك اتصالات أخرى غير ما دونت بإقرارى هذا ١٩٦٥/٨/٥.

رئيس وزراء مصر الأسبق
شاهد آخر على صدق كوبلاند !!

فى حلقة من برنامجه الناجح «شاهد على العصر» أذاعته قناة الجزيرة الفضائية يوم ٤ ديسمبر عام ٢٠٠٠، استضاف الأستاذ أحمد منصور الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء الأسبق فى مصر، والوزير فى عهد عبد الناصر، وأجرى معه حواراً حول مدى تصديقه على ما ذكره كوبلاند فى «لعبة الأمم».

وفى هذا الحوار سأل أحمد منصور الدكتور مصطفى خليل عن دور أمريكا فى المنطقة يرد د. مصطفى خليل:

دور الولايات المتحدة أعتقد أن المرجع فيه لكتاب لعبة الأمم..

أحمد منصور:

مايلز كوبلاند.

د. مصطفى خليل:

أيوه مايلز كوبلاند، والكتاب شائع.

أحمد منصور:

هل تعتقد أن اللى ذكره كوبلاند - وأنت كنت وزيراً ونائباً لرئيس الوزراء فى عهد عبدالناصر- أن ما ذكره كوبلاند صحيح كله؟

د. مصطفى خليل:

أعتقد أنه قال: الحقيقة فى جزء كبير من الكتاب.

ثمة رواية أخرى جاءت أيضًا فى حوار متلفز، والواقعة تتعلق بالدكتور عبد العزيز حجازى، وهو واحد من أقوى وأنظف وأكفأ رؤساء الوزارات فى مصر،فقد أكد أنه بعد أن تولى الوزارة فى أوائل عهد السادات،جاءه مايلز كوبلاند يعرض عليه أن يعمل لصالح المخابرات الأمريكية.

كوبلاند ولعبة الأمم
وصدام وحسنى الزعيم!!

كانت الاستراتيجية الأميركية السياسية والعسكرية، فى تلك الحقبة، تهدف إلى عزل الاتحاد السوفياتى عن العالم بتطويقه بالأحلاف ومحاصرته بالقواعد العسكرية. ولذا كانت منطقة الشرق الأوسط التى تقع على تخوم الاتحاد السوفيتى، والتى هى صلة الوصل بين الشرق والغرب، ونظراً لما يحتويه باطنها من ثروات بترولية تعادل ثلثى احتياطى البترول فى العالم من أكثر ممناطق العالم أهمية بالنسبة للولايات المتحدة وبريطانيا خاصة والغرب عامة.

ولم يكن يحول دون تحقيق مطامع وأغراض الولايات المتحدة الاستعمارية واستراتيجيتها السياسية والعسكرية سوى التغلب على مشكلتين مزمنتين على حساب المصلحة العربية.

أولاهما: الصراع العربى الإسرائيلى وقضية فلسطين.

والثانية: الخلاف السورى أن تزيل أسباب الخلاف بين سورية وتركية، وأن ترغم سورية خاصة والبلاد العربية عامة على التسليم بالأمر الواقع والصلح مع إسرائيل، وحل قضية اللاجئين الفلسطينيين بالتفاوض لتوطينهم فى البلاد العربية، وإقامة صلح وتعايش دائم بين العرب وإسرائيل.

ولذلك عمدت أمريكا، بعد عقد اتفاقيات الهدنة بواسطة هيئة الأمم المتحدة، إلى تشكيل لجنة التوفيق الدولية، التى وجهت المفاوضات فيها بين العرب وإسرائيل إلى موضوع توطين اللاجئين.

وبدأت الأجهزة السياسية والإعلامية الأميركية الضخمة تبذل جهودها لإقناع العرب بجميع المغريات بأن الخطر الداهم على البلاد ليس إسرائيل والحركة الصهيونية والمطامع الاستعمارية الغربية، بل الشيوعية الدولية والاتحاد السوفياتى، لتصرف أنظار العرب عن الخطر الحقيقى الاستعمارى الغربى والصهيونى إلى خطر موهوم - آنذاك - هو خطر الشيوعية والاتحاد السوفياتى.

وقد عولت أمريكا كثيرا على نجاح انقلات حسنى الزعيم فى تحقيق استراتيجيتها. ففى الوقت الذى صرح وزير أمريكا المفوض بدمشق لصحيفة «الاتحاد» البيروتية، فى يوم ٣ يوليو ١٩٤٩، بأنه «يجب اعتبار الانقلاب السورى، وقيام رجل مثل حسنى الزعيم على رأسه، وانتخابه رئيسا للجمهورية، كل هذا يشكل أكبر حدث سياسى فى الشرق الأوسط، وسيكون له شأن عظيم فى تحسين أوضاع الدول العربية الأخرى، والزعيم شخصية مدهشة فى هذا الشرق الأوسط، وقد يلعب دوراً إصلاحيا عالميا. أن الولايات المتحدة التى دعمت الزعيم منذ أن قام بانقلابه، ومازالت تسانده إلى اليوم مصرة على المضى فى مساندته إلى النهاية، ولا سيما بعد أن أقر مشروع التابلاين».

منذ قليل حكمَ الأميركيون على صدام حسين شنقاً حتى الموت، لكن هذا الرجل كان فى الماضى معتمد دوائر الاستخبارات الأميركية فى مكافحة الشيوعية، التى استخدمته لأكثر من أربعين عامًا، حسب ما يقول الدبلومسيون وموظفو الاستخبارات الأميركيون.

ويظن كثيرون أن صدام حسين تعاونَ مع وكالات الاستخبارات الأميركية فى بداية الحرب العراقية- الإيرانية، فى سبتمبر ١٩٨٠ . لكن هؤلاء الموظفين بعودون بعلاقته إلى العام ١٩٥٩ ، حين كان واحداً من زمرة ستة شبّان كلّفتهم المخابرات المركزية الأميركية اغتيالَ رئيس الوزراء العراقى، آنذاك، الزعيم عبد الكريم قاسم.

عبد الكريم قاسم، فى ١٩٥٨، كان أطاحَ بالنظام الملكى.

قبل ذلك كان العراق يُعتبَر منطقة عازلةً وهامّةً استراتيجياً فى الحرب الباردة. وقد انضمّ العراق فى أواسط الخمسينيات إلى حلف بغداد المعادى للسوفييت، الذى كان عليه الدفاع عن المنطقة. أمّا أعضاء الحلف الآخرون فهم تركيا وبريطانيا وإيران وباكستان.

لم يهتمّ أحدٌ كثيراً بنظام عبد الكريم قاسم، إلاّ حين أعلنَ الانسحاب من حلف بغداد، فى العام ١٩٥٩ .

وتابعت واشنطن بامتعاض، شراءَ قاسمٍ السلاحَ من الاتحاد السوفييتى ، واستيزارَه شيوعيين فى مواقع سلطة حقيقية، كما قال موظف إميركىّ سابق فى الخارجية.

وقد أدى ذلك إلى أن يصرح مدير الـ «سى. آى . إيه» ألن دالاس بأن العراق هو «أخطر بقعة فى العالم».

فى أواسط الثمانينيات، أخبـر مايلز كوبلاند، رجلُ العمليات فى المخابرات المركزية، - كما يكشف فى كتابه - وكالةَ الصحافة الدولية أن السى. آى إيه كانت لها « علاقة وثيقة» مع حزب البعث، وكذلك مع أجهزة الزعيم المصرى جمال عبد الناصر السرية. وقد أيّد روجر موريس، الموظف السابق فى مجلس الأمن القومى، فى السبعينيات، هذه المعلومة، قائلاً إن السى. آى. إيه اختارات التعامل مع حزب البعث المعادى للشيوعية، أداةً بيدها.

وحسب مـصـدر سابق آخـر فى الخـارجيـة الأمـيـركيـة، أصبح صـدام، وهو لايزال فى عشرينياته المبكرة، جـزءاً من مؤامرة أمـيـركية للتخلص من عبـد الكريم قـاسم. ويقـول هذا المصدر إن صدام حسين وُضِعَ فى شقـة ببغداد، على شارع الرشيد، تواجه مباشـرة، مكتب قاسم فى وزارة الدفاع، لمراقبة تحركات هذا الأخير.

ويقـول عـادل درويش، الخـبـيـر فى شـؤون الشـرق الأوسط، ومـؤلف «بابل غـيـر المقـدسـة Unholy Babylon»، وإن هذا الأمـر جرى بمعـرفـة تامة من الـ سى. آى. إيه، وإن مَن كلّفته السى. آى. إيه بمتـابعـة العـلاقـة مع صـدام حسين كان طبيب أسنان عـراقيـاً يعـمل لصـالحـها ولصالح الاستخبارات المصرية.

النقيب عبد المجيد فريد، مساعد الملحق العسكرى بالسفارة المصرية، فى بغداد، كان يزوِّد صدام حسـين مـالاً، وهو مَن دفع إيجـار الشـقـة من حسـابه الخـاص. وقـد أيّد ثلاثة مـوظفـين أميركيين كبار سابقين هذه المعلومة.

موعد الاغتيال حُدِّدَ فى السابع من أكتوبر ١٩٥٩، لكن المحاولة باءت بالفشل الذريع. وقد اختلف النـاس فى أسبـاب الفـشل، مـوظف سـابق فـى السى. آى. إيه قـال إن صـدام حـسـين ذو الاثنين والعشرين عـامـاً فقد أعصابه، وشرع يطلق النار قبل الأوان . مسبباً مقتل سائق قاسم، وجرحَ قاسم فى كتفه وذراعه. درويش أخبر وكالة الصحافة الدولية أن أحد أفراد الزمرة كانت ذخيرته لا تناسب بندقيته، وأن آخر انحشرت قنبلته اليدوية فى بطانة سترته.

نجـا قـاسم من الموت، وأصيب صـدام حـسـين بجـرح فى فـخـذه سبّبَهُ زمـيلٌ له فى زمـرة الاغتيال. هـرب إلى تكريت بمساعدة عملاء المخابرات الأميركية والمصرية.

بعدهـا، اجتاز الحدودَ إلى سوريا. ونقلته المخابراتُ المصرية إلى بيروت. وطيلة إقامته فى بيروت، دفعت المخابرات المركزية الأمـيـركية إيجـار شقّته، وأدخلته فى دورة تدريب قصيرة. ثم

ساعده فى الانتقال إلى القاهرة موظفٌ حكومى أميركىّ سابقٌ، كان يعرف صدام حسين انذاك قال: حتى ذلك الوقت، لم يكن شيئاً، كان شقياً، قاطع رقاب، فى القاهرة سكن صدام حسين، شقة، فى حىّ الدقّى الغالى، وكان يقضى وقته فى لعب الدومينو بمقهى الإنديانا تحت مراقبة رجال المخابرات الأميركية والمصرية.

يقول موظفٌ أميركى كبير سابق: «فى القاهرة، كنت أذهب، غالباً، إلى مقهى جروبى، فى شارع عماد الدين، وهو مكان أنيق، يرتاده الموسرون. صدام لم يكن حضوره مناسباً هناك. الإنديانا ملعبه».

لكن صدام حسين ، فى تلك الفترة، كان يزور كثيراً، السفارة الأميركية، حيث خبراء الشى. آى. إيه مثل مايلز كوبلاند، ومسؤول المحطة جيم إيجلبرغر، يقيمون هناك. ويعرفون صدام حسين.

بل إن رجال السى. آى. إيه المكلفين بأمر صدام دفعوه إلى أن يطالب المخابرات المصرية بزيادة مخصصاته المالية، وهو أمرٌ لم يعجب المصريين، لأنهم يعرفون علاقته بالأميركيين.

فى شباط ١٩٦٣ قُتِل عبد الكريم قاسم فى انقلاب بعثىّ. كانت السى. آى .إيه وراء الانقلاب، وقد كان الرئيس الأميركى جون كنيدى موافقاً على الأمر.

فى البداية ادّعت المخابرات الأميركية أنها فوجئت بالأمر، لكنها سرعان ما شمّرت عن أذرعتها، وزوّدت البعثيين وحرسهم القومى ذوى الرشاشات قوائمَ بأسماء الشيوعيين. فتعرّض هؤلاء للسجن والاستنطاق والقتل، فى جنون من إعدامات سريعة. أمّا القتل الجمعىّ فكان يتمّ فى «قصر النهاية» بإشراف من صدام حسين.

قال موظف سابقٌ فى وزارة الخارجية الأميركية: «بصراحة، كنا مبتهجين للتخلص منهم. أنت تريد لهم محاكمة عادلة؟ هل أنت تمزح؟».

فى ذلك الحين صار صدام حسين، رئيس «الجهاتز الخاص»، جهاز المخابرات السرى لحزب البعث.

وبعد عشرين عاما من انقلاب الزعيم أى فى سنة ١٩٦٨ نشر مايلز كوبلاند الذى كان نائب القنصل الأميركى فى سوريا بين عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ ، ثم عاد لواشنطن ،ساعد فى تنظيم وكالة المخابرات المركزية الأميركية، وقد قضى القسم الأعظم من حياته العملية فى منطقة الشرق الأوسط، كتابة «لعبة الأمم» ليقول فيه:

«كان انقلاب حسنى الزعيم الذى كان رئيسا لأركان الجيش السورى من إعدادنا وتخطيطنا، فقد قام فريق العمل السياسى بإدارة الميجر ميد بإنشاء علاقات صداقه منتظمة مع حسنى الزعيم، الذى كان رئيساً لأركان الجيش السورى.

ومن خلال هذه الصداقة، أوحى الميجر ميد لحسنى الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكرى، واضطلعنا نحن فى السفارة بمهمة وضع كامل خطته وإثبات كافة التفصيلات المعقدة، إلا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين، فقد كانت كلها سرية ومتقنة الوضع والتخطيط، وأثارت هذه الشكوك - فيما بعد - فضول رجال الصحافة الغربيين، وفئات من الطلبة، فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع فى العملية، كما قاموا بفحص الوثائق التى لها صلة بالموضوع، وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها، سوى أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجى إلى أن بدأت الروائح تفوح منه، وأخذت الألسن تتناقل أن حسنى الزعيم ليس أكثر من مجرد صبى من صبيان الأميركان».

وفى عام ١٩٩٢، وبعد عشرين عاما من صدور كتاب مايلز كوبلند، «لعبة الأمم» صدرت فى الولايات المتحدة دراسة لـ«جوناثان أوين» وهو دبلوماسى كبير قضى عدة سنوات فى سوريا حيث كان ملحقاً ثقافيا فيها. بالإضافة إلى سنوات عديدة قضاها بين عمله فى السودان والأردن، دراسة حول السياسة السورية ١٩٤٣ - ١٩٥٤ .

يقول جوناثان أوين فى دراسته: لقد تأكد حديثا بعد السماح بنشر بعض الوثائق السرية تورط الولايات المتحدة بأول انقلاب عسكرى فى العالم العربى، وكان قد أشيع ولمدة سنوات بأنها ساندت انقلاب حسنى الزعيم، كما كان مايلز كوبلند عضو المخابرات المركزية السابق قد ذكر فى كتابه «لعبة الأمم» المساعدة الأميركية لحسنى الزعيم، ولكن روايته لم تؤخذ على محمل الجد، واستناداً لما كتبه فإن سورية كانت على حافة اضطراب سياسى عنيف، بينما كانت حكومة الكتلة الوطنية عمياء عنه ، ورأى السفير الأميركى فى سورية أن الأوضاع ستأخذ أحد مجريين غير مرغوب بأى منهما، وعنى بذلك إما احتمال قيام الانتهازيين قريباً، مع مساعدة السوفيت بانتفاضة دموية، أو أن يسيطر الجيش على السلطة بمساعدة الأميركيين السرية للمحافظة على الأمن والنظام لحين إحداث ثورة سلمية.

وهكذا شرعت المفوضية الأميركية بالقيام بعملية هدفها تشجيع الجيش السورى على القيام بانقلاب من أجل الحفاظ على سورية من الاختراق السوفيتى، وجلبها إلى طاولة السلام مع إسرائيل، ولم يكن حسنى الزعيم الخيار الأول لفريق العمل السياسى الأميركى المشرف على العملية، ولكنه أصبح هدفها لأنه لم يكن هنالك الكثير مما يمكن عمله.

وقد رأى فيه الأميركيون نواحى إيجابية عديدة، فقد كانت له مواقف شديدة العداء للاتحاد السوفيتى، وكان يرغب فى الحصول على مساعدة عسكرية أميركية بالإضافة لكونه مستعداً لعمل بناء بخصوص المشكلة العربية الإسرائيلية. واستناداً للوثائق السرية التى سمح بنشرها، فقد التقى حسنى الزعيم عدة مرات مع مسؤول بالسفارة الأميركية للنقاش حول الانقلاب، وقد بدأت هذه اللقاءات أواخر عام ١٩٤٨. وفى شهر من عام ١٩٤٩ تقدم الزعيم بطلب المساعدة من الأميركيين للقيام بانقلابه.

كتاب «لعبة الأمم»
والأمن القومى العربى!!

منذ قيام الجامعة العربية منذ عام ١٩٤٥، ظل مفهوم «الأمن القومى العربى» يتراوح بين الأمانى القومية صعبة التحقيق، والأحداث التى أثبتت عدم وجود هذا المفهوم وجاءت الحرب الأمريكية على العراق لتكشف عجز الدول العربية عن بلورة تصور أمنى وإقليمى متكامل!!

وقد كانت لمايلز كوبلاند، مؤلف كتاب «لعبة الأمم»، فكرة شهيرة لم يبتلعها أحد فى العالم العربى أبداً عندما صدر كتابه، وهى أن أهمية «العروبة» تأتى من كونها «أسطورة وليست حقيقة».

ورغم ما تحمله تلك الفكرة من تبسيط لما هو قائم فى المنطقة، إلا أنها تقترب من الواقع عندما يتعلق الأمر بمفهوم الأمن القومى العربى، الذى كان أقرب إلى أسطورة عمليا، رغم أنه اكتسب قوة افتراضية هائلة جعلت من انهياره فى الحرب الأمريكية على العراق أشبه بزلزال تصدعت بسببه أركان النظام العربى، وكأنه كان قائما بالفعل.

لقد كان مفهوما دائما فى المنطقة العربية، أنه لا يوجد «نظام أمنى» حقيقى يجمع بين دول المنطقة، وأن ما هو قائم فى واقع الأمر، نظرية تحمل اسم «الأمن القومى العربى» تعبر فقط عما يجب أن يكون، رغم أن كثيرين قد تعاملوا معها فى الإعلام والسياسة بل وعلى المستوى الأكاديمى وكأنها مبادئ ملزمة على الدول أن تتصرف وفقا لها، وإلا اعتبرت «مارقة» عربياً.

وعلى الرغم من أن السياسات الدفاعية للدول لم تكن تعول عليها، بل أن بعض الأنظمة العربية قد خرجت عنها بصورة مذهلة، ظلت تلك النظرية تمثل «مقدسا قوميا» لا يُمَسّ؛ حتى عام ١٩٩٠ على الأقل.

فى ٢ أغسطس عام ١٩٩٠، شهدت المنطقة ما أسمته الصحافة العربية فى اليوم التالى «كارثة عربية مفزعة» فقد قامت إحدى الدول العربية باحتلال دولة عربية أخرى لينهار أحد

أعمدة نظرية الأمن العربى، وهو افتراض أن التهديدات تأتى من الخارج، ثم بدأت القوات الدولية، التى طالما اعتبرت نظريا «وجودا أجنبيا»، فى التوافد على المنطقة، وشاركت ٩ دول عربية فى التحالف الذى خاض حربا ضد دولة عربية أخرى، وهى العراق، قبل أن تتسع «شروخ» النظام العربى، ببداية عملية التسوية السلمية للصراع العربى الإسرائيلى عام ١٩٩١ لتفقد النظرية إطارها الدفاعى.

كان التعبير السائد وقتها أن مفهوم الأمن العربى قد تصدع، وأن هناك حاجة لإعادة بنائه على أسس جديدة، لكن يبدو أن ما حدث لم يكن كافيا ليدرك العرب أن شيئاً كبيراً قد حدث.

فعلى الرغم من أن أصوات واقعية رسمية عربية تشير إلى ضرورة الاستناد على المصالح الوطنية للدول فى إقامة أية ترتيبات أمنية جديدة، مع تحليلات تؤكد أن على العرب أن يكونوا عمليين أمنيا بالاتجاه نحو التعاون الوظيفى كأساس لإقامة نظام أمن عربى جديد، إلا أن الموجة القومية بمفاهيمها واستراتيجياتها، عادت لتكتسح مثل تك الأفكار مرة أخرى.

كانت أهم التعبيرات العملية عن هذا الوضع هى الدراسة التى أعدتها الأمانة العامة لجامعة الدول العاربية كمشروع صدر بقرار من مجلس الجامعة عام ١٩٩٣ لمواجهة ما أسمته التحديات والتهديدات ضد أمن وسلامة الأمة العربية، والتى عادت معها معظم أساليب التفكير التى كانت سائدة قبل عام ١٩٩٠، بما فى ذلك وضع عبارة «سرى للغاية» على غلافها، على الرغم من أن الصحف كانت قد نشرت نصها تقريبا، وأنها لا تتضمن ما يمكن اعتباره سرا بأى مستوى، خاصة وأن الأمر يتعلق بأمن بلا صاحب ولا خطة ولا قوات، ويستند إلى معاهدة دفاع مشترك لم تجتمع الهياكل التى أقرتها الدول فيها ولو مرة واحدة.

لقد فقدت الدولة العربية - آنذاك - فرصة حقيقية للتفكير فيما يمكن أن يكون حقيقة، سعيا وراء إعادة إنتاج الأسطورة التى يدرك الجميع أنها لن تطبق عمليا، حتى إن تم التوقيع على وثيقة أخرى لها.

فقد تبنت الدراسة المفهوم للأمن، الذى يبدأ من الأمن العسكرى وينتهى بالأمن الغذائى، الذى يضيع فيه معناه الحقيق|ى، كما أكدت على فكرة العدو الثابت (إسرائيل)، مع التعامل مع دول الجوار على أنها مصادر تهديد، والتأكيد على ما أسمته «الأطماع الأجنبية» مع السعى وراء تحقيق «القدرة العسكرية العربية الذاتية» فى ظل تصور أن تكون ركيزة الأمن المستهدف «عربية صرفة».

وفى الواقع، كانت هناك إشارات تعبر عن الواقع الجديد، كالحديث عن «الأمن الوطنى لكل دولة»، بل ومقترحات وظيفية، كإقامة أكاديمية موحدة للدفاع، ومؤسسة عربية للتصنيع الحربى، لكنها كلها كانت تصب فى نفس الإطار القديم الذى يعمل فى ظل مفاهيم الدفاع المشترك، كما لا يقدم حلا واقعيا لمشكلات الأمن الإقليمى التى كانت معظم الدول العربية تخوض مباحثات متعددة الأطراف للتعامل معها.

فكل المفاهيم المتعلقة بالأمن الإقليمى التعاونى ، كالأمن الجماعى والأمن المشترك، ظلت خارج التفكير العربى الجماعى، على الرغم من أن الوطن العربى قد تحول عمليا إلى «شرق أوسط»، يتسم بالتدويل الشديد.

وجاءت الحرب الأمريكية على العراق لتطيح بكل شىء. فالانهيار هذه المرة قد تجاوز نظرية الأمن القومى العربى إلى النظام الإقليمى العربى ذاته.

فالدول العربية لم تتمكن من إدارة الأزمة أو منع الحرب أو المشاركة مباشرة فيها أو التأثير فيما يجرى بعدها داخل العراق. وعقدت القمة العربية بصعوبة، لتنفجر الخلافات داخلها بعنف.

ويوازى ذلك فى الأهمية وجود اعترافات أو إقرارات رسمية علنية، بأن الأوضاع قد تغيرت فى ظل عبارات انطلقت من بعض المسؤولين العرب، كوزير خارجية قطر، تصف الحالة العربية بصورة شديدة القسوة.

وبالتالى، فإن ما أصبح مطروحا على الساحة العربية حاليا، ليس هو البحث فى كيفية بناء نظام أمنى للدول العربية، وإنما الكيفية التى يمكن أن تتم بها إعادة تأسيس النظام الإقليمى العربى من الأساس.

لذا، فإن القضية، حسب بعض تعبيراتها المؤسسية، هى جامعة الدول العربية ذاتها، وليس نظرية الأمن القومى العربى التى لم تعد قادرة على استيعاب ما يجرى فيما يسمى اصطلاحيا «البيئة الاستراتيجية» العربية.

لكن ظل هناك إدراك دائم بأنه لا يمكن الحديث فى النهاية عن نظام إقليمى دون مفهوم أمنى. فالعروبة لا تزال، على الأقل من وجهة نظر الرأى العام، حقيقة سياسية وليست مجرد رابطة ثقافية، والمشكلة المثارة حاليا هى: كيف يتم التعامل مع تلك المشكلة الأمنية المفهومية، حتى لا تنفلب الأمور نظريا كما انفلتت عمليا.

ويبــدو مما يثـار فى الوقت الحـالى أنه لا يوجـد اتجـاه واحـد بهـذا الشـأن. فـهناك تيـار راديكالى يُصر على أن شيئاً لم يتغير، متصوراً أنه يمكن الاستمرار فيما كان قائما من قبل، وأن ما سيتم هو فقط إضافة أعداء جدد للأمة العربية.

ويرى تيار آخر أنه يجب إحداث تحولات حقيقية فى مفهوم الأمن العربى ليقترب من مفاهيم الأمن الإقليمى المعتادة.

ويدفع تيار ثالث فى اتجاه تأجيل البحث فى مسألة الأمن برمتها، حتى لا يتم فتح الباب لعمل الشيطان فى ظل فترة أقل ما توصف به هو «انهيار أمنى».

لقد بدأت آثار الصدمة التى أصابت العرب فى الحرب الأمريكية على العراق فى التلاشى نسبيا، لكن لا تزال حالة من الترنح قائمة على المستوى الفكرى، بما لا يتيح التنبؤ بدقة بطبيعة الأفكار الأمنية التى ستفرزها المرحلة.

لكن المؤكد أن مفهوم الدفاع المشترك، الذى حكم التفكير العربى قد فقد قوته. وبالتالى، يتصور أن تظهر مفاهيم أمنية ذات أبعاد إقليمية براجماتية قد تستند أكثر على حق الدول فى تحديد مصادر تهديد أمنها، والأسلوب الملائم للتعامل معه فى ظل أطر تنسيقية، قد تتخذ طابعاً متعدد الأطراف ، أقل رسمية وأكثر وظيفية.

وسوف تكون مفاجأة حقيقية أن تعود الدول العربية إلى التفكير مرة أخرى بالأسلوب القديم، وكأن ما حدث فى العراق هو مجرد حريق على مشارف النظام العربى وليس فى صلبه وجوهره.

كوبلاند.. الخطاب الإعلامى العربى وأمريكا.. ونظرية المؤامرة!!

يعد الخطاب الإعلامى العربى من أكثر الإشكاليات التى لطالما كانت ولا تزال تثير الجدل حولها، وخاصة فيما يتعلق بموقف هذا الخطاب من الولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد.

وفى الوقت الذى نعرف فيه جميعاً أن هذا الخطاب الإعلامى العربى يتسم بموقف منطقى ومبرر فى تناوله للسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط بسبب انحيازها الكامل لإسرائيل، وتغطيتها على جرائمها ضد العرب، إلا أن البعض - وللأسف من العرب - يرون أن هذا الموقف يتسم بالعداء دون منطق أو مبرر.

ويتمادى أصحاب هذا الرأى فى نقد لغة هذا الخطاب الإعلامى العربى فيصفونه بأنه «مبالغ فيه»، وحتى «غوغائى» دون حتى أن يضعوه فى مقارنة بسيطة مع «الخطاب العدائى الأمريكى» أو «الخطاب العدائى الصهيونى» المعادى للعرب والمسلمين على طول الخط !!

والذى يعنينا هنا هو أن أصحاب هذا الرأى من الكتاب أو المحللين السياسين العرب يتكئون على رجل المخابرات الأمريكى مايلز كوبلاند، وما جاء فى كتابه «لعبة الأمم» لتبرير موقفهم.

ومن ثم نجد هؤلاء يتبعون «نظرية المؤامرة» التى تبناها كوبلاند فى كتابه، بمعنى أن الخطاب الإعلامى العربى ضد أمريكا كان فى الأصل «صناعة أمريكية»، وبمعنى أدق أن وزارة الخارجية الأمريكية ومعها أجهزة الاستخبارات الأمريكية - ومنذ البداية - كانت هى مهندسة هذا الخطاب، وأنها هى التى أرادته على هذا النحو، وأنها نصبت الفخ ليدخله العرب بإعلامهم، فكان لها ما أرادت !!

انظر مثلاً كاتب مثل الأستاذ ممدوح الشيخ ماذا كتب عن الخطاب الإعلامى العربى فى موقع «الأزمنة العربية» على شبكة «الإنترنت»، وكيف استند إلى كوبلاند لتبرير هجومه الرهيب على هذا الخطاب.

يقول الشيخ: «من يتأمل المشهد الإعلامي العربي يخيل إليه - بسبب الهجوم الكاسح الذى يتسم معظمه بقدر كبير من اللاعقلانية، بل الغوغائية على الولايات المتحدة - أن القسم الأكبر منه يصدر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي !! (هل عداؤنا للولايات المتحدة يمنعنا من أن نحترمها؟ - ممدوح الشيخ - موقع الأزمنة العربية على الإنترنت - أول أكتوبر ٢٠٠٤).

وهنا يقدم الشيخ تفسيراً للظاهرة بالاستناد - شأنه شأن كثيرين من العرب يتخذون نفس موقفه - إلى ما أورده كوبلاند معلومات فى كتابه «لعبة الأمم»، ويقول الشيخ عن هذه المعلومات.

«وهى صادرة عن واحد ممن لعبوا أخطر الأدوار فى خدمة المصالح الأمريكية فى مصر، إنه مايلز كوبلاند، صاحب الكتاب الأكثر شهرة «لعبة الأمم»، وهو يقدم رواية للظرف السياسى الذى ولد فيه خطاب العداء الكاسح للولايات المتحدة، وفيها يقول كوبلاند حرفياً : «هل تعلمون من كان يمد الكثير من تصريحات عبد الناصر وسيل الدعاية المعادية للولايات المتحدة المتدفق من إذاعة القاهرة - أقوى وسائل الدعاية فى الشرق الأوسط - التى أزعجت الدبلوماسيين المحترفين فى وزارة خارجيتنا؟ طبعاً أنتم لا تعرفون أننا كنا نحن نعدها. ذلك لأننا كنا ندرك مثلنا مثل عبد الناصر نفسه أن قبضة العهد الجديد على البلاد تتوقف على قدرته فى الاستمرار بالعداء لأمريكا بشكل مقنع، وأن ليس فى مقدور عبد الناصر المخاطرة بمجرد إبداء أى عقلانية فى مواقفه حيال سياساتنا المختلفة فى الشرق الأوسط.

وحتى لو استطعنا تنويم عبد الناصر مغنطيسياً بحيث يطيع أوامر واشنطن دون تردد، لأحجمنا عن حمله على التصرف تصرفاً نعلم مسبقاً بأنه انتحارى.

لذلك ساعدناه فى دعايته المعادية لأمريكا. ومن ناحية أخرى بذلنا مجهوداً كبيراً لجعل تلك الدعاية تأتى بنتائج عكسية، إذ ضمناها الكثير من السخافات الواضحة مع بقائنا بكامل السيطرة على إنتاجها.

وذهبنا فى إتقاننا لهذه العمليات إلى استقدام بول لاينبارغر - ولعله أقوى الدعائيين السود فى التاريخ - إلى مصر لتدريب الفريق المصرى الأمريكى المسؤول عن إنتاج العايات المذكورة».

ويتساءل الشيخ فى نهاية مقاله: «فهل ما تطفح به وسائل الإعلام العربية من خطاب عدائى كاسح للولايات المتحدة الأمريكية تعبير عن عداء حقيقى أم هو من إبداع تلاميذ بول لاينبارغر؟».

ويمضى الشيخ فيقول: ننتقل من مايلز كوبلاند إلى الرئيس المصرى محمد نجيب الذى كُشف مؤخراً عن رسالة كتبها عام ١٩٧٣ ولم تنشر آنذاك. الرسالة موجهة للصحافى الراحل إحسان عبد القدوس «رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأخبار آنذاك) رداً على مقال كتبه الصحافى محمد حسنين هيكل فى جريدة الأهرام .

وفى الرسالة يقول نجيب إن هيكل هاجمه بسبب حوار أجرته مجلة الحوادث مع الرئيس محمد نجيب، وفى رسالته لإحسان يقول: «قد كتبت عن الأستاذ محمد حسنين هيكل أن له صلة بالأمريكان». وهو يزيد الأمر توضيحاً عندما يتحدث عن تقرير رسمى عرض عليه فى هذا الشأن.

ويعقب على كلام عيكل قائلاً: «محاولة طمس فكرة وجود تقرير المخابرات المشار إليه عن طريق القول بأن عرضه على لا يستقيم مع عرضه على جمال عبد الناصر الذى كان هيكل قريباً منه».

ويشير بعد ذلك إلى تقرير مخابراتى آخر وضعه حسن التهامى أحد ضباط يوليو قائلاً : «ألم يعلم - يقصد حسنين هيكل - بأنه قد كُتب بعد نشر كتاب لعميل المخابرات الأمريكية مايلز كوبلاند يروى فيه قصة الثلاثة ملايين دولار التى ترتبط بأسماء معروفة محددة؟ وهل يعتقد الأستاذ هيكل أن هذا التقرير الذى كتبه مرؤوس يمكن أن يعتبر مستنداً تاريخياً وهو بمثابة محاولة للتبرئة وصرف الأنظار سجلها الذين ارتبطت أسماؤهم بما كتبه عميل المخابرات المركزية الأمريكية»؟.

ويخلص الشيخ إلى: «هناك إذن مصداقية لما رواه كوبلاند فى كتابه الأول «لعبة الأمم» أدت إلى حروب إعلامية وإصدار تقرير - وربما أكثر - لصرف الأنظار كما يبدو من سطور رسالة رئيس مصرى سابق، وهو ما يجعل لما أورده كوبلاند فى كتابه الجديد أهمية كبيرة.

ولا بأس هنا من الإشارة إلى أن هيكل رد على كوبلاند نافيا فكتب كوبلاند متحدياً هيكل بأن ما نشره موثق. وكوبلاند فى النهاية ليس ملاكًا، ولا ينبغى أخذ روايته على علاتها، لكن

خطاب العداء للولايات المتحدة ولد فعلياً فى مصر فى هذه الفترة، وليس ثمة تفسير منطقى للظاهرة التى ما زالت تتزايد بوتيرة لا صلة لها لا بمجريات الأحداث فى المنطقة ولا بالموقف الأمريكى من إسرائيل».

ويقول: «فالعلاقات العربية الأمريكية لا يتكون جدول أعمالها من بند واحد ولا يستطيع أى تيار سياسى أن يدعى أن القضية الفلسطينية همه الوحيد، بل إن القوميين العرب وهم الأعلى صوتاً فى رفع شعار العداء المطلق للولايات المتحدة، لم يجدوا حرجاً فى أن يعلنوا قبل سقوط النظام العراقى أن القضية الفلسطينية تراجعت فى ترتيب أولوياتهم لتحل محلها «القضية العراقية»، ما قد يعنى أن الموقف الأمريكى المنحاز لإسرائيل مجرد «كسارة جليد» تستخدم بدهاء شديد».

ويدلل الشيخ على صحة ما وصل إليه المفكر الفلسطينى المعروف عزمى بشارة فى دراسته: «الدين والسياسة فى الشرق الأوسط» عندما سجل الملاحظة التالية: «ويلاحظ أيضاً أن جزءاً كبيراً من إصدارات الحركة الإسلامية تكن لإسرائيل خليطاً من الكراهية والاحترام باعتبارها دولة يهودية دينية».

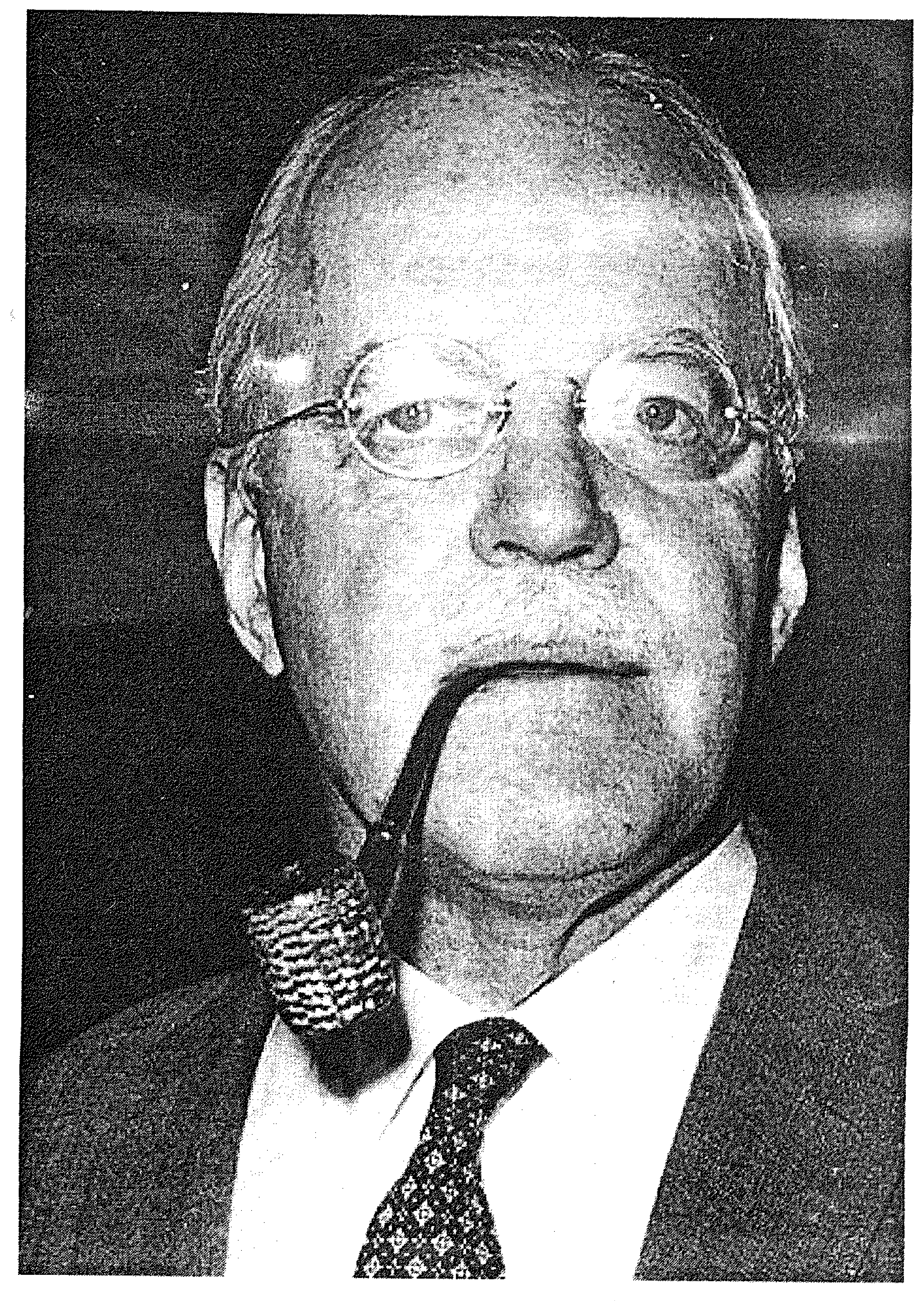
ومن القضايا المسلم بصحتها أن الأمم وكذلك الجماعات تميل فطرياً إلى من يشبهها، وهو مفتاح من أهم مفاتيح نجاح الصهاينة فى ترويج صورة دولتهم غربياً باعتبار أنها دولة ديمقراطية قامت على تراث يهودى مسيحى مشترك. والسؤال الذى يفرض نفسه هو: إذا افترضنا جدلاً أن بيننا وبين الولايات المتحدة عداء، فهل يمنعنا هذا العداء من أن نحترمها؟».

ويقول الشيخ: «حتى إذا سلمنا جدلاً بأن القضية الفلسطينية تمثل البوصلة التى تحدد علاقاتنا الدولية، ففى حقيقة الأمر يتحمل الغرب كله بشقيه الرأسمالى- الأوروبى والأمريكى معاً - والشيوعى المنهار المسؤولية عن نشأة إسرائيل، بل إن الحدث الأكثر مفصلية فى تاريخ إسرائيل ونقصد به تحولها لقوة نووية تتحمل المسؤولية عنه فرنسا لا الولايات المتحدة.

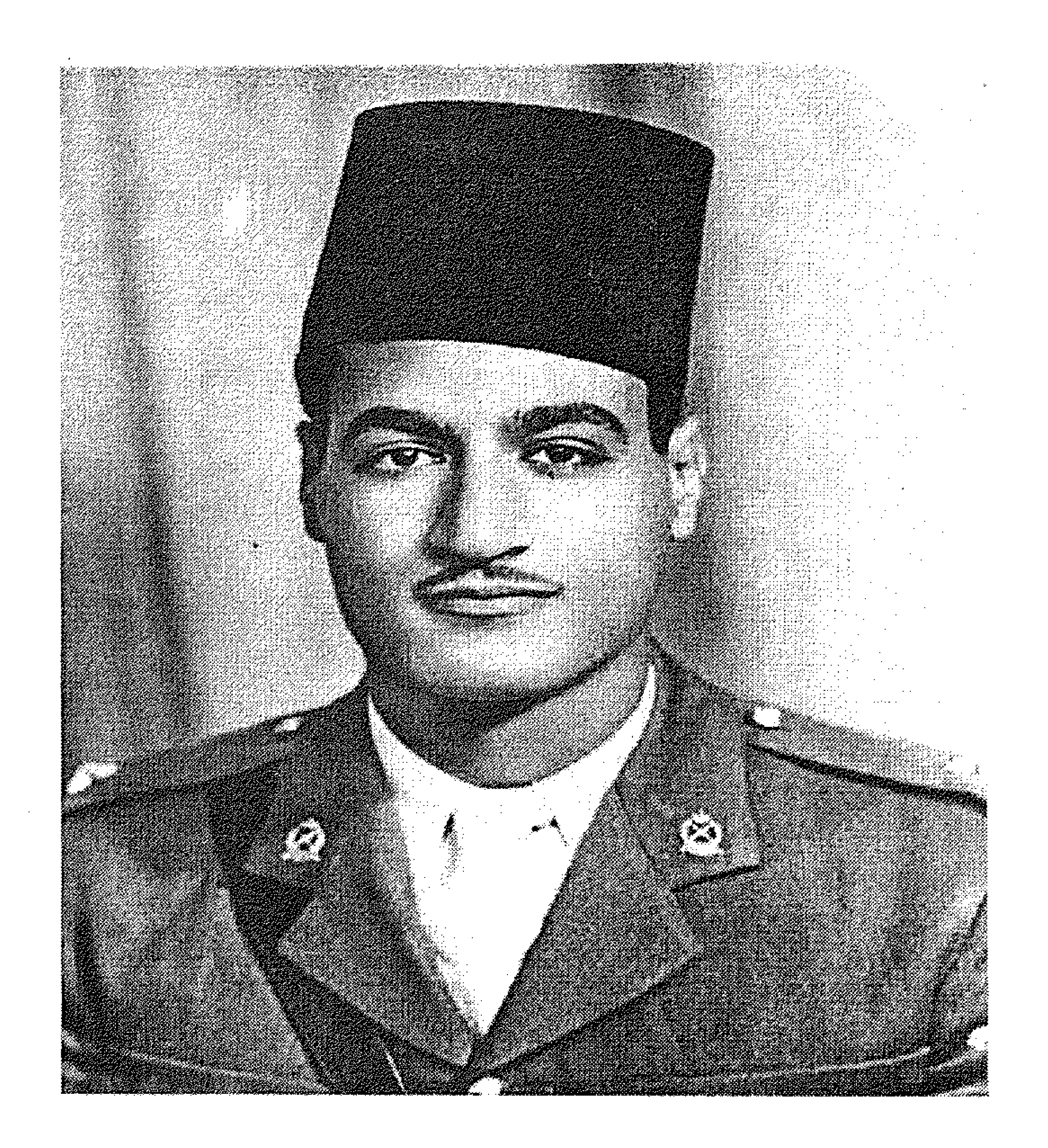
ورغم هذا فإن كثيراً من السياسيين العرب فى محاولتهم منع سقوط النظام العراقى لم يجدوا غضاضة فى أن يتناسوا هذا الدور الفرنسى فى دعم إسرائيل، وأن يعتبروا التقاء موقفهم مع مصالحها فى هذه القضية أمراً مقبولاً بينما يعتبرون الالتقاء مع المصالح الأمريكية ولو جزئياً خيانة عظمى».

ومن المضحكات المبكيات أن الأمة العربية التى يشكل الدين أهم مكونات ثقافتها، وتشكل الحرية أهم ثوابت ثقافتها الدينية، استدرجت كثيراً من دولها - كما تشير الوقائع ولعقود متوالية - إلى التحالف مع الاتحاد السوفييتى الذى كان فى حقيقته بناء دعامتاه الإلحاد والاستبداد، واستدرجت من ناحية اخرى لمعاداة الولايات المتحدة التى تعد من أكثر الدول الغربية تصالحاً مع الدين فى الحياة السياسية والحياة العامة فى عمومها، مع إقرارى بأن التيارات الدينية الأكثر حضوراً على الساحة الأمريكية معادية لحضارتنا وثقافتنا، لكننى أعتقد أن الجمع بين الكراهية والاحترام ممكن، بل قد يكون أحياناً لازماً. أما عندما تكون الكراهية ثمرة التضليل فإنه يصبح مرضاً ثقافياً خطيراً يحتاج معالجة حاسمة»!!

وهكذا لم يترك مايلز كوبلاند فى كتابه المثير للمواصف موضوعاً أو قضية تخص العرب، إلا وتناولها فى كتابه لتثير أزمة تلو الأخرى لا يزال يعتبره العالم أحد المراجع الكبرى والمهمة عند تناولها !!



كوبلاند أثار كتابه «لعبة الأمم» عواصف سياسية لا تنتهى، سواء فى حياته، أو حتى بعد مماته!!





عبد الناصر أكثر الزعماء الذين تناولهم مايلز فى «لعبة الأمم» وأثار بشأنهم جدلاً لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا!!

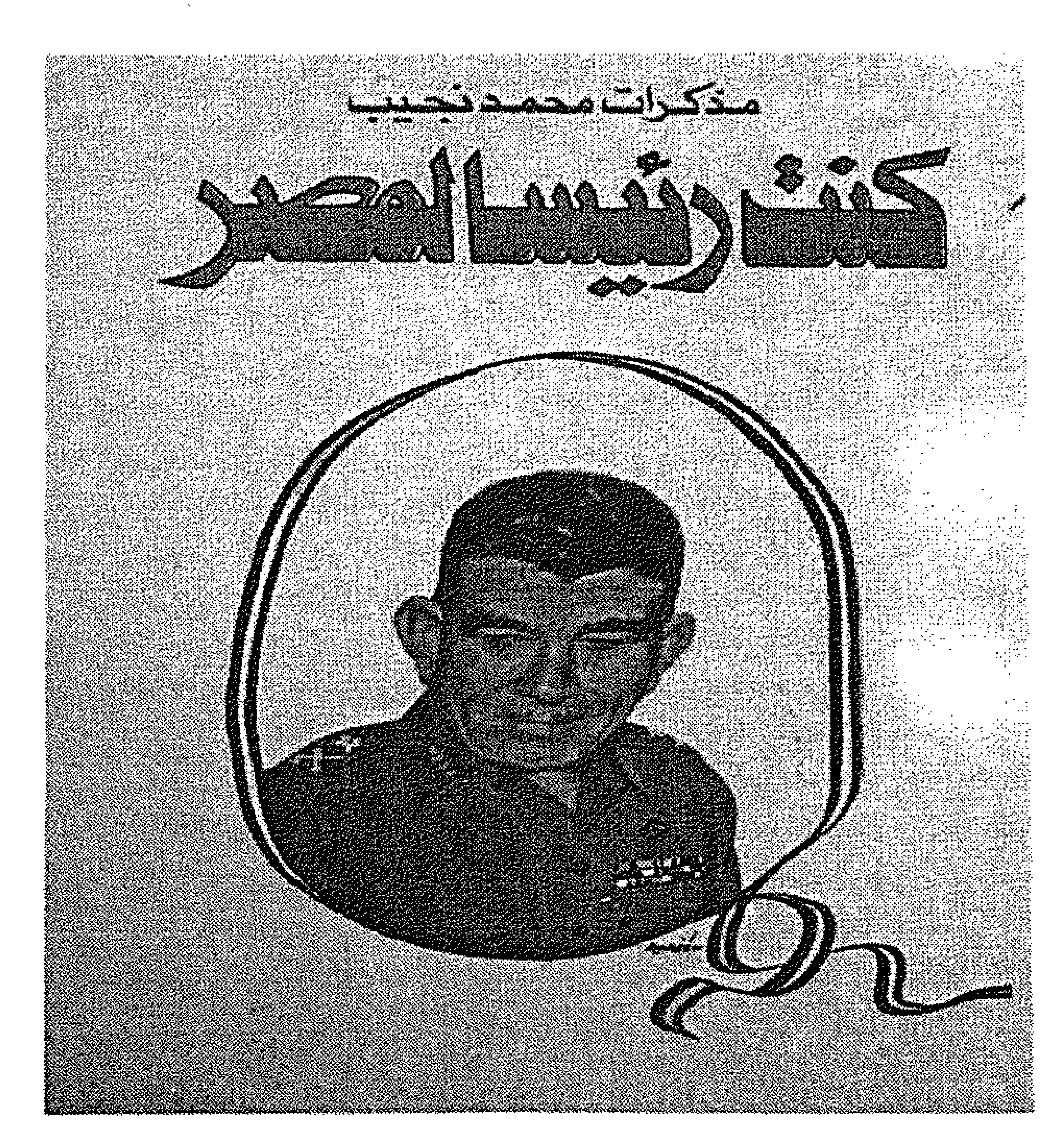


هيكل حاول بكل الطرق والوسائل دحض ما كشف عنه كوبلاند فى كتابه من أن عبدالناصر كان «صنيعة أمريكية» وأنه أى هيكل نفسه شأنه شأن ناصر كان جزءاً من اللعبة!!



وسامى شرف استمات أيضاً فى الرد على اتهامات كوبلاند لعبد الناصر!!





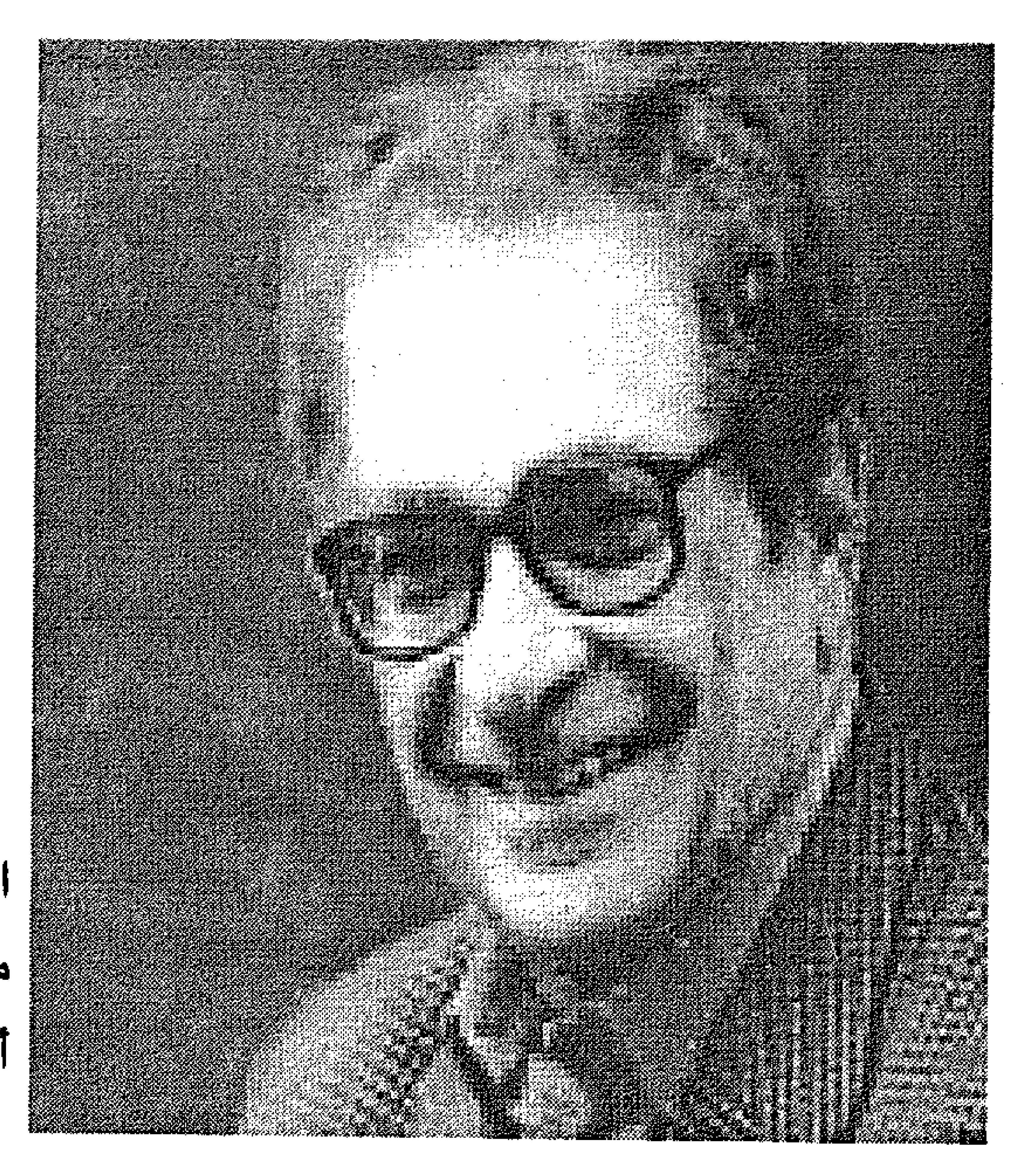
محمد نجيب أول رئيس لمصر فى فترة ما بعد الاستقلال أكد فى مذكراته وأحاديثه قبل موته صدق ما جاء به كوبلاند بالنسبة لعبد الناصر وهيكل!!

رئيس وقيادة الثورة يخطبون فى ٢٠٠٠ ضابط
نجيب يقول: سنغير الحكم من الدكتاتورية والطغيان والفساد

عبد الناصر يقول: لن نسمح للرجعية أن تفرق صفوفنا



الصحف المصرية أثناء انقلاب ناصر على الحكم الملكى كانت تعبر عن موقف ناصر الذى قال كوبلاند إنه كان جزءاً من سيناريو أمريكى!!



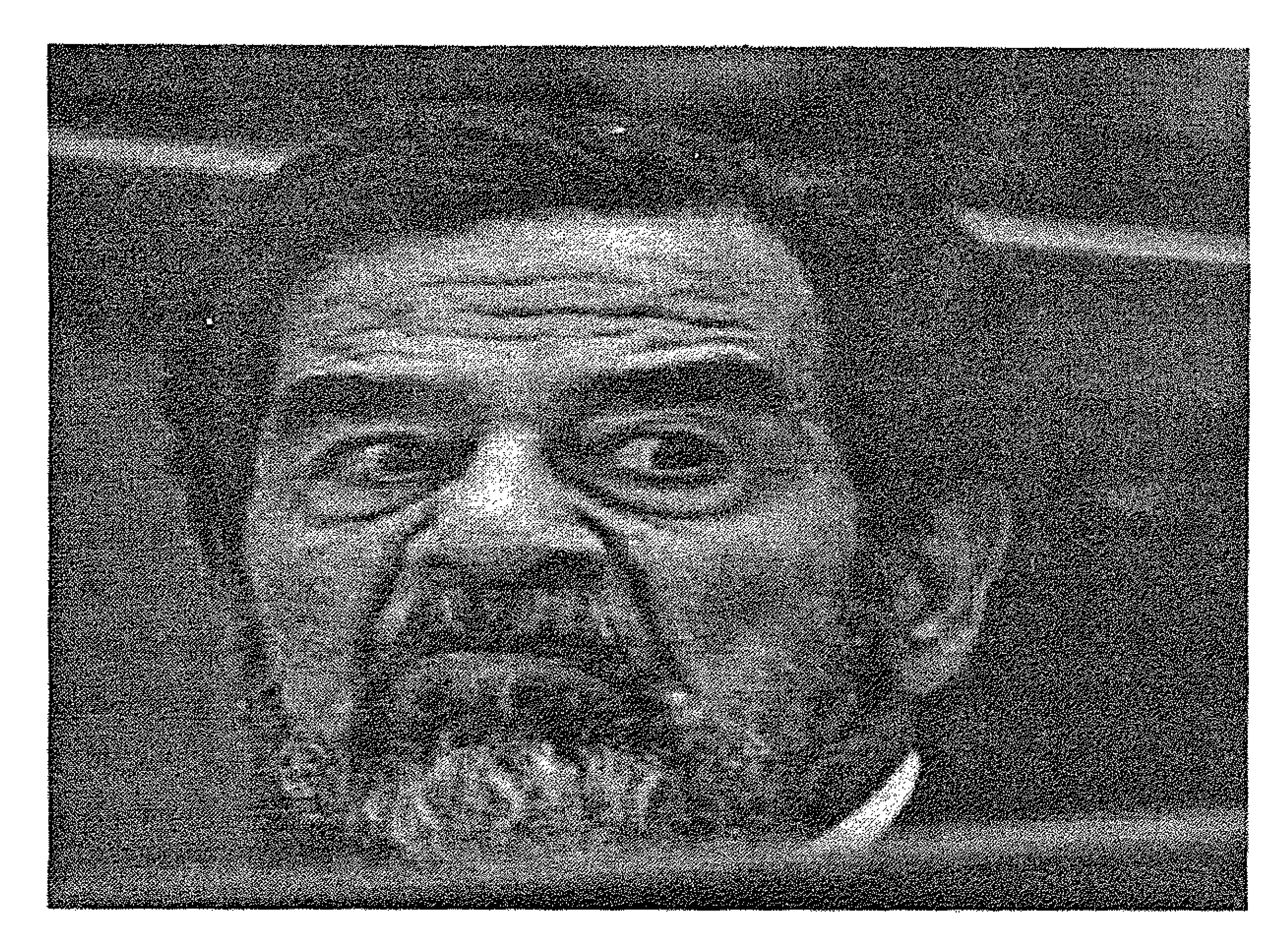
الكاتب الصحفى أنيس منصور أول من أذاع رسالة أمين لناصر



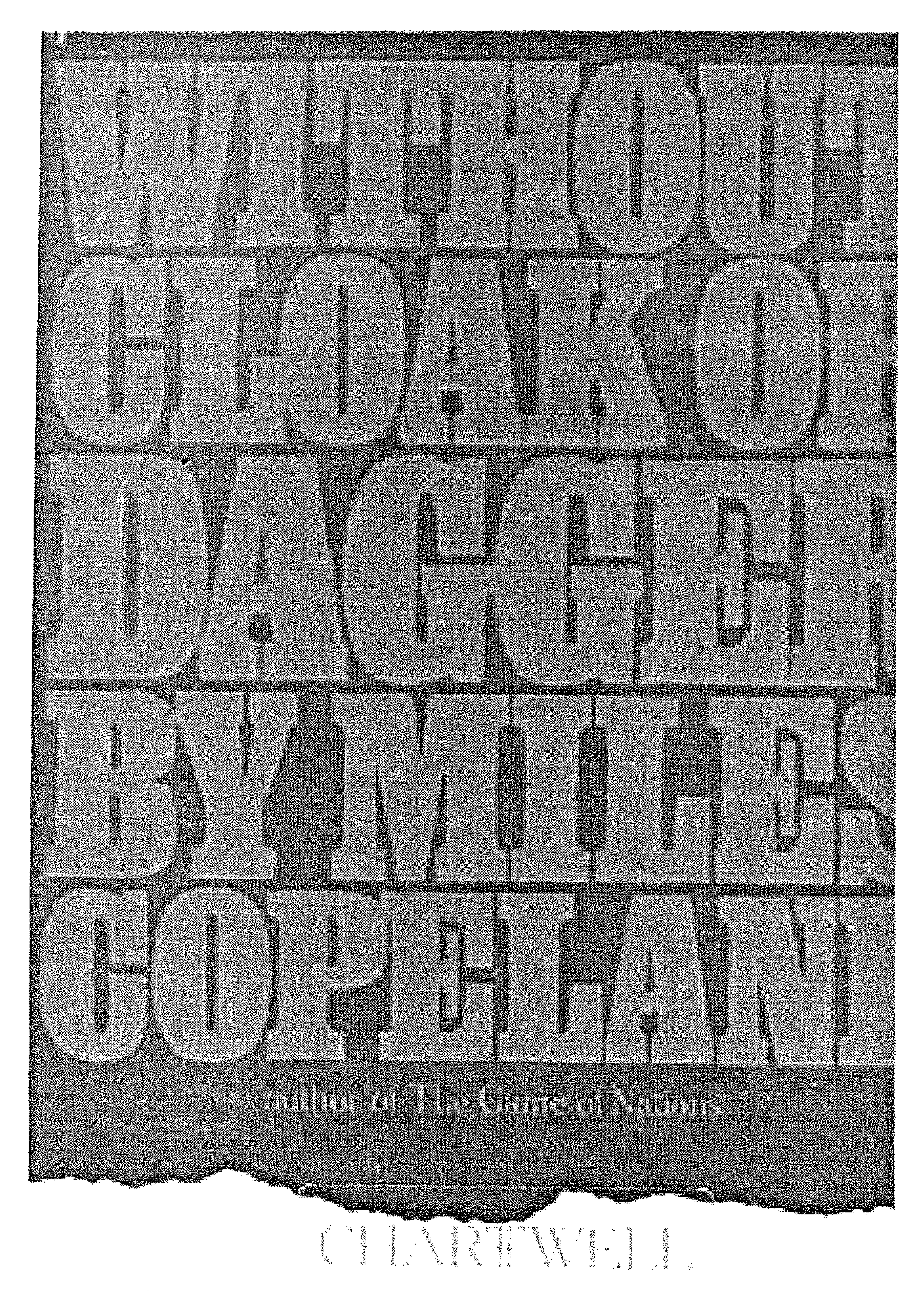
أحد كتب الراحل مصطفى أمين التى روى فيها قصته مع عبدالناصر وضمنها رسالته له من محبسه!!



حسنى الزعيم الذى أثار ما ذكره كوبلاند فى «لعبة الأمم» الكثير من الإشكاليات كما كان الحال مع عبدالناصر!!



صدام كشف كوبلاند دوره فى الإطاحة بعبد الكريم قاسم لحساب الأمريكيين!!



غلاف كتاب كوبلاند «عباءة أم خنجر» وهو كتاب مـهم ولكنه لم يحظ بشـهـرة «لعـبـة الأمم»!!

مايلز كوبلاند

لعبة الأمم

أسرار اختراق المخابرات الأمريكية
لأنظمة الحكم العربية!!

دار الكتاب العربى

لعبة الأمم

إنها لعبة تختلف عن غيرها من أنواع اللهو واللعب - مثل البوكر أو الحرب أو التجارة - فى عدة نواحٍ مهمة وهى:

أولاً: لكل لاعب فى هذه اللعبة أهدافه الخاصة التى تختلف عن أهداف الآخرين، كما أن تحقيق هذه الأهداف هو مقياس نجاحه.

ثانيًا: وكل لاعب فى هذه اللعبة مجبر بظروفه داخل بلاده على القيام بأعمال وتحركات ضمن مجال اللعبة دون أن يكون لها علاقة بأسباب النجاح بل يمكن أن تقلل من فرصة النجاح نفسه.

ثالثًا: وفى «لعبة الأمم» لا يوجد فائزون البتة، بل الكل خاسرون، لهذا لم يكن حرص كل لاعب على النجاح بقدر ما هو على تجنب الضياع والخسارة.

إن الهدف المشترك لجميع اللاعبين فى «لعبة الأمم» هو رغبتهم فى المحافظة عليها مستمرة دون توقف. ذلك أن توقف هذه اللعبة - «لعبة الأمم» - لا يعنى سوى شىء واحد ألا وهو «الحرب».

من محاضرة ألقاها زكريا محيى الدين

نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة

الكلية العسكرية المصرية فى أيار (مايو) ١٩٦٢

ملاحظة للقارئ

تعنى عبارة «لعبة الأمم» ذاك النشاط الذى بدأته وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنطن بغية وضع المخططات المناسبة لبسط النفوذ الامريكى على بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء إلى الحرب المسلحة.

وهكذا يقترب معنى هذه الجملة من «التخطيط السياسى للصراع على مناطق النفوذ فى العالم عن طريق الحرب الباردة».

المترجم

تعاقب الأحداث

إن فصول الكتاب غير مرتبة حسب تسلسلها التاريخي، ولذلك نثبت هنا تسلسل هذه الحوادث حسب تاريخ وقوعها.

- ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧: السفارة البريطانية في واشنطن تقدم مذكرتها حول اليونان وتركيا لوزارة الخارجية الأمريكية والتي تعني نهاية الوصاية البريطانية في الشرق الأوسط.

- ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧: إعلان مبدأ ترومان.

- ٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٧: إعلان مشروع مارشال.

- تموز (يوليو) ١٩٤٧: الانتخابات السورية.

- ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨: إعلان قيام دولة إسرائيل وبدء الحرب العربية الإسرائيلية الأولى.

- ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩: قيام حسني الزعيم بانقلاب في سوريا.

- ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢: حريق القاهرة من قبل الرعاع أو ما يسمى بالسبت الأسود - كيرميت روزفلت يذهب إلى القاهرة لينظم الثورة السلمية بقيادة الملك فاروق.

- آذار (مارس) ١٩٥٢: تنازل كيرميت روزفلت عن فكرة الثورة السلمية بقيادة فاروق واجتماعه بالضباط المصريين الأحرار.

- ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٢: قيام جمال عبد الناصر بانقلابه في مصر.

- ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣: اجتماع أيزنهاور ودالاس مع إيدن وقيامهم بأول دراسة لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط.

- أيار (مايـــــــــو) ١٩٥٣: وزير الخارجية دالاس يقابل جمال عبدالناصر.

- آب (اغسطـــــس) ١٩٥٣: الأطاحة بمصدق فى إيران.

- شباط (فبـــــراير) ١٩٥٤: عبد الناصر يطيح باللواء نجيب ويستلم السلطة علنا فى نفس اليوم الذى أطيح فيه بالرئيس أديب الشيشكلى فى سوريا.

- نيسان (ابـــــريل) ١٩٥٤: الاتراك والباكستانيون يوقعون الاتفاقية التى أدت إلى إيجاد حلف بغداد.

- تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٤: توقيع اتفاقية الجلاء عن قناة السويس بين بريطانيا ومصر.

- تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٤: الكولونيل ايفلاند والكولونيل جيرهارت يزوران الرئيس جمال عبدالناصر ويبحثان معه ترتيبات الدفاع المشترك.

- كانون الثانى (يناير) ١٩٥٥: إعلان حلف بغداد رسميا وتعيين السفير بايرود بدلا من السفير كافرى فى القاهرة.

- شباط (فبـــــراير) ١٩٥٥: بعض الزعماء، ومنهم: تيتو ونهرو وايدن، يزورون عبدالناصر. قيام إسرائيل بغارتها على غزة مما اضطر عبدالناصر لإنهاء اعتداله فيما يتعلق بقضية إسرائيل.

- نيسان (أبـــــريل) ١٩٥٥: عبد الناصر يحقق نجاحا فى المؤتمر الآسيوى الأفريقى فى باندونغ ـ أندونيسيا.

- تموز (يوليـــــو) ١٩٥٥: شيبيلوف يزور القاهرة ليمدد عرض الاسلحة السوفيتية على عبد الناصر.

- أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥: عبد الناصر يقرر على صفقة الأسلحة السوفييتية وآلن يفقد أمله وأحلامه فى القاهرة.

- آذار (مـــــــارس) ١٩٥٦: الملك حسين يقيل الجنرال جون غلوب بعد الاضطرابات التى قامت بها العناصر الناصرية وضغطت بها على الملك.

- تموز (يوليـــــــو) ١٩٥٦: دالس يعلن انسحاب الولايات المتحدة من المساعدة المالية لبناء السد العالى، وعبدالناصر يعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس.

- تشرين أول (اكتوبر) ١٩٥٦: وقوع الغزو الإسرائيلى الإنكليزى الفرنسى على مصر وقضية السويس.

- تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٦: السوريون يعلنون اكتشاف مؤامرة دبرتها المخابرات الأمريكية للإطاحة بالحكومة.

- كانون الثانى (ينايـر) ١٩٥٧: إعلان مبدأ أيزنهاور.

- نيسان (أبريــــــل) ١٩٥٧: إحباط محاولة انقلاب ناصرية للإطاحة بالملك حسين.

- شباط (فبرايـــر) ١٩٥٨: قيام الوحدة بين سوريا ومصر ونشوء الجمهورية العربية المتحدة.

- آيار (مايـــــو) ١٩٥٨: بدء الأزمة اللبنانية.

- حزيران (يونيـو) ١٩٥٨: إحباط مؤامرة ناصرية ثانية فى الأردن.

- تموز (يوليـــــــو) ١٩٥٨: قيام انقلاب فى العراق ضد نورى السعيد واغتياله مع بعض أعضاء حكومته والعائلة المالكة (انقلاب قاسم). نزول مشاة الأسطول الأمريكى فى لبنان، والقوات البريطانية فى الأردن لمنع حدوث انقلابات فيهما.

- آذار (مـــــارس) ١٩٥٩: فشل محاولة أتباع ناصر فى العراق للإطاحة بحكومة قاسم.

- أيلول (سبتـــمبر) ١٩٦١: انفصال سوريا عن مصر وانتهاء الوحدة.

- أيلول (سبتـــمبر) ١٩٦٢: قيام انقلاب فى اليمن وتأليف حكومة جمهورية.

- شباط (فبـــراير) ١٩٦٣: انهيار حكومة قاسم فى العراق.

- من تشرين أول (اكتوبر) ١٩٦٥: إلى تشرين أول ١٩٦٦: سيطرة زكريا محيى الدين فى الجمهورية العربية المتحدة.

- حزيران (يونيـــــو) ١٩٦٧: حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل.

لقد أغفلت ذكر عدة حوادث بالرغم من أهميتها التاريخية بسبب ندرة ورودها فى فصول الكتاب.

❖❖❖❖

هذه هى قائمة بالسفراء الأمريكيين الذين خدموا فى السفارة الأمريكية فى القاهرة أثناء الفترة التى وقعت فيها أحداث هذا الكتاب:

جيفرسون كافرى لغاية كانون الثانى (يناير) ١٩٥٥.

هنرى بايرود لغاية تموز (يوليو) ١٩٥٦.

فريدريك رينهارت لغاية نيسان (أبريل) ١٩٦١.

جون بادو لغاية تموز (يوليو) ١٩٦٤.

لويس باتل لغاية آيار (مايو) ١٩٦٧.

ريتشارد نولته لعدة ايام من آيار (مايو) ١٩٦٧ لغاية قطع العلاقات الديلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية نتيجة حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل.

مقدمة المؤلف

يرى سكوت فيتز جيرالد فى رواية مسرحية له، تجلى فيها الذوق الاجتماعى وقواعد الإتيكيت بأبهى مظاهرهما، أن بعض المصادمات التى وقعهت بين كرام القوم، كات تصل إلى طريق مسدود لاعتقاد الجميع أن موافقهم هى الحق ولن يحيدوا عن سلوكهم الأخلاقى قيد أنملة. وفى خضم هذا التزمت الأخلاقى والتشبث بقواعد «الإتيكيت»، كان ينبرى بعض السوقة لفض النزاع، وإنهاء الخلاف بطريقة لا تشجع السيدة إميلى بوست على استحسانها فى كتابها الشهير باسم «الإتيكيت»، غير أن أمثال هذه الحالة شائع جدا فى الاجواء الدبلوماسية عامة. فكم من أزمة سياسية بين دول عديدة تعقدت وطالت، نتيجة إصرار تلك الدول على مواقفها، خشية مخالفة المبادئ السامية والحصافة الدبلوماسية. وكم من مرة أيضا انتهت تلك الأزمات الحادة، إلى سلام ووئام بفضل وسطاء طارئين، دون أن يفقد زعيم ماء وجهه أو تهدر كرامة شعبه.

ولا تزال تجول فى خواطر كثير منا ـ ولا شك ـ أسئلة عديدة عمن كان وراء زحزحة المصريين والبريطانيين عن مواقفهم المتعنتة أثناء مفاوضات الجلاء عن السويس عام ١٩٥٤؟ ومن الذى أطاح بحكومة الدكتور مصدق فى إيران؟ وكيف ثبت الناصريون أقدامهم فى لبنان عام ١٩٥٨ على مرأى ومسمع مشاة الأسطول الأمريكى السادس، الذين كانوا ينعمون بشمس لبنان وشواطئه الدافئة؟ ولماذا أحجم عبد الناصر عن ضرب إسرائيل فى وقت كان مستعدا لذلك ودفع بشعبه لحربها وهو فى أقل حالات الاستعداد لها؟

فالمؤرخون عندما يؤرخون الحوادث، يهملون الجواب على مثل هذه التساؤلات: ويمتنعون عن إلقاء الأضواء عليها لأنهم نادرا ما يعلمون عن خفاياها شيئا. وكذلك يهملها الدبلوماسيون فى مذكراتهم مدفوعين باعتبارات الأمن تارة. وبالرغبة فى عدم الإيقاع بين الحكومات وشعوبها تارة أخرى. وهكذا تبقى حقيقة الأحداث مدفونة لا تعرف منها خافية،

ولاينكشف للجماهير منها سر، إلا ما كان بمحض الصدفة. بينما يقبع الذين أشرفوا على وضع تصاميمها، وقاموا بتفيذها، خلف جدران دواوينهم الرسمية ينتظرون الفرصة السائحة ليزيحوا الستار عنها ويظهروها عارية على حقيقتها أمام شعوب هذا العالم المخدوع.

وهذا ما حدث معي فعلا، فلقد دفعت بمسودة هذا الكتاب إلى ديبلوماسى صديق لى، عله يقلب صفحاته، فيرشدنى إلى الأخطاء والهفوات فيه، ولكننى فوجئت به يزجرنى لمحاولتى كشف النقاب عن كثير من الأسرار التى يجب ـ برأيه ـ أن تبقى فى زوايا النسيان حتى لا تشوه سمعة الحكومة الأمريكية وغيرها من الحكومات أمام شعوبها دون حاجة لذلك أو ضرورة.

وكنت الاحظ بوضوح، تململ كثير من مواطنينا الأذكاء، وشكهم حيال ما ينشره رجال دولتنا الرسميون، من تفسيرات للعديد من الأزمات السياسية التى مرت بها بلادنا، ومنها تلك التى نشرها روبرت كنيدى حول الأزمة الكوبية عام ١٩٦٢. فلقد حاول السيد كنيدى فيها أن يضفى مسحة شاعرية على أولئك الرجال الذين اتخذوا تلك القرارات، بعدما أمضوا ساعات طوال وهم سجينو إحدى قاعات البيض الأبيض: يتأملون تراثنا المجيد ومبادئنا الاخلاقية السامية، وقد انتابهم الأسى حيال الغدر الروسى فى كوبا (وكأنه قد بان لهم ذلك فجأة دون أن يحسبوا له حسابا!). ولكن المستر كنيدى نسى أن كثيرا من المواطنين الامريكيين يتطلعون بشغف إلى معرفة خفايا تلك الوقائع، وسيجدون متعة فائقة عندما يعلمون أنه لم يكن فى تلك القاعة من قاعات البيض الأبيض، فى ذلك إليوم من أيام عام ١٩٦٢ رجل واحد استطاع أن يفكر لمدة طويلة بغير ذلك الغدر السوفييتى.

إن رجال دولتنا يبذلون كل ما فى وسعهم لإظهار أنفسهم ـ فى كتاباتهم ـ بمظهر المتفائل المستبشر، ولكنهم ليسوا كذلك، وما كانوا ليبقوا حيث هم الآن، لو كانوا جاهلين بحقيقة الوضع الانتهازى للعالم الذى نعيش فيه. وأصر على هذا عندما أذكر أنهم كانوا باستمرار يتابعون كل ملخصات تقارير مخابراتنا السرية، وبدون انقطاع. وألفت نظر مواطنينا إلى ان يكونوا على اطلاع تام على ما يعبرون عن إعجابهم به، أو يعربون عن امتناعهم ونفورهم منه، مهما كانت نظرتهم لحكومتهم وشعورهم نحوها. إنهم يولونها ثقتهم، مستمدين تصورهم لها من تلك السير والتراجم الرومانتيكية، التى فعلها بعض قادة هذه الأمة. لقد صور السيد كنيدى مثلا كثيرا من الشخصيات الوطنية بأنها على قسط وافر من الذكاء والشجاعة والشهامة. وأنها دائما تعبة مرهقة من كثرة ما خاضت من صراع مع ضمائرها من جهة، ومع

بعضها بعضا من جهة أخرى؛ بغية الوصول إلى نتائج وقرارات ذات تأثير كبير على مستقبل بلادهم ومستقبل الإنسانية جمعاء. ولقد يجد تصويره هذا بعض الترحيب فى نفوس الذين اعتادوا التحقيق فى أجواء الخيال والمثاليات. ولكنه بعكس ذلك سيمتعض له أولئك الذين يدركون تماما أن زعماءهم - ولحسن الحظ - ليسوا ملائكة أو قديسين، وأنهم مجرد أفراد طالما ترددوا فى اتخاذ القرارات النهائية. إن غالبيتنا تعيش فى بقعة من العالم يسيطر عليها الاقتصاد الغربى من خلال مؤسساته الضخمة مثل جنرال موتورز ومجلس اتحاد التجارة والكنيسة الكاثوليكية. ولهذا فإن لهم فرصة أعظم للوصول إلى صورة أكثر دقة وأقرب إلى الحقيقة دون أن يفقدوا ثقتهم فى الوسائل المتبعة.

ولم يكن بمقدور الساسة اتخاذ كثير من تلك القرارات الهامة لوحدهم، فقد كان يشاركهم فيها، وبصورة رئيسية. رجال على قسط وافر من المعرفة والخبرة، مثل رؤساء ومدراء وزارات ضخمة، تملك فى متناول يدها كل وسائل التحقيق والاستقصاء، مهما بلغت القضايا من الأهمية وتاهت فى مجاهل التعقيد. ولقد اتصفت تلك الوسائل بالموضوعية المطلقة، والعمومية الشاملة والفعالية المؤكدة، حتى كادت تعطينا أفضل الحلول لمشاكلنا مترفعة عن اتباع الأهواء الشخصية إلى حد تلاشى معه احتمال شطط كبار المسؤولين أو انزلاقهم إلى مواطن الهوى.

كانت إدارة المخابرات للشؤون الخارجية تظهر ما يواجهنا من صعاب، وتبين مكامن الأخطار فيها، وتقترح عددا من الحلول لها، وتنصح بكثير من التحفظات حيالها. وبنفس الوقت كانت إدارة المخابرات للشؤون الداخلية تستقرئ الرأى العام، مرجحة بعض الحلول، ومبينة اتجاهات الشعب وما يميل إليه من تحفظات وردود فعل. وهكذا كانت تنحصر مهمة كبار متخذى القرارات العليا فى الموازنة بين ما يصلهم من تقارير وآراء، مرجحين أفضلها ومتبنين أصلحها لمشاكلنا العديدة المتنوعة.

وقد يقع أحيانا، تضارب بين نتائج استقصاء كلا الإدارتين، الخارجية والداخلية. فيعمد رئيس الجمهورية، مثلا، بقيادته الناجحة، وشخصيته القوية، إلى ترجيح كفة العلاقات الخارجية على حساب الاتجاهات الداخلية. وهكذا يمكن لرئيس الجمهورية أن يعدل بعض الاتجاهات الداخلية حتى لا تقف حجر عثرة فى طريق المضى قدما للمحافظة على نوع وحجم علاقاتنا الخارجية. وأوضح مثال على هذا، عندما زج الرئيس روزفلت بالشعب الأمريكى فى الحرب العالمية الثانية، مع سبق تمنعه عن التورط فيها، وإصراره على الوقوف بعيدا عن

جحيمها. ولكن ان كانت الأحداث الداخلية خاصة بنا، ومن حقنا تعديلها وتحريرها حسب أهوائنا، فليس الأمر كذلك فى علاقاتنا الدولية. والأسلوب الآنف الذكر يصبح مشلولا فى مثل هذه الأحوال، ولا يمكننا عندئذ بتلك السهولة المعتادة أن نتصدى لكثير من القضايا المصيرية التهى يرتبط بها وجودنا من أساسه بصورة حيوية. ففى مثل هذه الأحوال، يصبح أسلوبنا السابق عاجزا كل العجز عن التصرف حيالها أو تعديلها حسبما تهوى أنفسنا وتحقق مصالحنا. ويصبح من الضرورى جدا أن نبتكر وسائل جديدة تختلف كليا عن وسائلنا التقليدية لمعالجة مثل تلك القضايا المصيرية. ونتيجة لهذا سنقف حيارى حيال مبادئ النزاهة والاستقامة التى ألفناها منذ زمن بنيامين فرانكلن. ونبقى مضطرين إلى سلوك مسالك جديدة لا نتورع فيها عن استخدام كل وسائل الغدر والخداع حتى يذهب مواطنونا إلى أسرهم ليلا وهم على يقين تام بأننا نقابل الغدر والخداع السوفييتى بمثله أو بأبشع منه. وعندما تصبح كل مقاييسنا النزيهة الثابتة، فى بناء علاقاتنا الدولية هباء منثورا عند أولئك الذين يمضون الساعات الطوال فى قاعات البيت الأبيض متظاهرين بالدهشة حيال الغدر الروسى. ويصبح على حكومتنا سلوك طريق لا مفر منه: ففى الوقت الذى ترفض فيه علنا التدخل بشؤون الدول الأخرى، نجدها تبحث عن أساليب مبتكرة خارج جهازها التقليدى لتفعل ذلك. وليس على الحكومة عندئذ إلا أن تسرع بتحديد معالم وحدود القضية المعنية، ومن ثم تقوم بإطلاق العنان لمدة قوى خفية، تتكفل بتصفيتها كليا، أو إزالة أخطارها، دون أن تتورط الحكومة رسميا فى أى جانب من جوانبها. وتبدأ اللحظة الحرجة عندما يبدأ الصراع المستتر بين هذه القوى ومثيلاتها فى الدول الأخرى وكلها تعانى من نفس المشكلة المشتركة بينها إلا وهى: إظهار النزاهة والاستقامة. وإضمار الغدر والخداع ونية التلاعب بالأمم والشعوب. وهكذا نصل إلى موضوع كتابى هذا وهو ما سميته «لعبة الأمم».

ولئن كان معظم هذا الكتاب يدور حول منطقة الشرق الأوسط عامة، والدولة المصرية خاصة، فإن مرد ذلك إلى بضعة عوامل، منها: أن هدف هذا الكتاب كهدف كلية إدارة الأعمال . فى أية جامعة - عندما تقوم بتدريس تاريخ إحدى الشركات الناجحة لطلابها، كمثل حى على مادة إدارة الأعمال. ومنها أنه قد أتاحت لى الفرصة تمضية زمن لا بأس به، أمارس كثيرا من تلك الأدوار المستترة بصفتى وسيطا طارئا لن يكون بين المدعوين ثانية، وهذا هو ما يسمى بديبلوماسية ما وراء الكواليس. ولهذا النوع من الديبلوماتسية أثر كبير، ظهر فى سلوك حكام تلك؛ المنطقة فى علاقتهم بالغرب، وعلاقات الغرب معهم، والذى كان يبدو لأول وهلة، أنه

سلوك يمجه الذوق السليم ويرفضه المنطق الصحيح، ويبدو فى ظاهره خطوط متقاطعة متباعدة لا يتوازى منها اثنان.

وأعتبر هذا الكتاب نموذجا حيا للتاريخ يهدف إلى إزاحة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الإمكانيات التى نجحت أحيانا فى أحراز نصر ديبلوماسى على بعض الدول الكبرى، وتمكنت مع الأيام من ممارسة دور أكبر من طاقاتها فى السياسة العالمية. وأوضح مثال على هذا دور عبد الناصر رئيس الجمهورية المصرية.

وأرجو أن لا يتبادر إلى ذهن القارئ أن الأخطاء والهفوات التى طرأت على علاقاتنا الدولية، كات نتيجة قرارات حمقاء، ولكنها فى الحقيقة ليست أكثر من سوء فهم عند بعض كبار المسؤولين لجوهر الأمور، أو سوء استعمال للوسائل المبتكرة لمعالجة أو استعصت على الوسائل التقليدية، وهذا واضح من معاملة الحكومة الأمريكية للرئيس عبد الناصر.

وليس هذا الكتاب أكثر من مجهود شخصى، استعنت لإخراجه بالكثيرين من أصدقائى المنخرطين فى السلك الديبلوماسى أو أجهزة المخابرات لدول عديدة حتى أتأكد من بعض منسياتى. ولكن ذلك لا يعنى إطلاقا أننى أحاول إلقاء بعض التبعات على كواهلهم نتيجة فضلهم هذا. وقد يجد القارئ، ومؤرخو تاريخ العالم، بعض المتعة فى قراءة هذا الكتاب. وسوف ترتسم ابتسامة السخرية على شفاههم عندما يتفحصون الوسائل التى اتبعتها حكومتنا فى إقامة علاقاتها مع الدول الاخرى، وفى النتائج التى انتهت إليها على مسرح العرائس، والتى لا يزال ينظر إليها الرأى العام العالمى على أنها أحداث ووقائع هامة.

وحتى لا أحيد عن هذه الغاية الموضوعية من كتابى، فإننى لم آت على ذكر المعلومات التى تتعارض واعتبارات الأمن فى كل من أمريكا وبريطانيا، إلا ما تسرب منها إلى الدول الاخرى عن طريق بعض العملاء المزدوجين (من أمثال كيم فيلبى، الذى شغل منصب مسؤول فى جهاز المخابرات البريطانى، وهو يخدم المصالح الروسية). وكذلك ذكرت كل ما تسرب إلى الصحفيين ونشرته صفحهم ومجلاتهم.

وسأبقى - ما استطعت إلى ذلك سبيلا - صادقا فى وصفى للأحداث، بطيئا عند منعطفات تاريخ الشعوب، مبتعدا عن اختلاق الأخبار مهما كانت واجباتى وارتباطاتى.

المؤلف

الأنظِمَة الثورية وَمشاكِل السُلطة

رفع هذا التقرير إلى الحكومة المصرية فى عام ١٩٥٣ جيمس ايخلبرغر خبير وزارة الخارجية الأمريكية بالأنظمة العسكرية فى الدول النامية.

-١-

مقدمة

إن جوهر الحكم هو القوة. فالحكم ليس مجرد اقتراح إجراءات عامة أو إصدار أحكام قضائية، ولكنه «اضطلاع» بهذه الإجراءات و«تنفيذ» لتلك الأحكام. ولهذا كانت المحافظة على السلطة هدفا فى حد ذاتها، لا يختلف فى هذا نظام عن نظام، مهما تعددت الأسماء وتبدلت الصور. وأما النجاح فى تحقيق ذلك فيبقى رهينا بانتقاء أكثر الوسائل ملاءمة وأضمنها نتيجة.

ففى الأنظمة الدستورية تلعب التقاليد و«القوانين الأساسية» دورا هاما فى فرض القيود على الوسائل المتبعة للمحافظة على السلطة. فالحكومة فى النظام الدستورى لا تملك أن تقوم بإلقاء القبض على زعماء المعارضة لمجرد أسباب سياسية. ولكن الأنظمة السائدة ليست كلها من هذا القبيل. فهناك أنظمة لا تخضع فى تصرفاتها لقيود واضحة المعالم محددة المعانى، بل ولا تجد حرجا فى اتباع كل المسالك التى تضمن لها السلطة، وتؤكد لها البقاء. ويشتهر هذا النوع باسم «حكومات الثورة» أو «الأنظمة الثورية».

ويعرض التاريخ لمبدأين أساسيين للمحافظة على السلطة وتجميعها فى يد الحكومة.

فالمبدأ الأول يقول باعتماد السلطة فى بقائها على إجراءات القمع والأرهاب أو باعتمادها

على سياسة البناء والإصلاح. ويتجسد هذان القولان فى شكلين متناقضين من أشكال أنظمة الحكم. فالقول الأول يتمثل فى نظام ظالم وحكم مستتد، يفرض نفسه على الشعب عنوة، ويرسم للمواطنين ما عليهم أن يسلكوه وينجزوه، دونما رأى منهم أو مشورة. وأما القول الثانى فيتمثل فى نظام شعبى وحكم مقبول (دون اشتراط الشكل الديموقراطى له)، يستمد قوته فى التنفيذ من رضا الأمة به وتأييد المواطنين له.

الا أن القولين السابقين لا يمثلان سوى نوعين من أنواع الحكم التى هى على طرفى نقيض. بل وأننا لا نجد فى التاريخ ذكرا لنظام حكم التزم حرفيا بواحد منهما وأخذه سنة له وهديا، دون شذوذ أو خروج. ولذا فإن من أولى المهام التى تواجهها أنظمة الحكم الثورية، هى انتقاء مسلك؛ معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط. فاختيار أنسب المساكل وأضمن الوسائل مهمة غير يسيرة، وعلى أهداف الثورة وغاياتها أن تحدد ذلك وتقرره.

الثورة التى لا تطمع أن تكون مجرد نظام حكم ديكتاتورى ساذج، والتى تطمح، فى الوقت نفسه، أن تكون أكثر من مجرد دسائس ومؤامرات تحاك فى ردهات القصور ودهاليزها، يتوجب عليها أن تحدد أهدافها على أساس من النقطتين الرئيسيتين التاليتين:

(١) فمن واجبها أن تجد الحلول لكل المشاكل السياسية والمعضلات الاجتماعية الملحة، التى اقتضت قيام الثورة نفسها، وجعلت نجاحها ممكنا، وبهذه الطريقة، دون غيرها، تتمكن الثورة من إزالة آثار نظام الحكم السابق، الذى أخفق فى تشخيص الداء ووصف الدواء.

(٢) ومن واجبها أن تكون قادرة على تطوير نظام دستورى جديد يخلد منجزاتها، ويحافظ على مكتسباتها، دون خوف من ردة، أو خشية من عودة إلى سيئات الماضى وآثامه.

فعندما تتوفر هذه الغايات ضمن الأهداف الأصلية للثورة، فإن النظام الثورى لن يجد نفسه مضطرا إلى الاعتماد كليا على وسائل القمع والإرهاب لبقاء حكمه إذا ما تبنى وسائل الإصلاح وسياسة البناء، ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فالقمع - بكل ما يعنى من مخابرات ومباحث وامن عام - لا يمكنه البقاء طويلا، وإن كان أحيانا ضروريا - ويجب ان تحل الإصلاحات محله تدريجيا وأن تطرده اعمال البناء أمامها نهائيا - دون رجعة أو عودة.

❖ والمبدأ الثانى الذى يذكره التاريخ لنا ضمن وسائل المحافظة على السلطة وبقائها، هو أن كافة إجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر - عاجلا أم آجلا - على «قاعدة الحكم» التى تتخذها

أساسا لها ومرتكزا. فمن ناحية أولى، فإن عبارة «قاعدة الحكم» تعنى مدى قدرة الحكومة على الصمود فى وجه المعارضة وكبحها لجماحها، ومن ناحية أخرى، فإنها تعنى مدى رضا الشعب بالحكومة وتأييده لها. وتتجسد قدرة الحكومة فى الوقوف ضد المعارضة فى قاعدة القمع والإرهاب التابعة لها. فى حين يتمثل رضا الشعب بالحكومة وتأييده لها فى قدرتها على ممارسة حكمها عليه دون اللجوء إلى وسائل القمع والإرهاب. وبعبارة أخرى. فإن قبول الشعب بالحكومة يتجسد فى قاعدة الإصلاح والبناء التابعة لها. وهكذا يتضح الآن ما ذكرناه سابقا من أن كافة إجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر - عاجلاً أم أجلا - على «قاعدة حكمها». فسياسة الحكومة وأعمالها الإدارية تقرر - مباشرة أو غير مباشرة - مدى حاجتها إلى استعمال وسائل الشدة والإرهاب وتحدد كل زيادة فيها أو نقصان.

إن الإجراءات الحكومية التى لها تأثير مباشر على «قاعدة الحكم» تهدف أساسا إلى المحافظة على السلطة وعلى ضمان استمرارها. وكمثال على الاجراءات المباشرة التى تخص قاعدة القمع والارهاب فاننا نذكر تلك الإجراءات التى من هدفها زيادة فاعلية الجيش، ورفع درجة ولائه. وضمان إخلاص أجهزة المخابرات والأمن العام، وغيرها من الأجهز الحكومية التى لها صبغة عكسرية. وكذلك تلك الإجراءات التى تنص على اعتبار بعض اصناف النشاط السياسى غير قانونية وبالتإلى يتعرض العاملون فيها إلى الاضطهاد والتعذيب. وكمثال على الإجراءات المباشرة التى تتصل بقاعدة البناء والإصلاح، فإننا نذكر تلك الإجراءات التى تشجع على ممارسة بعض أصناف النشاط السياسى، مثل تشكيل المنظمات الشعبية والأحزاب السياسية الموالية للحكومة، ويعتبر من هذا القبيل أيضا إصدار بعض التسهيلات الدستورية مثل قانون الانتخابات الذى يجب أن يمنح بعض الميزات والمنافع للفئات والطبقات الموالية لنظام الحكم القائم والمؤيدة لأهدافه.

ان كل ما يتخذه نظام الحكم القائم من تدابير ذات أهداف بعيدة - مثل تقوية الحالة الاقتصادية عامة - له تأثير غير مباشر على «قاعدة حكمه». كما لا ينكر مدى تأثيرها على الوضع السياسى العام فى البلاد. فعندما تقوم الحكومة بوضع الصعاب فى طريق إحدى الفئات المتمتعة بوضع اقتصادى قوى بغية شلها أو تصفيتها، فإن هذه الفئة تصبح بحكم الواقع منبوذة، بل وخارج «قاعدة الحكم» الموالية للنظام القائم. كما تصبح أيضا مرتعا خصبا لنمو الشعور المعادى له. وبالمقابل فإن أى تحسن فى الوضع الاقتصادى لإحدى الفئات أو الطبقات

نتيجة تدابير حكومية (سواء تحقق ذلك؛ آنيا أو كان على هيكل وعود مأمولة الإنجاز) فإن تلك الفئة أو الطبقة تنتقل تلقائيا من صف المعارضة إلى صف الموالين «لقاعدة حكم» النظام القائم حتى ولو كانت منبوذة سياسيا فى العهد السابق ومعادية له. ومع أن الغاية الرئيسية من إنشاء المشاريع العامة ليست سياسية، لكنه لا يجوز إغفال ما لها من آثار سياسية عامة، فتكتبلها للفئات الشعبية فى المناطق التى تنفذ فيها حول النظام القائم يعتبر مددا حساسا «لقاعدة حكمه» ودعما جيدا لوضع حكومته. ولا يقل عن هذا أى إصلاح أو تعديل فى نظام فرض الضرائب أو فى الأنظمة الإدارية الأخرى. ولا يخلو أن يكون لبعض الإجراءات تأثير مباشر على « قاعدة الحكم»، وفى الوقت نفسه، تأثير غير مباشر ولكنه مضاد للأول. فمثلا. وجود أعداد كبيرة من أفراد الجيش والأمن العام، أعضاء فى تنظيم سياسى غير قانونى، له تأثير مضاد وغير مباشر، على متانة ولاء أجهزة القمع والإرهاب للنظام القائم.

وعلى وجه التقريب، فإن كافة التدابير الإدارية والإجراءات الحكومية تتمخض عن نتائج سياسية مهما كانت غايتها الأساسية. ولذا فإن عبقرية زعماء الثورة وقادتها تنعكس دائما فى الدقة المتوخاه عند محاولتهم تقرير سياسة الحكومة حسب حاجات الشعب الذى يبقى دائما وأبدا مصدر الدعم الرئيسى للثورة. ومع أن زعماء الثورة لا يميلون إلى اتباع سياسة غير سياسة البناء والاصلاح. فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اللجوء إلى أقصى وسائل البطش والإرهاب حال إحساسهم بضرورة ذلك.

فإذا استوعبنا ما سبق ذكره، وأدركنا مقاصد معانيه ومراميه، وجدنا أن الاحتفاظ بالسلطة وضمان بقائها يتطلب الالتزام بقاعدتين أساسيتين هما:

(١) على حكومة الثورة أن لا تضع سياسة ما، أو تزمع على اتخاذ إجراء ما، حتى تحدد تأثير ذلك المباشر وغير المباشر على «قاعدة حكمها».

(٢) وعلى حكومة الثورة أن تعطى الأولوية لإنشاء «قاعدة حكم» متينة لدعم سلطتها، حتى لا تجد نفسها مضطرة، تحت ضغط الجماهير، لاتباع سياسة الانجراف والمساومات.

ومن الصعب العثور على أية نظرية محددة المعالم، مضمونة النتائج، لتساعد قادة الحكومات الثورية فى معرفة الإجراءات والأعمال التى لها تأثيرات سياسية مطلوبة، أو لتساعدهم فى تكوين «قاعدة حكم» تلائم النظام القائم وتحفظ عليه. إن نجاح الحكم الثورى

فى خطواته وامتلاكه «قاعدة حكم» متينة، يرتبط ارتباطا وثيقا بالوضع السائد فى داخل البلاد، كما يعتمد على بعد نظر القادة أنفسهم، واتساع أفقهم، وخصوبة مخيلتهم. وفوق كل هذا وذاك، فإن سر نجاحهم فى هذا كله، يكمن فى قدرتهم على الأخذ بزمام المبادأة، وفى مواجهة المواقف بجرأة وشجاعة، ومهما كان فالمرء لا يعدم أن يرسم بعض الخطوط العريضة العامة، ومنها:

(١) أن اللجوء لأساليب القمع أمر لابد منه، وخاصة فى المرحلة الأولى للثورة.

(٢) يجب أن لا يكون من ضمن أهداف النظام الثورى مجرد الحصول على التأييد الشعبى، فالتأييد الشعبى أمر مؤقت بل وزائل، ودخول النظام القائم فى ميدان منافسة كهذا، مع بعض الفئات (أو حتى الأفراد) الذين يعدمون فرص دخوله، سيجعل الثورة فى خطر ان تجد نفسها تابعة غير متبوعة. إن الشهوة الجارفة فى نفوس قادة الثورة لمجرد الحصول على تأييد الجماهير وضمان هياجها لصالحهم، تعتبر بادرة خطيرة، بل وقاتلة. فهى لا ترمز إلا إلى الضعف والانهيار فى «قاعدة الحكم» التى يعتمد عليها النظام القائم.

(٣) أن نظام الحكم الذى يود كسب تأييد الشعب له، بناء على سياسته فى الإصلاح والبناء، يجب أن يعتمد على دقة تخطيط سياسة الحكومة وعلى حسن تطويرها (وهذا عكس مجرد الحصول على الشهرة الشعبية)، مستخدمة فى ذلك كل وسائلها وأجهزتها، مباشرة وبصراحة، لإثارة عواطف الفئات والطبقات الكبرى من الشعب لصالحها، والظهور بمظهر الحريص على مصالحها والمحافظة على حقوقها.

(٤) أن لإجراءات السلطة تأثيرات غير مباشرة على «قاعدة حكمها» لا تقل أهمية عن تأثيراتها المباشرة عليها.

(٥) أن للتنظيمات الشعبية، غير التابعة مباشرة لنظام الحكم، أهمية خاصة فى إنشاء وتكوين «قاعدة الحكم» المؤيدة والعاملة فى سياسة الإصلاح والبناء أثناء عهد الثورة القائم، وأثناء مرحلة الانتقال إلى الشكل الدستورى للدولة.

(٦) أن الشكل الدستورى الجديد للنظام يجب أن يعتمد مباشرة على قوة سياسة الثورة فى الإصلاح والبناء.

(٧) أن قوة أجهزة المخابرات والمباحث، وحسن تنظيمها، وابتعادها عن الارتشاء والعبث، عوامل جد أساسية لتنفيذ تدابير قمع فعالة، وللقيام بتحليل دقيق للقواعد الجماهيرية المؤيدة لنظام الحكم.

-٢-

العهد الثورى

بعد كل هذا الاستعراض للخطوط العامة، أصبحنا الآن فى وضع ملائم لبدء تفحص المشاكل التى تواجه النظام الثورى فى احتفاظه بالسلطة واستمراره بالحكم كما هى على الطبيعة حقيقة. ولا مانع من إلقاء نظرة عميقة على المعطيات التى يحاول النظام الثورى الاعتماد عليها فى تصرفاته المباشرة، أو غير المباشرة. ولقد سبق أن أبرزنا أهمية هدفين أساسيين لكل ثورة تطمح أن لا تجعل من نفسها مجرد حكم ديكتاتورى ساذج، وهما :

(١) عليها أن تقوم بإيجاد الحلول للمعضلات السياسية والاجتماعية الملحة التى قضت بوقوع الثورة.

(٢) وعليها أن تطور وضعا دستوريا جديدا ليحافظ على منجزات الثورة ومكتسباتها أو ليخلدها.

ومع أن هذين الهدفين يقتضيان وجود مرحلتين للثورة، فمن المستحيل تحديد نهاية الأولى وبداية الثانية. وبوضوح أكثر، فالتمييز بين هاتين المرحلتين لا يتضح إلا من خلال التباين فى طريقة إظهارهما والتشديد عليهما. فنهاية العهد الثورى تتداخل وبصورة غير ملحوظة مع بداية عهد النظام الدستورى الجديد. والحقيقة أنه لا فائدة من تحديدهما بوضوح إلا لهدف المناقشة وتحليل الأحداث. وسنقترب من هذا (فى سياق تقريرنا» دون أن ننسى أن مرحلة وضع الدستور الفعلى تبدأ مع أول مراحل سياسة الإصلاح والبناء التى تقوم بها الثوزة، وأن استمرار بعض إجراءات القمع والإرهاب، لفترة طويلة بعد تدشين العهد الدستورى الجديد، أمر لابد منه. وسنرمز إلى المرحلة الأولى للثورة باسم «العهد الثورى»، وللمرحلة الثانية باسم «عهد ما قبل الدستور».

ولابد للثورة من أن تقوم بإلغاء بعض أو كل المؤسسات السياسية المنتشرة فى البلاد التى ثبت عدم قدرتها على حل المشاكل السياسية والاجتماعية الملحة التى اقتضت قيام الثورة. وهذا هو أنسب الاوقات وأصلحها لإحداث تطورات سريعة. تفقد بموجبها بعض الفئات والطبقات قوتها كمؤسسات سياسية، وتوضع فى موقف حرج تضطر معه إلى الدفاع عن نفسها وذلك بسبب التيار الجارف لطبيعة الانقلاب الجديد التى تقف وراءه القوات المسلحة. كما أن النجاح السريع لنظام الحكم، فى تكتيل الجماهير الغوغائية المؤيدة له تحت شعارات الإصلاح والبناء، له أكبر الأثر فى تدعيم الخطوة السابقة. ثم لا تلبث مرحلة «التدعيم والتعزيز الثورى» أن يأتى دورها بعد تلك الخطوات السابقة وبعد أن يكون الحكم الثورى قد اتخذ شكلا أوليا يؤهله لأن يخوض هذه المرحلة بكل ما يكتنفها من صعاب فعلية فى نواحى الإدارة وتخطيط السياسة.

وفى أثناء هذه المرحلة، تبرز الأخطار المضادة للثورة فى أقوى مظاهرها، وتنتج من أحد المصادر الثلاثة التالية:

(١) من أولئك الذين كانت لهم مصالح ضخمة فى نظام الحكم السابق. أو مؤيديه، أو ممن تطغى عليهم عاطفة جامحة فى تأييده.

(٢) من أولئك السياسيين الانتهازيين الذين يحاولون الاستفادة باستمرار من الاتجاه الطبيعى نحو الاضطراب وعدم الاستقرار الكامن فى الوضع الثورى.

(٣) من أولئك الساسة الهدامين الذين يحاولون سرقة الثورة وتسخيرها لأهدافهم ومآربهم، كالشيوعيين مثلا:

ومن هذه المصادر الثلاثة ـ مجتمعة أو منفصلة ـ تبرز الأخطار الثلاثة التالية:

(١) انقلاب عسكرى يقع نتيجة ارتباطات بين عناصر فى الجيش وقوى الأمن الداخلى، وبين بعض الزمر والجماعات الموجودة داخل حكومة الثورة نفسها.

(٢) انقلاب عسكرى مضاد يحدث نتيجة ارتباطات بين بعض العناصر من الجيش وقوى الأمن الداخلى، وبين القوى السياسية فى الخارج وخاصة تلك التى تملك القدرة على إثارة هياج ومظاهرات شعبية.

(٣) تسلل عناصر مناوئة لأهداف حكومة الثورة، ونجاحها فى الوصول إلى إحدى النتائج التالية:

أ- تحريف خبيث لبرنامج حكومة الثورة.

ب- إتلاف كامل لبرنامج حكومة الثورة.

جـ- إضعاف قدرة الحكم على الاحتفاظ بسلطته وبالتالى التحضير للإطاحة به نهائيا.

وبالضرورة، فليس هناك من وسيلة لمجابهة مثل هذه الأخطار، سوى استخدام سلطات الحكمة ـ علنا ودون تحفظ أو تقصير ـ لقمعها أو الحيلولة دون وقوعها واستفحال شرورها. ولقد نوهنا سابقا، أن اللجوء إلى إجراءات القمع والإرهاب أمر لابد منه فى المرحلة الأولى للثورة، على أن تحل سياسة الإصلاح والبناء محلها فيما بعد كأساس لاستمرار سلطة النظام القائم. وهذا هو التعاقب الصحيح لمراحل تقدم الثورة وتطورها. ومن العجب ان يتبع عدد غير قليل من الثورات عكس هذا الاتجاه، فمن الخطأ أن تعتمد الثورة، فى مرحلتها الأولى بإفراط على سياسة الإصلاح والبناء، ومن ثم تلجأ إلى إجراءات القمع والإرهاب كعامل حاسم لسحق أعدائها. إن هذا السلوك، بعينه، هو ذاك المرض الخبيث الذى تعانى منه الثورات، وهو الكفيل بالقضاء عليها قضاء مبرما.

والتحليل الموضوعى لما سبق ذكره هو كما يلى: يضطر قادة الثورة إلى انتهاج سياسة الانجراف والمساومات شيئا فشيئا. لأن الثورة لا تتمكن من إحكام قبضتها على أجهزة الدولة فى بداية عهدها، ولأنها لا تملك منح ثقتها لأجهزة القمع والإرهاب لشكها فى كفائة تلك الأجهزة ونفوذها. وستحاول قيادة الثورة أن تحافظ على السلطة عن طريق كسب الشهرة الشعبية. وإثارة أزمة نفسية لا تنتهى حيال طريقة توجيه شؤون الدولة ومصالحها. وهكذا تكون الثورة قد وضعت أهدافها جانبا، أو تركتها تحت رحمة الظروف والمناسبات نتيجة جهودها الخاطئة فى المحافظة على السلطة وفى ضمان بقائها. ولكن سرعان ما تفقد سياسة الانجراف والمساومات فرصها كلما اتضح إفلاس الثورة، وبان للعيان فشلها. وهنا تضطر حكومة الثورة إلى اللجوء إلى وسائل القمع والإرهاب، كما تضطر إلى تشكيل الأجهزة المنفذة له وتطويرها بسرعة وطيش، ولو افترضنا أن التطوير السريع لأجهزه القمع والإرهاب كان ناجحا، اضطرت الثورة عندها للاعتماد على القمع والبطش بإفراط. ولكن يحدث ذلك فى

الوقت الذى يجب على الثورة أن تكون منصرفة فيه نحو منح البلاد عهدا دستوريا جديدا. وهكذا تكون الثورة قد تفسخت حقيقة، وانقلبت إلى مجرد نظام ديكتاتورى وحكم مستبد. أما فى حال عدم نجاح قيادة الثورة فى تطوير أجهزة للقمع بالسرعة الضرورية وبالكفاءة اللازمة (وهذا ما يحصل عادة بسبب التأخير)، فإن حكومة الثورة ستجد نفسها مضطرة إلى الانتقال انقلابيا إلى نظام دستورى جديد، دون أن تكون قد استكملت بعض أو كل مقوماته، أو حققت بعض أو كل أهدافه. وهذا هو أهون الشرين وأخف الضررين. أما اذا جرت الرياح عكس ما تشتهيه الثورة وتتمناها، فإن النظام الثورى بأكملة سيقع ضحية ثورة مضادة لا تبقى ولا تذر.

ويتضح من هذا كله، أن سياسة الانجراف والمساومات هى حليفة الثورة المضادة، كما أنها جرثومة فتاكة فى داخل جسم الثورة نفسها. فعندما يتذكر المواطنون أن سياسة حكومة الثورة لا تختلف عن سياسة حكومة العهد البائد التى كانت السبب المباشر لقيام الثورة ضده والإطاحة به. هذا إن لم تكن نسخة مماثلة له. فإنه يصبح مؤكدا أن سياسة حكومة الثورة الحالية ستشكل دافعا مشجعا لكل أولئك الذين يطلعون إلى نسف الثورة وسحقها دون رحمة أو هوادة.

أن قاعدة القمع والإرهاب التى يجب على حكومة الثورة أن تلجأ إليها عند الضرورة تتألف فى هيكلها مما يلى:

١- الأنظمة والقوانين.

٢- قوى الأمن الداخلى.

٣- أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية.

٤- وسائل الدعاية.

٥- قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش.

◆ **الأنظمة والقوانين:**

إن الاستعانة بالأنظمة والقوانين لتحقيق الاستقرار السياسى خلال الفترة الأولى من حكم الثورة أمر ضرورى لابد منه. وليس من ذلك تحريم النشاطات الساسية المنظمة التى لا ترغب

السلطة الحاكمة بها فحسب ، بل الهدف منها أيضا إضفاء صبغة اللاشرعية على كل النشاطات الهدامة والداعية إلى الشغب والفوضى. وأفضل الإجراءات فى هذا المضمار، هى مراجعة كافة الأنظمة والقوانين القائمة التى لها علاقة بتلك الموضوعات، وتعديل ما يلزم منها حسب الظروف الجديدة، ثم توضيحها وجمعها فى مرسوم واحد (أو مجموعة مراسيم) وتعميمها على أوسع قدر ممكن. وهكذا تصبح هذه التشريعات أساسا للمحافظة على أمن الدولة. كما أنها تقوم بتوحيد مهمة قوى الأمن الداخلى وأجهزة المباحث (وزارة الداخلية)، وتوضح كذلك واجبات المواطنين وحقوقهم. وفى الوقت الذى يجب أن تكون هذه التشريعات واضحة قدر المستطاع. فإنها يجب أن تبقى أيضا عامة حتى لا تعيق الحكومة نفسها، وتسلب رجال السلطة حرية التصرف المطلوبة. كما يجب ان لا تظهر هذه التشريعات على أنها لصالح فئة - أو طبقة - وضد أخرى، أو أنها تعطل بعض الحريات العامة كحرية التعبير والانتقاد وغير ذلك. ولكنها بنفس الوقت يجب أن لا تكون عقبة كأداء فى وجه سلطة النظام القائم، أو أن تحول دون اتخاذها الإجراءات اللازمة لحماية نفسها، وعلى هذه التشريعات أن تحقق غايتها المرجوة ألا وهى اعتبار كافة أعمال التآمر- كقلب نظام الحكم، أو تأييد الذين يفكرون بهذا والدفاع عنهم، أو ترويج الشائعات الكاذبة، أو بث الذعر بين الناس، أو إشاعة جو الكآبة مما يحرض الناس على أعمال العنف، أو الإدلاء بأسرار الدولة الرسمية، أو القيام بأعمال التجسس والتخريب - أعمالاً غير قانونية تستحق العقوبة والجزاء. كما يجب عليها أن تمنح قوى الأمن الداخلى الحق فى تحريم الاجتماعات العامة والتجمعات التى تبلغ حد الخطر فى الشوارع، وتفرض الحصول على إذن مسبق لإقامتها. ومن المسلم به جدلا، خضوع السلطة القضائية برمتها. دون استثناء - لإرادة حكومة الثورة. كما أن كافة الأحكام الصادرة بحق المخالفين لأنظمة أمن الدولة، يجب أن لا تكون - بأى حال من الأحوال - مخالفة لرغبة حكومة الثورة وانشراح صدرها.

◆ قوى الأمن الداخلى:

يجب على قادة حكومة الثورة إعطاء أجهزة قوى الأمن الداخلى (الشرطة والمباحث والأمن العام) الأولوية على سائر الأجهزة الأخرى فى الدولة. فقوى الأمن الداخلى تعتبر بمثابة الدرع

الحامى لنظام الأمن فى الدولة وضمان استتبات الأمن والنظام فى الأزمات التى لا تبلغ حدا خطيرا يتطلب معه استدعاء الجيش. ولهذا يتوجب القيام بتفحص وتحرى كامل هيئة قوى الأمن الداخلى وعملياتها باستمرار حتى يُضمن ولاؤها. ويحافظ على حسن أدائها لمهماتها. وعلى قيادة الثورة منح رئيس قوى الأمن ومساعديه ثقتهم التامة، كما عليهم أن يولوا تطوير فاعلية تلك الأجهزة فى حفظها للأمن عنايتهم الشخصية والمباشرة، وهذا يعنى بالضرورة إضفاء الصبغة السياسية على كافة أجهزة قوى الأمن الداخلى، لتكون عند الضرورة يدا موالية لحكومة الثورة بصفة شبه عسكرية.

إن من مهمات أجهزة المباحث التابعة لقوى الأمن الداخلى ما يلى: تجميع كافة المعلومات الماسة بوضع الأمن فى الدولة عن طريق إنشاء شبكة واسعة للتحريات، وإجراء التحقيقات السريعة فى قضايا الأمن بممارسة الطرق العادية للمراقبة والاستنطاق والتسلل إلى المستويات الدنيا لكافة الجماعات المشكوك فى ولائها للثورة. كما أن عليها القيام بتطوير جهاز فعال ضد المظاهرات والاضطرابات.

◆ **أجهزة المخابرات:**

إن دماغ كافة أجهزة الأمن لنظام حكم ثورى (أو حتى لأية دولة أخرى)، والمركز الحساس لها، هو ذاك الجهاز الذى هو على غاية من السرية، والذى لا يعرف تفاصيل وجوده سوى رئيس النظام الحاكم ومن حوله من زعماء الثورة القياديين. ويطلق على ذاك الجهاز اسم «المخابرات». وتقع على عاتق هذا الكيان المتغلغل فى كافة ارجاء أجهزة الحكومة ودوائرها (وحتى خارج اجهزة الحكومة) مسؤولية تزويد رئيس الدولة بالمعلومات الكافية لتخطيط سياسة أمن عامة. ومن مهام هذا الكيان أيضا معرفة كامل النشاطات المعادية للدولة والضارة بأمنها، سواء القائم منها فعلا أو المبتدئ حديثا، وسواء الواقع داخل نطاق الحكومة أو خارجها، وسواء الشامل منها لوزراء الدولة أو لضباطها فى القوات المسلحة والأمن الداخلى.

ولتحقيق هذه الأهداف وإنجاز تلك المهمات لابد لهذا الكيان أن يتمتع بالحرية المطلقة فى الاطلاع على كافة إنتاج أجهزة الأمن الداخلى وأجهزة المباحث والمخابرات الأخرى (ويسمى عندئذ هذا الكيان باسم الجهاز الخاص). كما يجب أن تكون لديه القدرة على الإشراف. عن

طريق رسائله، المعروفة منها أو السرية - وبصورة خاصة، على أهم أجهزة الأمن الداخلى. وفوق كل هذا وذاك، فإن من أخص مهام أجهزة المخابرات عامة امتلاك المعطيات اللازمة والقدرة الكاملة بغية التسلل إلى أعلى المراتب والمناصب فى كافة النشاطات المشكوك؛ فى ولائها للثورة.

◆ الدعاية والإعلام:

من الخطأ اعتبار الدعاية سلاحا أساسيا لضمان أمن الثورة. فالدعاية فى حد ذاتها لا تعدو كونها سلاحا مساعدا لاستمرار السطة وبقاء النظام. كما أن الاعماد على الدعاية كليا يعتبر مخاطرة غير قليلة، وذلك لأنها تدفع بسياسة الحكومة إلى وضع تجد معه نفسها موجهة من قبل احتياجات الدعاية بدلا من أن يكون العكس. وهذا هو اقصر الطرق المؤدية بالثورة إلى سياسة الانجراف والمساومات. وعلى حكومة الثورة أن تقوم بشن حملات دعائية مركزة تهدف إلى إعطاء تبرير مقنع لاستمرار استخدامها لوسائل القمع والإرهاب. كما أن من أهداف تلك الحملات تكشف النقاب عن أعداء الثورة وفضح النشاط إليسارى.

ويجب أن تستحوذ مسألة الدعاية المضادة - التى تقوم القوى المعارضة للثورة بينها - على اهتمام خاص. بسبب ما يمكن أن تثيره من مشاكل، مثل مطالبتها بحرية الصحافة والتعبير عن الرأى. كما أنه يتعذر إيجاد حل لمشكلة مراقبة الصحافة خلال العهد الثورى دون أخذ بعض المشاكل والظروف الأخرى بعين الاعتبار. ومهما كان، فعلى حكومة الثورة أن تكون مستعدة لفرض المراقبة على الصحافة حال إحساسها بضرورة ذلك. إلا أنه يمكن ضبط الصحافة فى غالب الأحوال من خلال ممارسة بعض الضغط من قبل الحكومة. بأشكال عديدة، دون اللجوء إلى المراقبة الصريحة. فيكفى مثلا تعيين مستشار لكل هيئة من هيئات تحرير المجلات والصحف. وذلك بقصد إبداء الرأى بكل ما هو معد للنشر كالقصص والأخبار، ولإعطاء النصيحة والتوجيه بخصوص المواد الصحفية التى تعالج القضايا العامة المهمة. ويمكن إصدار بعض المراسيم - التى يمكن أن توصف بأنها مرتبطة بوضع الأمن داخل الدولة - بغية تدعيم سلطة أولئك المستشارين عند الضرورة. كما يمكن تحقيق ذلكم عن طريق التهديد بتنفيذ بعض الأنظمة المتعلقة بإثارة الشغب وتهديد الأمن. وكذلك بالتهديد بزيادة الضرائب والرسوم على الصحف والمجلات، وفرض غرامات مالية كبرى عليها.

◆ **القوة العسكرية:**

فى الوقت الذى لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم، فإنه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذا اهمية مسلم بها جدلا. فمن أكثر الأمور أهمية، توفر جهاز فعال جدا للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام فى داخل القوات المسلحة، ومن المستحسن وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش. ومن المهم، فوق كل هذا وذاك، إدخال التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب القوات المسلحة، كما يجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن المرتبات فى الدولة، وحتى يصبح ذلك الجيش - باختصار - «جيشا مواليا تملأ الغبطة قلوب أفراده، ويغمر السرور نفوس ضباطه».

إن اجتماع كل هذه الأجهزة التى استعرضناها آنفا، يعطى الثورة جهازا ضخما لحماية أمنها، وتأمين استمرارها. واذا ما تم استخدامه بحكمة كافية وعقل راجح فإنه لا يوفر حماية كافية للثورة ضد اعدائها فحسب، بل ويزود حكومة الثورة برصيد مهم يؤمن لها حاجتها من الاستقرار السياسى، والضرورى للبدء بتنفيذ سياسة الإصلاح والبناء. وفى مثل هذه الظروف فقط، تتمكن الثورة من إرساء قواعد جديدة للحياة السياسية فى الدولة، وذلك على أساس من تلك الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الهامة التى تنجزها نتيجة إجراءات مباشرة أو غير مباشرة. وهكذا ، فإن إرساء مثل هذه القواعد للحياة السياسية المقبلة - ويمكن أن تبدأ الثورة هذا الإرساء منذ أيامها الأولى - هو بعينه «فترة ما قبل العهد الدستورى» الذى تطمح الثورة لبلوغه بصحة ونشاط.

-٣-

عهد ما قبل الدستور

يجب على زعماء الثورة أن يتطلعوا منذ إليوم الأول لحركتهم إلى تطوير الثورة وتحويلها إلى نظام دستورى جديد. فالثورات الأصيلة والمنبثقة من ضمائر الشعب لا تنوى إطلاقا إقامة أنظمة ديكتاتورية مستبدة، بل تعمل جاهدة لإعادة الوضع الدستورى والحيوى لاستقرارها، فى أقرب وقت ممكن ـ وعلى الأقل ـ عن طريق إعطاء العهود وبذل الوعود. ولكن تبقى هناك مشكلة التعاقب بين العهد الثورى والعهد الدستورى. والطريقة التى يخلف العهد الثانى الأول بها، ويحل محله دون تقهقر أو هزيمة، فزعماء الثورة لن يخلدوا، وحماسة الشعب للثورة لن تبقى للأبد بل ستضعف وتذبل. ولهذا كانت أنجح الوسائل لإجراء عملية التعاقب بشكل منتظم ومستقر (ودون الحاجة للقيام بثورة أخرى). هى تلك التى تستخدم أى نوع من أنواع «الانتخابات النيابية»، التى غالبا ما تقود إلى عهد ذى صبغة دستورية مهما كان مشوه الحقيقة ممسوخ الفاعلية.

وبما أن زعماء الثورة والمؤيدين لها، يرغبون فى تخليد منجزاتها، فمن الضرورى إذن، التنبؤ بمصادر الخطر الجديدة والتنبه لها. ويحدث ذلك، كنتيجة لمحاولة أعداء الثورة التسلط ثانية على السلطة السياسية فى العهد الدستورى الذى يعقب العهد الثورى. وغالبا ما يتم هذا بسهولة تامة إذا ما أخفقت الثورة فى تدعيم دور تلك الفئات والطبقات ـ التى حققت الثورة خدمات ومنافع لها ـ وتقوية فاعليتها. كما يقع نفس الشىء إذا ما عجزت الثورة عن تطوير نظام دستورى جديد، يضمن لتلك الفئات والطبقات أكثرية عظمى. وها هى بعض تلك الأخطار:

(١) أن الأحزاب السياسية القديمة سوف تنتعش ثانية، ولا يستبعد أن تمتلك القدرة اللازمة لإعادة أعداء الثورة إلى السلطة.

(٢) ربما تظهر إلى الوجود أحزاب سياسية جديدة، وعن طريقها ستعود الشعارات القديمة والأهداف السابقة للتداول، وعندما تمتلك هذه الأحزاب القدرة اللازمة لإعادة أعداء الثورة إلى السلطة، فإنها لن تتأخر فى فعل هذا أبدا.

(٣) ربما تتم السيطرة لبعض السياسيين (الذين يخالفون الثورة فى أهدافها) على أى حزب ثورى يمتد وجوده إلى العهد الدستورى. وذلك نتيجة ما لديهم من قدرات وخبرات سياسية فائقة تخلفت عندهم من العهد البائد قبل الثورة أو اكتسبوها حديثا. وهكذا، فمع وجود حزب ثورى على رأس السلطة فإن مصالح أتباعه وأشياعه لن تكون موضع اهتمام حقيقى أو تنفيذ بناء.

(٤) ويجب على النظام الدستورى الجديد أن لا يتخذ شكلا يشجع ظهور عده أحزاب متعادلة القوة تقريبا. ذلك أن وضعا كهذا، لن ينتج عنه سوى عدم الاستقرار السياسى لوجود أحزاب بشعارات قديمة ولكنها فى موقف قوى لإجبار غيرها على اتباع سياسة المساومات والحلول الوسطى. وبهذا يتحقق لها الانقضاض على بعض منجزات الثورة أو كلها.

ومن الممكن تفادى كل هذه الأخطار إذا قامت حكومة الثورة بالاستفادة من الميزات الفريدة التى يمنحها إياها احتكارها الكلى للنشاط السياسى القانونى فى أوائل عهدها. فى وضع أسس لنظام دستورى جديد، يسود فيه حزب واحد، هو وحده وريث الثورة الشرعى فى العهد الدستورى الجديد. وله وحده الدور الحاسم فى تسيير دفة الأمور.

وللوصول إلى وضع نموذجى كهذا، يتوجب على حكومة الثورة أن تخلق منظمة شعبية تتدرج بدقة وانتظام حتى تصبح نهائيًا حزبًا سياسيا، وهى بنفس الوقت، توفر للمنتمين لها من المقترعين والسياسيين الثوريين مجالا جيدا لإجراء التمرينات والتجارب على الحياة السياسية ومعضلاتها. وعندما يحين الوقت لمنح البلاد الدستور الجديد، فإن على حكومة الثورة أن لا تنسى أن تصوغه بصورة تعطى الحزب الثورى فرصا مطلقة لا منافسة فيها.

المنظمة الشعبية

◆ ما هي:

مهما تعددت الأسماء واختلفت، فإن النوع الذى يعنينا فى مجالات المنظمات الشعبية هو ذاك؛ النوع الذى يبقى خارج نشاط الحكومة الرسمى. ففى هذا النوع من المنظمات الشعبية يقوم زعماء الثورة، بالتعاون مع بقية موظفى الحكومة ومستخدميها، بإنشاء منظمة شعبية تشترك؛ فيها جماهير غفيرة من المواطنين غير الرسميين، وتدعى هذه المنظمة أهدافا وشعارات مثل تلك التى تنادى بتدعيم الثورة والمحافظة على مكتسباتها وزيادة منجزاتها. وعلى هذه المنظمة أن لا تظهر بمظهر حزب سياسى أثناء الفترة التى تكون الانتخابات فيها معلقة، والأحزاب السياسية محرمة قانونيا، دون أن يؤدى هذا إلى إغفال تنظيمها على غرار حزب سياسى، لتكون مستعدة لانتخابات تجرى فى المستقبل عاجلا أم آجلا. وكنتيجة لهذا يجب أن تكون لها قيادات محلية، إقليمية وقطرية ومسؤولون متفرغون لرسم مختلف احتمالات سيرها وتخطيط سياستها. كما يجب أن يتوفر لها جهاز إدارى عامل وآخر للانضباط. وعلاوة على كل ذلك. فإن قيام أمانة عامة لها، متفرغة لشؤونها، مع لجان متعددة لمختلف المهام. مثل الدعاية والنشر، أمر حيوى لبقائها فى الطليعة متماسكة ومهيمنة.

◆ غايتها:

لا يجوز الإفصاح عن الغاية الحقيقية لإنشاء مثل تلك المنظمة. وكل ما يشاع عن أهدافها هو أنها وجدت لتوثيق الروابط الأخوية بين العناصر المؤيدة للثورة وأهدافها. ولكن هدف إنشائها حقيقة، إيجاد جبهة للدعاية لصالح النظام الحاكم، ومن ثم تطورها إلى حزب سياسى - الحزب الثورى - يمارس مهمام الحكم فى المستقبل. ويتم ذلك عن طريق استقطاب قواعد وطبقات جديدة من الشعب، وغمسها فى نشاط سياسى مدعم وبدون انقطاع، وتوفير التدريب الضروراى لها على هذا النوع من النشاط ، ومحاولة إقناعها بفائدته وبأهميته فى حصول الفرد على أحسن مردود لحياته (داخل مجتمعه ودولته) عن طريق إظهار وقائع عملية ملموسة لتلك الفائدة والأهمية.

◆ **كيف يمكن تحقيق هذه الغايات:**

إن سر نجاح هذه المنظمة هو بقاؤها بقرب السلطة الحاكمة، واستمرار إشراف الثورة عليها، اشرافا غير رسمى. كما أن مفتاح بقائها هو عدم سماح الثورة بظهور أى منافس لها. فهى وحيدة فى الميدان، عزيزة على قلب الثورة التى تصبر عليها، وتتقبل النقد منها بكل رحابة صدر وسعة. أما كبار قادتها، فيجب أن يكونوا نموذجا طبق الأصل من كبار زعماء الثورة، وقادة الحكم، فى معظم نواحى تفكيرهم وحياتهم. وعندما تتوفر مثل هذه الظروف فى المنظمة والانخراط فى سلكها. وتشكل الخدمة المدنية معينا لا ينضب للملاكات (الكادرات) العاملة فى هذه المنظمة. وكمثال على هذا، فإن التحاق موظفى الدولة ومستخدميها بالنشاطات التابعة لهذه المنظمة، كشرط لاستمرار خدمتهم فى سلك الحكومة، يمد المنظمة بأفواج ضخمة من المنتسبين إليها والعاملين فيها. وعلاوة على كل هذا، فإن ما تتمتع به الحكومة من حرية إدارية واسعة، وسلطات غير محدودة فى مجال إنجاز المشاريع العامة، توفر لها طاقة ضخمة، سهلة التسيير والتسخير، لخدمة أهداف المنظمة الشعبية وغاياتها، (كما تعتبر هذه فرصة رائعة للعمل غير المباشر فى مجال بناء المرتكزات الشعبية للثورة). ويجب أن تكون المناصب فى المنظمة بمثابة المكان الذى يوضع فيه الجماعات والأفراد الراغبون فى التأثير على النظام القائم موضع المراقبة والامتحان. ضمن حدود إدارة فعالة وسياسة وطنية صحيحة. وحتى تعرف طريقة تعاملهم مع كبار الرسميين المسؤولين عن الشؤون العامة ونوعية الصفقات التى ينوون الدخول معهم فيها.

إن الحكومة تملك نعما كثيرة تستطيع فى خلال تسييرها لشؤون الدولة الإدارية الروتينية إسباغها على العاملين فى مثل هذه المنظمة ولا سيما عندما يقع بعضهم فى ورطات يصعب التخلص منها اثناء تنفيذ القوانين والأنظمة المختلفة، ولهذا يجب أن يكون واضحا (دون أن يعلن عن ذلك رسميا) أن التأييدى النشيط للمنظمة والدعوة المتواصلة لها هما من أضمن الطرق للحصول على المغانم السالفة الذكر. وفى مقابل الخدمات التى تقدمها تلك المنظمة الشعبية، فإن أنظار العديد من أفراد الشعب ستتجه إليها، وستستحوذ على اهتمام أولئك الذين قلما يثير فضولهم أمر ما. وعن طريقها ايضا يمكن الحصول على التبرعات المالية بسهولة أكثر ويسر أوفر. وعندما يتضح المفهوم الأساسى لمثل هذه المنظمة الشعبية فى الأذهان فإن الشكل الدقيق لنشاطها، بحدوده العملية كلها، سيكون مناظرا تماما لحالة الثقافة

العامة داخل البلاد. كما سيكون وجه النشاط فى انسجام مع الحالة الاقتصادية والاجتماعية للفئات والطبقات التى تؤيد المنظمة وتساندها. وسيتصاعد نشاط المنظمة اطرادا مع مدى تشرب أفرادها أفكار الثورة السياسية، ومدى انفعالهم عاطفياً معها، ومع التسهيلات التى تقدمها والمساعدات التى تبذلها الحكومة لهم. إن قائمة نشاطات منظمة كهذه ستحيط بعدد كبير من المشاكل والواجبات. ويشمل ذلك النشاط الثقافى (كإلقاء التوجيهات الأولية فى الحقوق المدنية والتربية الوطنية والإجراءات الانتخابية وتنظيم جهاز الحكومة والتاريخ السياسى الخ) وإصدار الصحف وتنظيم المظاهرات والمؤتمرات الجماهيرية. كما يشمل تقديم العون المباشر للحصول على وظيفة فى سلك الحكومة. وإلى غير ذلك من النشاطات التى لا عدد لها ولا حصر.

ويجب أن لا تغيب عن البال قطعيا تلك الحقيقة الهامة وهى: أن هذه المنظمة الشعبية جزء من المرتكزات الشعبية لنظام الحكم الثورى. وأنها ستبقى على البمسرح بعد انتقال امتيازات الحكم الخاصة بحكومة الثورة إلى النظام الدستورى الجديد. كما أن هذه المنظمة ستصبح الحزب السياسى الوحيد. الذى سيضطلع بحمل تقاليد وأعراف الثورة للأجيال المقبلة التى لن تنظر إليها بعين الرضا، ولن تردد بمعاكستها على شكل ردود فعل ضدها.

◆ الدستور الجديد:

إن نفس الصعوبة التى برزت سابقا عند محاولة شرح وتحديد هيكل ونشاط المنظمة الشعبية بالدقة اللازمة، ستبرز ثانية عند محاولة رسم صورة دقيقة للنظام الدستورى المثالى الذى يجب ان يخلف عهد الثورة. ولكن هناك ظاهرتين هامتين جدا يجب أن تتوافرا فى الدستور الجديد إذا كانت القاعدة الشعبية لنظام الحكم الثورى راغبة بالبقاء لمدة طويلة ودون نقص فى فاعليتها. وهما:

(١) يجب أن يتألف الدستور الجديد المدون من نصوص ومبادئ عريضة، مع ترك الترتيبات الجزئية للقوانين العادية لتوضيحها والتفصيل فيها. وحيث إن الحزب الثورى سيكون القوة السائدة والمسيطرة، فمن الضرورى إذن ترك المجال واسعا أمامه لكتابة الدسيتور وتعديله حسب مقتضيات زمانه وخبرة زعمائه، وترك مرونة كافية له لمواجهة الظروف والحالات الطارئة حديثا.

(٢) ويجب أن يفسخ الدستور المجال أمام ظهور سلطة تنفيذية قوية، تتمتع بشعبية واسعة نتيجة انتخابها من قبل الأغلبية، كما يجب على الحزب الثورى أن يتأكد من سيطرته على السلطة التنفيذية كشرط أساسى لاستمرار تفوقه العددى وفاعليته التنظيمية إلى أقصى الحدود الممكنة. وبالوقت نفسه فعلى السلطة التنفيذية أن تكون فى مركز قوى تجاه السلطة التشريعية.

ومن المستحسن التذكير ثانية بأهمية الاقتراحين السابقين: أولهما أن الدسيتور المدون يجب أن لا يتضمن أكثر من مبادئ عامة وخطوط عريضة، وثانيهما أنه يتوجب على الدستور أن يتيح ظهور سلطة تنفيذية قوية. إن الدستور المدوَّن يجب أن يبقى وثيقة دائمة هدفها تحديد وتنظيم طبيعة وشكل النظام السياسى للبلاد. ويجب على النظام القائم، بعد الموافقة على الدستور وتبنيه رسميا، أن يضفى عليه صبغة من القدسية يصعب معها التغيير فيه والتبديل. إن لم يكن هذا مستحيلا. وعندما يتضمن الدستور مجموعة من التفاصيل الدقيقة إلى جانب المبادئ العامة، فمن الواجب عندئذ إظهار تلك التفاصيل أيضا بنفس مستوى قدسية المبادئ العامة. ومهما يكن، فإن لهذه النقطة خطورة خاصة لسببين: أولهما، يجب أن تتمتع تفاصيل نظام الحكم بمرونة كافية تبيح تعديلها عند تغير الظروف. وثانيهما فعندما يتضمن الدستور المدون هذه التفاصيل. فإن هذه الأخيرة تكتسب صفة ديمومة الدستور نفسه مما يجعلها صعبة التغيير والتعديل. وعلاوة على هذا. فإن وجود فقرات مفصلة ونصوص مشروطة فى الدستور يترك سلاحا فى يد الأقلية غالبا ما تتمكن به من هزيمة إرادة الأكثرية وخاصة فى بعض القضايا السياسية الحيوية. والمثال التإلى خير توضيح لما سبق ذكره. فغالبا ما يظهر أثناء مناقشة الدستور للموافقة عليه وتبنيه رسميا اتجاه نحو اشتراط تأمين أغلبية ثلثى الأصوات بدل الاكتفاء بالأغلبية البسيطة فى المجلس النيابى (البرلمان) عند التصويت بالموافقة على إصدار بعض أنواع خاصة من القوانين والتشريعات. ولكن قد يحدث، مع مرر الزمن وتبدل الظروف، أن نوعا من أنواع تلك القوانين والتشريعات لم يعد يتلاءم والأوضاع الجديدة. وأن هناك ضرورة لتعديله أو تغييره. ولكن، فى حالة كهذه قد تنبرى الأقلية البرلمانية (وربما بدافع أهداف خاصة) لتقف فى وجه إرادة الأغلبية محتجة بتفاصيل الدستور وشروطه. فهو كانت تلك التفاصيل مجرد قوانين لا اكثر. وليست نصوصا فى وثيقة الدستور. لما كان هناك داع لظهور مثل هذه المعضلات.

إن الإعداد لقيام سلطة تنفيذية قوية وقادرة ـ بحسب الدستور ـ له أهمية فائقة. إن أشد الأرزاء التى تصيب الحكومات. التى تواجه سلطة تشريعية متفوقة عليها بسلطاتها وصلاحياتها: هى عدم الاستقرار السياسى. الذى ينتج عن تشرذم البرلمان إلى عدة أحزاب وتكتلات صغيرة. وحيث إن الحزب الواحد (ولو كان الحزب الثورى) لا يتمكن من فرض سيطرته على كل شىء بأغلبية مطلقة إلا نادرا، فإن السلطة التنفيذية تبقى دائما تحت رحمة اتجاهات الائتلاف البرلمانية. والتى غالبا ما توصل إلى سياسة الانحراف.

وبالمقابل، فعندما تكون السلطة التنفيذية أقوى من السلطة التشريعية. أو على الأقل بقوتها (وهذا ما يحدث فى الحالات التى تكون السلطة التنفيذية منتخبة انتخابا مباشرا وليست معينة من قبل البرلمان، مثل انتخاب رئيس الجمهورية من الشعب مباشرة) ـ فإن الوضع يكون عندئذ متوازنا ـ وعندما تتوفر سلطة تنفيذية قوية كتلك، فإن الحزب الذى يملك أغلبية أصوات الناخبين يتمكن عندئذ من السيطرة على كل من السلطة التنفيذية والغالبية البرلمانية. وبهذه الطريقة، دون سواها، يتهيأ للبلاد جو من الاستقرار السياسى، ملازم لطبيعة النظام السياسى وتركيبه.

وخلاصة الكلام: أن على نظام الحكم الثورى تقديم دستور للبلاد يتصف بالواقعية. فالوثائق الرسمية الصادرة عن لجان وضع الدستور والمؤلفة من أساتذه الجامعات والقضاة، غالبا ما تُسَوَّد فيها وجهات النظر المعروفة فى كتب القانون التى تهتم بالمفاهيم المعقدة لأجهزه الحكومة والتفاصيل الدقيقة لنظريات القضاء. إلا أنها نادرا ما تتطرق إلى النواحى العملية والواقعية للحياة السياسية الحقيقية فى داخل البلاد، والتى لأجلها، دون سواها، تسن الأنظمة، وتوضع الدساتير.

-٤-

الخاتمة

لقد كان واضحا تماما منذ بداية هذا التقرير، أن المحافظة على السلطة هى هدف فى حد ذاتها، لا يختلف فى هذا نظام عن نظام. ولكى يتيسر هذا فلابد من توفير القوة السياسية لهذا النظام ليصبح حكما ذا فاعلية جيدة. وتتوفر عادة هذه القوة السياسية فى كل المجتمعات مهما كان وضع تنظيمها وحالته. إلا أنها إما أن تكون علنية، أو تبقى كامنة فى المجتمع مدخره فيه. ولكن النقطة الحاسمة فى هذا المجال هى أن القوة الكامنة تبقى فى معظم مراحل الحكم أكثر بكثير من تلك التى تظهر علنا وتصبح أمرا واقعا. ففى الدولة الدستورية، تحد اعتبارات الشرعية أو القانونية نشاطات الحكومة فى تشكيلها للقوة السياسية، بنفس النسبة التى تحد نشاطات أولئك الذين تتعارض مصالحهم مع النظام القائم. أما نظام الحكم الثورى، فإنه لا يقيم وزنا لمثل تلك الاعتبارات، وذلك لأن اسم «الثورة» نفسه وتعريفها لا يملكان أيا من معانى الشرعية أو القانونية. وهذا هو مصدر ضعف الثورة باستمرار، وكما أن عدم شرعية الثورة وقانونيها لا يضمان أى قيود لنشاطها لتوفير القوة السياسية اللازمة لها، فإن كل ما عجزت الثورة عن تجنيده وتسخيره من القوى السياسية المدفونة فى المجتمع لا يخضع إطلاقا فى نشاطه وتفجره لاعتبارات الشرعية أو القانونية ولذلك يبقى تحقيقه خطرا كامنا يهدد باستمرار أمن الثورة وبقاءها.

وهكذا يبقى امام نظام الحكم الثورى طريقان لا ثالث لهما لمعالجة هذا الخطر المهدد لكيانه. فأول هذين الطريقين ذو نهاية خطيرة، مع أن بدايته تبدو للوهلة الأولى على أنها أساس النفعية، والنزوع إلى جر المغانم بأيه وسيلة كانت وهذا ما أطلقنا عليه آنفا اسم «سياسة الانحراف والمساومات» التى غالبا ما تحرص عليها بعض الحكومات الثورية ، بغية توطيد أركانها عن طريق الظهور بالمظهر الشعبى، الذى تلتفت حوله الجماهير الغوغائية، وذلك بدل جعل قوتها السياسية أمرا واقعيا ومحققا.

وثانى الطريقين هو ذاك الطريق الذى نصحنا آنفا باتباعه، وهو الذى يقود حقا إلى ثورة فعلية تدرك بعمق كاف النظرية الأساسية التى يقوم عليها الحكم الثورى. وبعبارة أخرى، فإن على نظام الحكم الثورى أن يتخذ كل ما يراه ضروريا من التدابير لإيجاد قوة حقيقية له سواء أكان ذلك باللجوء إلى إجراءات القمع والإرهاب أم إلى سياسة الإصلاح والبناء. وعليه كذلك أن لا يغفل عن تلك القوة الكامنة فى المجتمع ويتركها دون السيطرة عليها وتجنيدها له.

ومن المأمول أن يكون هذا التقرير مفيدا ومساعدا للثورات فى إتقان عملها، وأن يكون مقدمة لها إلى ما يسمى «الضرورات، وفن تنفيذها».

-٥-

مركز «لعبة السلم» فى واشنطون

لا يمكنك أن تربح المباراة دون أن تكون لاعباً ضمن الفريق

بعد ظهر أحد الأيام الباردة فى أوائل عام ١٩٥٦، انتشر خبر فى واشنطن مفاده أن جهاز إرسال كهربائى صغير على شكل «صَدَفَة» قد اكتشف مدسوساً تحت إحدى مناضد الاجتماعات فى دوائر وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنطن، كان ذلك فى يوم جمعة، وكانت السماء تنذر بعاصفة ثلجية، والموظفون يستعدون للانصراف باكرا بتشوق ولهفة، وفجأة صدرت الأوامر لأقل عدد ممكن من الموظفين بالبقاء فى الأقسام التى تضم معلومات سرية لمساعدة رجال الأمن الذى أخذوا يجوبون جميع غرف الوزارة بحثاً عن المزيد من هذه الأجهزة الحساسة، وأثار هذا الحدث موجة من القلق والحذر. فالجهاز المكتشف لا يتجاوز فى حجمه علبة عيدان الثقاب ويعمل دون الحاجة لتمديد أى أسلاك كهربائية، كما يمكن لصقه تحت أى منضدة من قبل أى من أولئك المستخدمين أو صغار الموظفين الذى لا يعيرهم الإنسان أى اهتمام أو انتباه.

جرى تفتيش «مركز اللعب»[1] عند حوالى الساعة الثامنة مساءً وهو وقت انتهاء الجلسة المبكرة. الدوام الرسمى فى المركز يبدأ من الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى منتصف الليل. وفى تلك اللحظات كان المشتركون فى تلك الجلسة المبكرة ينظرون من خلال نوافذ الطابق الثانى عشر إلى تلك الصفوف من السيارات المتلاحقة فى شارع «كونيتكيت» وهم مرتدون لباس السهرة، ويتبادلون أطراف الأحاديث التى تدور أثناء سهراتهم فى جورج تاون، وفى تلك الأثناء أيضاً. كان أفراد الفريق الآخر الذين وصلوا لتوهم لحضور الاجتماع المتأخر لمركز اللعب، يخلعون معاطفهم، ويشمرون عن سواعدهم أستعداداً لمساء حافل بالعمل المضنى والجهد المستمر، وفى خلال ساعة من الزمن كان رجال الأمن قد أنهوا تفتيش كافة أرجاء بناء

(١) مركز التخطيط السياسى.

الوزارة دون أن يعثروا على أجهزة أخرى. إلا أن احتمالية العثور على أنواع منها بقيت قائمة، وأثار هذا الحادث - العثور على جهاز الإرسال تحت المنضدة - فينا ميلاً إلى التندر حول تلك المعلومات التى يحرص أحد أجهزة المخابرات الأجنبية على الحصول عليها، عن طريق دس ذلك الجهاز المرسل تحت تلك المنضدة بالذات - لا غيرها - وما عساه أن يستفيد منها.

كانت الأوراق مبعثرة بين الملفات الكثيرة التى غطت سطح المنضدة، وحول تلك المنضدة بالذات، كان يجلس مجموعة من الموظفين تملكهم السأم والملل تارة يهمسون فى آذان بعضهم البعض، وأخرى تهز أصواتهم أرجاء القاعة وهم يتبادلون الأدلة والبراهين، كما تجدهم أحياناً غارقين فى صمت عميق ينصتون بشغف وذهول إلى أحدهم وهو يلقى عليهم بعض البيانات أو التقارير. وفى زوايا القاعة انتشرت أجهزة الهاتف بعيداً عن منضدة الاجتماعات، بعضها ترن أجراسه دون التفات من أحد أو انتباه، وأخرى تمسك أيدى بعض الرجال بسماعاتها وهم يرتدون أكماماً إضافية على سواعدهم، ومجمعين أكفهم حول الجزء اللاقط للكلام منها علهم يتمكنون من إسماع المتكلمين معهم وسط ذاك الهرج والمرج، كما ترى المساعدين وأمناء السر مقبلين ومدبرين وبين الفينة والأخرى تجد أحد المجتمعين يدعى للرد على الهاتف أو يضطر لمغادرة القاعة ليحل محله آخر ما يلبث أن ينزلق فى مقعده وينثر الأوراق أمامه بكل خفة ورشاقة.

ولن تتعدى المقتطفات التى تتسرب من القاعة عن طريق ذلك الجهاز اللاسلكى المدسوس تحت طاولة الاجتماعات النماذج التالية:

«هل قام أحد منكم بمراجعة تلك الأمور مع أولاد الكرملين؟».

«أين ذلك السمج ديفول؟ كان يجب أن يكون حاضراً هنا منذ ساعة من الزمن».. «سنكون قد أضعنا نصف أوربا قبل أن يفطن تيتو إلى آثار زيارة ناصر لموسكو».

من الصعوبة بمكان أن يفطن أولئك الذى ينصتون إلى ما ينقله إليهم هذا الجهاز إلى أن «تيتو» هذا ليس أكثر من إنسان يرتدى بذلة أمريكية الصنع، ويقص شعره على طريقة البحارة، وله فى ياقة قميصه بكلة أمريكية الشكل والصنع «كما أن «ديفول» هو إنسان اسمه «بيتر سيلر»، و«انتونى إيدن» وهو سيدنى غرين ستريت» و«كونراد أديناور» هى تلك الفتاة الجميلة التى تسرح شعرها للخلف، وتعقده بشكل حزمة ورد أو كعكة جميلة وتضع على عينيها نظارات

واسعة ذات إطار عريض، وأما أولاد الكرملين فقد وصلوا المؤتمر وفى أيديهم حقائب جلدية فاخرة، وهم أفراد من الجوقة الموسيقية لجامعة «بيل» وعلى وشك أن يحجزوا غرفاً فى فندق «ستاتلر» بغية تمضية عطلة الأسبوع فى مشاهدة إحدى مباريات كرة القدم.

كان كافة العملاء والجواسيس الأجانب متشوقين للتنصت على ما يدور فى جلسات «لعبة السلم» وسرعان ما قاموا بعد سنوات بمحاكاة تلك الاجتماعات والمناقشات ولكن بشكل مضحك وهزيل وتحت اسم «تقرير من جبل الحديد» وفى «مركز اللعب»، كانت هناك مجموعة منتقاة من أبرع الخبراء الذين تعاقدت معهم حكومة الولايات المتحدة للقيام بتمثيل اتجاهات السياسة العالمية وأزمتها، محاولين معرفة نتائجها وتقييمها على حقيقتها، وبالاستعانة بالتقارير والمعلومات التى كانت تصل تباعاً من وزارة الخارجية، والمخابرات المركزية والبنتاغون «وزارة الدفاع» وغيرها من المؤسسات والوكالات الأمريكية كانت عدة مجموعات من الخبراء، كل يمثل دولة من دول العالم، تحاول تحديد مواقف تلك الدول، والخروج بحلول مناسبة للأزمة الطارئة على الموقف بشكل اقتراحات عمل على مستوى الأمة والدولة، وتنقل تلك النتائج والإجراءات المقترحة بشكل مذكرات تذكر أن ذاك اللاعب «خبير أو مجموعة خبراء» الذى يمثل دور تيتو أو ديغول أو عبد الناصر يظن أن تيتو الحقيقى «أو ديغول أو ناصر» سيتحركون تحت ظروف مماثلة فى هذا الاتجاه أو ذاك، وستكون ردود أفعالهم فى الشكل هكذا أو كذلك، ويحاول ذاك اللاعب «الخبير» أن يذكر أيضاً فى سياق تقريره إن كان يتوقع أكثر من حل واحد للقضية الواحدة مع احتمال أسبقية حل على آخر. وتوضع هذه الاقتراحات والحلول ضمن ذلك السيل من المعلومات الواردة لتوزع بدورها إما إلى العقول الإلكترونية، أو تترك فوق مكاتب بعض المسؤولين الذين أتقنوا دراسة صفات الشخصيات العالمية، وأجادوا تمثيل أدوار الزعماء والقادة إلى الحد الذى لا يخطئون فى توقعات أفعالهم وردود فعلهم إلا نادراً جداً.

أما القواعد والأسس المتبعة فى هذه «اللعبة» فهى:

أولاً: الالتزامات الأخلاقية التى تؤخذ بعين الاعتبار هى تلك التى لا تتعارض مع القواعد الاخلاقية لمختلف الدول الممثلة فى «اللعبة» أما قواعدنا الاخلاقية فلا نعيرها اهتماماً إلا عندما نحاول تحديد اتجاهات حكومتنا وردود فعلها، وليس للقاعدة الشهيرة «إن الخير هو الخير أينما ذهبت، وإن الشر هو الشر أينما حللت» التى يرددها رجال الكنيسة أى اعتبار فى

تخطيطنا هذا لقد أنفقنا الساعات الطوال محاولين التعرف على الأسس الأخلاقية التى كانت تكمن حقاً خلف اتجاهات وتحركات أى من الزعماء الوطنيين، فما كنا لنتكل فقط على أقوال رجال الدين والسياسة أو تكهنات رجال الصحافة، ومع كل هذا فلم نكن لنهتم بهذا كثيراً كما لم نكن لنفكر فى نعت هذا «بالخير» ووصم ذاك «بالشر».

ثانياً: وكان الرأى السائد أن أول أهداف أى زعيم وطنى هو البقاء فى السلطة، وفى حال تعذر ذلك، فإنه يحاول أن يعتزل الحكم بأقل ما يمكن من التضحية بسمعته وشهرته الشخصية. إن هذا المقياس لا ينطبق على تلك الحفنة من الزعماء المخلصين الذين يضحون بأرواحهم، وحتى بشهرتهم، دون تردد فى سبيل مصلحة أوطانهم العليا، إلا أنهم فى النزر اليسير لا يسببون لنا أى ارتباك فى دراساتنا وتقديراتنا. وغالباً ما تعطينا النظرة الواقعية لزعامة الإنسان نتائج أفضل من تلك التى تعطينا إياها النظرة المثالية لها.

ثالثاً: ونفترض - إلا إذا ثبت العكس - أن تصرفات أى زعيم وطنى تصدر عن اعتقاده المطلق أنه بهذا إنما يخدم وطنه ويحقق أهداف أمته. كما يظن مخلصاً أن قضيته قضية عادلة ومحقة، وعليه أن ينقلها للعالم الذى سيصغى إليه باهتمام وانتباه، ولعل القارئ يذكر أحد أعضاء الكونغرس الأمريكى عندما طغت العاطفة الوطنية عليه وهو يلقى أحد خطاباته، فاتهم ديغول بأنه «غير أمريكى». وهكذا يجب أن يكون العرف السائد حول ديغول ونحن نمارس «اللعبة» أن نعت ديغول بهذه الصفة لا يعنى تصنيفه فى عداد «الأخيار» أو «الأشرار» فمفاهيم الخير والشر لا تحظى بأى اهتمام منا، إذ ليس عندنا رجال «أخيار» وآخرون «أشرار». وكل ما يراه المرء هو مجموعة من خبراء التخطيط «اللاعبين»، منهمكين فى رسم خططهم وإحراز النجاح بالطريقة التى تمليها عليهم ظروف تلك الدولة الممثلين لدورها أو مفاهيم ذاك الزعيم الذى يلعبون دوره فى «مركز اللعب». ولا أظن أننا نحتاج لقواعد أكثر من ذلك. فالخبير الممثل للأدوار «اللاعب» يزود بكافة الحقائق والمعلومات - التى يفترض معرفتها من قبل الدولة التى يمثل دورها - حول وضع ما. وبناء على هذه المعلومات المتوفرة لديه، وضمن القيود المفروضة عليه، فإن الخبير الممثل سيقترح إجراءات محدودة واضحة لاتخاذها فى مثل تلك الظروف، وقبل أن يصدر الخبير رأيه النهائى، فإن عليه أن يكون قد ألم تماماً بنقاط القوة والضعف عند ذاك الزعيم، كما يكون قد أدرك تماماً خفايا سلوك ذاك الزعيم، وتقصى جميع الحقائق اللازمة لانتحال دوره فى «مركز اللعب». وتصدر الأراء النهائية بشكل

تقارير ومذكرات، ومن ثم تخضع للتنسيق مع المعلومات الأخرى الواردة باستمرار من وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية، ووزارة الدفاع، وغيرها من المؤسسات الرسمية، لتكون كلها جاهزة بشكل «حقائق ومعلومات للقرارات» يعتمد عليها الخبراء أنفسهم لاستكمال خطواتهم اللاحقة.

ومن الصعوبة بمكان الادعاء بصحة كامل المعلومات والدلائل والنائج عن هذه «اللعبة» إن بنى الإنسان، ومنهم كبار رجال الدولة والسياسة، يسلكون مسالك يصعب على الآخرين التنبؤ بها مسبقاً، كما أنهم قد يتحولون عن سلوك طرق يتراءى لغيرهم أنه لا مناص لهم من سلوكها. لقد أعطت «لعبتنا» هذه نتائج جيدة حيال توقع وتقرير نتائج تحركات السوفييت فى أوروبا، والتحركات المضادة لها من قبل الشعوب الأوروبية. كما كانت «لعبتنا» موفقة فى تحديد معالم الصراع الروسى الصينى ورسم أبعاده: هكذا ستتحرك الصين، وهكذا سيكون الرد السوفيتى عليها، وهكذا ستكون ردود الفعل العالمية تجاه كلا التحركين. وعلاوة على كل هذا، فإن نسبة النجاح والتفوق فى «لعبتنا» لا تتجاوز ٨٥ بالمئة «وهى نفس نسبة نجاح تبنئات مرصد غرينتش للتقلبات الجوية» وهذه النسبة كافية لتضع دراستنا فى طليعة غيرها من الدراسات التى نحصل عليها بطرق شتى.

كانت كامل دراستنا لتحركات الدول الأوروبية، وتوقعاتنا لردود فعلها - ومن ضمنها الاتحاد السوفياتى - سهلة وموفقة، لقد اقتصر عملنا فى هذا المضمار على تغذية العقل الالكترونى بكافة المعلومات الحديثة والصحيحة حول الشؤون الاقتصادية واتجاهات الرأى العام السائد فى تلك البلدان، وحول بعض العوامل المتغيرة باستمرار، ثم تركه يتمثل تلك المعلومات ليصدر اقتراحات وقرارات. ولكن الأمر كان عكس ذلك تماماً بخصوص دراساتنا وتخطيطنا للأوضاع فى الدول الأفريقية والأسيوية. فلم يكن الاعتماد على العقول الإلكترونية سهلاً، وذلك لافتقاد عنصر العقل والنظام فى هذا الجزء من العالم وكان اللجوء إلى اعتبارات العواطف والنزعات الفطرية لبنى الإنسان التى لم نوفق للآن إلى طريقة تضعها فى شكل يمكن نقله للعقول الإلكترونية أمراً ضرورياً لابد منه لرسم معالم المستقبل.

لقد كان انهيار نظام نكروماً فوق طاقة أى عقل الكترونى للتبؤ به. «فاعتقدنا أن الجيش الغانى أضعف من أن يقوم بحركة كتلك». وكانت الأدلة كلها تشير إلى أن حكومة نورى باشا فى العراق تتمتع بمناعة ضد انقلاب كالذى قام به عبد الكريم قاسم، كما كانت تشير إلى

عدم قدرة الفيتكونغ على الاستمرار فى القتال. وظلت النتائج خطأ بخطأ حتى بعد تزويد اللاعبين الممثلين لأدوار أولئك القادة - الآنف ذكرهم - بكامل المعلومات المتوفرة حول عواطف ونزوات شعوبهم ومع أن الدراسات التى أنجزت فى «مركز اللعبة» لم تخرج بنتائج صحيحة، إلا أنها كانت من العوامل الرئيسية المساعدة لنجاح محللى وكالة المخابرات المركزية فى إيجاد الأسباب الرئيسية المساعدة لنجاح محللى وكالة المخابرات المركزية فى إيجاد الأسباب الرئيسية لهذه الأحداث، إن رجال وكالة المخابرات المركزية يملكون أدق المعلومات وأحدث التفاصيل السرية حول الكثير من شؤون قادة العالم الحاليين وتحركاتهم، وحول نيات زعماء المستقبل، إلا أن هذه المعلومات السرية لم تكن تحت تصرف اللاعبين فى مركز التخطيط ولهذا فلم يكن فى وسعهم الوصول إلى نفس النتائج الدقيقة التى وصل إليها رجال وكالة المخابرات، والتى كان ينبغى أن ينتهى اللاعبون إليها قبلهم.

وعلى العموم، فلقد أخفقت أحسن الوسائل المعروفة لتحليل المعلومات فى الوصول إلى دراسة عميقة تساعد على التنبؤ الصحيح حيال نيات وتحركات زعماء بلدان أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية. لقد كانت تواجه هذه الوسائل - مثل المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وجهاز «اللعبة» وما شابه ذلك - أوضاعٌ اقتصادية يائسة فى تلك البلدان وهوة سحيقة تفصل بين الحقائق والأمانى لا يمكن ردمها. كما أن شعوب تلك المناطق من العالم تعانى من خيبة أمل مريرة تجعل بقاء الزعماء فى الحكم أمراً غاية فى الصعوبة، إلا إذا اعتمدوا على الأساليب الغوغائية، أو ابتكروا أساليب جديدة لابتزاز المساعدات من الدول الغنية وباستثناء أولئك الزعماء الذين يعولون كلياً على الأساليب الغوغائية وبالتإلى يسهل التنبؤ بتحركاتهم فإن البقية الباقية من زعماء شعوب تلك المناطق من العالم لا تخضع ممارستها لأدوارهم فى «اللعبة» لأية قواعد ثابتة وإنما يختلقون قواعد خاصة بهم ومميزة لأوضاعهم، وعلى سبيل المثال، فإن الرجل الذى يمثل دور (ديجول) فى مسرحيات «اللعبة» ظن مرة أنه يلعب الشطرنج «وهى لبعة تعتمد على التفكير العميق والقواعد العلمية الثابتة» مع أحد زعماء الدول النامية «المختلفة»، ولكنه أدرك فجأة أن خصمه يلعب معه بعقلية مختلفة تماماً. إنها عقلية لعبة «التشكن» «لعبة الجبان» وليست عقلية لعبة الشطرنج، ففى لعبة «التشكن» يتسابق الأحداث المراهقون بسيارتين تتجهان نحو بعضهما البعض على طريق واحدة وبالسرعة القصوى. والفائز فى هذه اللعبة هو ذاك المراهق الذى يبقى مسيطراً على أعصابه حتى اللحظات الأخيرة دون جبن أو خوف. وعندما يدرك تصميم الآخر على المواجهة، ينعطف بسيارته جانباً

قبل الاصطدام به بلحظات مخلياً له الطريق بأكمله، ففى هذه اللعب تنعدم الفرص بالنسبة للاعب الذكى الاستراتيجى، وتبقى سائحة بأكملها لذاك المجنون المعتوه، الذى قرر أن يركب رأسه ويستمر بالمغامرة حتى لحظات الاصطدام. وهكذا فإن ديغول «اللاعب» يبقى حائراً حتى يكتشف هو وأمثاله من المشتركين فى «اللعبة» طرقاً جديدة للنجاح عندما تكون الأطراف الأخرى «خصومهم» من نوع لاعبى لعبة «التشكن»، التى - على عكس غيرها من الألعاب كالبوكر والحرب والتجارة - ليس فيها أى مجال لاستخدام فن الخداع والمناورة.

إن السبب السابق كان فى طليعة الأسباب التى تقلل من جدوى «اللعبة» كوسيلة فعالة فى معالجة القضايا التى تمت بصلة إلى المناطق الواقعة خارج مجال «العالم الغربى» وفى تحديد التحركات فيها. وأما السبب الثانى فهو أن سيطرة الحقد والتحيز والجهل على بعض كبار المسؤولين تؤثر تأثيراً بالغاً على قراراتهم النهائية، مما يجعل أفعال حكومتنا وردود فعلها، صعبة التوقع، شاقة التحديد، عسيرة الفهم. فقد يستحيل على جهاز «اللعبة» أن يطرق موضوع النزاع العربى الإسرائيلى أو مشكلة فيتنام أو روديسيا بنفس اعتبارات الهدوء والاهتمام التى يتدبر بها التحركات السوفياتية فى مناطق نفوذها وكمثال على هذا، فإنه من الصعوبة بمكان استخدام العقل الإلكترونى «الذى يعمل وفق قواعد علمية ثابتة» للوصول إلى نتائج واضحة لمباراة تجرى بين جون فوستر دالس وجمال عبد الناصر بنفس الطريقة التى يستخدم بها للتنبؤ بنتائج مباراة تجرى بين جولويس ومحمد على كلاى «أبطال الملاكمة».

ومما يزيد فى غموض الطريق وتعقيد الأسلوب عند معالجتنا لشؤون العالم الأفريقى والآسيوى هو ازدياد شكنا فى طبيعة تحركات حكومتنا وردودها تجاه ما يظهر من تصرفات زعماء دول ذاك الجزء من العالم والتى لا تخلو من الحيرة والارتباك. وعلاوة على كل هذا، فإن أسباباً أخرى تمنعنا من اتخاذ المواقف الصحيحة التى تمليها علينا الدراسات التى يقوم بها جهاز «اللعبة» فى مواجهة أمثال المشاكل السابقة إلى حد يدفع باعتباراتنا للمصلحة الوطنية إلى المرتبة الثانية بدل أن تكون فى الطليعة. ثم مسايرة الرأى العام، والخضوع لضغوط بعض الفئات الانتهازية، واضطرار رجال الكونغرس إلى كسب تأييد دوائرهم الانتخابية عن طريق الإباحة بالمعلومات الحرجة أمامهم أو تركها تتسرب إلى رجال الصحافة، كل ذلك يدخل ضمن عداد تلك الأسباب المعوقة والمعرقلة. ولهذا يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كل التصرفات الخاطئة لحكومتنا عند تحديد نتائج دراساتنا وتحركاتنا المقترحة. ومن

هنا ننظلق فى تحديد مدى تأثير تحركاتنا على غيرنا ، وفى التنبؤ بطبيعة ردود فعلهم تجاهها، وفى اقتراح الإجراءات المضادة التى على حكومتنا القيام بها ، والتأكد فإننا ننجز كل ذلك ناظرين بعين الاعتبار والاهتمام تلك المفاجأة التى نثيرها الأسباب الآنفة الذكر، وقاطعين عليها فرص إفساد مخططاتنا فى اللحظات الأخيرة الحرجة.

ومهما كانت العقبات التى تقف فى سبيل كبار المسؤولين من «صانعى القرارات» (كتلك التى يثيرها الرأى العام الجاهل أو الغبى أو التى تصدر عن بعض الفئات بدافع من مصالحهم الخاصة أو التى تنشأ عن تمسك رجال الكونغرس بمناصبهم) فليس فى نيتهم على الإطلاق ترك مستقبل وجودنا فى أفريقيا وآسيا وغيرها من مناطق العالم تحت رحمة أولئك الزعماء الذين أجادوا ممارسة لعبة «التشكن»، وتفرقوا فيها. إن النظام الديموقراطى يضع قيودا عديدة على سلوك حكوماته تجاه العوائق الداخلية وعلى الأساليب التى تنتهجهاالحكومات لمعالجتها، ولكن ليس هناك أى من هذه القيود على السلوك أو الأساليب المتبعة خارج بلادنا، ولا يبقى فى هذا المجال سوى قيد واحد ألا وهو «اعتبارات الفاعلية والنجاح». فكل ما تتوفر له فرص النجاح فعلناه. وإلا تخلينا عنه. وعندما يأتى دور «المبادئ الأخلاقية» على مسرح الأحداث ، فإن تعديلات طفيفة تطرأ على ذلك القيد دون أن تقتلعه من جذوره أو تطيح به بعيداً. وعندما يتخذ التساؤل هذا الطابع : «هل يمكننا أن ننجح بالتنفيذ دون أن نخوض غمار معركة افتضاح وتعرّا». إن كافة التوجيهات التى يزود بها رجالنا فى السلك الدبلوماسى تبرز أهمية اتباع وسائل نعكس المبادئ الديموقراطية والقيم الأخلاقية للأمة كعامل أساسى لنجاح أية محاولة من مجالات الضغط على الحكومات الأجنبية.

إن الكشف عن نياتنا صراحة وعدم الدخول فى معاهدات لا تزمع على الالتزام بها يجب أن لا يعنى سوى حقيقة واحدة وهى أننا لم نعثر على أية مصلحة لنا فى اتباع مثل هذا السلوك. وبالمقابل فإننا سنبذل المستحيل لكتم نياتنا الحقيقية أو للتحايل على نصوص أية معاهدات وقعناها سابقاً إذا ما لمسنا أن ذلك يحقق لنا مآزق محرجة أو التورط فى مواقف فاضحة.

إننى لا أحاول البتة أن أقف موقف المدافع عن مثل هذا النفاق والخداع، فالحقيقة أننى لا أملك شعوراً واضحاً حياله وإن كنت متأكداً من وجوده تماماً. إن كلا من اللعبة التى نمارسها فى «مركز اللعب» فى واشنطن تحت ظروف مفتعلة، و«لعبة الأمم» التى يقوم رجالنا فى

السلك الدبلوماسى وجنودنا بتنفيذها عبر البحار - باستمرار وكيفما اتفق - تعتبران من أبرز الشواهد على صدق كلامى. ولعل أبرز مثال على سلوكنا المزدوج، واستراتيچيتنا ذات الوجهين «الأخلاقى واللاأخلاقى» هو تلك الطريقة التى تعاملنا بها مع عبد الناصر، رئيس الجمهورية المصرية.

أن من أول العناصر التى لمسنا ضرورة وجودها فى مسرحيتنا. توفر شخصية ما مثل عبدالناصر بالذات. وبعبارة أخرى، فإن «ناصرا ما» كان من ضمن العناصر الحيوية للمسرحية التى عزمنا على إخراجها. ولقد تأكد هذا الشعور جليا عندما بدأنا نؤدى أدوارنا حول طاولة الاجتماعات، وكنت يومها أقوم بتمثيل دور ناصر نفسه، لقد بان لكل من يملك إحساسا مرهفا أن غياب دور ناصر سيفقد المسرحية توازنها، وستبود عندئذ كتمثيلية «هملت» وقد اختفى منها دور«بولينوس».

كانت يتملكنى شعور خاص. وأنا أجمع شتات قصة ناصر وأعمل جاهداً لوضعها فى صيغة قوانين ذات تطبيق عالمى. إن نموذجاً كجمال عبد الناصر كان من الأهمية بمكان بخصوص «اللعبة» وإننا كنت ملزمين بالبحث عن مثيل له فيما لو لم يكن على قيد الحياة. أو أن زعيما مثله، لا محالة، سيبدز إلى الوجود عاجلاً أو آجلاً، وعلى الأقل ، لاستكمال أدوار «اللعبة». ولقد تملك ناصر نفسه هذا الشعور بالذات عندما تحدث فى كتابه «فلسفة الثورة» عن «دور على المسرح ينتظر لاعبا ليؤديه». وعن محاولته لتأدية ذلك الدور.. وسألته مرة عن رأيه فى نتائج محاولته تلك فأجابنى: «إننى لم أنجح بعد فى تأدية ذلك الدور». ومع أن جوابه كان صحيحاً فإن المهم هنا ليس نجاحه فى تأدية الدور من نجاحه فى تحديد معالم الدور نفسه. ولقد قطع ناصر شوطاً بعيداً فى محاولته لتحديد معالم ذاك الدور بالرغم من إعطائه وصفاً مضللا فى كتابه «فلسفة الثورة» ومهما كان فإن معالم الدور قد أصبحت الآن فى وضع لا لبس فيه ولا غموض.

والأمر الثانى هو أن «ناصر» وحده لم يكن يكفى لسد الفراغ على المسرح. فقد كانت «اللعبة» تقتضى ظهور أكثر من زعيم واحد من «طراز ناصر» وذلك لتأدية جملة أدوار فى عدد من الدول الأفريقية والآسيوية. ولم يخامرنى شك فى أن أى تقدم نحرزه فى مسرحيتنا سيبقى رهينا لمدة غير قصيرة بتوفر لاعب من هذا النوع. فقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التخلف المريع فى جميع أبعاد الحياة فى البلدان الأفريقية والآسيوية هى إما ظهور قائد

وطنى رافعاً نواة التحرر من الاستعمار، معتمدا على الغوغاء لضمان البقاء فى السلطة فى الوقت الذى تتجه كافة الأوضاع داخل القطر نحو الانهيار والخراب. أو ظهور قائد من النموذج العملى فيحاول الاعتماد على المساعدات والحماية الأجنبية له. إلا أن الغوغاء ستنعته بشتى الصفات وأبسطها «أنه عميل للاستعمار» أو «صنيعة لموسكو». ومنذ عام ١٩٦٠ ، كان يستبعد بقاء أى زعيم من هذين النوعين السابقين فى الحكم لمدة طويلة. فبعد أن شهد العالم سقوط نكروما وسوكارنو وفشل العديد من القادة العراقيين ظهر أن العامل المؤثر فى صمود أى من أولئك القادة فى ظروف قاسية كالظروف السائدة فى أقطارهم يعتمد على النسبة المئوية لتشابه أنظمتهم مع «طراز ناصر فى الحكم». وكمثال على هذا . فإن ناصرًا نفسه كان متمثلاً بنسبة تسعين بالمائة وهى نسبة أعلى من تلك التى تتطلبها ظروفه الخاصة التى كان يحاول الصمود فيها. وأما نكروما فلم يتمثل أكثر من سبعين بالمائة من «طراز ناصر فى الحكم»، إلا أن ظروفه كانت حاجة إلى نسبة أعلى من تلك. ولهذا لم يتمكن من الصمود أمامها. ومن هذا النوع ، كان كل من سوكارنو فى أندونيسيا، وعبدالكريم قاسم فى العراق، وكثير غيرهم. وأما الملك حسين فى الأردن فإنه لم يحاول أن يتمثل أكثر من أربعين بالمائة من «طراز ناصر فى الحكم» إلا أن ذلك كان أكثر مما تتطلبه ظروفه الخاصة. وهذا ما ساعده على البقاء فى السلطة حتى كتابة هذه السطور، ومع أن المثال الذى يتمثل مائة بالمائة من «طراز ناصر فى الحكم» لم يتحقق بعد على الإطلاق. فقد أظهرت الدراسات (التى شملت ناصراً نفسه) أن مدى تمثل الزعماء «لطراز ناصر فى الحكم» يؤثر كثيراً على قدرتهم على البقاء فى الحكم، وعلى استمرار مشاركتهم الفعالة فى «لعبة الأمم». والأهم من ذلك أن طريقة ممارستنا للعبة مع ناصر نفسه (وحتى هذه اللحظة) يجب أن تلقنا دروسا قيمة فى استراتيچيتنا لمعاملة أمثاله.

والأمر الثالث هو أنه بالرغم من الاعتراض الذى أظهره الوزير جون فوستر دالس على الزعماء الذين عليهم مسحة من «طراز ناصر فى الحكم»، فقد اقتنعت حكومتنا أخيرا أن وجود هذا النوع من الحكام فى السلطة أخف ضرراً على مصالحها من وجود أى نوع آخر منهم مهما كان شكله.

لقد اعتادت حكومتنا على احترام استقلال الدول الأفريقية والآسيوية إلى حد كانت تتغاضى فى كثير من الأحيان عن سلوك بعضهم الطائش ما دام ذلك لم يمس مصالحنا

بسوء. أما إذا كانت نتائج التزامنا بالمبادئ الأخلاقية خسارة مصالحنا وضياعها فإن موقفنا سيكون العكس، وستكون التضحية، بدون شك، على حساب تلك المبادئ الأخلاقية وليست على حساب مصالحنا. وبصراحة أكثر ، فعندما كنا نضطر فى بعض الأحيام لإزاحة حاكم ما ثبت أن وجوده يقف حجر عثرة فى سبيل تنفيذ مخطط لنا فى أحد تلك البلدان الأفريقية أو الآسيوية (وهذا ما كان يحصل فعلا فى مركز «اللعب» فى واشنطن فى أحوال تفرض حتمية وجود جميع أولئك الحكام الأصدقاء منهم والخصوم) فإننا كنا لا نتردد فى اللجوء لمثل هذه التدابير مهما كانت فداحة المخالفات الأخلاقية.

ومن البديهى جداً أن يكون خليفة الحاكم المخلوع على استعداد تام للسير وفق الخط الذى يضمن مصالحنا هناك. ولقد اتفق الأميريكيون والبريطانيون على معالجة شؤون الدول الأفريقية والآسيوية من خلال هذه النظرات والمواقف. فكان الحكام من «طراز ناصر» يعطون الأولوية على غيرهم لأن استيلاءهم على السلطة يوفر أفضل الفرص - أو أقلها سوءا - لنجاح «لعبتنا»، فكنا لا نعتبر نجاحنا فى استمالة أى من أولئك الحكام الذين جاؤوا إلى السلطة أكثر من مجرد نصر أجوف، ذلك انه سرعان ما يطاح به ليعقبه من هو أسوأ منه. رلا أن ناصرًا كان من نوع آخر تماماً. لقد اعتاد أن يتأقلم إلى حد ما مع كل «ربح» نجنيه لصالحنا من خلال عدم اعتباره على أنه «خسارة» له وعلاوة على هذا، فإن لدى ناصر القدرة على أن يتخذ قرارات حاسمة فى المواقف الحرجة، تحقق لنا وله بعض المكاسب والمغانم دون أن يدع المجال لجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها. وكمثال على هذا، احتمال التوصل إلى اتفاق ما مع الإسرائيليين، فالمبدأ القائل إن عدوا عاقلاً (كيفما كان ذلك) خير من صديق جاهل هو ذاك المبدأ الذى نحرص عليه كل الحرص بل ونعض عليه بالنواجذ.

لقد أثار تمثيل دور ناصر فىَّ اهتماما وتعلقا وليس فقط بالشكل الذى كنت أُؤديه فى ناطحة السحاب بواشنطن (وزارة الخارجية) بل وبالشكل الذى كان ناصر يؤديه بنفسه على الطبيعة فى العالم. لقد قمت بتمثيل دوره فى «مركز اللعبة» فى واشنطن مراراً وتكراراً وعلى فترات امتدت من صيف ١٩٥٥ وحتى ربيع ١٩٧٥ ، وكنت أثناءها أزاول مهام منصبى كمستشار للجنة تخطيط السياسة الأميركية فى الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية. ولقد أتاح لى منصبى هذا أن أقوم بزيارات عديدة إلى القاهرة وبعض عواصم الشرق الأوسط، توفرت لى خلالها الفرصة لمقابلة ناصر نفسه - وغيره من زعماء المنطقة المعجبين به - واستعرضت معه

تحركاته وتصرفاته. إلا أن صلتى بناصر كانت أقدم من هذا التاريخ. فقد كان لى معه صلات عديدة فى ظروف جيدة كما كان لى نفس الشىء مع عدد من زعماء الشرق الأوسط بنوعيهم الموالى لناصر والمناوئ له. ومع أن ناصرًا كان يتصف بمسحة من الغوغائية (كغيره من باقى زعماء الشرق والغرب) إلا أنه كان يتمتع إلى جانب ذلك بموهبة أخرى جعلته يفوز فى «اللعبة» على جميع اللاعبين بما فيهم الولايات المتحدة نفسها والاتحاد السوفياتى ، باستثناء إسرائيل.

وكانت تعترينى الدهشة عندما كنت أقارن بين القرارات التى اتخذتها فى «مركز اللعبة» بواشنطن وبين قرارات ناصر نفسه التى كان يصدرها على الطبيعة فعلاً، فأجد أن الأولى «أسوأ» من الثانية من وجهة نظر المحافظة على المصالح الغربية. وحدث هذا فعلاً قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ . فقد استشارنى يومها نائب مدير المخابرات المركزية فيما إذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتأميم قناة السويس إذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء السد العالى. وأجبته يومها أننى قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استناداً إلى دور ناصر الذى كنت أمارسه فى «جهاز اللعبة»، إلا أن ناصرًا الحقيقى لم يفعل ذلك حتى ذلك الوقت، ولهذا لا أدرى ما الذى سيفعله ناصر حقيقة فى تلك اللحظة! وعندما أتيحت لى الفرصة مؤخراً أن أبحث مع ناصر نفسه قضية قناة السويس. تبين لى أنه كان يتوقع ردود فعل انكلو - أميريكا على مستوى أقسى بكثير من التى راودتنا نحن فعلاً فى واشنطن. لقد كان بإمكان ناصر أن يكون أجرأ بتحركاته لو أنه كان يحتل مكانى فى مركز اللعبة فى واشنطن وقد تجمعت أمامه على طاولة الاجتماعات كل المعلومات والدراسات التى كانت تحت تصرفى يومئذ.

لم نكن نهتم بالعثور على صيغة لمعادلة توصلنا إلى نجاح مستمر إلا مع «طراز ناصر» من الزعماء. فلو أننا اكتشفنا فعلا طريقة محددة للتعامل مع ناصر فسيعنى هذا أننا قد أحرزنا تقدما ملموسا فى مضمار علاقاتنا مع كثير من حكام دول أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، بل ومع كثير من الزعماء المتوقع ظهورهم حتى أواخر هذا القرن. ولا مانع الآن من أن نحاول إعطاء تفسير واضح لما نعنيه بعبارة «نجاحنا».

كان ناصر وضباطه يميلون للاعتقاد أن «لعبتنا» هى من النوع الذى حاصله دائماً مساويا للصفر. وبعبارة أخرى. فإن أى ربح يجنيه الطرف الأول إنما يعنى خسارة تكبدها الطرف

الثانى بالتأكيد. وعليه فإن حاصل عملية الجمع يكون دائماً مساويا للصفر. ففى لعبة البوكر - وهى من النوع الذى حاصل الجمع فيه مساويا دائما للصفر - يكون حاصل جمع الأرباح (كمية موجبة) والخسائر (كمية سالبة) لكل اللاعبين وفى أية لحظة من لحظات استمرار اللعبة مساويا للصفر تماماً. وبنفس الطريقة، فعندما بدأت الحكومتنان الأميركية والمصرية لعبتهما حول المساعدات المالية. كانت الأولى تظن أن المبلغ سيكون فى حدود أربعين مليونا من الدولارات، فى حين كان ناصر يحلم بمبلغ أكبر من ذلك. فلو أن ناصرًا نجح فى الحصول على ستين مليونا من الدولارات من الحكومة الأميريكية، فيكون فى هذه الحالة قد حقق ربحا صافيا فى حدود عشرين مليونا من الدولارات. وبنفس الوقت تكون الحكومة الأميريكية قد تكبدت خسارة محققة فى حدود نفس المبلغ. وهذا ما كانت عليه نظرة ناصر لمبدأ الربح والخسارة، وللحاصل المساوى للصفر دائما.

إلا أنه حقا لم يكن يخطر ببالنا مثل هذه الهواجس. فقد كان اعتبارنا لهذا النوع من «اللعب» على أنه شبيه بحالة مجموعة من رجال المظلات، الذين هبطوا خلف الخطوط وفقدوا الاتصال فيما بينهم ، ويحاولون إعادة تنظيم تشكيلاتهم بإجراء حساب للسلوك والتفكير المحتمل لكل منهم. كما يمكن اعتبار هذا النوع من «اللعب» على أنه مماثل لحالة رجلىْ أعمال يتفاوضان على صفقة يستفيد منها الطرفان معاً.

ولا تقتصر «اللعبة» على هذا النوع من التشبيه وضرب الأمثال. فقد عبر أحد رجال الأعمال الأميريكيين عن طبيعة هذه «اللعبة» عندما خاطب وزير صناعة ناصر بفظاظة قائلاً: «إنها شبيهة بالصراع الذى يقوم بين الأم التى تحرص على أن يشرب طفلها الحليب. وبين الطفل الذى يأبى ذلك وبرفضه بإصرار». إلا أنما لا تعتبر «لعبتنا» سوى من ذلك النوع الذى، مهما اشتد واحتد. تخرج منه جميع الأطراف فى النهاية غانمة سالمة.

ان أى نقص موضوعى للكسب فى «لعبة الأمم» تظهر بكل سهولة أن الحقيقة ليست إلى جانب أى منا. فعندما منحنا ناصرًا أربعين مليونا من الدولارات كمساعدة مالية له، فإننا لم نكن لنبخل عليه بأكثر لو كان ذلك فى استطاعتنا، لقد فكرت وزارة الخارجية برفع قيمة المساعدات إلى حدود المئة مليون دولار، إلا أن تخوفها من هبوب عاصفة من الاحتجاجات ضدها فى الكونغرس قد أثنى عزمها هذا.

وبنفس الوقت، لم تكن نظرتنا إلى موضوع حصول ناصر على مبلغ الستين مليونا أو

الأربعين مليونا من الدولارات على أنه خسارة لنا وربح له، بل كانت نظرتنا للمساعدة على أنها فائدة للطرفين معا. ومن جهة أخرى. فإن دفع مثل هذه المبالغ ما كان ليتم لولا أملنا فى أن يحقق لنا بعض المصالح ولو بخسارة محدودة يتكبدها الشعب المصرى. ومع أن هذه الخسارة لن تكون فعلاً جسيمة، إلا أننا قد أصررنا على إخفائها بل وإنكارها لضرورة دلوماسية. فالحقيقة الكامنة وراء كل هذه المساعدات هى تحقيق مصالحنا بالدرجة الأولى، وهذا ما نأخذه دوما بعين الاعتبار عند تخطيط استراتيجيتنا فى أبراج وزارة الخارجية فى واشنطن. إن أية مغانم يحققها الطرف الآخر، سواء أكانت خيالاً أم واقعاً، لن تكون مقصودة أبداً، كما أنه لا يستبعد أبداً أن تكون طمعاً فى يد صياد يغرى بها فريسته حتى تقع فى شباكه.

إلا أن زكريا محيى الدين (وهو أذكى رفاق ناصر وكان قبل فترة قصيرة نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة) دافع عن مبدأ «اللعبة» ورأى أنه حتى فى الحالة التى يكون فيها حاصل مجموع الخسائر والأرباح مساوياً للصفر، فإن فوائد كثيرة تجنيدها كل الأطراف المشتركة فى اللعبة. فالجميع راغبون فى تجنب الحروب، وفى تحسين الأوضاع الاقتصادية وتنمية العلاقات الأخوية بين شعوب بنى الإنسان. وهم فى حالتهم هذه يشبهون إلى حد كبير مجموعة من لاعبى البوكر الذين تجمعهم الرغبة العامة فى تسلية أنفسهم والترفيه عنها، متجنبين اتباع أساليب الغش والخداع. أو الاحتكام إلى منطق القوة عند نشوء خلافات بينهم. كما قال أيضا أن البشرية بأسرها تشترك بأهداف جامعة واحدة. إلا أن اجتهاداتها المختلفة حول الطرق الموصلة إلى تلك الأهداف هى التى أوجدت التفاوت بينها فى وجهات النظر. (وقد ألقى هذا الكلام على طلابه فى كلية أركان الحرب المصرية). وهكذا حقا كانت طبيعة الخلافات المصرية الأميريكية وطبيعة «اللعبة» التى دارت بين الزعماء المصريين والأميريكيين.

ومهما تحدث الزعماء المصريون عن طبيعة النزاع بينهم وبين الأمريكيين، ومهما أضفوا عليه مسحة من الأخلاق والغيرة، وصوروه على أنه يضم فى طياته كثيراً من المصالح المشتركة للشعبين معا، فإن حقيقة الأوضاع كانت على عكس هذا تماما. لقد لمس هذا عديد من رجالنا فى السلك الدبلوماسى ورجال الأعمال الأميريكيين الذين كانوا على احتكاك مباشر مع المصريين أنفسهم. فلم تكن النظريات التى وضعتها كل من أجهزة توماس شيلنغ ومورتن كابلان وغيرهما (لتستخدم فى رسم قواعد لعبة الشعوب واستراتيجية الصراع) تنطبق على هذا الجزء من «لعبة الأمم» فالنزاع المصرى الأميريكى هو من النوع الذى يظهر فيه بوضوح.

لا إبهام فيه، تضارب المنافع، وإصرار كل طرف على تقديم مصالحه على الآخر. واتباع أكثر الوسائل حيلة ودهاء للوصول إلى الغايات والقيام بتضليل الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهذا ما دفعنى إلى نشر هذا الكتاب. إن كل ما كتبه الأميريكيون والبريطانيون حول علاقاتهم بالدول الأفريقية والآسيوية غير المستقرة لم يلق ضوءا على خفايا هذه العلاقات أو على أساليبنا المتنوعة والملتوية لاستمالة حكام تلك البلدان، وسبب ذلك هو تعارض هذه الأساليب مع ما اعتادت حكوماتنا أن تطرحه على شعوبها، وعليه فإن هدف نشر الكتاب هذا هو محاولة سد النقص فى كتابات غيرى وتلافى عجزهم فى عرض الوقائع والأحداث.

وفى ختام هذا الفصل الأول أرجو أن لا ينظر إلى هذا الكتاب على أنه يختص بعلاقاتنا مع ناصر بالذات دون سواء. فالكتاب ملىء بالعينات التاريخية لتعطى دروسا ذات تطبيق عام فى العلاقات بين الولايات المتحدة وبين أى زعيم خارج العالم الغربى يتوقع أن يلعب دوراً ليس قليلاً فى العلاقات العالمية فى المستقبل. ومع أن الحديث حول ناصر قد شغل مساحة لا بأس بها من صفحات هذا الكتاب. بأننى قد بذلت قصارى جهدى فى معالجة نواحى سلوكه التى أتوقع أن تكون مشتركة مع غيره من الحكام فى الأقطار الأفريقية والآسيوية شريطة أن يكونوا «النموذج الناصرى»، وأن تكون الظروف السائدة فى داخل أقطارهم اقتصادىّ واجتماعىّ كتلك الظروف البائسة التى كانت سائدة فى مصر!! وأن يتفاعلوا بالضرورة مع التحركات التى تقوم بها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ضمن نطاق «لعبة الأمم».

-٦-

مخططاتنا قيد التنفيذ فى سُوريَا

١٩٤٧ ـ ١٩٤٩

اذا لم تربح المباراة فغَيِّرْ اللاعبين

بعد ظهر أحد الأيام الباردة من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧ اتصل السكرتير الأول فى السفارة البريطانية فى واشنطن، وكان يومها «سيشل». بـ «لوى هندرسن» مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وأفريقيا وطلب منه مقابلة لسبب هام. وقد حدث هذا قبل سنة واحدة من تأسيس «مركز اللعب» فى واشنطن. وفى تلك المقابلة، قام سيشل بتسليم هنرسن رسالتين على جانب من الأهمية صادرتين عن «القسم الأجنبى» فى السفارة البريطانية. وكانت الأعراف الديبلوماسية تقضى أن يقوم السفير البريطانى نفسه بتسليم أمثال تلك الرسالتين إلى وزير الخارجية مباشرة. إلا أن جورج مارشال - وزير الخارجية يومها - كان قد غادر مكتبه مبكراً لقضاء عطلة الأسبوع خارج واشنطن ولهذا فقد اقترح سيشل أن يقوم بنفسه بتسليم هاتين الرسالتين إلى هندرسن ويتباحث معه بشأنهما حتى يكون أمام موظفى وزارة الخارجية وقتا كافيا لدراسة الرسالتين خلال عطلة الأسبوع، وتقديم لمحة عن مضمونهما لوزير الخارجية قبل التقائه بالسفير البريطانى صباح الإثنين.

وصل سيشل إلى وزارة الخارجية والموظفون يستعدون للانصراف لقضاء عطلة الأسبوع. واعتاد هندرسن أن يبقى لوحده فى مكتبه حتى ساعة متأخرة من المساء. وهكذا كان الهدوء المخيم على جو المكتب ملائما تماماً لتسليم أمثال تلك الرسالتين اللتين كانتا تتضمن أنباء صاعقة.

وهذا ما حدث فعلاً. فقد كانت أخبار الرسالتين تشير إلى عزم بريطانيا على إنهاء وصايتها (التى دامت ما لا يقل عن قرن من الزمن) على بعض أرجاء العالم. فحكومة جلالة الملك تواجه أزمة مالية، ولهذا فإنها لن تتمكن من تحمل أعباء مقاومة المد الشيوعى فى كل

من تركيا واليونان، والتى تقدر مالياً بخمسين مليونا من الدولارات. وتخشى بريطانيا فى الوقت نفسه أن يتمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم على اليونان عن طريق حرب العصابات، وعلى تركيا عن طريق هجوم عسكرى مباشر. وكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تبادر إلى سد هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتى إليه. إلا أن هندرسن لم يكن ليحتاج إلى أيام عطلة الأسبوع حتى يدرك ما تعنية أنباء هاتين الرسالتين وما يترتب عليه أن يفعله بعد ذلك. فالخطر الشيوعى لا يهدد بالزحف على اليونان وتركيا فقط بل وعلى أوربا الجنوبية خارج الستار الحديدى وعلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط. ومع أن أخبار الرسالتين قد سبب بعض القلق لهندرسن - وقد اعتذر سيشل له على ذلك - إلا أنها قد أشعلت الضوء الأخضر أمام الحكومة الأمريكية لتصبح دولة ذات تأثير فعال فى شؤون العالم . كما أظهر الاتحاد السوفياتى على أنه سيكون مصدر تهديد متزايد للسياسة العالمية. وربما سيفوق ألمانيا النازية فى هذا.

لم تكن برودة ذاك اليوم بسبب رداءة الطقس فحسب، بل شاركت فى ذلك رداءة الأحوال الاقتصادية التى باتت تهدد فرنسا وإيطاليا إلى جانب بريطانيا بسيطرة الشيوعيين. ففى شتاء ١٩٤٧ عانت بريطانيا من نقص فادح فى موارد الفحم بسبب سوء الأحوال الجوية، وتراكمت الثلوج إلى حد أعاقت وسائل النقل كليا، وتسبب فى إتلاف محصول الشتاء من القمح. ونتج عن هذا كله توقف معامل عديدة عن العمل، وترك حوإلى خمسة ملايين عامل بدون عمل.. وزادت مشكلتا التأمين الاجتماعى وتخفيض ساعات العمل الحكومة البريطانية إرهاقا فغدت أعجز من أن تعالج مشاكلها الداخلية. وكانت نتيجة كل ذلك أننا أصبحنا وحيدين على مسرح الأحداث العالمية نواجهها بالطريقة التى تتطليها «لعبة الأمم» حديثا. ولم يكن بمقدور بريطانيا أن تقدم أكثر من إسداء النصح لرجالنا فى السلك الدبلوماسى وفى مجموعة المخابرات المركزية.

ومن عجيب المفارقات. أن وزير الخارجية جورج مارشال كان قد قصد برينستون ليلقى أول خطبة أمام حشد من الشباب الأمريكى، موضحاً الدور الذى بات على الولايات المتحدة أن تلعبه فى العالم بعد أن تغلغلت فى كل أركانه جغرافيا، وماليا، وعسكرياً، وعملياً. ودعا الأمريكيين، حيال وضع كهذا ، أن يرتفعوا إلى مستوى مسؤولياتهم لضمان أمن وسلامة العالم. وانتهى الوزير مارشال من إلقاء خطابه صباح ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ وهو لا يدرى

شيئا عن مضمون تلك المذكرتين الديبلوماسيتين اللتين أُرسلتا إلى وزارته فى اليوم السابق. وفى أثناء ذلك، اتصل لوى هندرسن بوكيل وزارة الخارجية «دين اتشيسون» واستدعاه من مأدبة عشاه فى إحدى سفارات دول أمريكا الجنوبية ليعرض له مضمون الرسالتين ويتباحثا فى الأمر ، وأمضى الاثنان وقتا طويلاً فى دراسة القضية وبقيا حتى وقت متأخر من الليل. وفى صبيحة اليوم التالى عقدا اجتماعات ومباحثات مع معظم رؤساء دوائر وزارة الخارجية وكبار موظفيها. وعندما حل يوم الإثنين، كان مرؤوسو وزير الخارجية جورج مارشال قد أمضوا يومين من العمل المضنى فى دراسة مختلف جوانب القضية. وقام بعدها وكيل الوزارة دين اتشيسون بدعوة «جورج كينان» إلى وزارة الخارجية ليقوما معا بتشكيل لجنة خاصة مهمتها وضع الخطط التى تتناسب والظروف الجديدة المفروضة عليهم. وكان جورج كينان يومها يمضى بعض الوقت فى الكلية الحربية الوطنية بعد مهمة رسمية موفقة فى موسكو احتل فيها منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية هناك.

لم تهتم وزارة الخارجية بإبلاغ أنباء الأزمة هذه إلى مجموعة أجهزة مخابرات أسلحة وزارة الدفاع (الجيش ، البحرية، سلاح الجو) أى جماعة المخابرات المركزية (التى انبثقت منها وكالة المخابرات المركزية فيما بعد) الا بعد مضى ساعات طوال كانت كفيلة بتسرب بعض أخبارها إلى الصحافة. وكان هذا التأخير سببا فى احتدام الصراع ثانية بين مختلف أجهزة الدولة. فمنذ مدة قام البنتاغون (وزارة الدفاع) بحملة مركزة على طبقة رجال المخابرات الذين التحقوا بالمجموعة الجديدة بعد انتهاء خدمتهم من «دائرة الخدمات السرية» السابقة والتى أسست للعمل فى أوربا أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد نعتتهم وزارة الدفاع بأنهم زمرة رجال فاشلين اضطروا للبقاء فى سلك المخابرات بعد أن أخفقوا فى العودة إلى مقاعد الدراسة لرفض الجامعات لهم. ووجهة نظر وزارة الدفاع أن أموراً وأزمات كهذه لا يمكن مواجهتها إلا على مستوى عملى عال، وهذا لا يتوفر إلا ضمن الذين يخضعون إلى نظام عسكرى قدير.

ولا أزال أذكر جيداً المشاكل الإدارية التى كانت مثار خلاف فى المعركة التى دارت رحاها فى واُشنطن ، وفى شهر شباط (فبراير) بالذات. فقد كنت يومها عضوا فى اللجنة الاستشارية للشؤون الإدارية التى أوكلت لها مهمة السيطرة على الفوضى السائدة آنئذ فى سلك أجهزة المخابرات واقتراح الحلول لها. كما أننى أذكر تماما ذاك التصريح شبه الرسمى الذى أدلى به أحد كبار المسؤولين عن جهاز المخابرات العسكرية التابع للجيش ويذكر فيه أن

الضرورة المفاجئة لتدخل الولايات المتحدة كطرف فى الحرب الباردة قد خففت من خطر ابتلاع وكالة المخابرات المركزية الجديدة للعاملين فى أجهزة مخابرات الحكومة لما وراء البحار، وعلى أية حال، فإن الأدميرال سيدنى ساورز، مدير المخابرات المركزية، قد ربح المعركة فى مجال التنظيم الإدارى وملاكاته إلى حد أن الجهاز الجديد للمخابرات المركزية قد اضطلع بكافة المسؤوليات، وحصل على كل الصلاحيات، بشكل أصبح معه يتمتع بقدرة جيدة على القيام بكل الأعباء التى توكل وزارة الخارجية له تنفيذها.

ويسهل على من يؤرخ حادثة بعد وقوعها بعشرين عاما، أن يلم برعونة كل من كان طرفاً فيها. فالجميع يقرون بأت الحوادث التى كانت تعتبر فى الأربعينيات ذات أهمية تاريخية إنما كانت تعالج من قبل أشخاص مدفوعين باعتبارات إقليمية. كما يقرون أيضا بأننا لو لم نظهر ضعفنا فى مؤتمر بالطا ،نسحب قواتنا من أوربا قبل اتضاح نية السوفييت ومخططاتهم ، لكنا الآن فى غنى عن جميع مشاكل الحرب الباردة الحالية. ولكن جميع الأشخاص الذين كانوا مسؤولين عن اتخاذ مثل تلك القرارات بعد الحرب - والتى تبدو الآن وكأنها تصرفات طائشة حمقاء - يتذكرون أنه لم يكن من المستطاع سلوك غير ذلك الطريق تحت وطأة تلك الظروف. ولقد بدأت الآن تتضح معالم «لعبتنا» مع السوفييت بعد قرار البريطانيين بالانسحاب من تركيا واليونان الذى أبلغنا عنه فى حينه. إلا أن قضايا عديدة ما تزال غامضة لمؤرخى تلك الحملة من الزمن مع أنها هى التى كانت تحول دون اتخاذ القرارات المناسبة.

فمن جمهة أولى : كان هناك تناقض ضرورى بين سياسة حكومتنا الظاهرة للرأى العام فى القضايا الدولية. وبين وجهات نظر أولئك الذين يقبعون خلف جدران وزارة الخارجية والدفاع. ولقد أرسل جورج كينان نائب رئيس بعثتنا الدبلوماسية فى موسكو رسالة إلى وزارة الخارجية فى أوائل ١٩٤٦ لخصت بدقة فائقة معالم وحدود الحرب الباردة التى بدأت تستعر يومها. ولقد منحت تلك الرسالة كل اهتمام وتقدير، واعتبرت تحليلا دقيقا لنيات السوفييت ولمواقفهم وسلوكهم المحتمل.

وفى خطاب ألقاه فى فولتن بولاية ميسورى، عثر ونستون تشرشل عن هذا الوضع بوضوح عندما استخدم فيه عبارة «الستار الحديدى». وكان حضور الرئيس ترومان لتلك المحاضرة إشارة إلى موافقة الحكومة الأمريكية على الموقف البريطانى. وبالرغم هذه الهفوة فقد بقيت حكومتنا تتظاهر بسياستها الرسمية التى تسير على هدى «روح التفاهم التى سادت مؤتمر

يالطا»، وكانت ترى أن الأمم المتحدة تتمكن من حفظ الأمن فى جميع أنحاء العالم بتعاون وتفاهم القوى العظمى المحبة للسلام. إلا أن كافة تقارير الحكومة الممهورة بخاتم «سرى للغاية» تشير إلى عكس ذلك تماما. وبدا للعيان أننا نتجه بخطى واسعة نحو حرب باردة مع السوفيت. وبدأ هذا ينعكس على جميع نواحى حياتنا إلى الحد الذى اضطررنا معه أن نطلق أسماء مغايرة على الدوائر المختصة بشؤون الستار الحديدى إخفاء لها وتمويها.

وكانت العقبة الثانية هى النقص الفادح الذى كنا نعانيه فى عدد الأشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب أطلق عليها الأدميرال «ساورز»، مدير المخابرات المركزية، اسم «الحرب التى لا كالحروب». وقد واجهنا هذه العقبة فعلا عند محاولتنا الحلول محل المخابرات البريطانية فى اليونان وتركيا مع أننا كنا نملك رصيدا ضخماً من هذه العناصر فى أوربا. وبقى قسم الشرق الأدنى وأفريقيا فى وزارة الخارجية ركيكا وضعيفا جداً. ولم يكن وضع المخابرات المركزية ووزارة الدفاع أصلح من هذا، فكافة رصيدهم لم يتعد بعض علماء الآثار والمبشرين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يتلقون التوجيهات من قبل أساتذة الجامعات المتعاقدين. وكان هناك خليط من رجال الأعمال الذين ينتدبون لبعض مهمات المخابرات الاعتيادية أو لبعض مهمات دبلوماسية ما وراء الكواليس. وكان علينا إذن أن نبدأ بحملة تجنيد واسعة وسريعة حتى نتمكن من تحمل مسؤولياتنا فى تلك الأرجاء من العالم. إلا أن تحديدا واضحا وصريحاً لما ننوى تحقيقه وتنفيذه يجب أن يتصدر قائمة الواجبات الأساسية. وعلى وجه التحديد: كان سد الفراغ الذى نتج عن انسحاب البريطانيين من اليونان وتركيا والذى بالتالى أوجد فراغا فى كل أرجاء الشرق الأوسط من ضمن أهدافنا الرئيسية. وقد اقتضى هذا أن نبدأ «لعبتنا» التى كانت حكومات دول المنطقة الشاغرة من النفوذ أطرافا فيها. وسبب ذلك أن السوفييت لم يكونوا بعد قد اتخذوا مقاعدهم حول طاولة اللعب (لم يكن التدخل السوفياتى قد بدأ يومها). وكانت هذه «اللعبة» لعبة تعاون من جهة ونزاع من جهة أخرى. وأصبحت قراراتنا مرتبطة بأهدافنا فى المنطقة ومتأثرة بمدى تعارض مخططاتنا مع تطلعات كل من تركيا واليونان وبقية دول الشرق الأوسط. وانتقل هذا التعارض والخلاف إلى داخل وزارة الخارجية واللجان المشرفة على التخطيط فيها. فلا أزال أذكر عندما خاطبنى أحد المسؤولين عن التخطيط فى وزارة الخارجية وهو فى أوج غضبه قائلاً: «إننا لا نملك أية أهداف وأننا لا نواجه هناك سوى مشاكل». فمن هذه المشاكل ما كان مصدره النوايا الصهيونية لخلق دولة إسرائيل وإصرار العرب على رفضها. ومنها ما مصدره الخلاف مع

الحلفاء حول الدور الذى يجب أن تلعبه دول الشرق الأوسط فى خطط الدفاع للمستقبل، والدعم السياسى لشركات البترول الأميريكية التى كانت فى نمو مستمر واتساع متزايد هناك. ومهما كان، فقد برزت أهدافنا أخيرا فى شكل محدَّد وكان منها ما يلى:

١- تجنب أى احتكاك مباشر بيننا وبين السوفييت نتيجة اشتباكات إقليمية فى المنطقة.

٢- تقوية حكومات المنطقة عسكرياً وسياسياً إلى حد تتمكن معه من المساهمة الفعالة فى مجهود العالم الحر للوقوف فى وجه الشيوعية الدولية.

٣- خلق ظروف ملائمة تفسح المجال أمام التغلغل التجارى والتوظيف المالى للأميريكيين.

لم نكن نواجه فى سنة ١٩٤٧ سوى مشكلة النزاع العربى الإسرائيلى وكنا والسوفييت نرى أنه لا نزال فى وضع مبكر لأظهار تأييدنا لطرف دون آخر. وفى الوقت الذى كانت الظروف السائدة فى منطقة الشرق الأوسط تبدو مناسبة جدا للاستثمارات المالية والتجارية الأميريكية، بدأ يساورنا القلق حيال احتمال رفض الحكومات العربية لتوجيهاتنا السياسية والعسكرية. ولهذا فإن تجاوب سكان المنطقة معنا كان عاملا مهما لإحراز أى تقدم فى مجال تحقيق رغباتنا وكان يجب أن يتوفر منذ زمن بعيد لولا وجود عجز فى قيادات دول الشرق الأوسط.

كانت مشكلتنا الرئيسية فى دول الشرق الأوسط فقدان القيادات الذكية التى تتمتع بقسط وافر من الخبرة والحنكة فى إدارة الأمور وتقدير مصالح بلدانها والتى هى على مستوى رفيع من النزاهة والشجاعة الكافيتين لتحقيق كل ذلك. وبهذه الطريقة دون غيرها يمكننا أن نحقق أهدافنا مهما كان لونها وشكلها. ونتيجة لذلك فقد بدأ تركيزنا على فسح المجال أمام وصول «النوع الملائم» من القيادات إلى السلطة وتسلمها مقاليد الحكم فى داخل أوطانها بينما نكون قد أنجزنا دراسة مخططاتنا وحدَّدنا أهدافنا فى المنطقة بكل دقة ووضوح.

كانت قواعد «لعبة الأمم» تملى علينا أن نبذل قصارى جهدنا لإحراز التقدم والنجاح ضد المناوئين لنا ولكن لصالح الموالين لنا. فإذا تعسرت الخطوات وسدت المنافذ كان لابد بعدها من تعديل اعتباراتنا لأسباب النجاح وطبيعته. فإذا لم تكف هذه الخطوة كان لابد بعدها من اللجوء إلى تغيير اللاعبين الذين يشكلون حجر عثرة فى طريقنا واستبدلاهم بآخرين اثر انسجاماً مع الظروف الراهنة. ومذكرات الحكومة الأميريكية عام ١٩٤٧ أشارت بوضوح

وتأكيد إلى أن أجهزة المخابرات والسلك الديبلوماسى كانت على وشك القيام بتغييرات فى قيادات بعض دول الشرق الأوسط. والمؤرخون الذين يحاولون الوقوف على الدوافع التى كانت خلف مخططاتنا أثناء تلك الفترة من التاريخ كانوا يتغاضون عن الحقيقة التالية. أن التفكير المثالى ومحاولة الالتزام بالمبادئ لم تختف نهائيا ليحل محلها الأسلوب الواقعى للعمل الذى يتمثل فى التجسس والاستفادة من التسهيلات التى يقدمها العمل السياسى السرى وذلك لمجابهة الروس بنفس طريقتهم فى العمل. إن اى تفحص لوثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجموعة المخابرات المركزية (التى أصبحت بعد ذلك وكالة المخابرات المركزية) تظهر مثاليتنا فى العلن وانتهازيتنا فى السر. ولكن كل من شارك فى «لعبة الأمم» يذكر أننا لم نكن فعلا انتهازيين كما تصوره تلك الوثائق، وأن عنصر المثالية كان لا يزال التفكير السائد والصبغة الطاغية وذلك فى كلا نشاطينا السرى والعلنى.

وبدأنا العمل بتجنيد العنصار المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية. ثم ضممنا إليها أركان قيادة السلك الديبلوماسى إلى جانب إحتياطييه من الرجال الذين كانوا فى الخارج بمهمات ثقافية وإعلامية. والتحق بنا بعض الدبلوماسيين المنتظمين رسمياً فى وزارة الخارجية. ومعظم هذه العناصر التى هى من البعثات التبشيرية أو من أصحاب الفكر، وبعض الهواة كانت تعتقد أن تغيير القيادات فى دول الشرق الأوسط عامة والدول العربية خاصة لا يستلزم اكثر من مجرد إزاحة بعض الدعائم والقوى التى أوصلت كثيرا من الزعماء إلى سدة الحكم دون أن تتوفر لديهم أية كفاءات أو ميزات، وستستمر فى مساندتهم، طالما امتلكت القدرة على هذا. إننى لا أزال أذكر تلك المحاضرة التى ألقاها أحدهم فى اجتماع توجيهى مشترك لوزارة الخارجية ومجموعة المخابرات المركزية وقال فيها يومها: «يظهر فى كل من سوريا ولبنان ومصر والعراق، أن السياسيين الحاكمين قد استلموا مقاليد الحكم نتيجة انتخابهم من الشعب، ولكننا نتساءل أية انتخابات تلك، كان الفائزون بالانتخابات من مرشحى القوى الأجنبية. ومن مرشحى الإقطاعيين الذين يلزمون الفلاحين والمستخدمين بانتخاب من يخدم اقطاعهم، ومن الرأسماليين الجشعين الذين يشترون أصوات الشعب لحساب أعوانهم بنفس سرقتهم المعتادة فى الحصول على ما يريدونه عن طريق الخداع واللصوصية. إن العرب يرزحون تحت نير أولئك الحكام. إن لهم ميولا طبيعية نحو السياسة وهم ليسمو أغبياء مغفلين».

لم يكن ذلك المحاضر لينقل سوى وجهة نظر كل أولئك الذين كانت لهم خدمات سابقة فى

سلك الخارجية أو المخابرات. كما أن هذه النظرة قد حظيت بتأييد كل المسؤولين الجدد الذين جاؤوا من خارج سلك الحكومة مثل رجال الأعمال ورجال الجامعات وغيرهم من الذين اعتادوا أخذ ذكاء الإنسان وحدود طاقته العملية بعين الاعتبار والاحترام.

وفى ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم بموظفى وزارة الخارجية والبيت الأبيض، أعلن عن «مبدأ ترومان» الذى كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المرسلة إلى وزارة الخارجية فى ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ . ولم يمض زمن طويل على إعلان مبدأ ترومان حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو « مشروع مارشال». ومع أوائل تموز (بوليو) ١٩٤٧ بدأ سيل من التعليقات والافتتاحيات يظهر فى الصحافة الأميريكية. كما بدأ كبار المسؤولين سلسلة من المحاضرات فى الجامعات الأميريكية، وكلها تتحدث بصراحة عن الحرب الباردة وكيف السبيل إلى إيقاف الزحف الروسى. ومع أن عديدا من الكتب الجيدة قد ظهرت فى الأسواق تعالج هذه القضايا. وتفصل فيها، الا إنها لم تتطرق إلى الحملة التى قمنا بها سريا بقصد سد الفراغ. وسأولى هذا النوع من النشاط السرى كل اهتمامى فى كتابى هذا لعجز بقية المؤرخين عن أن يقوموا بهذه المهمة التى لا يمكنهم الوقوف على أسرارها ولا معرفة خفاياها، فلقد وصفتها وكالة المخابرات المركزية بأدق العبارات وقالت «إنها حرب لا كالحروب».

بدأت «الحرب الباردة» قبل إنشاء وكالة المخابرات المركزية بشكلها المعروف الآن.. وضم الفريق الذى بدأ العمل خليطاً من الديبلوماسيين ومن ديبلوماسيى ما وراء الكواليس[1] الذين تم استخلاصهم من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومن جملة دوائر رسمية أخرى كانت فى معظمها من بقايا الحرب العالمية الثانية أو من التى أنشئت حديثا للعمل فى الفترة الانتقالية بين فترة الحرب وعهد السلم. وقد برز فى هذا الخليط الذى لا ينسى اتجاهان متباينان فى فرط الثقة وفى المبالغة فى الحذر. فقد تجسد الاتجاه الأول فى أولئك الذين كانوا يوجهون نقدا لاذعا للسابقين من «أرباب العمل» - وهم البريطانيون - وتجسد الاتجاه الثانى فى أولئك الذين أظهروا ميلا شديدا للتعاون الوثيق معهم وللاعتماد على خبرة كلتى المخابرات والديبلوماسية البريطانية لأكبر حد ممكن. إلا أن الاتجاهين قد توصلا إلى حل وسط عندما اتفقا على الرأء القائل: «خير لنا أن نحاول السير قبل ان نفكر بالركض». وكان القرار الأخير

(١) الديبلوماسيين السريين crypto Diplomats

أن تكون أولى مغامراتنا محاولة للتدخل فى الشؤون الداخلية لدولة مستقلة، وأن تكون المحاولة متواضعة محدودة ولكنها مويدة بتبريرات كافية ودون مساعدة البريطانيين - بل ودون درايتهم بها.

ولكن من أين نبدأ؟ لا يمكننا أن نبدأ فى تركيا أو اليونان، فالبلدان حليفان لنا ويريدان ما نريده نحن، وقياداتهما تسهران على رعاية أهدافنا المشتركة. ولو كان هناك أى مجال لأن تكون فى لعبة» معهم فستكون «لعبة تعاون وليس، لعبة صراع واختلاف» كما أننا لا يمكننا أن نبدأ فى إيران لأننا فى انسجام وتفاهم مع قيادتها، وكانت نسبة التعاون فى «لعبتنا» معها أكثر من تسعين بالمائة (وهذا فى البداية على الأقل) ونسبة الخلاف أقل من عشرة بالمائة. وبالتإلى فلم يبق أمامنا سوى العالم العربى الذى بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه، وزادت شقة الخلاف اتساعا غير قليل. وكان ثانيا أن سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السلطة فى تلك الأقطار، وأن استلام مقاليد الحكم من أشخاص ذوى ثقافة أوسع وإدراك أعمق سينقل هذه الأقطار العربية من صف المناوأة إلى صف الموالاة لنا. كما أن حذر العرب البالغ من السوفييت سيجعل الحماية الأميريكية لهم موضع ترحيب. فشركات البترول الأميريكية ستجعل منهم أغنياء قريباً. كما أن التوصل إلى أية تسوية حول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيسى لكل ما يتأتى منها. إلا أن إصرار حكامهم يومها على رفضهم النظر فى الأمور من خلال هذا المنظار (المنظار الأمبريكى) كان قد اعتبر مبررا كافياً للإطاحة بهم - أو على الأقل تحريك شعوبهم وحثها على الإطاحة بهم. وهكذا فقد كان وضع القيادات العربية فى عام ١٩٤٧ مبررا كافياً للتدخل بشؤون العالم العربى.

كان المفروض أن يكون العراق أول أهدافنا، فحكومته بوليسية مكروهة. وكان من السهل علينا بومها أن نقنع أنفسنا أننا نقوم بعمل فيه خير كثير للعراق عندما نفسح المجال لمجىء حكومة أكثر شعبية وتأييداً. إلا أن الفريق المكلف بالتنفيذ فى العراق لم يستطع مباشرة ذلك دون علم البريطانيين وموافقتهم. ورفضت حكومة المملكة العربية السعودية كافة اقتراحاتنا لتغيير طريقة الحكم فيها، وهكذا لم يعد لنا أية فرصة للعمل فيها. كما أسقطنا من حسابنا التدخل بشؤون لبنان والأردن ومصر لاعتبارات شتى. وبحساب البواقى فإنه لم يبق أمامنا إلا سوريا. فقد كانت فى وضع اقتصادى مريح، كما أن الحاكمين التركى والفرنسى لم يفلحا فى اذلال شعبها وترويضه. ولهذا فقد كانت ظروف سوريا ملائمة جداً لإجراء انتخابات ديموقراطية، تفسح المجال أمام مجموعة من الزعماء على شىء من الذكاء والحنكة والتعاون

للوسول إلى سدة الحكم واستلام مقاليد الأمور. وأخيرا، فقد ظهر لنا جليا الركائز التى تدعم بقاء المجموعة السابقة من السياسيين فى الحكم، وهم لا يمثلون الشعب حقا، لا تقوى البتة على مجابهة الوسائل التى عزمنا على اتباعها هناك.

وفى الحقيقة لم يكن هناك مجال لاستخدام أى من أسلحتنا التى علمتنا التجارب والمحن بعد حين استعمالها لعمليات أكثر دقة وأعمق أثرا. فقد كان الوضع أضعف مما توقعنا، وكان يكفى القيام ببعض الوكزات اللبقة هنا وهناك لتشجيع بعض السياسيين المفضلين ليسلكوا طرقا نزيهة فى حملاتهم الانتخابية، إلى جانب القيام بمراقبة عامة غير رسمية على إجراءات الاقتراع، وضبط الأسماء على اللوائح، بغية كشف حوادث الضغط والاحتيال وإخبار المرشحين بها لفضحها والحيلولة دون وقوعها. ولم يكن من الممكن توفير كل هذا بواسطة رجال السلك الدبلوماسى (مع أنه كان لهم القدرة على ممارسته ضغطا كبيرا بقصد التنبيه والتحذير). ولذلك حاولنا أن نوفر ذلك عن طريق رجال الصحافة الأجنبية الذين وجهت لهم الدعوات بهذا القصد. وقام فريق من العملاء السريين بالمساعدة فى هذا المجال دون الظهور بمظهر المؤيدين للمرشحين الموالين لنا، وكان جل دورهم حث الشعب على انتخاب الرجال الوطنيين المخلصين. ولقد فوتنا الفرصة على الحكام السوريين بخصوص توجيه انتقادات لتدخلنا هنا وهناك عن طريق قيام القائم بالأعمال الأمريكى بزيارة إلى وزارة الخارجية السورية، ولفت النظر إلى اعتقادنا أن الانتخابات السورية المقبلة ستكون محط أنظار جميع الأقطار المستقلة حديثا. ولهذا فإننا لا نتوقع وجود أى مانع من مراقبتنا لها. وقامت الشركات الاميريكية الخاصة، بالتعاون مع أفراد الجالية الأميريكية وبعض الإرساليات التبشيرية هناك، بتوجيه تحذير لأولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء إلى الضغط والاكراه لحمل المواطنين على الإدلاء بأصواتهم لصالحهم (صالح السياسيين) من مغبة مثل هذه الأعمال. أو من الوقوف فى وجه إجراء انتخابات حرة نزيهة يصوّت فيها المواطنون لمن يريدون. كما وجهت تحذيرات مباشرة وغير مباشرة إلى كل من الاقطاعيين وأصحاب المعامل وزعماء الأحياء. وحتى رؤساء مخافر الشرطة، من إعاقة الشعب عن الإدلاء بأصواتهم بحرية تامة، ومن القيام بأى اضطهاد داخلى أو تحيز لن يترتب عنه سوى استنكار واسع النطاق لا يقل عن ذاك الذى لاقاه كل من الظلم التركى؛ والتعسف الفرنسى وتمكن رئيس إرساليات طائفة الكنيسة الإصلاحية (مبنوديه) أن ينتزع وعدا من أكبر اتحاد للمثقفين الأكراد بأنهم وزملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأميين والأكراد ويكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء مرشحى الاتحاد.

وتضمنت تحركاتنا النقاط التالية:

١- حملة قامت بها إحدى شركات البترول الأميريكية التى تأسست حديثا وذلك بلصق إعلانات دعائية ضخمة فى الأماكن العامة تحض السوريين على الإدلاء بأصواتهم واختيار المرشح الذى يريدونه لينعموا بالحرية بعد بضعة قرون من السيطرة الأجنبية. ومما أثار دهشة الشعب السورى أن تلك الدعايات لا تدعو إلى مرشح دون آخر.

٢- ترتيبات أعدت مع بعض مكاتب سائقى السيارات العمومية (التكسيات) ليقوموا بنقل الناخبين مجانا إلى أماكن الاقتراع شريطة أن يترفعوا عن أية هبات مغرية من المرشحين للتأثير على ركابهم من الناخبين أو لنقل المقترعين لصالح مرشح دون آخر.

٣- تزويد مراكز الاقتراع الرئيسية فى المدن بآلات أتوماتيكية لتسجيل الأصوات بحياد تام على أحدث طراز أمريكى. حتى تغدو الانتخابات السورية كمثيلاتها فى أمريكا تماما.

ومع كل ذلك فإن الاجراءات الانتخابية لم تكن مخيبة للآمال. ففى حمص، لم يكن هناك أية محاولة مكشوفة للتدخل. فقد أوعز الإقطاعيون إلى فلاحيهم ان يبتعدوا عن الدعايات الشيوعية والإمبريالية المنتشرة فى الساحات العامة ولا يصدقوها، وأن يدلوا بأصواتهم حسب التوجيهات المعطاة لهم سابقا. وكانت تلك الانتخابات الحرة الاولى من نوعها فى سوريا التى كان يعتقد شعبها أن الحكومة ما هى سوى مطية يتخذها الأجنبى لتحقيق مآربه والوصول إلى أهدافه عن طريق الرشوة والإفساد التى تمليها نزعته الفطرية عليه، ومع أنه وقعت بعض المصادمات الدموية وسقط بعض القتلى والجرحى إلا أن الناخب العادى قد وجد فى تلك الانتخابات فرصة جديدة لرفع سعر «صوته الانتخابى» أو وجدها فرصة لدعم قريب له عن وصوله إلى النيابة يجلب له مكاسب ومغانم وشكل سائقو السيارات اتحادات باعت خدماتها للمرشح الذى كان يجزل لهم العطاء أكثر من غيره. ونكث اتحاد المثقفين الأكراد بالوعود التى أعطوها لرئيس الإرسالية الإصلاحية. وتعطلت آلات تسجيل الأصوات الانتخابية كلها ما عدا اثنتين بسبب عدم انتظام التيار الكهربائى. غير أن المرشحين المنهزمين قد عزّ عليهم أن يهزموا على أيدى التكنولوجيا الإمبريالية فرفضوا النتائج التى أعطتها الآلات الإلكترونية

وأعاد لهم الكتبة فرز الأصوات ثانية بصورة حققت لهم الفوز والنجاح. وكانت حكومتنا الوحيدة من بين حكومات الدول الكبرى التى لم تدفع مساعدات مالية للمرشحين الموالين لها مما دعاهم إلى الالتجاء إلى الفرنسيين والبريطانيين بل والسوفييت أيضا. فقد كانت الأطراف الآنفة الذكر على شيء من الدهاء جعلها تتحايل على القيود التى فرضناها على الانتخابات، إن النزاهة الساذجة التى ظهرنا بها - نحن الأميركيين - لم تجد لها قبولا فى نفوس الفرنسيين والبريطانيين والروس، بل ولقد أثارت شكوكهم حولنا. فلقد اعتقدوا أننا نعد فى الخفاء حلولا جديدة ومبتكرة للسياسة السورية وأن تلك البساطة المصطنعة ليست سوى مقدمة لحيل ومؤامرات أخرى ولكنها من نوع جديد لم يعتد العالم القديم على فهمه وتصوره.

لم يكن الأميريكيون، رسميون وغير رسميين، بتلك السذاجة وذاك الغباء حيال الانتخابات السورية عام ١٩٤٧، ولكنهم كانوا حديثى عهد فى هذا الحقل، وفى الوقت الذى لم يكن أى من رجال الحكومة أو رجال الأعمال الذين رحلوا إلى الشرق الاوسط ذا خبرة فى هذا المضمار. كان هذا الأمر شيئا روتينيا للروس أو الفرنسيين أو البريطانيين. ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الأميريكية بتعليم أحسن موظفيها اللغة العربية وقامت بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة. كما قامت بتمشيط الولايات المتحدة بحثا عن أميريكيين ذوى خبرات سابقة فى هذا المضمار. وكان باركر هارت ورودجر دافيز وهاريسون سايمس من جملة الموظفين الضالعين بمثل هذه الخدمات والذين كانوا على وشك ترك الخدمة فى الوزارة لما اصابهم من سام وملل. وعندما شعرنا بالحاجة إلى أمثالهم فى عام ١٩٤٧- ١٩٤٨ دفعنا بهم إلى مناصب ذات مسؤوليات جسام. واستدعى تشارلز فيركسون الخبير فى التعليم السريع للغات - من جامعة هارفرد ليبدأ فصولا دراسية فى اللغة العربية لبعض الديبلوماسيين الشباب. وكانت نتيجة هذه الفصول أن قارب عدد الديبلوماسيين الأميريكيين المتكلمين باللغة العربية عدد المتكلمين بها من البريطانيين وأربعة أضعاف المتكلمين بها من الروس. وأصدرت وزارة الخارجية أمرا بتعين ارتشيبالد روزفلت (حفيد الرئيس تيودور رزوفلت) كمنسق لنشاطنا السياسى الخاص وأرسلته إلى بيروت. وكان روزفلت هذا قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية وكان يتكلم اللغة العربية والكردية

والأزبكية والروسية والفرنسية والأسبنيولية وبضع لغات أخرى. وخدم فى الماضى فى مراكز أظهرت قدرته الفائقة فى الجمع بين الثقافة الواسعة والتنفيذ الدقيق. وبحلول عام ١٩٥٢، كان رجالنا فى السلك الدبلوماسى فى الشرق الأوسط من خيرة ما بمقدور حكومتنا تقديمه.

كانت الأعوام بين ١٩٤٧ و١٩٥٢ أعواما هزيلة بخصوص نشاطنا فى «لعبة الأمم». ويعزى ذلك لجملة أسباب منها ذاك الاستقلال المفاجئ لعدة دول بقيت ترزح قرونا تحت نير الاستعمار، وهذا الأمر قد أظهر بعض المشاكل التى لم يكن تتوفر أية خبرة عندنا لمعالجتها. ومن جملة الأسباب غضب العرب لاعتقادهم أننا كنا نساند الصهيونية ـ وهذا صحيح مهما كان المبرر لذلك ـ ومن ثم اسرائيل بشكل مفضوح لا تحرج فيه ولا حياء. كما أن سوء التفاهم وقلة التجاوب الذى حصل بين رجال سلكنا الدبلوماسى وواضعى الخطط فى واشنطن كان من ضمن تلك الأسباب. فقد كان الرجال القابعون خلف الجدران فى وزارة الخارجية بواشطن تحت تأثير اتجاهات رجال الكونغرس ورجال الصحافة الذين لا يظهرون أى اكتراث أو اهتمام للعالم العربى. فى حين كان رجالنا فى السلك الدبلوماسى تحت رحمة مشاهداتهم اليومية واحتكاكهم المباشر مع المواطنين فى العالم العربى مما أدى إلى تباعد وجهات النظر وافتراق طرق التفكير حيال الأوضاع فى المنطقة.

لقد غدت الدبلوماسية الأمريكية فى العالم العربى بين ١٩٤٧ـ ١٩٥٢، مجرد مجموعة علاقات روتينية مع حكومات دول المنطقة. وتجسد جل عمل رؤساء بعثاتنا فى تسليم الرسائل التقليدية حول قلق حكومتنا من الأوضاع السائدة. كما كانوا يبذلون قصارى جهدهم لإقناع وزارات الخارجية فى دول المنطقة أن الحكومة الأمريكية ليست واقعة تحت تأثير الضغط الصهيونى واقتصر نشاط الدبلوماسية السرية الأمريكية على تقديم بعض المساعدات ـ كما يفعل البريطانيون والفرنسيون والروس ـ إلى من تختارهم من المرشحين فى كل من سوريا ولبنان والعراق ومصر. وكانت وجهة نظرنا يومها ملخصة بعبارة «دعنا ننتظر حتى يتبين لنا ما يجب أن نفعله». وفى «لعبة الأمم» كنا أشبه بلاعب البوكر الذى انضم حديثا إلى طاولة اللعب التى يحيط بها وجوه لم يألفها. فجلس ينتظر لفترة دون أن يجازف بأكثر من مبلغ رمزى بسيط عسى أن يتعرف إلى تلك الوجوه فتزول الحيرة والغربة وتتفتح الآفاق الواسعة أمامه.

إلا أننا لم نلتزم بهذه القواعد فى سوريا. لقد جلسنا إلى طاولة اللعب وبدأنا نخوض المغامرات قبل أن نألف الوجوه التى حولنا وتألفنا، وكانت العملية الثانية التى قمنا بتفيذها فى سوريا غريبة عن القواعد السابقة الذكر وجديرة بدراسة خاصة وذلك لسببين:

(١) لقد أضحت هذه العملية فيما بعد شغلنا الشاغل، ومثالا يحتذى فى كل الحالات التى ننوى أن نفعل فيها ما نريد دون أن نظهر بمظهر المتدخل بالشؤون الداخلية للدول المستقلة. ولقد أكسبتنا هذه العملية خبرة فائقة فى هذا المضمار، وجنبتنا أخطاء فادحة فى تنفيذ مثيلاتها.

(٢) كما أن هذه العملية قد ألقت ضوءًا ساطعا على مدى أهمية اختيار الأفراد المنفذين (أو عدم أهمية الاختيار) بالمقارنة مع صعوبة إنجاز العملية أو سهولة ذلك.

وفى تلك الأيام، كان الاعتقاد السائد عن كبار موظفى وزارة الخارجية أن الفراغ الذى حدث نتيجة الانسحاب البريطانى من المنطقة، بالإضافة إلى موقفنا المؤيد للصهيونية ففلسطين (والذى لا مفر منه)، قد حصر أهدافنا هناك ضمن حدود «بذل قصارى جهدنا لتقليل الخسارة وتخفيف حدة الفشل». وبالتالى فقد كانت التعليمات الصادرة من واشنطن إلى مختلف البعثات الديبلوماسية غامضة (غموض ردود الكاهن أوراكل فى دلفى على أسئلة الإغريقيين حول المغيبات)، وذلك بقصد ترك الحرية لرؤساء البعثات لتفسيرها كما يشاؤون ويرغبون، متحملين نتائج أخطائهم لوحدهم. فى حين كان يقبع المسؤولون السياسيون خلف الجدران فى واشنطن منتظرين نجاح عمل من الأعمال (دونما قصد أو تصميم) حتى ينسبوه لأنفسهم وهكذا تغدو أصالة المسؤولين الموجودين فى الميدان لوحدهم ودهاؤهم وجرأتهم أمورا فائقة الأهمية فى مثل هذه الظروف.

كان رئيس بعثتنا فى دمشق رجلا برتبة وزير مفوض اسمه جيمز ميكائيل كييلى. وقد انتدب لهذا المنصب لكونه رجلا يعتمد عليه فى الملمات، وكان يتصف بحيوية فائقة ويتمتع بقدرة عجيبة على اتخاذ القرارات دون الحاجة للرجوع إلى المراجع العليا فى واشنطن للوقوف منها على التفاصيل والجزئيات. وأما المسؤول السياسى فى البعثة فقد كان الشاب دين هنتون

الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره بعد. وكان على جانب كبير من الأصالة الفريدة والفراسة النادرة وهو يشابه بهذا رئيسه جيم كيبلى. وأما رجل التنفيذ فى السفارة فكان الميجر ستيفن ميد الذى سيشتهر باسم «الكولونيل ميد» فى الفصول التالية. أما المسؤول عن الديبلوماسية السرية (ديبلوماسية ما وراء الكواليس) فى البعثة الأمريكية فى دمشق فقد كنت أنا ـ مؤلف هذا الكتاب.

وصلت دمشق فى أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ حاملا تعليمات تقضى أن أ«حقق اتصالات غير رسمية مع الرئيس القوتلى وغيره من الزعماء الرئيسيين فى الحكومة السورية. وكان علىَّ أن أبذل قصارى جهدى حتى أفلح فى إقناعهم بمنح المزيد من الحريات السياسية ـ ومن تلقاء انفسهم ـ حتى يغدو النظام السياسى فى البلاد أكثر تحررا وتقدما. وكان القسم الأول من مهمتى يسيرا. فقد أفلحت فى إقامة علاقات شخصية مع الرئيس القوتلى ومع أصحاب الشأن حوله من الذين لا مفر من إقناعهم بالفكرة حتى يساعدوا فى تنفيذها. إلا أننى سرعان ما اقتنعت أننى:

كناطح صخرة يوما ليوهنا ∴ فلم يهنها وأوهى قرنه الوعل

وعندما وصل كيبلى إلى دمشق ليتسلم مهام منصبه (وكان ذلك بعد وصولى بستة أشهر) رفعت له تقريرا عن نتائج جهودى أقنعه بالحقيقة المرة وهى أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسى بدأت معالمه تلوح فى الأفق لاصرار القوتلى وأعوانه على مواقفهم ورفضهم القيام بأية خطوات تحررية. وبعدها خاطبنى كيبلى قائلا: «إنه لم يبق أمامنا إلا طريقين أحلاهما مر». وكان كيبلى يعنى بذلك أنه لابد لتلك الأوضاع السياسية المتدهورة أن تنتهى إلى نتيجتين: فإما ثورة مسلحة دموية يقودها بعض الانتهازيين بدعم سرى من السوفييت أو إلى حركة يقوم بها الجيش السورى بدعم سرى منا (أى الأمريكيين) بقصد الإطاحة بالنظام القائم والمحافظة على النظام والهدوء حتى يحين الوقت لقيام ثورة سلمية تتمكن من تسيير دفة الحكم واستلام مقاليد الأمور.

ولم يكن اشمئزاز كيبلى من النتيجة الثانية أقل من اشمئزازه من الأولى، إلا أنه قَبِلَ بها

رغما حتى لا تضطر البلاد إلى سلوك طريق سفك الدماء وإزهاق الأرواح. كما أن الإطاحة بالنظام القائم على أيدى رجال الجيش سيفسح المجال أمام العناصر الصالحة فى المجتمع لتتقدم الصفوف وتضطلع بأعباء الحكم بعدما منعتها نزعة العنف فى نظام حكم القوتلى من القيام بدورها الفعال فى الحكم والمجتمع.

فإن انقلاب حسنى الزعيم يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ من إعدادنا وتخطيطنا. فقد قام فريق العمل السياسى بإدارة الميجر ميد بإنشاء علاقات صداقة منظمة مع حسنى الزعيم، الذى كان رئيسا لأركان الجيش السورى. ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسنى الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكرى اضطلعنا ـ نحن فى السفارة ـ بمهمة وضع كامل خطته وإثبات كافة التفصيلات المعقدة. إلا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين فقد كانت كلها سرية ومتقنة الوضع والتخطيط. وأثارت هذه الشكوك ـ فيما بعد ـ فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع فى العملية كما قاموا بفحص الوثائق التى لها صلة بالموضوع. وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها.. بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجى إلى أن بدأت الروائح تفوح منه وأخذت الألسن تتناقل «أن حسنى الزعيم ليس أكثر من مجرد صبى من صبيان الأمريكان».

ومع أنه لا يهمنا هنا استعراض تفاصيل الانقلاب، إلا أنه من الأهمية بمكان سرد بعض الملاحظات العامة التى لها علاقة به، ومنها:

١- أُخبرت وزارة الخارجية الأمريكية بنية القيام بالانقلاب وأنه قد أوشك أن يقع. إلا أنها استغنت عن طلب تفاصيل أخرى ولم تر ضرورة التدخل بها، بل تركتها لنا نتدبرها فى دمشق. وكان السياق العام لرسائلها كما يلى: «لا نرى داعيا لتثبيط همة حسنى الزعيم وثنيه عن القيام بالانقلاب طالما أنه لا يزال مصمما على إعادة الحكم البرلمانى إلى البلاد حتى ما سمحت الظروف بذلك». إلا أن حسنى الزعيم كان قد أكد مرارا وتكرارا أنه لا ينوى العودة بالبلاد إلى الحكم البرلمانى بل إنه عازم على: (١) الزج بالسياسيين الفاسدين فى السجون، (٢) إعادة تنظيم جهاز الحكومى على أسس أكثر فاعلية،(٣) إجراء

الإصلاحات الضرورية فى مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية،(٤) اتخاذ بعض «الإجراءات الإيجابية» لإنهاء النزاع العربى الإسرائيلى. وكانت هذه الفكرة الأخيرة بمثابة المخدر الذى ثنى وزارة الخارجية الأمريكية عن عزمها على طلب إلغاء فكرة تنفيذ الانقلاب العسكرى.

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى وجهة نظر وزيرنا المفوض السيد كييلى فقد كان كييلى من الذين لا يؤمنون بغير الوسائل الديمقوقراطية - مثل الانتخابات الحرة وحرية الصحافة وغيرها من الحريات - كما أنه كان لا يشاطر السوريين آراءهم . فقد كان السوريون يعتقدون بعدم جدارتهم للاضطلاع بمسؤوليته اعمالهم وان كل ما يقومون به داخل بلادهم من تصرفات شريفة أو دنيئة، ذكية أو غبية، يسارية أو يمينية، إنما يقومون به بناء على ما تمليه عليهم القوى الأجنبية. ولكنه مع كل هذا فقد أصر على اعتقاده أن الوضع قبل الانقلاب قد وصل إلى حالة من التدهور والفوضى لم يبق معها أى احترام لقانون أو خضوع لنظام وأن إعادة الأمور إلى نصابها ضرورة لابد منها وبأى ثمن كان، إلا أن كييلى قد أخطأ عندما ظن أن سلطتنا على حسنى الزعيم ستبقى قوية إلى الحد الذى ستلزمه بإعادة الحياة الديموقراطية إلى البلاد عند أول فرصة ممكنة. وظن أن ذلك أمر يسير لما نتمتع به من قوة إقناع، أو عن طريق الاستعانة عليه ببعض المساعدات العسكرية التى تخفف من حدة تصلبه. وكان كييلى يكن حبا خاصا للسوريين ويرى فيهم ميلا فطريا للحياة الديموقراطية. إلا أن الأحداث قد أوجدت عندهم عقدا نفسية وهواجسن حيال تسلط الأجنبى عليهم. ورأى أن قيام حكم ديكتاتورى لمدة قصيرة سوف يحررهم من النفوذ الاجنبى كما يحررهم من هواجسهم وأوهامهم عنه. وسيساعدهم على إقامة نظام ديموقراطى مستقل جديد دون الاعتماد على أحد أو الاستعانة بإنسان.

لقد عبر كييلى عن انطباعاته عندما تكلم بلسان رئيس البعثة فى دمشق وقال: «إن معظم السفراء والوزراء المفوضين الذين خدموا فى العالم العربى سيشاركوننى نفس الرأى وسيقولون لى بصراحة تامة إنهم ما كانوا ليقفوا غير الموقف الذى وقفته فى دمشق بنفسى لو وجدوا أنفسهم فى نفس الظروف التى كنت فيها». وكذلك فقد عبر دين هنتون عن شعوره عندما تكلم بصفته ممثلا للشباب المؤمن بالمثل والمبادئ والمنخرط فى السلك الخارجى وقال إنه لا يزال

يعتقد بإمكانية قيام حكومة صالحة فى سوريا. وقد طلب هنتون أن يكون اعتراضه هذا تحريريا وأصر على معارضته لاتباع وسائل غير مثالية مع بقائه مخلصا لقيادة كيبلى. لقد كان هلتون حديث السن غضا ذا عاطفة مفرطة. إلا أن معارضته لكيبلى وميد والبقية الباقية من مسؤولى البعثة الدبلوماسية فى دمشق بخصوص قضية حسنى الزعيم بلغت حدا اضطر معه الميجر ميد أن يطلب من كيبلى عزل هنتون عن الاجتماعات المتعلقة بالانقلاب وعدم إعلامه بتطوراته حتى اللحظات الأخيرة. وهذا ما جرى حقا. فإن هنتون لم يعلم بالانقلاب إلا يوم وقوعه. ولقد طلب هنتون ثانيه تسجيل اعتراضاته على هذه المخططات تحريريا عندما كنا فى جولة استطلاعية فى أحياء دمشق صباح يوم الانقلاب. ومن جملة ما قاله هتنون: «إننى أعتبر مشاركتكم فى عملية كهذه. عملية حسنى الزعيم. من أشد الأمور غباء وسوءا ترتكبها بعثة دبلوماسية مثل بعثتنا. لقد بدأنا سلسلة من هذه الانقلابات العسكرية التى لن تنتهى أبدا». وما لبث أن سجل اعتراضاته فى تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية بالبريد البطىء حيث يقبع الآن فى قسم الارشيف الذى تتكدس فوقه طبقات كثيفة من الغبار. ومهما كان، فإن ما تنبأ به هنتون قد حدث فعلا.

ظن بعض أعضاء البعثة فى دمشق أن الباب قد فتح على مصراعيه أمام «السلم والتقدم» نتيجة نجاح انقلاب الزعيم. لقد كان حسنى الزعيم رجلا لينا سهل الانقياد قبل الانقلاب ولم يخطر ببالنا أن هذه الصفات الشخصية قد تتغير بعد تغيير الأحوال والأزمان. وحتى تاريخ صدور الاعتراف الرسمى الأمريكى بنظام الحكم الجديد فى سوريا لم يبد أى تغيير يذكر على طبيعة سلوك حسنى الزعيم. وفى اليوم الثانى للانقلاب، أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسنى الزعيم وهو يحدد له أسماء أولئك الذين يجدر أن يكونوا فى مناصب دبلوماسية ومن يجدر به أن يكون سفيرا وما هى وجبات الطعام التى يجب ان تقدم إلى الرئيس القوتلى فى سجنه حتى لا تلتهب القرحة فى معدته. وما أن أذيع الاعتراف الأمريكى بنظام الحكم الجديد حتى بدأ حسنى الزعيم وكأنه رجل جديد لا يمت إلى الماضى بصلة. فقد أبلغنى الميجر ميد فى أحد الأيام فجأة أن علينا ان نمتثل له قياما كلما دخل القاعة. وأنه من الضرورى تبديل كلمة «أنت» بكلمة «أنتم» فى سياق خطابنا له (وكان يتكلم الفرنسية) بل

ويستحسن استبدالها بكلمة «صاحب الفخامة». وباستثناء هذه الأمور الثانوية فلقد بقيت علاقاتنا معه ودية لآخر ايامه. إلا أنه إذا يتضح لنا أننا قد أغفلنا أمرا ضروريا جدا عند رسم خططنا، وأن الوقت قد حان لبدأ البحث عن رجل أخر يحل محل حسنى الزعيم الذى لا محالة قد اقترب من نهايته.

لقد أكدت حادثه حسنى الزعيم لكل من اهتم بدراستها أن عمالة أى حاكم لدولة عظمى. حتى ولو كانت من أقوى دول العالم. لا تكفى لضمان بقائه فى الحكم واستمراره فى السلطة. وليس هنك أى سحر أو فن فى تقرير هذه الحقيقة، فما كانت ميكانيكية قيادته لتنطوى على أية براعة أو حسن صنعة مع إصراره على طريقتها وتشبثه بها. فلم تتح له فرّصة ليعمل بالنظرية الحديثة لفن القيادة كما أنه لم يقتنع أن مهمة الحاكم الرئيسية هو أن يضع مرؤوسية فى ظروف لا يجدو،ن فيها مهربا من تأييده واتباع توجيهاته ولقد أمضى حسنى الزعيم فترة طويلة من حياته فى ظل ظروف عسكرية مشابهة للظروف التى تمر بها البلاد يومها ولهذا فقد اعتاد على حياة تنفيذ الأوامر دون اعتراض. لقد عاد مرؤوسيه وحتى أتباعه من كبار الضباط الذين كانوا الدعامة الرئيسية لحكمه بنفس الطريقة العسكرية التى نشأ بها. وما لبث بعد شهور أن بانت الحقيقة المؤلمة وهى أن حسنى الزعيم أصبح لا يمثل أكثر من نفسه سواء فى علاقاته مع مناصريه من الأمريكيين أو فى طبيعة معاملته للشعب السورى.

وفى صبيحة الرابع عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٩ قامت مجموعة من أصدقائه الضباط. بقيادة سامى الحناوى اسما وأديب الشيشكلى فعلا، بمحاصرة بيته وقتله ثم دفنه فى المقبرة الفرنسية. ولقد أخبرنى الشيشكلى بعدها أنه كان لبقا معنا، إذ عامل حسنى الزعيم على أساس أنه عميل فرنسى وليس عميلا أمريكيا. وبعد أربعة أشهر تماما قام الشيشكلى بدوره باعتقال سامى الحناوى وبدأ بإدارة البلاد من خلال واجهات مدنية متعددة حتى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥١ عندما ظهر على انه رجل سوريا القوى. وبقى الشيشكلى فى سدة الحكم حتى شباط (فبراير) ١٩٥٤ حيث غادر البلاد هربا من وجه أحد الانقلابات العسكرية العديدة التى تعاقبت على سوريا منذ ذلك الوقت حتى أضحى من الصعب على المرء أن يبقى متابعا للأحداث ويعرف من يمسك بيده مقاليد الأمور، مهما كانت معرفته بالسوريين قوية وخبرته بهم واسعة.

ومع أننا لم نتعظ من تجربة حسنى الزعيم حق الموعظة إلا أن نقاطا هامة قد استخلصناها من تلك المغامرة ومنها:

◆ أولاً: لم تكن القضية مجرد تغيير شكلى فى الحكومة، وإنما كانت تهدف إلى تثبيت هذا التغيير وجعله يستقر نهائيا بشكل حكومة صالحة وذات كفاءة عالية تحافظ على دفع عجلة التقدم والتطور باستمرار. إننى لا أزال أذكر تلك الكلمات التى تفوه بها أحد رؤساء حكومات الأقليات التى تعاقبت على السلطة فى سوريا فى السنوات الأخيرة متبجحا بحضور أحد المراسلين الأجانب وقال فيها إنه قد مضت تلك الأيام التى كان يتحرك بها أحد الضباط ليحتل العاصمة ببضعة دبابات ويقيم فيها نظام حكمه. وأعتقد أن ذلك الحاكم نفسه لم يبق طويلا فى منصبه بعد تصريحه ذاك. فقد كات نهايته أسوأ من نهاية من سخر منهم فى تصريحه ذاك. وما زالت سوريا ليومنا هذا أكثر البلاد عرضه للهزات والانقلابات. وكم يتمنى العالم الغربى أن يرى سوريا تنعم بحكومة مستقرة مهما كان طابعها السياسى بدل أن يراها غارقة فى أوحال القلق وغياهب الانقلابات. وإذا سمحت لنا الظروف لنتدخل ثانية فى الشؤون السورية فإننا سنفعل ذلك بغية إيجاد حكومة تحمل فى طياتها طابع الاستقرار والبقاء وتملك فرصة البناء والإصلاح.

◆ ثانيًا: ومهما كانت الحقيقة مرة، فإن حكم «الصفوة المخارة» فى سوريا (وإن كان يتعارض مع دموقراطيتنا المثالية) أمر لا خيار لنا فيه. ولن يكون هذا متيسرا هناك إلا بتسليم مقاليد الأمور لمجموعة أفراد يتميزون بكفاءات وقدرات لا يمكن توفرها لقائد فرد مهما كانت الظروف. ولم تكن سوريا بحاجة إلى زعيم يعيش فى عزلة عن الشعب حتى تنجح ثورة أصيلة فيها، بل كانت دائما بحاجة إلى «الصفوة المختارة» من أبنائها تليهم قاعدة أوسع، لها جذور عميقة فى عامة الشعب. فكم من عقيد متجرد من أبسط المبادئ والمثل قد تربع على عرش رئاسة الأركان ولم يكن جل همه سوى إصدار الأوامر للقوات المسلحة للتحرك من مكان لآخر بغيه قمع التحركات ضده. لقد أمسك حسنى الزعيم بمقاليد السلطة (ولم يدم حكمه أكثر من أربعة أشهر) كما يمسك رئيس عصابة بمقاليد السلطة داخل عصابته. ولقد أضاعها لنفس السبب الذى يفقد رئيس العصابة سلطته. فأفراد العصابة يطيحون برئيسهم عندما يبدأ

الشك يتسرب إلى نفوسهم أن رئيسهم قد غدر بهم وخذلهم. ولم يستمر حكم خلفاء حسنى الزعيم لمدة أطول إلا لأنهم كانوا أكثر مهارة فى حفظ توازنهم وهم يسيرون على حبل البهلوان المشدود. فقد كانوا يلتمسون الأعذار لأنفسهم فيما كان يثار ضدهم من شكوك وظنون، ولم يتحرجوا أحيانا من إيغار صدور ضباطهم ضد بعضهم البعض بغية تأخير اتفاقهم ضد الذين فى السلطة. ولم يتعد التقارب بين بعض السياسيين والعسكريين شكل «زواج مصلحة» الذى يعقد طمعا فى مغانم سياسية واقتصادية مشتركة بينهم. وكان السياسيون بدورهم يتظاهرون بتعاطفهم مع الأمة بأسرها وباعتمادهم على تأييد الشعب لهم لاشتراكهم وإياه بعقائد سياسية واحدة (لا تمت حقيقة بأى صلة إلى مفاهيم الامة ودينها وتراثها التاريخى). وما كان ذلك إلا بقصد الدعاية ليحيطوا أنفسهم بهالة من الشعبية والقدسية. وهكذا فلم يكن السياسيون فى سوريا أكثر من مجرد تَبَع للمعسكريتاريا. فهم يظهرون على المسرح عندما يظهر العسكريون. فلم يكن بقاؤهم فى السلطة فى يوم من الأيام رهن قوتهم الذاتية أو تأييد الشعب لهم وإنما كان لسرعة تلونهم واستمرار تذبذبهم. ومن الطبيعى أن نظاما قاسيا من هذا النوع:

(١) لا يمكنه أبدا أن يحافظ على بقائه واستمراره.

(٢) ولن يكون فى صالح تقدم البلاد وازدهارها.

(٣) وسيكون مدعاة لقيام «لعبة أمم» متسمة بطابع الفوضى والغموض.

إلا أنه لن يتمكن فى مثل هذا الخضم من إحراز أى نصر على أعدائه إطلاقا. (وأود أن أشير إلى ان كل هذا الصراخ قد جعل مبالاة الإسرائيلين بالسوريين أقل من مبالاتهم بالأردنيين). كما أن بقية اللاعبين فى «لعبة الأمم» لن يشعروا بارتياح وهم يؤدون أدوارهم حول طاولة اللعبة لاستمرار قيام احتمالية تمرد أحد اللاعبين وإن كان من الذين اعتادوا الخسارة دائما.

❖ ثالثًا: أن الشرط اللازم لبقاء أى حاكم (أو مجموعة حكام مثل «حكومة الأقلية») فى السلطة فى سوريا واستمرار تقدمه فى مجال البناء والاصلاح هو أن يظهر بمظهر يستحيل

القول معه أنه صنيعة لنا، وأن يتصرف بطريقة لا تظهر أى انسجام مع أذواقنا وميولنا. وباختصار، فإن مساندتنا لأى زعيم للوصول إلى سدة الحكم والبقاء هناك حتى يحقق لنا بعض المصالح التى نريدها لابد أن ترتطم بالحقيقة على السلطة ويضمن استمرارها. كما أن هيكل النظام السياسى الذى يتبع ذاك الحاكم لابد أن يكون طبيعيا وفطريا وغير مصطنع، وبالتالى يجب أن يتضمن بعض العناصرا التى تضمر عداء لمصالحنا. وهذه نقطة رئيسية فى كتابى هذا. فلقد قصدت من خلاله توضيح استراتيجيتنا فى «لعبة الأمم» التى نتبعها مع غير العالم الغربى. إننا نقبل انتساب عدد من اللاعبين ونرحب بجلوسهم معنا إلى طاولة اللعب دون أن يكون سلوكهم كما نحب ونهوى تماما. إلا أننا نعتقد أنه بإمكاننا أن نفوز عليهم بمجرد اتباع طرق الصراع» مع خصومنا كالسوفييت والصينيين، أو عن تلك التى نتبعها فى «لعبة التعاون» مع أصدقائنا خلال ممارسة الشعائر الديمقراطية كما نفهمها نحن فى الغرب. وأزيحت عنهم الضغوط الأجنبية والتأثيرات الخارجية.

-٧-

فشل فى سوريا وأمل فى مصر
١٩٥١ - ١٩٥٢

... ولن تكسب الحرب بالأيتام وحدهم ، حتى يسود على الجمهور أعرقهم..

كان لفشل تجربتنا فى سوريا، أثر كبير على العديد من تصرفاتنا. فقد آثرنا الانسحاب موقتاً من مسرح الشرق الأوسط، وفضلنا الانتظار ريثما يتضح لنا الطريق أكثر فأكثر. وخلال الفترة التى امتدت لغاية ١٩٥٢ كان موظفو وزارة الخارجية منهمكين فى العثور على أفكار أنضج ، وطرق أفضل، لضم أحد الحكام العرب إلى طاولة اللعب. وفيما عدا قيامنا ببعض أعمال الجاسوسية المحدودة، والتدخلات الروتينية فى الانتخابات البرلمانية. فقد حافظنا على عهودنا والتزمنا بشعاراتنا طوال تلك المدة. فلم نتدخل فى الشؤون الداخلية لأية أمة ذات سيادة. ولا أزال أذكر جيداً ما صرح به أحد كبار موظفى وزارة الخارجية بعد الانتخابات السورية فى ١٩٤٧ وأمام مجموعة من المسؤولين الذين انتدبوا لمهمات رسمية فى الشرق الأوسط اذ قال: «إن أهدافنا فى تلك المنطقة لا تتعدى إيجاد ظروف ملائمة تتوافر فيها حرية تقرير المصير لشعوبها من غير أن يكون لأى ما كان، ضغط عليها أو تأثير» ويبقى هذا الاعتقاد سائدا رغم الأدلة المتزايدة ضده، حيث كان يظن أن شعوب الشرق الأوسط جادة فعلا فى طلبها للشيوعية أو أية عقيدة سياسية أخرى، تثبت مراكز القوة الأخرى على حساب المصالح الأمريكية. فتعيق بذلك سير المنطقة نحو التقدم والازدهار، والسلام والاستقرار، التى كانت ، على أية حال، الأهداف الحقيقية للولايات المتحدة فى ذاك الجزء من العالم. وكان غالبية مسؤولى وزارة الخارجية يعتقدون أن نتيجة أية انتخابات حرة فى المنطقة، ستكون ظهور قادة مفكرين لا يتلكؤون فى التعاون مع العالم الحر. وحتى العرب - الذين هم أكثر شعوب المنطقة طيشا سياسيا وأمهرهم فى فوضى الحكم - كان بإمكانهم أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم إذا ما

أتيح لهم ذلك - من خلال ممارسة الشعائر الديمقراطية كما نفهمها نحن فى الغرب- وأزيحت عنهم الضغوط الأجنبية والتأثيرات الخارجية.

وعلى الرغم من تعلق وزير الخارجية دين اتشيسون الظاهرى بالديبلوماسية التقليدية. إلا أنه لم يخب شغفه بديبلوماسية ما وراء الكواليس فى مجالسه الخاصة. بل ولقد دفعه اهتمامه بذلك، لأن يطلب من وكالة المخابرات المركزية، أعارته كيرميت روزفلت ليرأس- ويسرية تامة - لجنة ضمت نخبة من الإخصائيين بالشؤون السياسية فى كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع. كما ضمت أيضا مستشارين من قطاع الأعمال التجارية والجامعات الأمريكية. ولم يكن لأحد منهم صلة بوكالة المخابرات المركزية سوى كيرمت روزفلت نفسه. وأوكلت إلى هذه اللجنة مهمة دراسة شؤون العالم العربى عامة، والنزاع العربى الإسرائيلى خاصة، وأن تقوم بنفس الوقت، بتحديد المشاكل والصعوبات، وترتيبها تبعا لأهميتها لاقتراح حلول لها، من أية طبيعة كانت، سواء تعارضت مع مفاهيم حكومتنا وقتئذ فى احترام سيادة الشعوب وعدم التدخل فى شؤونها الداخلية أم لا.

وخلال شهر واحد تقريباً، كانت لدينا عدة حلول ومخططات جاهزة للتداول والتنفيذ ولكن لم يكن أى منها يتلاءم والأعراف السلمية المتبعة يومئذ. ولا أزال أذكر أنه كان من بينها، فكرة تحريك الشعور الدينى للوقوف فى وجه المد الشيوعى. ولكننا أدركنا بعد الخطوة الأولى، أن الفكرة غير مضمونة النتائج، فأى بعث لأمثال هذه الأفكار والمشاعر لا يعنى سوى الكشف عن سلاح ذى حدين يقف فى وجه المد الشيوعى والمصالح الغربية فى آن واحد، وهذا ما دفعنا بعد سنوات إلى تطويق دعوة الملك فيصل لبعث الشعور الدينى .

كما كانت هناك مخططات أخرى تعرفنا من خلال دراستنا لها على ما يجوز على موافقة العرب وعلى ما يرفضون. ولكن لم تكن هناك أية محاولة لتبنى حلولا مثل حل حسنى الزعيم. وفى أوائل عام ١٩٥٢ أنهت لجنة الاختصاصيين وصف الحالة فى الشرق الأوسط وحددت امكانيات «لعبة الأمم» آخذة بعين الاعتبار خبراتنا السابقة. وطاقاتنا الحالية ومواقف كل من أعدائنا وأصدقائنا والمحايدين. وفى مخططاتنا لم نخرج عن أخدافنا المألوفة والتى كانت الأطراف الأخرى قد استحسنتها واتخذتها لنفسها أهدافا. كما وأننا لم نستطع تذليل أية عقبة من العقبات السابقة فبقيت كما هى ولكن مع فارق كبير . فخبراتنا إليوم لم تعد كما كانت أيام انقلاب حسنى الزعيم، بالإضافة إلى توفير مواهب خلاقة لعدد من المسؤولين والمخططين، الجديد منها والقديم. وإلى جانب تزايد شعورنا بامتلاكنا قدرات كافية لفتح آفاق جديدة، فقد بدأ ضغط الحوادث العالمية يتراكم على كواهلنا، محذراً إيانا من مغبة التأخير

والتسويف من القيام بعمليات جديدة تعيدنا إلى حلبة الصراع فى الشرق الأوسط بعدما مضى علينا سنوات ونحن خارجها.

ومع أننا قد قتلنا القضية بحثا ودرساً، فقد كدنا نبدأ من منطلقات خاطئة، ولكن شاءت الأقدار أن لا يكون ذلك، وكان قرارنا الأخير أن تكون مصر أولى خطواتنا الجديدة. وكان لهذا عدة أسباب هامة. فقد وهبت الطبيعة مصر مكانا يجعل أى تأثير فيها لا ينحصر داخل أرجائها بل يمتد وينعكس فى جميع الأقطار العربية الأخرى. ومن الواجهة التنفيذية فقد كان اعتقادنا أن الخطة مضمونة النجاح، لا لطبيعة الشعب ومفاهيمه السياسية فحسب، بل لأننا كنا نمتلك جهازاً تنفيذياً ذا كفاءة عالية ودراية واسعة بالدولة المصرية. ومن جملة أفراده كيرميت روزفلت الشهير. وكانت دراستنا للمجتمع المصرى تفرض علينا مسلكين لا ثالث لهما. أولهما: أن نستعرض عددا من المرشحين لأن يكونوا زعماء وطنيين مثاليين لبلد عربى، وننتقى منهم واحداً ذا مواهب خلاقة وحصافة فائقة، يستطيع أن يظهر أنه الحاكم الفعلى ولكنه فى الحقيقة ليس أكثر من واجهة لحاكم قوى. بينما نبقى نحن وراء الكواليس ، وبنفس الوقت يتم اختيار صفوة منتقاة من كبار شخصيات بلد ذلك الحاكم لتكون طرفاً فى كل ما ننوى انجازه. فلها سنقدم الاقتراحات، ومعها ستناقش الإجراءات، وستجرى المساومات، ولكن عليها أخيرا أن نقطعها على أنفسنا بأن نتركها تسرح وتمرح فى السلطة، وتتخذ من الأجراءات ما يحلو لها لتضمن بقاءها فى الحكم. ونعدها أيضاً، بأن نستبدل ضغطنا عليها باقتراحات تتضمن وجهات نظرنا فى طريقة إدارة البلاد، وحفظ أمنها بعد استلامها مقاليد الأمور.

وفى المسلك الثانى: كان علينا أن نواجه بشجاعة وحنكة حقائق ووقائع عديدة تتعلق «بفن السلطة السياسية». ولقد تطرق إلى هذا كثير من فلاسفة علم السياسة المشهورين، ابتداء من برتراند رسل، وانتهاء بجيمس بورنهام الذى عمل مع كيرميت روزفلت سنة ١٩٥٣ . وكانت هذه الوقائع تتلخص كما يلى:

١- لقد كنا بحاجة إلى حاكم عربى يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربى آخر من قبل، سلطان تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتأباها. وكان علينا أن ننشد ضالتنا فى رجل متعطش إلى تسلم السلطة، لا يدفعه إليها إلا حب مطلق وشغف فريد بها. وقد ثار جدل فى وزارة الخارجية حول هذه النقطة بالذات، واستدل بعضهم أنها كانت سبب انهيار حكم حسنى الزعيم. ولكن دراسة نفسية مجردة لسلوكه أظهرت أنه لم يكن «مجنون سلطة» إلى الحد المطلوب، أو أنه عشقها لأسباب خاطئة وأغراض زائفة.

فقد كان يرضى بالمظاهر الخارجية، وما كان ليقلقه أن يبقى تابعا لنا ودائرا فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية، طالما كنا نمتثل له قياما كلما دخل علينا، ونخاطبه بلفظ «صاحب الفخامة». وكان مبتغانا أن ندفع إلى سدة الرئاسة حاكما أكثر شغفا بالسلطة ، ولكن باتزان وإدراك كاملين لأبعادها. ومتى تم لنا ذلك فليس لنا بعدها أى حق فى التدمر والشكوى مهما كانت النتائج. وإن كنا نفتعل هذا أحيانا، لأسباب تكتيكية محضة.

٢- وكنا بحاجة إلى رجل يقاسم أتباعه انتصاراته . وقد اعتبر برتراند رسل هذه نتيجة منطقية لمقدمات مهمة، وهى شعور الطبقة الحاكمة أنهم يؤيدون رئيسهم برغبتهم ، وأنهم يمارسون القيادة الجماعية. فانتصار أحدهم هو انتصار لهم جميعاً. ولم تكن دراسة أوضاع زعيم المستقبل تفى بالغرض لوحدها. بل كان يلزم إلى جانبها دراسة وافية عن أوضاع كل رجال الصف الأول (الصفوة) الذين يلونه مباشرة وكذلك الصف الثانى، والقاعدة أو الصف الثالث. وهؤلاء كلهم سيؤلفون وحدة متفقة الأهداف موحدة الغايات والنيات.

٣- كان علينا الاعتراف بعدم نجاح أى حاكم فى قيادة أحد الشعوب العربية، ما لم يتمكن من توحيد هذا الشعب للوقوف صفا واحداً ضد الأخطار التى تهدده، فأسلوب «يجب أن أعرف وجهة الغوغاء لأننى أنا رئيسها» لم يعد مرغوبا منا. فللمصريين تاريخ طويل امتد قرونا عديدة تسلطت عليهم فيه قيادات أجنبية وفاسدة ولكنها كلها لم تحظ بثقتهم أبداً. ينطبق على هذا الجزء من العالم، قول برتراند رسل «إن الخطر الذى يهدد الجميع هو السبيل الأسهل لتحقيق التجانس بين الجميع...» وكان قادة العرب يستغلون فكرة الخوف من إسرائيل ليبقوا شعوبهم فى شبه وحدة وطنية. ولم يكن أمامنا مفر من استغلال الشعارات ذاتها فى مصر، شريطة أن لا نفقد زمام الموقف فتؤدى إثارة هذا الشعور إلى عواقب وخيمة. وعلى كل حال، فاحتمال وقوع هذا الخطأ ضئيل جدا لبشاعة هزيمة الجيش المصرى على أيدى الإسرائيليين سنة ١٩٤٨ ، بالإضافة إلى فقدان الأمل فى تبنى أى زعيم بنجاح، ما لم يعمد إلى هذه الشعارات فيطرحها للجماهير لتتلهى بها سنوات طويلة.

وهكذا طفقنا نبحث عن زعيم من النوع الثانى - الذى يكون الحاكم فيه مجنون سلطة - ولكن بإدراك واتزان. وعند اليأس، كنا نعاود البحث عن حاكم من النوع الأول - أى زعيم الواجهة -.

ورحل كيرمت روزفلت فى شباط فبراير ١٩٥٢ إلى مصر، كى يشرف على تنفيذ المخطط الأول عن كثب. وكانت بعثته أول من حاول تنظيم ثورة سلمية فى مصر، تحت قيادة الملك فاروق نفسه، يصفى فيها النظام القديم ويشرف على إبداله بنظام جديد، مطوقا بذلك محاولات الثورة المتكررة ضده، والتى كانت وكالة المخابرات المركزية على صلة بها قبل أكثر من سنتين. وكان رودفلت مفوضا بأن ينتقل إلى المخطط الثانى إذا واجهته صعاب فى إخراج المخطط الأول إلى حيز الوجود. ولم يكن المخطط الثانى يعنى سوى البحث عن زعيم من النوع الثانى وهو «مجنون السلطة» أو زعيم من النوع الأول «الواجهة»، أو الاثنين معا إن أمكن ذلك.

وكيرميت روزفلت - حفيد الرئيس الراحل تيودور روزفلت - مشهور برباطة جأشه وشجاعته فى الملمات. فهو من النوع الذى يستهوى أفئدة الشرقيين ويتمتع بميزة فريدة. ألا وهى القدرة على دعم كل من الحكام التقليديين والثوريين مما. وكان مولعا بالمغامرات. وقد دفعه ولعه هذا إلى الالتحاق بوكالة المخابرات المركزية التى خيبت آماله فيما بعد. إذ وجد فيها كثيراً من التقييد لإحلامه. ولم يزل برئيسه الجنرال بيديل سميث، حتى وافق على انتدابه إلى وزارة الخارجية وعمل كمبعوث خاص للوزير دالس، لتنفيذ مهمات غير عادية كعملية أجاكس التى وقعت فى آب (أغسطس) ١٩٥٣ ، عندما قاد روزفلت أنصار الشاه فى إيران ، فى مظاهرات صاخبة ضد الدكتور مصدق، وتخلص من حكمه، وعاد الشاه من منفاه فى روما إلى عرشه فى طهران. وكان تنظيم الثورة السلمية فى مصر ١٩٥١ - ١٩٥٢ أولى مهمات روزفلت الشهير هذا.

كان الملك فاروق معجبا بروزفلت منذ أيام الحرب العالمية الثانية عندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلام للتخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجوه تختارها بريطانيا. وقد وقف روزفلت إبان تلك الأزمة إلى جانب الملك، وتوقع له نظاما مستقلاً ذا سيادة بعد انتهاء الحرب الثانية وسيكون الملك أول حاكم مستقل منذ ألفى عام. ولذلك فقد استقبل الملك فاروق المستر روزفلت استقبالا حاراً عندما عاد إلى القاهرة سنة ١٩٥٢ . ولكن الملك فاروق لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين كان روزفلت يبحث عنهم. فقد كان الملك فاقد القدرة على تركيز أفكاره. وكم من جلسة أبدى فيها تفهما عميقا لما يدور فى مملكته، ووافق على اتخاذ بعض الإجراءات الأساسية فى خطة روزفلت. ولكن كان فى إليوم التإلى يختفى عن الأنظار مفضلاً ممارسة هوايته فى العربدة والجنس، وضاربا عرض الحائط بكل ما اتفق عليه فى إليوم السابق. ولا يتحرج فى الأسبوع التإلى من اتخاذ إجراء ينسف خطة

روزفلت برمتها. وقد أمضى روزفلت في القاهرة الشهرين الأولين من سنة ١٩٥٢ مع الملك يلهوان بتنفيذ مخطط الثورة السلمية، وذلك بأن رفعا رجلى الحكم القويين: مرتضى المراغى، وزكى عبد المتعال لخلق أزمة وزارية. بينما أوعز الملك إلى البوليس السرى لجمع الأدلة والوثائق ضدهما، ليثبت - حين تحين الفرصة - أنهما عميلان للمخابرات الأمريكية. ثم قام الملك بتكليف نجيب الهلالى ذى الشهرة الواسعة والسمعة الجيدة فى مصر ليتولى مهام رئاسة الوزراء، ولكن الملك لم يستدعه بلباقة كافية، مما جعل الهلالى يرفض تسلم رئاسة الوزراء، حتى اتصل به روزفلت وأسر له إنه لم يتسلم رئاسة الوزراء، ويقوم بتطهير جهاز الدولة من المرتشين والفاسدين، ويكون رائداً للثورة السلمية، فأن الثورة لن تبقى سليمة أبداً. ولذلك فقد قام الهلالى بإبعاد المسؤولين عن الفساد والفوضى فى الحكومة، واستبدلهما بآخرين أكثر لصوصية، ولكنهم من أنصاره. فكانت النتيجة أن أضطر روزفلت فى أيار (مايو) ١٩٥٢ أن يرفع يديه مستسلما وموافقا على أن الجيش وحده هو القادر على مواجهة الموقف المتدهور فى مصر، وعلى إقامة حكم يستطيع الغرب أن يقيم معه علاقات ود وتفاهم. وكان «كافرى» أيضاً يعرف مصر جيداً فهو أقدم سفير فى السلك الديبلوماسى للولايات المتحدة. ولم يبق بعيدا عن مجرى الحوادث، بل كانت له وسائله الخاصة التى تختلف كلياً عن وسائل أفراد السفارة. فقد اعتمد على بعض الأمريكيين من أصدقائه خارج سلك السفارة، كما اعتمد على أحسن اثنين من رجاله، وهما: الملحق العسكرى المساعد العميد دافيد إيفان والمسؤول السياسى وليام ليكلاند. أما بقية أفراد السفارة فقد كانوا يعتبرون القاهرة والإسكندرية أماكن نزهة مريحة للطبقة الأرستقراطية وللسلك الديبلوماسى ولكن ليس لهما أى مستقبل سياسى بسبب تدهور الأوضاع، إلى حد اليأس. وقد اضطر كافرى فى إحدى المرات أن يلفت نظر أفراد سفارته إلى الكف عن استعمال بعض الألفاظ النابية بوصف المجتمع المصرى بها، ومع أن كافرى نفسه يرى أن السياسيين القدامى هم وحدهم الفئة الأليفة التى يجدر بها أن تحضر حفلات الكوكتيل الديبلوماسية. وفى خضم مثل هذه الأحداث لم يكن ليدرك مدى أهمية الدور الذى سيلعبه الجيش المصرى ويعيره انتباها كافيا إلا كافرى نفسه وبعض المقربين منه.

ولقد كره روزفلت الانقلابات العسكرية، وخصوصا بعد ما شاهد بأم عينه الفوضى التى آلت إليها الأوضاع فى سوريا. ولكن كان كرهه هذا قبل اجتماعه ببعض الضباط الذين أسرت إليهم وكالة المخابرات المركزية على أنهم القادة المحتملون لتنظيم الضباط الأحرار الذين

يزمعون القيام بانقلاب عسكرى. وقد حصل هذا فى آذار (مارس)١٩٥٢ قبل أن يقوم عبد الناصر بانقلابه بأربعة أشهر. وعندما علم عبد الناصر بمعرفة وكالة المخابرات المركزية بتنظيمه، وافق على التقرب منها، وأرسل بعض ضباط التنظيم من المرتبة الثانية للالتقاء بروزفلت فى البداية. ولكن فى الاجتماع الثالث أوفد عبد الناصر أحد أكثر ضباطه ثقة وأمانة كمبعوث شخصى له ويومها توصل الضابط إلى اتفاق رائع مع روزفلت جدير بالاهتمام والانتاه.

وتم الاتفاق فوراً على ثلاث نقاط جوهرية: -

الأولى منها نصت على عدم إمكانية جماهير شعب ما القيام بثورة تطيح بالنظام القائم بدافع من سوء الأحوال الأقتصادية. ولقد بذل روزفلت قصارى جهده لإقناع وزارة الخارجية الأمريكية بذلك، داعما رأيه بشواهد من كتاب كرين وبينبتون حول «تشريح الثورة»، وأن العوامل الاقتصادية لم تشكل فى يوم من الأيام قوة دفع رئيسية للثورات الكبرى فى التاريخ. وأن حكومة الولايات المتحدة لا يمكنها التخلص من نظام حكم قائم بمنع القمح عنه. ولقد استفاد عبد الناصر من هذا الرأى فيما بعد، عندما هاجم الولايات المتحدة بعد سنوات من انقلابه لأنها أوقفت شحن القمح لمصر واتهمها بتجويع شعبه، وألقى على كاهلها مسؤولية تردى الأوضاع الداخلية وبرأ نفسه منها.

وكانت النقطة الثانية تؤكد عدم إمكانية جماهير الشعب المصرى القيام بأية ثورة ضد أى نظام قائم مهما ساءت الظروف وتردت الأوضاع. وكان فى مصر يومها حركتان ثوريتان، هما: حركة الإخوان المسلمين والحزب الشيوعى المصرى. وكل منهما يعتقد أن الشعب المصرى بكل طبقاته الممثلة فى العمل والفلاحين والمهنيين والموظفين فى غليان شديد. وأن تفجير الأزمة يمكن أن تحدثه نداءات مناسبة للظروف التى تمر فيها الأمة. ولكن عبد الناصر لم يوافق على هذا الرأى، وكان اعتقاد ممثليه فى الاجتماع أنه بغض النظر عن نوع حكام القطر المصرى فإن احتياجات الشعب المتزايدة ستضعهم ثانية أمام التحديات الاقتصادية الملحة.

ولقد قال أحد كبار مندوبيه فى أحد الاجتماعات: إن الشعب المصرى لا يرغب فى الحصول على الكثير وأنه أمضى آلافا من السنين على كفاف العيش وباستطاعته أن يمضى ألفا آخر من السنين معتمداً على موارده الثانوية. كما أن الشعب المصرى غير مهيأ لأن يثور بسبب هذه الدوافع. وإن ثار فإنه غير راغب فى عيشة جد وعمل بعدها. وسوف يبذل

الضباط الأحرار قصارى جهدهم لبعث هذه المفاهيم فى شعبهم، ولكنهم لا يجدون الوقت الكافى الآن. ولذلك فالجيش المصرى سيقوم بالاستيلاء على السلطة فى أول فرصة مناسبة تكفل له تأييدا سياسياً من سكان المدن ومن ثم بقية أنحاء البلاد.

وكانت النقطة الأخيرة فى الاتفاق تبحث طبيعة التعابير المتبادلة بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية الجديدة. فإن الجزء الذى سيكشف منها للمجاهير، يجب أن يحتوى على شعارات للاستهلاك المحلى مثل «إعادة الحياة الديموقراطية» و«إقامة حكومة نزيهة حرة» ولكن يجب أن يكون مفهوما بيننا، وبصورة أكيدة أنه لا أصل لهذه الشعارات فى حقيقة الأمر. وأن الشروط اللازمة لتطبيقها غير متوفرة على الإطلاق. ولن تتوفر إلا بعد سنوات عديدة وجهود مضنية تقوم بها الحكومة الجديدة مثل:

١- نشر التعليم وتعميمه.

٢- التشجيع على ظهور طبقة متوسطة كبيرة ومستقرة.

٣- نشر شعور عند الجماهير بأن الحكومة الجديدة هى حكومة الشعب، منه وإليه، وليست حكومة مفروضة من قبل الفرنسيين أو البريطانيين أو طبقة الإقطاعيين والرأسماليين المصريين.

٤- كل ما سيسود من المثل والمبادئ يجب أن يصبغ بالصيغة المحلية الوطنية حتى لا تكون الأنظمة والمفاهيم الجديدة، محض تقليد لمثيلاتها فى الولايات المتحدة أو بريطانيا. وقد تأكد لروزفلت وممثل عبد الناصر أن عامة الأمريكيين من صحفيين وموظفين وأعضاء فى الكونغرس ورجال الحكم وحتى وزير الخارجية بالذات لن يكفوا بسهولة عن ترديد الشعارات القديمة.وبنفس الوقت فلقد أدرك الجميع أن أية محاولة مبكرة لإعادة الحياة الديموقراطية لن تعنى سوى العودة إلى الفوضى والفساد السابقين. فالانتخابات ستجرى بين مرشحين تدعمهم الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مرشحين يدعمهم السوفييت. ومن أصل ٢٨ مليون مصرى، كان هناك حوالى ٢٤ مليونا من الفلاحين المصريين لن يدلوا بأسواتهم إلا حسب تعليمات الإقطاعيين وتوجيهاتهم. وستلجأ الجماهير فى المدن إلى الاضطرابات كوسيلة وحيدة للتنفيس عن آلامها والتأثير على الوضع السياسى، ولن يجدوا أمامهم سوى الانضواء تحت راية الإخوان المسلمين أو الشيوعيين، المتنفسين الوحيدين فى ذلك الوقت لفئات الشعب.

وكانت هناك مشاكل عديدة لم نتمكن من الوصول إلى اتفاق صريح حولها. ولكنها ساعدت كثيرا فى الوصول إلى تفاهم مشترك حول الدوافع الأساسية وراء حركة الانقلاب المقبلة. وقد اشتملت على الأمور التى يجب علينا أن نبحث عنها تحت المظاهر السطحية للاحداث. وكان بعض هذه المشاكل ذا أهمية لا بأس بها. إلا أن واحدة فقط تستلفت انتباهنا فوق العادة وهى قضية فلسطين. فالجماهير العربية على اختلاف فئاتها وطبقاتها تولى فكرة استرجاع فلسطين الأولوية على سائر شؤون الحياة الأخرى بصورة لا تقبل البحث فى هذا الموضوع ابتداء. وعبد الناصر نفسه مع ضباطه الذين خططوا للانقلاب كانوا يعتبرون هزيمة الجيش المصرى سنة ١٩٤٨ على أيدى القوات الإسرائيلية، هزيمة مريرة يصعب تناسيها. وأن شعور الكراهية لإسرائيل من العناصر التى لا يمكن التغاضى عنها كمبررات لأية ثورة تقع فى البلاد.

ولكن لم تمض خمس سنوات على تلك الهزيمة فى فلسطين حتى كانت أحاديث الثكنات، ومناقشات عبد الناصر ورفاقه مع المئات من الضباط قد انتهت إلى رأى معاكس. فقد لمسوا أن حشدهم لموارد الدولة المصرية وطاقات شعبها سوف يساعدهم على الوصول إلى أهداف أبعد من خدمة القضية الفلسطينية. ولكنهم لن يستفتحوا فترة حكمهم بمثل هذه الشعارات التى لن تفيد الثورة إطلاقاً. وقد أخبر عبد الناصر كيرميت روزفلت صراحة أنه مع ضباطه لن ينسوا ذلك الإذلال الذى لاقوه على أيدى الإسرائيليين سنة ١٩٤٨ . إلا أن نقمتهم ستنصب بالدرجة الأولى على كبار ضباط الجيش المصرى، ثم على بقية حكام العرب والبريطانيين، وزخيرا على الإسرائيليين. ولقد توصل روزفلت إلى نفس النتيجة من خلال محادثاته مع الزعماء المدنيين فى مصر ومن بينهم فاروق نفسه. وكان السفير كافرى قد حصل بدوره على نتائج مشابهة.

وبعد كل ذلك الاستعراض لجميع النواحى، وصلنا إلى مسألة أكثر حساسية ودقة، ألا وهى مشكلة القومية العربية. فلم يكن لدى أى من المسؤولين المصريين يومها، سواء من العسكريين أم من المدنيين، أى مفهوم واضح حول«العروبة والعرب». وكان أول المبادئ المتبعة فى صناعة الانقلابات، فى أى بلد عربى، هى أن ترفع شعارات وطنية إقليمية، فمصر للمصريين، وسوريا للسوريين، والعراق للعراقيين. وكل الكلام عن الأخوة العربية وشعار «كلنا عرب» لم يكن ليتعدى الحدود العاطفية الضيقة، ولم يكن له أى اعتبار فى ميزان القوى لأى انقلاب عسكرى، ويبقى الولاء للانقلاب هو المقياس الرئيسى لنجاحه وفشله. ولقد انطبق هذا الوضع تماما على المصريين عامة، وعبد الناصر خاصة، فعندما قام بانقلابه لم يكن يعرف إلا القليل عن

العرب، بل ولم يكن يشعر أنه عربى. وكذلك لم يكن قد زار أى قطر عربى أو واجه أى شعب عربى. ولكن أصبح زعيما عربيا بعد أن دخلت كلمة «عرب» القاموس السياسى لشعوب المنطقة. ولم تفلح معرفته المحدودة وقتئذ بالعرب فى تحريك محبته لهم. ولم تساعده زياراته لبعض الدول العربية منذ سنة ١٩٥٢ على اكتساب أية خبرة جديدة فى هذا المجال، وإنما أكدت له شكوكه السابقة بالعرب. فقد بقى العراقيون فى نظره متوحشين، واللبنانيون مرتشين فاسدين (ولم تكن بيروت فى نظره أكثر من ناد ليلى مترامى الأطراف)، واليمنيون أغبياء متخلفين، والسوريون لا يقدرون المسؤولية ولا يثقون بغيرهم. ولكن عبد الناصر بالتأكيد، ينكر الآن جميع مواقفه وآرائه تلك، بل وعلى العكس فهو يعتقد أن فى العالم حقيقة ملموسة هى «العالم العربى» (وبدأ هذا بعد عودته من مؤتمر باندونغ). كما أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها فى أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والأردنيين.. الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة الوحدة والعروبة وتجاوزت نزعاتهم الأقليمية بعد تخلصهم من أنظمتهم الفاسدة ومن الجدير بالذكر أن رفاق عبد الناصر الذين ساعدوه فى الوصول إلى السلطة، ويعود لهم الفضل فى بقائه فيها حتى الآن، لا يشاطرونه رأيه ولا يسايرونه فى مواقفه العربية إلا ضمن حدود المصالح المصرية المحضة. وقد كانت النزاعات المصرية العربية تعكس نوعا خاصا من التصورات داخل قصور الساسة المصريين، ساعدت على تأمين توازن مستمر بين الأزمات الداخلية والانتصارات الخارجية. على أن عبد الناصر نفسه سرعان ما يصبح أكثر تعصبا لمصريته وأقل حماساً لعروبته كلما نشأت الأزمات داخل مصر.

ولقد أتيت على ذكر هاتين النقطتين: عدم أهمية موضوع تحرير فلسطين، وعدم قيام أية علاقة بين القومية العربية ودوافع الثورة المصرية بسبب ما أثارتا من سوء تفاهم أدى إلى تعكير صفو علاقاتنا معه، وارتكابنا أخطاء فادحة معه ومع الزعماء العرب الذين لهم نفس الأهداف والغايات.

وقد احتل موضوع عدم رضا المصريين عن وضع البريطانيين فى مصر وسخطهم عليه، جانبا مهما من الأحاديث التى دارت بين الضباط الأحرار ومندوب وكالة المخابرات المركزية كيرميت روزفلت. ولكن لم تكن النظرة ذاتها تجاة بعض الشخصيات أو التقاليد البريطانية التى كانت تستحوذ على إعجاب المصريين والضباط الأحرار. ولا أزال أذكر استهزاء عبد الناصر ببزة أمريكية أهديتها له ووصفها بأنها مدعاة للضحك. فسألته أية البزات تفضل؟ فأجاب: البريطانية طبعاً. ومع أنهم أحبوا الأمريكيين لامتزاج المساعدة مع الصداقة،

فقد حافظوا على إعجابهم بالبـريطانيين وكان عدم تجاوب البريطانيين مع هذه النظرة سببا فى جرح شعور المصريين وإنكار خدمات البـريطانيين لهم. وقد اتضح هذا عندما قام مـراسل الاسيوشيـتدبرس، مستـر ولتـون وايـن، بمحـاولة انتـزاع كلمـة مـدح أو ثنـاء للبـريطانيـين مـن عبـد النـاصـر بعد تذكيره بجهـود المسؤولين البـريطـانيين، أمثـال اللورد كـرومـر، فى الإصـلاح المإلى، ونظام الحكم، ونظام المجارى، وحماية الفلاحين من عمل السخرية. ولكن عبد الناصر أنكر فضلهم قائلاً: إنهم قد جعلوا منا مواطنين من الدرجة الثانية ونحن لا نزال داخل بلادنا.

ولابد من التنوية إلى نقطة مهمة بهذه المناسبة، وهى أن عبد الناصر (وأمثاله من الحكام) كـانوا فى ذروة عـدائهم للأجنبى (وهـو هنا البـريطـانيـون) يصبـون جـام غـضبـهم عى طبـقـة السياسيين القدامى (الطبقة المرَوَّضَة) التى لولا تخاذلها واستكانتها لما امتد نفوذ الأجنبى وتمادى داخل البـلاد. وكان هذا الموقف مشابها تماما لموقف قادة الحكومة الأمريكية عندما سخطوا على القادة العسكريين فى موقعة ميناء بيرل هارير، بدل أن يسخطوا على اليابانيين. فسخطُ ناصر ورفاقه على طبقة السياسيين القدامى من الشعب المصرى كان متأصلاً دفينا. فى حين كان سخطهم على البريطانيين لا يلبث أن تذهب ريحه على أثر معاملة حسنة يلقونها من السفـيـر البـريطـانى. وكان عـبد النـاصـر (وأمثـاله من الحكام) مـدركا تمام الإدراك لـهذه العقدة النفسية. كما أدركها من قَبْلُ السفـراء البريطانيون من همفرى تريفيليان إلى هارولد بيلى. ولكن لسوء الحظ لم يدركها الدبيلوماسيون الأمريكيون أبداً، باستثناء واحد أو اثنين.

وعندما عاد روزفلت إلى واشنطن - قبل شهرين من وقوع الانقلاب فى مصر- قدم تقريراً إلى وزير الخارجية الأمريكية دين اتشيسون، تضمن النقاط التإلية:

١- لم تعد الثورة الشعبيـة التى كان يسعى إليهـا كل من الأخوان المسلمـين والشيوعـيين - وتخشاها وزارة الخارجية الأمريكية - واردة فى الحساب.

٢- لم يعد هناك أى أمل فى إبعاد الجيش عن القيام بانقلاب قريب، وإثنائه عن عزمه على استلام السلطة، رغم كل التحفظات التى كان يبديها واضعو مخططاتنا فى واشنطن، من أن تكون النتائج مشابهة لما جرى فى سوريا على أيدى العسكريين.

٣- إن قادة الانقلاب المحتمل، يرفعون شعارات قياسية تخالف ما اقترحه كثير من المراقبين الدبيلومـاسـيين، وتجعل منهم، وهم فى السلطة، طرفـا لينا ومـرنا فى أية مـفـاوضـات نخوضها معهم، كما أنها تزيد من فرصتهم فى النجاح.

٤- يجب أن توافق الحكومة الأمريكية على إقصاء الملك فاروق، وربما دفن النظام الملكى نهائياً فى مصر، ولا يمنع هذا من اتباع بعض الشكليات الدبلوماسية، وإرسال مذكرة احتجاج رقيقة تفسح المجال أمام السفير كافرى لإظهار قلقه المصطنع على سلامة الملك فاروق.

٥- وعلى الحكومة الأمريكية أن لا تفكر على الإطلاق ببذل أية محاولة بعد وقوع الانقلاب لإقناع العسكريين بإعادة الحياة الدستورية وإجراء الانتخابات وما إلى ذلك.. وعليها أن تبنى علاقاتها مع العهد الجديد على أساس أن الحياة الديمقراطية وموسساتها يجب إعادة بنائها من جذورها.

٦- وعلى الرغم من الاجتماعات التآمرية العديدة التى مهدت للانقلاب، فمن المستحسن أن لا يحاول أى من المسؤولين الأمريكيين أن يفكر بأن الانقلاب جاء انقلاباً، بل أنه مجرد حدث داخلى متحرر إلى حد ما من نفوذنا، وكل ما علينا أن نقدمه من مساعدة وتأييد هو عدم وقوفنا فى طريقه. وأما بشأن الحاجة إلى عدو يلتقى الجميع على كراهيته والخوف منه - وفقا لمبادئ برتراند رسل - فإن هذا العدو لن يكون اسرائيل ، بل طبقة السياسيين القدماء والإقطاعيين «الطبقة المروضة» فى مصر ، ثم البريطانيين سواء رضينا بهذا أم أبيناه.

وقد أفاض روزفلت فى حديثه عن صفات الحاكم الذى سيبرز على مسرح الأحداث عاجلاً أو آجلاً - وأول ما تم الاتفاق عليه فى اللجنة التابعة لروزفلت هو الحاجة إلى حاكم يستطيع أن يضفى على نفسه صبغة القدسية والإنقاذ. ولكن الظروف السائدة فى مصر وقتئذ لم تكن بحاجة لأكثر من حاكم يرفع شعارات أضيق ومفاهيم أبسط. وعلى هذا الحاكم أن يتمتع بشىء من قوة السلطة وسحر الشخصية. ليتمكن على الأقل من السيطرة على مجموعة من الرجال تتمكن مجتمعة من إدارة دقة الأمور فى البلاد. وكان كل ما طلبناه متوفرا فى مجموعة الضباط الأحرار. ثم ذكر روزفلت أنه: «سواء بقى الحاكم مسيطراً على زمرة صغيرة تمكنت من حكم البلاد، أم تحول إلى زعيم ذى شعبية كبيرة، فإنه يبقى دون مقومات الزعامة كما نتصورها نحن الغربيين. وفى أسواء الظروف، فإن لم نحقق أى نجاح من تفاهمنا مع زعيم كهذا، فلن نخسر شيئاً، وسيكون ذلك درساً نافعاً لنا فى مواجهتنا لأمثاله، سواء فى مصر، أم فى بلاد عديدة أخرى، تمر فى نفس الظروف وتعانى من نفس الصعوبات».

-٨-

حليفنا المُستقل: ناصر فى الحكم

... ونجاح مخططاتنا رهين بزعيم يتخذ منها أهدافا ومبادئ..

كان كيرميت روزفلت يخشى رفض لجنة المتابعة فى الكونغرس لمناوراته . فعندما عاد إلى واشنطن لم يفصح أمامها عن كل خفايا نشاطه فى مصر، فغدا تقريره لها مريحا غير مخيف. فلم يذكر فيه حقيقة الجهود التى بذلها مع غيره من المسؤولين الأميركيين حتى أمكنهم العثور على زعيم متعطش للسلطة، بونابرتى الطراز، وذى قدره على جمع شمل شعبه حول قضية ما تتوحد فيها مخاوف الأمة وآلامها. أما تقارير روزفلت الشفوية فقد اتسمت بطابع الصراحة والوضوح. فقد أخبر المسؤولين أنه من العسير لرجل ما يتأجج فيه حب جامع للسلطة وحرص بالغ عليها أن يبقى مكتوف اليدين منتظراً أحد عملاء دبلوماسية ما وراء الكواليس ليلهبه حماساً ويدفعه إلى تحقيق أمانيه. وأوضح أيضاً أن صفات كالتى سبق ذكرها لا يمكن تطويرها وإبرازها نتيجة بحث طويل واستقصاء شامل لمواهب وكفاءات بنى الإنسان، وإنما هى محض فطرية وشخصية. وانتهى روزفلت إلى النتيجة أن لقاءاته فى مصر أفهمته أن لجميع من قابل من الضباط علاقة وثيقة بضابط مًّا قد استوعب كليا شروط أى استيلاء على السلطة والمحافظة عليها، وأنه لا محالة مقدم على هذا. ومن خلال الملاحظات والأفكار التى أرسلها روزفلت إلى ذلك الضابط فقد تأكد له أن الأخير أدرك تماما مقاصدنا ومرامينا وَقَبِلَ التزامنا بتسديد تكاليف تحقيقها. ونتيجة لذلك. فإن قيام أى تفاهم متبادل وعلاقات وطيدة لم يعد أمراً عسيراً عندما يحين الوقت المناسب.

ولم تعلم الحكومة الأمريكية بوقوع الانقلاب إلا من الصحف الصادرة صباح ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ ولكن سبق هذا سيل من المعلومات تدفق من خلال تقارير وكالة المخابرات المركزية، مشيراً إلى أن أحداثاً ما ستقع فى مصر بدون تجديد زمانها أو تحركاتها. وأيدت

الصحافة المصرية الانقلاب الأبيض بكليتها، ووقف الشعب مع رجال الثورة بدون أى أسف أو ندم على الإطاحة بالملك الخليع وظهر اللواء محمد نجيب وديعا أنيسا بغليونه الجذاب كأنه الآمر الناهى، وإن لم يكن كذلك حقيقة. كما ظهر مساعدوه من الضباط الشبان بقاماتهم النحيلة وأجسامهم الرياضية على أنهم آمال الشعب وأحلامه فى بناء كيان الدولة المصرية الحديثة. ولم تردد الإذاعات المصرية أيا من البلاغات المثيرة أو البيانات العنيفة التى كانت تدين الانقلابات العسكرية فى سوريا، وإنما اكتفت بتعريف الشعب عن عزمها على تطهير الحكومة من الفساد وإقامة حكم قادر فعال، وإصلاح الأحزاب السياسية، وغير ذلك. ولكن البلاغات كلها لم تتطرق البتة إلى مشكلة فلسطين أو أى ذكر لإسرائيل ولا على الأقل بكلمة واحدة.

وأما السفارة الأمريكية فلم تقف على تفاصيل الانقلاب إلا من فم على صبرى أحد ضباط عبد الناصر الذى أصبح فيما بعد من أشد خصوم الأمريكيين. وقد وقع الانقلاب فى الساعة الثالثة ليلاً. وفى ساعة متأخرة من صباح ذلك إليوم أرسل عبد الناصر السيد على صبرى للاجتماع رسمياً بالسفير كافرى وتقديم تقرير شامل له عن وقائع وأحداث ليلة الانقلاب إلى جانب تأكيد الحكومة الجديدة عن عزمها على إقامة علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة. وتلا ذلك تأكيد علنى آخر من اللواء محمد نجيب - وكان يعتبر آنئذ الانقلاب - أن قضية فلسطين لا تعنيه فى شيء. ولكنه سرعان ما قام بزيارة السفير كافرى بعد ساعات . طالبا سحب ذاك التصريح واستبداله بآخر «أقل» تقبلاً للرأى العام فى الولايات المتحدة ولكنه أكثر انسجاماً مع المبادئ والأسس التى اتفقنا وعبد الناصر على أنها ضرورية وهامة لكسب الرأى العام المصرى ونيل تأييده للعهد الجديد.

أما المسؤولون فى واشنطن فقد غمرتهم موجة من السرور نتيجة هذا الانقلاب، وأدر كوا جميعاً أنه أصبح فى حوزتهم على المسرح العالمى لاعب جديد من الطراز الذى بذلوا قصارى جهدهم للعثور عليه، وأن كل ما سيضعونه معا من الخطط سيحظى بنسبة عالية من التعاون المثمر واحتمالية ضئيلة من الخلاف والشجار.

كانت التقارير والتفسيرات الأولية تشير إلى أن اللواء محمد نجيب كان رأس الثورة وعلى هذا الأساس بنت الحكومة البريطانية والأمريكية علاقاتها مع العهد الجديد. ولكن سرعان ما

ذاب الثلج، وانتزع عبد الناصر زمام الأمور منه، ولم يمض بعد أكثر من عدة شهور على الانقلاب. والغريب أن كيرميت روزفلت قد اقتنع عندما أكد له عبد الناصر أنه ليس هو رأس الثورة مع أن وليم ليكلاند المسؤول السياسى فى السفارة الأمريكية فى القاهرة وبعض موظفيها قد أكدوا أن اللواء نجيب لم يكن أكثر من ستار أتخذه عبد الناصر لنفسه حتى يحين موعد ظهوره على المسرح شخصياً. وزادت العلاقات قوة بين ليكلاند والضباط الأحرار عن طريق حسنين هيكل الذى كان صلة الوصل بينهم. وقد أصبح هيكل فيما بعد من أقرب المقربين لعبد الناصر فى حين لم يكن آنئذ أكثر من محرر فى صحيفة سياسية يملكها مصطفى أمين أحد أصدقاء عبد الناصر. وقد هيأ هيكل الجو للعديد من المقابلات بين ليكلاند وقادة الضباط الأحرار بما فيهم عبد الناصر نفسه، واعتاد لكيلاند أن يستقبلهم فى شقته المطلة على النيل بترحاب وإكرام زائدين.

وكانت نتيجة هذه اللقاءات أن بدأت سفارتنا فى القاهرة ترسّخ علاقاتها مع عبد الناصر نفسه كرجل الدولة الحقيقى والآمر الناهى بلا منازع، فى حين بقى الشعب يصفق للواء محمد نجيب ويهتف له فى الشوارع والساحات. ولكن السفير كافرى لم يقطع علاقاته الرسمية باللواء نجيب وقام بزيارات تقليدية متقطعة له ناقلا بعض الرسائل الرسمية من حكومته فى واشنطن التى لم تنطو على أكثر من مجاملات وتقاليد دبلوماسية. فى حين كانت العلاقات الحقيقية للحكومة الأمريكية مع الثورة المصرية تتم عبر الصلات الوطيدة التى نشأت بين عبد الناصر ولكيلاند بفضل جهود هيكل نفسه الذى أضحى ذا دور رئيسى فيها بعد نجاحه فى إلباس وجهات نظر كل من عبد الناصر والسفارة الأمريكية حلة بهية قبل نقلها إلى الطرف الآخر.

أمسك كيرميت روزفلت وأعضاء لجنته الخاصة عن الاتصال المباشر بعبد الناصر بعد الانقلاب، وقنعوا بمراقبة تطورات الأحداث فى مصر بدون الانغماس فيها. فقد تطورت الأمور بهدوء تام حسب الخطة المرسومةلها. وكان الكف عن الاتصال المباشر بعبد الناصر ضرورى لاستبعاد أية شبهة لتواطئنا مع النظام الجديد. وكانت رغبة جميع المهتمين بشؤون الشرق الأوسط ترك الحرية كاملة لحكومة الانقلاب، لمعالجة مشاكل البلاد وحلها بطريقتها الخاصة. ولم نعثر على أى مبرر للكشف عن القوى الحقيقية وراء الانقلاب وإظهار اللواء نجيب على أنه ليس أكثر من ستار ما يلبث أن يزاح. ولكن لم يكتب لهذا الوضع أن يعمر طويلاً

فما لبث أن تبدل فى عام ١٩٥٣ بعد مجىء الرئيس أيزنهاور إلى البيت الأبيض وابداء رغبته فى العودة إلى ممارسة دورنا مباشرة فيما نزمع تخطيطه وإنجازه مع نظام حكم عبد الناصر. وكان الدافع الأول لهذا هو إتقان دراستنا لدور هذا اللاعب الجديد فى مسرحياتنا والتأكد من تحركاته وفق توقعاتنا. وكان الدافع الثانى ضمان حصولنا بتحركاته هذه على استراتيجية نصر عند نشوب أول نزاع مع أعدائنا. وأما ثالث الدوافع فكان الاستفادة من هذا التقارب والتفاهم لتحقيق تعاون أوسع وأعمق بيننا قدر الإمكان. ومع أننا أدركنا أن مساعداتنا لعبد الناصر سوف تزيد من قوة مركزه فى مسرحياتنا الدولية ولكننا لم نستبعد تحول دوره فيها إلى خصم لنا ومنازع. وكل ما بقى لنا وقتئذ هو الأمل فقط فى أن نفلح فى موازنة خطر خصومته لنا بزيادة طاقتنا وتوطيد عزائمنا على أن يكون سلوكنا هذا يخدم أهداف ومصالح كلا الطرفين معا.

وبينما كان وزير الخارجية جون فوستر دالس يحزم حقائبه عشية جولة له فى الشرق الأوسط فى زيارة (مايو) ١٩٥٣ أبلغ كيرميت روزفلت عن رغبته فى الوقوف على نيات ومطالب رجال الثورة فى مصر بعدما استتب لهم الحكم ودانت لهم قطوفه. وانتهى الرأى إلى قيام روزفلت بانتقاء رجل عسكرى من طراز ضباط الانقلاب وانتدابه لتلك المهمة. وكان اختيار روزفلت موفقا عندما انتزع من زوايا النسيان المستر ستيفن يد، حيث كان بمضى وقته فى الصين الشيوعية بمهمات كإنقاذ العلماء الألمان المعتقلين هناك والتواطؤ مع قادة العشائر الكردية على الحدود السوفييتية لأغراض تجسس على الأمور الحربية وبمهمات أخرى كالتى عهدت إليه سنة ١٩٤٩ فى سوريا (انقلاب حسنى الزعيم) وسماها وقتئذ «بالمهد الحزين». فروزفلت ضئيل الخبرة بشؤون الضباط فى الجيوش العربية الناشئة، فى حين أن تاريخ إنسان ملىء بالمغامرات كستفين ميد سيكون له انطباع حسن فى نفوس «الضباط الأحرار» فى مصر. وكان روزفلت موفقا فى رأيه ذاك فلم يكد يمضى على وصول ميد إلى القاهرة(وقبل زيارة دالس) أسابيع قليلة حتى حاز على إعجاب ضباط الثورة وملك عليهم لبَّهم. كان مظهر ميد شبيها كل الشبة بمظهر الأبطال فى الأفلام الأمريكية. فهو من رجال المظليين المتواضعين الذين انضموا إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية نتيجة خطأ فى جهاز الفرز الإلكترونى قضى بإرساله إلى المخابرات مع احتمال نزوله بمظلة فى الأراضى السوفياتية، بدلا من إرساله إلى جبهة القتال. ويملك ميد قدرة هائلة على التقاط اللغات الأجنبية المعقدة بسهولة

فائقة ومنها اللغة العربية. أما سلوكه فكان سلوك ضابط نموذجي في أي جيش من جيوش العالم وحتى في الجيش المصري. في حين كان تاريخ حياته الملئ بالمغامرات يشكل مادة شيقة لأحاديث السهرة وولائم الليل. على أن انتداب ميد أثار حفيظة عبد الناصر الذي رأى فيه أن وزير الخارجية دالس ما يزال ينظر إلى الثورة المصرية من خلال نفس المنظار الذي نظر فيه إلى الانقلابات العسكرية في دول أمريكا الجنوبية. وحدث مرة أن حاول أحدهم التدليل على قيمة ميد وفعاليته بذكره إحدى مناقبة أمام عبد الناصر، وهي أن ميد هو الوحيد من العرق الأبيض الذي فاز بعضوية الشرف في منظمة «الماو ماو»، فما كان من عبد الناصر إلا أن طرده خارج القاعة.

أما وجهة نظر الحكومة الأمريكية وراء انتداب ميد فهي تمتعه بموهبة فائقة في معرفة الناس ووزنهم وتحليل دوافعهم ونياتهم دون إقحام نفسه في مناقشة ميولهم السياسية، بالرغم من صداقته لكثير من العسكريين في بلدان مختلفة (بما فيها صداقته لأديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية)، فانتدابه لم يثر أية شكوك بخصوص التأثير على اتجاهات الثورة المصرية، إلى جانب انه لم يقم حقيقة بمثل هذه المحاولة مطلقا. وما لبث ميد أن سجل ملاحظات مهمة أثبت التاريخ صحتها وانطباقها ليس فقط على صفوة عبد الناصر المختارة من ضباطه الأحرار، بل أيضا على أية صفوة عسكرية في بلدان غير غربية، بما في ذلك فيتنام وأفريقيا الغربية واليونان. وبصدد حديثه عن هذه البلدان الناشئة قال روزفلت للوزير دالس مرة: «إنه يستحيل صنع ثورة بغير ثوار» وأن الجماهير (على حد زعم بيان كمروزيه) لا تثور بدافع شدة أحوالها المعاشية «ولكن الثورة هي التي تولد الثورة».

وبخصوص استقرار الثورة المصرية، أخذ ميد يميل- بعد أسابيع من لقاءاته المتكررة مع الضباط الأحرار - إلى الاعتقاد أنها لن تكون شبيهة بالانقلابات في سوريا التي كانت تفتقد ميزة الاستقرار والثبات لكثرة الثوار فيها. فالثورة المصرية من تصميم وإخراج عبد الناصر لوحده، وأتباعه ينقادون له بسهولة ويسر. وبعد مدة غير بعيدة كتب ميد إلى روزفلت يقول: «إن هؤلاء الفتيان يرون أنفسهم كأفراد عصابة «روبن هود» المرحة وهم مسرورون بهتاف الجماهيو لهم على أنهم أبطال الثورة، ولكنني لم أجد واحدا منهم قادراً على شرح ما تريده هذه الثورة لي، فهم لا يكترثون للسياسة ولعل هذا من حظنا وحظ عبد الناصر معا. إنهم بحاجة إلى من يدلهم إلى ما عليهم التفكير به وإنجازه، ولست أرى صعوبة في إعادتهم إلى ثكناتهم والاحتفاظ بهم هناك».

ولم تخل مقابلات ميد للضباط الأحرار من فترات حرجة. فقد حاولوا أن يدفعوه بعد أيام قليلة من وصوله للقاهرة إلى إقناع عبد الناصر بنصب صف طويل من أعواد المشانق أمام قصر عابدين، إلى جانب سرداق خشبى يتسع لمئات المشاهدين، لتنفيذ أحكام الإعدام بأعداء الثورة. إلا أن عبد الناصر وضع حدا لانتشار مثل هذه الأفكار الهدامة عندما طلب من رجاله أن لا يتفوهوا بهذا الموضوع ثانية. غير أن بعضهم استمر فى ترديد مثل هذه الأفكار إلى أن تسربت إلى الرأى العام. وكان سبب ذلك وجود خليط خضم من الأفراد اتهموا بأنهم أعداء الثورة وباستغلالهم مناصبهم لأغراضهم الشخصية مما اضطر ضباط الثورة إلى مراقبتهم والتضييق عليهم. ومع أن الألسن بقيت تلوك مثل هذه الأفكار حتى خشى البعض من تطور الأحداث وتدهورها على غرار ما حدث فى سوريا، لكن ستيفن فيد ما لبث ان تحول عن مثل هذا الرأى ومال إلى اعتبار مثل هذه الوقائع شيئاً عادياً فى المراحل الأولى التى تلى الانقلابات والثورات، فقد شهدت فرنسا مثلها عندما دخلتها قوات ديغول الحرة بعد انسحاب الألمان منها.

واستمد ميد كثيرا من آرائه حول الضباط الأحرار من خلال أحاديثه معهم حول طريقة التحاقهم بتنظيم عبد الناصر، وتمكن معها من تحديد أبعاد هذا التنظيم السرى الواسع، وكشف الكثير من العهود والوعود التى قطعها الأفراد على أنفسهم. ومع مرور الأيام وكثرة الأحاديث واللقاءات بدأ ميد يرسم صورة أكثر واقعية – ولكنها أقل جاذبية للعقلية الشرقية – حول ذاك التنظيم للضباط الأحرار. فقد اتضح له أن التنظيم قد أصبح مقتصراً على البقية الباقية من ضباط الجيش بعدما تم صرف الكثير منهم من الخدمة وتطهير صفوفه من المنتفعين الانتهازيين الذين كانوا وكأنهم خشبٌ مسنّدة لهم من القادة العسكريين أشكالهم، وعقولهم بريئة من الشؤون العسكرية فهما واكتراثا تطبيقا الجيش لأنهم «أولاد الذوات» يرثون مناصب أسلافهم العسكريين. إلا أن عبد الناصر انتقى ضباطه من العناصر الجدية والفعالة الذين شغلوا مراكز حساسة فى القطعات العسكرية. ولم يحدث انقلابه أية فوضى أو أضطراب، بل ساعد على ترسيخ السلطة واستتباب النظام. ولم يدع عبد الناصر انقلابه أن يحمل طابع العصيان المسلح الذى لا يهدف إلا إلى اغتصاب السلطة، بل عمد إلى تسليم الإدارات المدنية إلى ضباطه المقتنعين بآرائه السياسية والمعاهدين على تنفيذها ليتيح لهم الفرصة لإصدار أوامرهم وتبليغ تعاليمهم من خلال هذه المؤسسات، واضطراره لدفع اللواء محمد نجيب أمامه إلى الواجهة. ولكن لم يلبث أن ملك مفاتيح الأمور كلها وانتزعها من يد اللواء نجيب عندما حان الوقت لذلك.

تابع ميد كافة تفاصيل الانقلاب بحذافيرها وعلم أنه لم يخلُ من مضاعفات ومتاعب (شرحها عبد الناصر شخصيا للجنرال كابل الذى كان يشغل نائب رئيس وكالة المخابرات المركزية). فقد كان أحد ضباطه المكلفين بالسيطرة على مراكز الاتصالات يحضر عرضاً سينمائياً مع زوجته عندما وصلته رسالة التكليف، وأوقف شرطى المرور سيارة عبد الناصر وهو فى طريقه لموعد هام بسبب خلل فى المصابيح الخلفية، فى حين لم يتعرف قائد أحد قطاعات الانقلاب على عبد الناصر بصفته رئيسا للضباط الأحرار، بل وكاد يدهسه فى الشارع. وتسربت أنباء حركته الانقلابية إلى الملك عن طريق والدة أحد ضباطه فى سلك الأمن العام، فقد غادر الأخير منزله فى ساعة متأخرة من الليل مما أثار قلق والدته عليه، فاتصلت بالشرطة للاطمئنان عليه خشية أن يكون قد ألمّ به مكروه، ولكن ما أن حانت ساعة الصفر حتى كانت الأجراس تقرع معلنة بدء الثورة. وانقلبت بعض تلك الأخطاء إلى عوامل مساعدة فى النجاح. فقد استفاد عبد الناصر من تأخر أحد ضباطه فى قطع الاتصالات من الاتصال بالقطعات الصديقة فى الإسكندرية وأصدر لها أوامره بالتأهب والتحرك.(ولا تزال هذه العقدة لغزا محيراً: فكيف كان سيتصل بالإسكندرية لو قطعت الاتصالات كلها كما كان مخططا لها)؟ وانقلبت الوحدة العسكرية التى وصلت لاعتقال عبد الناصر إلى وحدة مؤازرة له فى اللحظة التى حاول عبد الناصر اعتقال ضباط القيادة العامة الذين تداعوا لاتخاذ خطوات مضادة للانقلاب بعد إبلاغهم بأنباء التحركات العسكرية من قبل والدة الملك. فقد اتصلت بمراكز المخابرات والأمن العام للهدف نفسه، فعلمت تلك المراكز وقتئذ بالانقلاب بصورة غير مباشرة وأيدته وأخذت تبلغ عبد الناصر شيئا فشيئا عن التحركات المضادة له.

إن أمر تنظيم وإعداد قطعات ووحدات عسكرية داخل جيش كبير للقيام بانقلاب عسكرى ليس سهلاً ويسيراً وخصوصاً فى التاريخ الحديث. وعبّر عبد الناصر عن هذا الرأى خلال لقائه مع الجنرال كابل كما حدثه أيضا عن خطوات الإعداد التى مهدت لقيام الانقلاب ونجاحه. وكان يرى أن الفعالية التامة فى العمليات العسكرية لا تكمن دائما فى السرية المطلقة، ولكنه مع كل هذا تبنى السرية التامة فى التخطيط والإعداد بغض النظر عن عواقبها. واعتقد أنها كفيلة بإحراز النجاح إذا ما قورنت باختيار الوقت المناسب، وترك الشكليات والتفاصيل لأنظمة الجيش الروتينية. أما بعض الأخطاء القاتلة التى لابد منها، فإن سرعة الاندفاع فى تنفيذ الخطة، وعنف صدمة المفاجأة عند تحرك الوحدات كفيل بتلافيها والقضاء عليها.

وقام ستيفن ميد بجمع شتات أحاديث تلك اللقاءات وما فيها من أفكار مبعثرة وبتدوينها وإرسالها لواشنطن بشكل مذكرة قيمة للاستعانة بها كدراسة علمية لانقلابات آتية، وكان منها ما يلى:

١- أن قوة أى جيش (دون استثناء جيوش الدول غير الغربية التى لها أهداف غير عسكرية) تعتمد على توفر فى رجال إداريين من طراز رفيع على رأس قيادته ، مدركين كل الإدراك حقيقة دورهم فى إصدار الأوامر وتنفيذها، وحقيقة كونهم جزءا لا يتجزأ من قيادته وتركيبه العام. ويعود سبب انتصار عبد الناصر إلى إدراكه هذه الحقيقة وسيطرة رجاله الاداريين الأكفاء على وحدات الجيش وقطاعاته. وسواء أكان عبد الناصر وأصحابه الأوائل ثواراً بحق أم لا، فإن بقية أتباعه من الضباط ليسوا كذلك. وكان اتّباعُ عبد الناصر للأساليب العسكرية فى التحضير للانقلاب وفى إنجازه ضماناً لفوزه، لسهولتها المأمونة فى إصدار الأوامر وتنفيذها.

٢- وينبغى أن يكون زعيم الانقلاب من نفس الطبقة الاجتماعية المؤيدة له، أو أن يكون قادراً على التظاهر بهذا حتى يتحقق نوع من التقارب والانسجام بينه وبين أتباعه ليشاركوه انتصاراته ويشاطروه مشاعره. وهذا ما حدث فعلاً: فالانقلاب انقلاب الجميع من الضباط الأحرار وعبد الناصر- برأيهم - لم يكن أكثر من منسق لعلاقاتهم ومنظم لتحركاتهم. وخيم نفس الشعور على علاقات الفئة الأولى من الضباط الأحرار مع الفئة الثانية، وكذلك بين الأخيرة والفئة التى تتلوها، وهكذا دواليك. وكانت هذه طريقة غنية مكنت عبد الناصر من ضبط أمور الدولة وكسب تأييد ذلك الجزء المهم سياسياً من جماهير الشعب المصرى (والذى لا يتجاوز ١٠٪) وبذلك سلك أحدث الطرق فى إدارة أضخم المؤسسات الصناعية ومراقبة الأوضاع فيها.

٣- وسيستبدل العديد من أفراد الإدارة فى النظام القديم بغيرهم بغية إقامة نظام إدارة العهد الجديد على أساس من الانضباط والنظام الدقيقين، وليس على أساس الولاء للأشخاص، ويتوقع أن يتم ذلك حال استكمال قادة الانقلاب سيطرتهم على أركان الدولة. ولم يكن ولاء أنصار ضباط عبد الناصر له مباشرة، وإنما كان ذلك من خلال ولائهم لأحد أولئك الضباط الأحرار فكانوا يعرفون «برجال زكريا» أو «رجال البغدادى». وكان على عبد الناصر أن يتخلص من هذه الظاهرة الخطيرة دون إقصاء أعوانه الرئيسيين الذين

كان لبعضهم دور رئيسى فى نجاح انقلابه، ولكنهم أضحوا عالة عليه بعدئذ (وهذه ظاهرة مشتركة بين جميع قادة الثورات)، واضطره ذلك إلى تعيينهم فى مناصب شكلية. وقام بإسناد المناصب الرئيسية إلى ضباطه الموهوبين والموثوقين حتى يشغل عليهم كامل أوقاتهم. فى حين قام بنقل من يدين لهم بالولاء الشخصى إلى مراكز أخرى. وأدرك ستيفن ميد أن هذه الظاهرة التخطيطية التى بدرت من عبد الناصر يجب اعتبارها مبدأ أساسياً يحتذى به لتثبيت دعائم حكم قادة الانقلابات العسكرية عامة (وهذا ما أخفق حسنى الزعيم فى سوريا فى تنفيذ بناء على اقتراح ستيفن ميد نفسه).

٤- وكان اعتقاد عبد الناصر أن الاعتماد على الجيش، حتى يقف النظام الجديد على قدميه، أمر لابد منه فى كافة أرجاء البلاد، كما أن استرضاء كافة السياسيين المتطرفين، والمفكرين الصوريين والمتزمتين من كافة الأحزاب والهيئات لإظهار تأييدهم للثورة وإعرابهم عن أنها أمل الجماهير لتحقيق الإصلاح والازدهار، أمر لا يقل أهمية عن السابق. وفى حال منح هؤلاء الأفراد أى قسط من الحريات فلن يكون هذا سوى هدف لتشكيل واجهة منهم للرأى العام مهمتها تهدئة هياج الجماهير، وتبرير كافة تصرفات الحكومة وقراراتها (وعلى أساس اقتصار مهمتهم على هذه الشكليات رفض عبد الناصر اقتراح قبولهم أعضاء مؤسسين فى مجلس الثورة). واتفقت آراء جميع ضباط الثورة من رؤساء ومرؤوسين على أن من مهام عبد الناصر تحويل الجيش إلى مؤسسة ذات نظام دقيق وانضباط رفيع (كالتى كانوا يحلمون بها قبل التحافهم به). كما اتفقوا على الوقوف ضد أصحاب الفكر والاضطرابات العامة وإباحة المحرمات وتفرنج المجتمع والتحلل الجنسى وغيرها من مفاسد حكم الملك فاروق التى تهدد نظامهم المدلل. أما قيام المظاهرات فقد خشى منه بعض أتباع عبد الناصر. واعتبروه ظاهرة خطيرة لتحريك المشاعر وتهييجها، وبالتالى فتح الطريق أمام الهيئات السرية للاستيلاء على الحكم فى البلاد، ومع أن عبد الناصر وقف ضد هذه الفكرة فى البداية ولكنه حقيقة لم يشذ عن هذا المنحى من التفكير إطلاقاً.

وفى الوقت الذى اعتبر ميد أن الانقلاب فى سوريا فى ١٩٤٩ كان قطعة فنية نادرة من ناحية تنفيذه بدقة متناهية. فإن حسنى الزعيم مع الأسف لم يعثر بعد نجاحه على خطأ إلا واستهواه ارتكابه. ولكن الأمر فى مصر كان عكس هذا. فلقد نجح انقلاب كان من المفروض أن

يفشل ونفذ فى أى بلد آخر لأخطاء عديدة. أما بعد نجاحه فإن عبد الناصر التزم بالمبادئ السالفة الذكر، وأفلح فى توحيد البلاد وإقامة حكومة اتصفت «بالمناعة ضد الانقلابات» فقد كان عبد الناصر يعتقد أن تقوية مركزه، وتوطيد سلطة شخصية، يجب اعطاؤهما الأولوية وتقديمهما على أى هدف آخر. وبسلوكه هذا المسلك، تمكن من اتخاذ إجراءات أقلقت يومها المراقبين الغربيين. فقطع عبد الناصر بالعلاقات المصرية - السودانية - إلى الحضيض مثال لا ينسى على خطته هذه. فقد انتهز بعد ذلك فرصة ترديها للانقضاض على أحد ضباطه (صلاح سالم)، وقام بتحميله تبعاتها، وتوجيه اتهامات مدمرة لسلطاته ونفوذه، الذى شعر عبد الناصر بتزايده إلى حد المنافسة الخطيرة له. وأما ستبفن ميد فقد أدرك سلوك عبد الناصر هذا، ونوه إليه فى أحد تقاريره لواشنطن، واعتبره أساسياً جداً لبقاء واستمرار أى زعيم انقلاب ناجح، وعلى الأمريكيين أن لا يقلقوا البتة حيال تصرفات كهذه.

ولكن القلق بقى ينتاب المسؤولين عن وضع خططنا فى واشنطن بخصوص أفكار عبد الناصر حول «الصفوة المختارة والمؤهلة للحكم فطرياً». وكانت مثل هذه الأفكار تصلهم عن طريق هيكل - ليكلاند (بدل طريق ستيفن ميد)، وتدعى الحق لهذه «الصفوة» فى التمتع بنفوذ واسع وامتيازات لا حصر لها، لكفاءتها العالية، ولنظرة الشعب إليها على أنها «منه وإليه»، فلا يمقتها بعدئذ ولا يثور ضدها. ولم تكن تطلعات عبد الناصر هذه إلى «الصفوة المختارة» فى بلده إلا على غرار وجود مثلها فى كل البلدان المزدهرة والمجتمعات المستقرة، كما كان يشك بقدرة شعبه على اختيار ممثليه للحكم وتقييم كفاءاتهم. وعودة النظام الحر بدون اى قيد أو شرط لا تعنى (فى نظره) سوى عودة تلك الشرذمة من السياسيين الانتهازيين للحكم ثانية، التى صبر عبد الناصر عليها كثيرا قبل قيامه بانقلابه العسكرى. وتعزز اعتقاده يومها بضرورة عزلها مهما كانت الأمور، وإحلال «الصفوة المختارة» من العسكريين مكانها، ولكن مع ضرورة إبعاد الجيش عن الشؤون السياسية للدولة. إلا أن النمو المطرد لهذه الفكرة كان مصدر قلق لنا، فهى لن تقلل من فرصة مشاركته لنا كلاعب فى «لعبة الأمم» (إن لم يكن العكس)، ولكنها تضعنا فى مواقف حرجة أمام الرأى العام الأمريكى، بعد أن اتهمت حكومة الرئيس أيزنهاور بأنها نصيرة الديكتاتوريات العسكرية إليمينية، واضطررنا يومها للرد على أن تساهلنا معها مؤقت ريثما يستتب النظام والهدوء فى أقطارها، وأننا لا نفعل هذا إلا نتيجة اقتناعنا بعزمها على إعادة النظام البرلمانى، إلا أن تصميم تلك الديكتاتوريات العسكرية الفاشيستية عل البقاء. وتوطيد العزم على ذلك، كان بمثابة عقبة فى وجه تحركاتنا تعيق مرونة مناوراتنا

فى رسم مخططاتنا. وأما تردد عبد الناصر فى اتخاذ موقف نهائى من شكل التركيب الاجتماعى المقترح لمصر فكان مصدر إزعاج لنا وخصوصاً أنه طلب وقتا أطول للتفكير به، كما أنه أراد منح الشعب المصرى نفسه فرصة لمناقشته والإعراب عن رأيه فيه. وبعبارة أخرى، فقد أراد تطوير ملكة التفكير عند المصريين فى بناء أهدافهم وتحديد مطالبهم إيجابيا، ورأى أن منح الشعب حريته قبل الأوان (كما أخبر السفير كافرى بذلك مرة) لا يعنى سوى ترك أطفالك فى الشارع تحت رحمة الظروف، وتحويل البلاد إلى ميدان للصراع بين المتطرفين من جهة والسياسيين الانتهازيين والمرتزقة من جهة أخرى. كما أنَّ إفساح المجال أمام المواطنين للتدخل فى طريقة سيره بالدولة المصرية، بثقافتهم المحدودة وضيق أفقهم فى شؤون الحياة، لن يسهل له تحقيق أهدافه البعيدة المدى فى مجالات السياسة العالمية. وباختصار، فقد كان عبد الناصر يطالب بأقصى الحريات لشخصه، ولأطول مدة من الزمن، ليتمكن من تحقيق ما يأمل به دون أن يمارس الرأى العام أى ضغط عليه، أو يفرض أية مراقبة على سلوكه. واقتضى هذا اللون من تفكيره تركيبا اجتماعيا هرميا: تتمركز «الصفوة المختارة» الحاكمة فى القمة ثم تليها الفئة الثانية، فالثالثة، فالرابعة، وهكذا دواليك، على أن تبقى كلها مترابطة متماسكة مع بعضها البعض عن طريق الوعود تارة، والمداهنة تارة أخرى.

وأما ستيفن ميد ، الخبير بدوام الانقلابات وبقاء زعمائها، فلم تثر هذه الاعتبارات أى قلق فى نفسه أو انزعاج، ولكنها فعلت عكس هذا فى نفس كيرميت روزفلت، فعندما ارسل ميد تقريراً إلى واشنطن ينوه فيه إلى نية عبد الناصر لإقامة ديكتاتورية عسكرية من وراء تعديل أركان حكمه، بذل روزفلت قصارى جهده لإقناع السفير كافرى باستدعاء أحد الخبراء فى الأنظمة العسكرية فى الدول الناشئة وأحد رجال العلوم السياسية فى وزارة الخارجية الأمريكية لدراسة الوضع فى مصر عن كثب، وكان هذا جيمس ايخلبرغر. وكان هدف روزفلت أن تساعده دراسة ايخلبرغر للوضع فى مصر فى تبرير سياسة عبد الناصر المترعرعة أمام الوزير دالس، أو إقناع ناصر بتعديلها إن لم تحظ بموافقة الوزير. وكان هذا مهما لروزفلت بعد أن قدَّم توصياته بمنح مصر مساعدات اقتصادية ضخمة، وأوشك على تقديم توصيات أخرى بإمدادها بالمساعدات العسكرية.

وأما السفير كافرى، فقد طلب من جيسم ايخلبرغر، أن يعمل تحت إمرته مباشرة وبمعزل عن كامل جهاز السفارة الأمريكية فى القاهرة. كما مهد له سبيل الاطلاع على كافة المعلومات

الواردة من وزارة الخارجية فى واشنطن ومن ملحقى السفارة ومن موظفى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما طلب منه أن ينهى دراسته بوضع تقديرات للحالة السائدة فى مصر وتقديم اقتراحات بشأن مستقبلها. وبقى السفير كافرى يومها ممسكاً بزمام الأمور، مراقبا التقارير المرفوعة إلى واشنطن بأكملها دون التمييز بين وجهتها (وزارة الخارجية أو وكالة المخابرات أو إلى بعض المسؤولين فيها مثل كيرميت روزفلت)، ومتخذاً لنفسه آخر القرارات والتوصيات.

أما جيمس ايخلبرغر، فقد عقد محادثات طويلة مع أفراد حاشية عبد الناصر، العسكريين منهم والمدنيين، وكان منهم المحرر الصحفى محمد حسنين هيكل الذى قيل أنه كان وراء كتاب عبد الناصر «فلسفة الثورة». فقد برع هيكل فى التمييز بين ما يجب أن يكون فلسفة حقيقية للثورة، وبين ما يجب أن يبقى فى حيز الاستهلاك المحلى لإلهاء الشعب به داخل حدود البلاد. ـ وساقت الصدفة ايخلبرغر أخيرا للالتقاء بأستاذ هيكل الصحفى المشهور مصطفى أمين ذى الذكاء المتوقد. فقد كان مصطفى أمين من المعجبين بعبد الناصر، إلا أنه أقل افتتانا به من تلميذه هيكل. كما اجتمع ايخلبرغر بالصاغ صلاح سالم، وزير الإرشاد القومى وقتئذ، وإلى كثير من أركان وزارته ومساعديه الذين اتى بهم من الجامعات واتحادات العمال وحتى من بعض الأحزاب السياسية السابقة، ليعدوا له دراسات حول الرأى العام واتجاهاته. وأخيراً التقى بعبد الناصر نفسه وتبادلا وجهات النظر حول سلسلة طويلة من المواضيع والمشاكل، وتمكن خلالها أن يحدد أبعاد إدراك عبد الناصر لدور القوى السياسية التى تأتمر بأمره وأهميتها فى المعركة داخل مصر. وبعد كل هذه اللقاءات والأحاديث، قدم ايخلبرغر سلسلة من التقارير شرح فيها المصاعب والعقابت التى يتوقع أن تواجهها حكومة عبد الناصر. وحدد الحلول المقترحة لمعالجتها. ونقلت بعض هذه التقارير من الانكليزية إلى العربية وأرسلت لعبد الناصر للاطلاع عليها والعمل بها، وكان أكثرها أهمية وأجلها شأنا ما جاء تحت عنوان «مشاكل السلطة والحكومات الثورية» (ويجد القارئ نصه فى أول الكتاب). وبعد نقله للعربية علق عليه عدد من مساعدى عبد الناصر ونقلوه مع الإضافات الجديدة عليه إلى الانكليزية ثانية، وأعادوه لايخلبرغر حتى يعيد دراسته له. وبقى هذا التقرير مدة وهو ينقل من العربية إلى الانكليزية وبالعكس حتى انتهى إلى صيغة نهائية عرفت فى خارج مصر على أنها من تصميم وإخراج زكريا محيى الدين، أزكى رجال عبد الناصر وأعمقهم تفكيراً. ولاقى ذاك التقرير بحالته تلك، وبالظاهر من معانيه، قبولا عند رجال النقد

والتحليل فى وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وفى بعض الدوائر المختصة التابعة لبعض الحكومات الأجنبية. ومهما كانت قيمة فحواه الفلسفى (وقد استخف ايلهبرغر نفسه بالتقرير فيما بعد، وأنكر علاقته به) فقد كان التقرير فى حد ذاته ذا أهمية فائقة، إذ كشف النقاب يومها عن أبعاد تصورات عبد الناصر للعلاقة بين أعمال القمع والشدة فى الداخل وبين كسب تأييد الشعب والرأى العام له.

وقد أبلغ السفير كافرى (وكان كاثوليكى المذهب) ايخلبرغر بضرورة مراقبته لمسرح الأحداث فى مصر بعين الناقد الخبير. فكافرى نفسه لم يظهر أى ارتياح لتأكيدات ستيفن ميد أن نظام عبد الناصر أضحى أقوى من أن يطيح به أى انقلاب آخر. وشعر كافرى أن نظام عبد الناصر قد دخل مرحلة الخطر لمرور عام على وقوعه، إذ أن الحركات المضادة عادة تظهر بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة، وأن الأحداث تشير إلى توقع الخطر من ثلاثة مصادر. أولها : بعض الشخصيات التى عولت على النظام السياسى البائد وربطت به مصالحها. وثانيها: بعض السياسيين الانتهازيين الذين يفكرون باغتنام فرصة القلق وعدم الاستقرار. وثالثها: العناصر السياسية الهدامة والمكشوفة كالشيوعيين الذين تظاهروا بتأييد عبد الناصر ولكنهم أخذوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه وتحقيق امالهم فى الحكم. ومع هذا فإن أخطاراً ثلاثة محدقة بالوضع الراهن يومها فى مصر ستوقف أى ناقد يتعمد كشف العيوب وانتحال التشاؤم وهى:

(١) انقلاب عسكرى شبيه جداً بانقلاب عبد الناصر يقوم به المعارضون والمنشقون من أفراد حاشيته بالتعاون مع بعض ضباط الجيش والبوليس من ذوى المراكز الحساسة.

(٢) انقلاب عسكرى، ولكنه مضاد للثورة، يعتمد على عناصر من نوعية شبيهة بعناصر الانقلاب المتوقع آنفا ومدعومة بعناصر سياسية من خارج الضباط الأحرار، وبيدها قدرة السيطرة على الشارع وتأليب الجماهير ضد النظام القائم.

(٣) تغلغل بعض القوى داخل حكومة عبد الناصر تحت ستار الصداقة ومظاهر التأييد، ولكن بأهداف وغايات على نقيض أهداف وغايات عبد الناصر.

وكانت الدلائل والمعلومات الواردة من نظام مخابرات عبد الناصر، إلى جانب المعلومات الواردة فى كل من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية، تشير إلى أن

الخطر الأول ذو احتمالية ضئيلة. فى حين كان الخطر الثالث يدفع كلا من السفير كافرى وايخلبرغر إلى اعتباره الخطر الوحيد الذى يجب الاحتياط له، كما أنهما أثارا الانتباه إلى الاحتمالات التالية: تحريف خبيث لبرنامج الحكومة الجديد يرتكبه أحد كبار الشخصيات الموالية لشخص عبد الناصر ولكنها تعارض آراءه وأفكاره، أو تخريب عام لمخططات الحكم يقوم به رجل من نفس الطبقة والمستوى، ولكن من الذين يشك فى ولائهم لعبد الناصر، أو تسلل إلى جهاز الحكومة، وتغلغل فيه، لا للضغط عليه والتأثير على خطواته بل لإضعاف قدرته على الأمساك بزمام الأمور، والسيطرة على أركان الدولة، مما يؤدى إلى قيام حركات ضده بهدف الإطاحة به.

ولم تكن نزعات ضباط عبد الناصر للشهرة، وحبهم للظهور، أقل خطراً من العوامل السابقة. أما ايخلبرغر فقد أشار فى أحد تقاريره المرفوعة للسفير كافرى إلى ما يلى:-

«أن عبد الناصر نفسه غير واضح الأفكار والاتجاهات. وأدركت من خلال أحاديثى مع كل من صلاح وجمال سالم وغيرهما من أعضاء مجلس الثورة أنهم يسلكون فى سياستهم مسالك الانحراف والمساومات. كما أنهم فقدوا اقتناعهم بقدرتهم على السيطرة على أجهزة الدولة أو استمرارهم بسياسة القمع والشدة. ومع أن نزواتهم لا تتعدى حب الهتاف والتصفيق لهم، فإن الطرق التى يسلكونها لتحصيل هذا، سوف تثير فى النهاية أزمة نفسية مستعصية فى إدارة شؤون الحكم. أما إذا حاولوا أن يبسطوا سيطرتهم على الحكم من خلال إرضاء فئة حينا، وأخرى حينا آخر، فإن العاقبة ستكون وخيمة جداً. وستوضع على الرف أفكارهم ومبادئهم حول تقدم البلاد وازدهارها وستبقى الأوضاع تحت رحمة الأقدار وفى مهب الرياح. ولن يمضى وقت طويل حتى يدرك الجميع إفلاسهم الفكرى وفشلهم الذريع ولن يحالفهم الحظ بعد ذلك فى القمع والشدة التى طالما يتندر بها عبد الناصر. وأما النتيجة الحتمية لكل هذا فهى قيام حكومة مستبدة تتسكع أمامنا بكل بشاعة وقذارة».

ولكن ايخلبرغر لم يقدّر عبد الناصر حق قدره، ولم يدرك أن الأخير قد فهم خطورة «الشعبية الزائفة» وزيفها، فلم يَسْعَ لها إلا بعد أن رسخ دعائم سلطته ووطد أركانها. ولم يتخل عبد الناصر طوال سنين حكمه (وحتى عندما كان فى أوج شعبيته) عن شعوره بضرورة الاحتفاظ - على الأقل - بالقدرة على استعمال وسائل القمع عندما تقتضى الضرورة ذلك. وفى أواخر أيار (مايو) ١٩٦٧ اعترف عبد الناصر أمام أحد الدبلوماسيين الأجانب بقدرته

علـى حكـم البـلاد وإدارتهـا بنفس الطـريقـة التى يحكم بهـا «بـابـا دوفـإليه» جـزيـرة هـابتـى (فى الكاريبى) إذا ما اضطر لذلك، ولكنه يأمل أن لا يضطر إلى سلوك تلك المسالك.

أما ظهور الانحرفات ، وازدياد المساومات، فى نظام الإدارة بعد الانقلاب، فلم يكن نتيجة شكوك عبد الناصر بأهدافه وغاياته بقدر ما كان نتيجة تردده حيال إنجازها والوصول إليها. ولم يدرك مراقبو عبد الناصر يومها حقيقة أهدافه حيال شكل حكومته. فهو لم يفكر إطلاقا فى أن يطور حكومتـه إلى أخرى برلمانية، وإنما أراد تجاوزها عن طريق الادعاء بوجودها ومن ثَم ينتقل إلى صيغة بونابرتية يحكم فيها بتفويض من الشعب يحصل عليه عن طريق الاستفتاء أو ما شابه ذلك. وفى بلد كمصر، فإن تحصيل هدف كهذا يستلزم وضع مخطط معقد، ولكنه على جانب كبير من الخبث والدهاء»، حتى ليبدو للناظر الساذج مضطربا، وغير واضح إلا أنه يكون فى حقيقة الأمر فى منتهى الجلاء والتركيز فى مخيلة عبد الناصر وتفكيره.

وفيما يخصنا نحن الأمريكيين، فكل ما نطمح إليه لا يتعدى العثور على لاعب ملاكم ماهر، يشـاركنا الجلوس إلى طاولة «لعبـة الأمم» ويؤدى دوره بكل انسـجـام وهدوء. فـعلى صـعـيـد السياسة الداخلية، لم نكن لنتدخل فى قرارات عبد الناصر وتصرفاته إطلاقاً، ولم تكن تعنينا شيئاً طالما أنها لا تضع مخططات سياسته الخارجية موضعاً يتعارض مع سياستنا الخارجية، ويعرض مصالحنا للخطر. وليس لنا أن نوجه أى انتقاد لعبد الناصر بخصوص طريقة توطيده لدعائم سلطته الداخلية، واتباعه أساليب بونابرتية. فقد كانت وجهة نظره حيال أصدقائه الأمريكيين ترتكز دائما على قوله المشهور: «إذا كنتم تعافون وسائلى للوصول إلى أهدافى فلا تتلكؤوا فى اقتراح وسائل أفضل .. إننى - على الأقل - سأصغى إلى ما ستقولون..». ولم نفكر أبداً بامتحان إخلاصه هذا سوى لأنه لم يخطر ببالنا طرقاً أفضل، ووسائل أنجح، ليسلكها بدل وسائله، ويستخدمها لتحصيل ما يخططه لنفسه.

-٩-

الطراز الناصرى للحكم ووَسائِل القمع

.. وكان بقاؤه على مسرح الأحداث معنا أول أهدافه، مهما كان الثمن

كم طرح على ذلك السؤال عبر السننين والأيام، ولم يتغير جوابى عليه أو يتبدل: «لنفترض جدلا، أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما، وأوصدت دونه جميع الأبواب إلا اثنين: إما بقاؤه فى السلطة ودمار البلاد، أو خروجه منها ونجاة البلاد، فأيهما يختار؟» ولم يكن جوابى دائما سوى: «ليس لنا خيار فى الجواب. ففى تحليلنا لواقع أى زعيم من فئة عبد الناصر، يعشق السلطة حبا فى التسلط، يتبين لنا أنه سيفعل كل ما فى سعه للبقاء فيها ولو أدى ذلك إلى انهيار البلاد اقتصاديا، أو دخولها حربا خاسرة متقطعة مع عدوتها (إسرائيل)، وإذا كان الحاكم بونابرتى الطراز فإن مبررات استئثاره بالسلطة ستبقى قوية على أمد الدهر، ولن يتزحزح قيد أنملة عن اعتقاده بأن أسوأ الكوارث والنكبات لن تفلح فى طى صفحة ذلك التفويض الذى منحه إياه الشعب فى يوم من الايام. ولن يجرأ إنسان على تجريده من السلطة والإطاحة به. وهذا ما حصل تماما أثناء الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٦٧: فلقد كانت أسوأ كارثة عرفتها مصر فى تاريخها الطويل، كما كانت أعظم فرصة لأعداء عبدالناصر لينقضوا فيها عليه ويطيحوا به. ولكنها مرت، وانقضت، وخرج منها عبد الناصر أقوى مما كان عليه فى أى يوم مضى.

ولربورت ميشلز كتاب طريف حول «ظاهرة عقدة السلطة عند الزعماء» أو ما يسمى بالبونابرتية. وفيه يسرد بعض خصائصها مثل «الاستمالات النفسية» التى يمر بها بعض القادة مثل عبد الناصر. فنتيجة لتمتعهم بسلطات واسعة، يتملكهم شعور جامح بازدياد أهميتهم وقيمة أشخاصهم، وحاجة الجماهير الملحة لقيادتهم. وهذا يورثهم نوعا من الشعور بالتفوق والعظمة، والحقيقة أن كل من يتربع على عرش السلطة. يشعر بإلحاح مستمر لتجميع أقصى

ما يمكنه منها فى قبضة يده، ولبسط نفوذه على أوسع رقعة من الأرض، ولمضاعفة الأسوار التى تحميه، والنجاة بنفسه بعيدا ما استطاع عن رقابة الجماهير.

ولقد كان احتكاكى بعبد الناصر على مر السنين أكثر من أى إنسان غربى آخر. ومع أننى لا أزال أملك حرية زيارته، والتحدث إليه، حتى الآن فى ظروف مريحة ينطلق فيها على سجيته مرة كل شهر أو شهرين، إلا أن الظروف لم تعد لتسمح بتكرار تلك الزيارات العابرة التى اعتدت أن أفاجئه بها حيث كُنا نتناول معا طعام الغداء. ومع أننى كنت أزوره أحيانا لانجز مهمة لرفيق، أو تكليفا ـ رغم أنفى ـ من طبيب نفسانى أو عادى أو مسؤول فى وكالة المخابرات الأمريكية لأتحرى لهم أية بوادر انهيار فى صحته أو انحراف فى تفكيره، فإن الطابع العام لزياراتى له كان طابع صداقة وألفة. ولم أكن فى يوم من الأيام هاويا لإدراك ما وراء الوجوه التى اعتادت أن تخفى ما يجول فى خاطر أصحابها وتظهر بغير حقيقتها. وإن كان فى نفس أى إنسان حاجة ليعرف رأيى عن نفسية عبد الناصر وحالته الراهنة، فلن أتردد فى القول أنه ـ بغض النظر عن سياسته معنا ـ لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية، ولم يفقد شيئا من قوتها ومرونتها. أما بخصوص سياسته معنا، فرأيى صريح: أن ما يحل ـ عاجلا أم آجلا ـ بالزعماء من طراز عبد الناصر لابد وأن يحل بعبد الناصر نفسه، فمهما كانت قوة تحمله الشخصية لضغط التملق والمداهنة، أو الولاء الأعمى والخوف منه، فإن الأسوار الفاصلة بينه وبين العالم الخارجى عدت أكتم من المعتاد، فلا ينفذ منها فى هذه الأيام إلا ما يشهد عصمته وخلوده، ويؤكد ضرورة بقائه حاميا لأمجاد الثورة والتحرر. وحتى لو كان ناصر من أكثر الناس عبقرية، وأقواهم شخصية، وأشدهم متانة، وأحدُّهم ذهنا، فمن المستحيل عليه أن يبقى محتفظا بنفس مركزه السابق بينما يمثل أدواره فى مسرحيتنا «لعبة الأمم»، أو ان يبقى دون أن تكتنفه الأشواك التى قلما تترك زعيما من نوعه بدون أن تتشابك حوله لتطويقه والقضاء عليه. وفى الوقت الذى يفترض خصومه أنه يقوم بمناقلات متزنه محسوبة على ضوء إدراكه لما يجرى على رقعة اللعب. إلا أن إدراكه هذا قد زاغ وضل حقيقة. أما كيف حصل ذلك فإنه سيبقى لغزا محيرا. إن عبد الناصر لن يتمكن على الأرجح بعد إليوم، من رؤية مفارق الطرق عند وصوله إليها: مجد شخصى ودمار للبلاد، أم تنحٍّ عن السلطة ونجاة البلاد.

وكأن أول ما يبدأ به لضمان الحكم واستتباب السلطة هو توفير «وسائل القمع» كما جاء فى تقرير ايخلبرغر. فلو كان تصور عبد الناصر للقيادة ليس أكثر من مجرد بقاء فى طليعة

الغوغاء أينما حلت وارتحلت، فإن الأمر ليس صعبا. وعندما تعتمد حلول القضية على تحركات وتنقلات مزخرفة أكثر مما تعتمد على دور القيادة الحقيقية. إلا أن عبد الناصر قد رأى أنه - ببركاتنا ورضانا - سيتمكن من البقاء فى القيادة طويلا وبدون صعوبة. وكل ما كان عليه أن يفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة أحد له. ولكن «لتكون زعيما صالحا» فإن الأمر أكثر مشقة وعسرا. إنه عليك هنا أن تدفع الجماهير إلى أن تتشرف وتطمح إلى ما يفيدها ويصلح أحوالها. وعلينا أن نتذكر، للمرة الثانية، نقطة مهمة فى مقامنا هذا وهى: أن الهدف الرئيسى من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا فى توفر زعيم فى بلد عربى رئيسى يتمتع بنفوذ قوى على شعبه وعلى بقية العرب وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الغوغاء - مثل عقد صلح مع إسرائيل، واستنادا إلى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر، فإن استتباب النظام ورضوخ الأمة أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الامر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والإرهاب.

ولم تكن هذه مواقف وقرارات مطلقة وقطعية لا تقبل الأخذ والرد على طريقة «الكولونيلات» إليونانيين (بعد عدة سنوات). فقد كان عبد الناصر يفكر بالقضية ويناقشها مع ضباطه وكبار سياسيى عصره، ثم لا يلبث أن ينقل اهتمامه هذا وقلقه إلى أصدقائه فى الغرب الذين كانوا سرعان ما يتجاوبون معه بخصوص إصراره على ضبط النظام واحترام القانون. وكان تفكيرنا يعزى إلى رأى عبر عنه الديبلوماسى الليبرالى جون دافيس بقوله: «ليست المشكلة مشكلة كون الحكومة ديكتاتورية أو برلمانية دستورية، ولكن المشكلة هى فى قدرة الحكومة مهما كان نوعها على توحيد المجتمع وجعله متماسكا متراصا بصورة تتمكن من الانتقال معه إلى مراحل متقدمة للرقى والازدهار». ولكن الجزء الآخر من تفكيرنا كان ضعيفا وركيكا. فلقد ظننا أن جميع رسائل القمع والبطش بما فيها الجيش والبوليس وأجهزة المخابرات ستكون بجانبنا، فى حين ستتجه القاعدة الشعبية لعبد الناصر وجهة يسارية لعدة أسباب. والتقرير الشهير بـ «مشاكل السلطة والحكومات الثورية» يشرح كيف حققنا بعض التوفيق بين وجهات النظر المختلفة.

واستنادا إلى هذا التقرير (أو بعبارة أخرى، استنادا إلى «الذوق العام») فقاعدة القمع التى تعتبر ركيزة الحكومات الثورية للبقاء، يجب ان تعتمد على المؤسسات التالية: التشريعات،

البوليس (قوى الأمن الداخلى)، أجهزة المخابرات الدقيقة، أجهزة الدعاية، القوة العسكرية أو الجيش. ومن الأهمية بمكان إعطاء لمحة عن تطورات هذه المؤسسات وكيفة تصميمها.

◆ **التشريعات:**

لا يختلف اثنان ليبراليان على ضرورة بقاء الأحكام العرفية لفترة ما بعد استلام الحكم نتيجة انقلاب عسكرى. كما أنه من الضرورى اتخاذ الخطوات اللازمة لاستئصال شأفة الفساد واقتلاع جذورها من جميع مؤسسات الدولة وإداراتها، لأن ذلك هو السبب الرئيسى لقيام مثل ذلك الانقلاب. ولهذا، فللنظام الجديد إذن الحق فى ممارسة السلطات التشريعية ليتمكن من كشف الخطر وتحديد مواطن الفساد. وبالتالى ليتمكن من فرض إجراءات رادعة وعقوبات زاجرة. وهذا ما فعله عبد الناصر بتشريعاته: فقد حدد مهمة البوليس وأجهزة المخابرات والمباحث وأعطاها حرية التصرف المطلقة والأخذ بزمام المبادأة فى الكشف عن كل مؤامرات الإطاحة بنظام الحكم والتحريض على أعمال العنف، والإباحة بأسرار الدولة، وكل ما يشتبه بإنه ميول لارتكاب مثل هذه الجرائم. وكانت هذه التشريعات تصدر على الأمة بشكل مراسيم وأوامر صادرة من مجلس قيادة الثورة وفى صياغة جيدة واسلوب محكم. ولقد وصفها المستشار القانونى للسفير كافرى بأنها من الدرجة الأولى. وفريدة من نوعها فى مثل هذه البقعة من العالم. وقد فاقت مثيلاتها فى فرنسا. ولكن الطريقة التى اتبعت فى تنفيذ التشريعات قد وضعت نظام عبد الناصر فى مهب رياح النقد والتشهير التى لا تزال صاخبة حتى يومنا هذا. ويوجهها بعض المصريين المنفيين فى سويسرا وأماكن أخرى. وقد كان الأفراد يعتقلون بدون أن توجه إليهم أية تهمة، وكانت الممتلكات تصادر، وخضعت المطبوعات كلها للمراقبة. وقد نفذ كل ذلك بطريقة منتظمة ولكن بدون أن تكون العلاقة بينها وبين التشريعات واضحة بينة. وقد أطلق سراح بعض المعتقلين، وسمح لهم بمزاولة نشاطهم السياسى السابق، بل وشجعوا على ذلك. ورفعت أوامر المصادرة عن بعض الأملاك، ورفعت المراقبة عن الصحف عندما لم يعد ثمة حاجة إليها. ولكن لم تمض أسابيع قليلة على موجه إطلاق الحريات هذه، حتى عاد الاضطهاد والكبت مرة ثانية، وعادت الاعتقالات بصورة أكثر، وكذلك مصادرة الممتلكات ومراقبة المطبوعات. واستمر عدم الاستقرار: مرة إطلاق للحريات ثم يتلو ذلك موجة

من القمع والشدة، حتى اضطر بعض أصدقاء عبد الناصر من المراقبين الغربيين للاعتقاد بأنه يمارس نشر الرعب والفزع فى أرجاء البلاد بصورة تهدد نظامه كما لم يكن شك هناك أنه قد ولد تاثيرا سيئا على العالم الخارجي. وبدأت غالبية السفارات الأجنبيه تردد شكوكها حيال احتمالية قيام ديكتاتورية عسكرية فاشتية فى مصر. ولم يكن قلق (وحرج) السفارة الأمريكية بسبب اشمئزازها من أعمال الاعتقال ومصادرة الممتلكات وتكميم الصحافة، بل بسبب الطريقة التى ترجمت بها الحكومة تلك الأعمال للشعب. وهكذا نشأت علاقة متردية بين الحكومة وشعبها. وقد تجلى الخلاف بين المفهوم الليبرالى للتشريعات ومفهوم عبد الناصر فى أن المفهوم الليبرالى يعتبرها وسائل سلبية ومجموعة أنظمة يبقى الإنسان خارج السجن إذا لم يَتَحَدَّها. فى حين كان عبد الناصر يعتبرها شيئا إيجابيا، بمعنى أنها المبررات لتصرفاته وقراراته. التى ستطيل عمر ولايته على الشعب. ضد بعض العناصر المعروفة فى المجتمع المصرى، تلك العناصر التى لا يمكن أن تبقى مسالمة له ومهادنة لنظامة. وأن يثنيها عن عزمها على الإطاحة به مهما كانت ميزات ناصر وحسناته وسيبقى عداؤها لنظامه قائما وإن تظاهرت بعكس ذلك. وكان يعلم هذه الحقيقة المؤلمة السفير كافرى. وبعض أعضاء سفارته، لما كان لهم من صلات مع بعض تلك العناصر. كما كان يعلم هذا تمام العلم عبدالناصر لم ينشر الذعر والخوف. ولقد قال مرة أحد ضباط الأمن الموالين له «إن أولئك الذين لهم العذر فى أن يخافوا قد عزلوا مدنيا».

◆ **البوليس . قوى الأمن الداخلى:**

لم يكن للبوليس أى دور فى الانقلاب، ولم يكن إلا لواحد أو اثنين من كبار ضباطه علاقة بسيطة مع زكريا محيى الدين رئيس جهاز المخابرات العسكرية. ولكن رجال زكريا قد تغلغلوا فى البوليس جيدا، وساعدوا فى القيام بحملة تطهير بعد الانقلاب مباشرة. وقد استلم عبدالناصر وزارة الداخلية واعتنى بالبوليس بشكل خاص بعد تسريح ثلاثين أو أربعين ضابطا، وحوالى مئة من رجال البوليس المشكوك فى ولائهم. وفى غضون أسابيع أصبح البوليس جهاز أمن قوى أحسن من أى وقت مضى ولم يعد مصدر خطر على النظام الجديد.

ولم يكن جهاز المباحث فى وزارة الداخلية يدار من قبل أحسن العقول فى البلاد وأنظفها،

بل كان (كغيره من أجهزة الأمن الأخرى) يعانى من عقلية ذاك الصنف من البشر الذى تقوده نزواته للالتحاق بأجهزة الأمن عامة. فقد أخبرنى مرة أحد ضباط عبدالناصر فى أجهزة الأمن قائلا «إننا نتصرف على أساس أن الشعب كله موال للنظام وذلك ليعلم الجميع أننا على استعداد لمعاملة من يشك؛ بولائه وإخلاصه بمنتهى القسوة».

وعندما يفلح إنسان ما، فى استنباط وسائل تقنع بعض الرجال من ذوى حساسيات ألطف ليصبحوا ضباطا فى الامن العام، فسوف تختفى كل الوسائل البشعة ولن يعد ليسمع بها عبدالناصر أو مستشاروه الامريكيون. واكثر ما كنا نأمله هو تحقيق القسوة فى إجراءات الأمن وزيادة المراقبة والمتابعة.

امـا المراقبـة (عـمل المبـاحث) فكانت تجـرى عن طريق نظام «عيـون المدينة» الذى ورثه عبدالناصر عن العهد البائد وقد مضى على وجوده فى مصر عدة قرون. لكنه نظام غير فضولى. فقد قام أحد رجال وكالة المخابرات المركزية - وسابقا أحد رجال مكتب المباحث الفيدرالى - وهو خبير فى شؤون المراقبة المباحثية، بالتجول من أقصى مدينة القاهرة إلى أقصاها، وأقسم أنه لم يكن تحت المراقبة ولا حتى لدقيقة واحدة. ولكن أحد ضباط الأمن طمأنه إلى أن جميع تحركاته ومكالماته الهاتفية وكل اتصالاته قد سجلت وضبطت . والسر فى هذا بسيط: فالبوابون، وسائقو التكسيات، وعمال التليفونات والشحاذون، والبائعون الجوالون، وغيرهم يعلمون أنهم سيمنحون بضعة قروش مقابل إعطائهم أية معلومات لرجال الأمن الذين يستفسرون منهم عن أجنبى عبر منذ لحظات، إن أشخاصا كهؤلاء يشغلون الأحياء المتفرعة حول احسن الفنادق وبعض الأماكن الأخرى حيث يتجمع الأجانب عادة، ولقد أحسن إليهم كثيرا فى الماضى، وأجزل لهم العطاء، حتى إن مواهبهم قد تحسنت، وقويت ملكة الملاحظة والمراقبة عندهم إلى جانب نمو ذاكرتهم وقدرتها الفائقة على تمييز التفاصيل التى عادة ما يهتم بها البوليس السرى.

◆ أجهزة المخابرات الدقيقة:

لم يشغل عبد الناصر منصب وزير الداخلية أكثر من أربعة أشهر. وقبل أن يتركها لخليفته زكريا محيى الدين. أذكى وأمهر ضباطه، والذى كان وقتئذ رئيس المخابرات العسكرية. نظم كلا من جهاز المخابرات والمباحث العامة ووضع كافة التفاصيل لهما، ثم أدخل عليها زكريا

بعض التحسينات ووضعها قيد العمل، وقد كان قسم المخابرات العامة يقبع فى قمة الهرم (وقد اسس على غرار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) والحق به بعض الضباط الأحرار الذين كانوا تحت إمرة زكريا أثناء فترة ما قبل الانقلاب. وكان عديد منهم من ذوى الكفاءات العالية والقدرة التنظيمية الفائقة، ولم تقل أهميتهم بعد الانقلاب عنها قبله، (ومنهم حسن بلبل وكيل وزير الخارجية للشؤون الإدارية، وفريد طولان محافظ بورسعيد، وحسن التهامى السفير فى النمسا سابقا، وسعد عفرة السفير فى بولندا، وغيرهم كثير). وباتباعهم الأساليب الأمريكية فى هندسة الادارة فقد بنوا الوكالة الجديدة على أنها الرأس والمهيمن المنسق، وبعدها المباحث العامة لوزارة الداخلية ثم مخابرات الجيش على أن يكون كل واحد متممًا للآخر وساعده الأيمن. وأخيرا انشأوا (النظام الخاص) للمخابرات والتحريات المتصل مباشرة بالمخابرات العامة العليا. وكان بعض هذه الدوائر يختص بالمسائل الخارجية مثل تدريب رجال حرب العصابات، والتجسس على إسرائيل، وخطف العملاء المزدوجين، الذين يعملون مع إسرائيل، مخدرين فى صناديق، من روما إلى القاهرة وغير ذلك. ولكن أغلب تلك الدوائر كانت تهتم بمعالجة شؤون الامن الداخلية. وإلى جانب أجهزة «عيون المدينة» ذات الفعالية الجيدة، قد أضافوا إلى ذلك أدوات وطاقات علمية للمراقبة. كما أنهم اشتروا سلسلة كاملة من الأجهزة الإليكترونية صنعتها المنظمات الأمريكية للتجسس ومكافحة التجسس. واستعانوا بعدد من ضباط المخابرات الألمان النازيين (وزاد عددهم فيما بعد) ليدربوهم على استعمالها. ولكنهم غرقوا فى طوفان من المعلومات والأخبار، وأضحى تصنيف ذلك والاستفادة منه بطيئا جدا، وان لم يكن بدون فائدة، وعندما أدركوا ان مراجعة ومراقبة الأشرطة المسجلة يحتاج إلى وقت يساوى تماما الوقت الذى استغرقه تسجيل المحادثات عليها مع كل التفاصيل المملة، كان قد تكدس عندهم أكوام كبيرة من الأشرطة ـ دون مراجعة ـ فى أقبية المخابرات العامة ومباحث وزارة الداخلية، ومضى وقت طويل حتى تعلموا كيف يهتمون بالخطير ويتركون الغث الضعيف، وفى عام ١٩٦٠ أصبح لديهم من الوسائل ما يمكنهم من تركيب الميكروفونات الدقيقة فى أى من الفنادق أو موائد الضباط، فى البيوت الخاصة أو السيارات الخاصة، فى القاهرة والإسكندرية كما اتقنوا التنصت على المحادثات فى الشارع عن بعد، والتصوير عن مسافات بعيدة وفى الليل. ولكن بناء على إلحاح وزارة السياحة ولعقبات كثيرة من الناحية العملية (مثل الوقت الطويل لمراقبة الأشرطة وقدرة المترجمين) فقد اقتصر استعمال هذه الفنون على الحالات الخاصة والهامة وإلى حد يكفى للكشف عن مصادر الخطر على العهد الجديد.

◆ **وسائل الدعاية:**

كان موضوع الدعاية مجال خلاف كبير بين الأمريكيين - وخاصة السفير كافرى وايخلبوغر- وبين عبدالناصر. فعبد الناصر نفسه لم يكن ذا ماض عسكرى عريق حتى يشكل عنصر دعاية. ولم يكن حتى ليدرك العقبات التى تعترض اتصاله بالشعب مباشرة. ولكنه بنفس الوقت أدرك حدود نشره دعايته فى أوساط شعبه، كما أدرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ حين، وما يجبر عليه أن يتصف به من حذر وخبث تجاه الرأى العام الخارجى. فايخلبرغر (الذى كان يوما ما المسؤول عن تنفيذ التقارير فى أضخم مؤسسة للدعاية والعلاقات العامة فى العالم والتى يملكها «ج» والتر طموسن») قد توصل إلى أن الإنسان يجب أن يتقرب إلى غيره أو إلى الجماهير عن طريق مصالحهم هم وليس عن طريق مصلحته الشخصية. ولقد اعترف عبدالناصر يومها بأنه جاهل بأصول التقرب إلى الجماهير المصرية. ولكنه كان مقتنعا بأن ذلك يجب أن لا يتم عن طريق مصالحه الخاصة. وكان يشك فى ان يكون عامل التقدم الحضارى ذا نتيجة جيدة فى تقرب الثورة من الجماهير.

وكوسيلة للقمع فى الفترة التى كان فيها عبد الناصر يجمع قوى الانقلاب، كان التفكير منصبا على خط ثانوى، وهو مسألة مراقبة المطبوعات وسرعان ما ثارت المشاكل؛ بسبب انعدام خبرة المراقب العسكرى التابع لعبدالناصر- وهذا ما كان متوقعا. فقد أثار ذلك حفيظة المراسلين الأجانب لإيقاف رسائلهم وحذف كل ما يثير الشك؛ من عباراتها. وكان ذلك فى غاية الازعاج للأمريكيين الاصدلقاء الذين حرصوا على أن يكسب العهد الجديد الصحافة إلى جانبه. وكان هذا مثبطا لعزائم المراسلين المصريين الموالين لنا وذوى القدرة الكبيرة على صياغة وسبك التقارير. فقد كانت مساعدتهم لنظام الحكم ضرورية لإبراز صورة الثورة جذابة ومشوقه للرأى المحلى، وللعالم العربى، بل وللعالم كله. وكان هذا عملا صعبا وعلى جانب كبير من الدهاء والخبث.

ولقد عولجت المسألة على الطريقة التى اعتاد أن يسلكها أى نظام من طراز نظام عبدالناصر فقد جرى تصنيف المراسلين الصحفيين فى قائمتين: الأولى، تحوى الموثوق بهم والذين سيرسلون تقارير لصالح الثورة. والثانية، تحوى الصنف المعاكس للأولى. وبناء على ذلك فقد أعطيت اللائحة الأولى مطلق الحرية وحرمت الثانية من أى منها. وانتبهت الحكومة إلى مشكلة المراسلين الأجانب الذين لم يتخذوا بعد مواقف صريحة من الثورة، فعمدت إلى

الاحتفاء بهم، ومن ثم زودتهم بمعلومات لها تأثير لا بأس به عليهم ولصالح الثورة. وهكذا انقلبت قضية مراقبة النشر والصحافة إلى مسألة روتينية امتدت حتى الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٦٧، باستثناء بعض الشطط العارض بسبب عدم كفاءة المشرفين عليها. وهكذا فلم تكن مراقبة المطبوعات جزءا من وسائل القمع عند عبدالناصر سوى مدة وجيزة وذلك لاتباعها بعدئذ القاعدة الروتينية المبينة أعلاه.

أما الدعاية الموجهة من قبل الحكم، فقد كانت مُنْصَبَّةً وبكثرة على أعداء النظام لكشفهم، وتسليط الأضواء على مساوئهم، ولتبرير الإجراءات التعسفية التى كانت تتخذ ضدهم. ومن أبرز الأمثلة على ذلك اقدم الأخوان على ومصطفى أمين (اللذان كانا يملكان أضخم دار للنشر فى القاهرة، أخبار إليوم) على نشر إعلان وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يخبرون عن قصص الفساد فى الحكم البائد أو فى حياة البلاد السياسية. ولقد أتاحت هذه القصص للأخوين أمين وحسنين هيكل وغيرهم إغراق صحفهم بمثل هذه القصص الدراماتيكية، مظهرين شرور النظام البائد مع ذيوله، والحاجة إلى إجراءات قاسية لاستئصاله وطمس آثاره نهائيا.

وبارك الأمريكيون هذه الخطوات إلى الحد الذى دعا السفير كافرى إلى إعارة النظام المصرى أعظم الاختصاصيين فى الدعاية السوداء والرمادية وهو «باول لينبارغر» الذى كان مسؤولا عن الدعاية فى مكتب الخدمات السرية الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان يذيع ما كان يظهر أنه المانى ولصالح الألمان ولكنه فى الحقيقة كان مثبطا لعزائم الألمان ومحطما لهممهم . وقام لينبارغر بتعليم المختصين بالدعاية من المصريين كيف يقومون بتحطيم الشخصيات المحبوبة (ومنها اللواء نجيب على سبيل المثال) بطريقة مدحهم والثناء عليهم. ولا يزال هذا الأسلوب متبعا حتى إليوم من قبل الغربيين فى سياسة العالم العربى.

◆ الجيش:

إننا فى غنى عن القول أن الجيش المصرى كان حصن عبد الناصر الحصين وقاعدة قمعه المنيعة. وقد تمكن عبد الناصر من ذلك عن طريق تأكده من عدم وجود أى شخص ذى طموح سياسى أو اتجاهات ثورية فى مركز حساس (أو فى أى مركز على الإطلاق). أما ضباط

عبدالناصر ذوو الطموح السياسى المعروف فقد أخرجوا من الجيش وأسندت إليهم مناصب مدنية، إما شكلية أو مهمة. ولكنهم فى كلنا الحالتين إما أن يكونوا أهلا للمنصب الجديد أو أن يتحطموا ويظهر عجزهم عن الإدارة. أما الضباط الذين مازالوا ينوون القيام بانقلاب جديد، أو اؤلئك الذين أظهروا امتعاضهم لإقصائهم عن مراكز القيادة فى الثورة، أو أولئك الذين ما زالوا يدينون بالولاء للنظام القديم، فقد أعطوا الفرصة تلو الفرصة كى يتآمروا، وبالتإلى ليحكموا على أنفسهم بالإجرام أو أنهم كانوا يستدرجون إلى ذلك عن طريق بعض المحرضين المدسوسين ليعتقلوا بعد ذلك من قبل البوليس السرى.

وبقى هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم. ويمكن ان يخضعوا للنظام ويضمن ولاءُهم عن طريق إرضاء رغباتهم، كمنحهم بعض الامتيازات لرفع مراكزهم وبعث الفخر فى نفسوهم، إلى جانب بعض العلاوات والتسهيلات التى لا تضر وطالما أنهم غير ثائرين ضد علاقة عبدالناصر بأصحاب الفكر وإليساريين وأشخاص آخرين غير مرغوب بهم (أو بالأحرى طالما انه لا يترك لهم الوقت الكافى ليفكروا بمثل هذه المسائل) فلا مانع من اعتبارهم قوة موإلية يعتمد عليها اذا ما دعت الحاجة لذلك. أما بحث موضوع المساعدات العسكرية الغربية والسيوفييتية فسيكون فى فصل لاحق. وتجدر الإشارة هنا إلى وجهة النظر الأمريكية بخصوص استخدام عبد الناصر للجيش كقوة للقمع فهى تقول: عندما طلب عبد الناصر فى الأيام الأولى من حكمه مساعدات عسكرية، لم يكن هناك أى بحث فى أن تكون هذه المساعدات لاهداف قتإلية عادية مثل قتال الإسرائيليين أو إليمنيين أو غيرهم كما لم يكن هناك أى بحث فى أن تكون كميات السلاح ضخمة أو فوق المتطلبات الداخلية المحضة. فلقد أكد عبد الناصر بوضوح لجميع السفراء الأمريكيين أن نظامه يعتمد على الجيش لضمان بقائه. وأنه يعتبر أى جيش رث الثياب مهلهل المظهر جيشا تفوح منه رائحة العداء والتوثب. وقد طالب عبد الناصر فى أيامه الأولى بأربعين مليونا من الدولارات كمساعدة عسكرية وما لبث أن اختصرها إلى عشرين مليون دولار، ثم مسخت إلى مليون أو مليونين من الدولارات لتغطى شراء أجهزة وأدوات للاستعراضات العسكرية كالخوذ وقرابات المسدسات الجلدية وقطع براقة من مختلف الأنواع تكفى لإظهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه فى شوارع القاهرة وبحيث تعكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخر. وكما سأشرح فيما بعد فإن تلكؤ وزارة الخارجية فى الموافقة على منح مثل هذه المعونات المحدودة هو الذى دفع

بعبد الناصر للاتجاه نحو السوفييت والحصول منهم على مساعدات ضخمة تفوق الأربعين مليون دولار (التى طلبها فى البداية) مرات عديدة.

ولعلنى أجد نفسى مضطرا للخروج عن موضوع هذا الكتاب وأذكر بعض الملاحظات حول دورنا فى إدخال المستشارين الألمان إلى الجيش المصرى، حتى تكتمل صورة مساعدتنا فى استكمال وسائل القمع عند عبد الناصر.

فقد كات الإشاعات الضخمة التى نشرها الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية حول قوة المخابرات الألمانية وعلمها بكل شىء، من قبيل خدمة أهدافهم ولكى يتظاهروا أنه ما من مواطن يختلى بصديق له ليتبادلا أطراف الحديث فى أى مقهى حتى تكون المخابرات الألمانية قد التقطت حديثه وأبرقت ملخصه إلى مركزها فى برلين.

ولقد شكّت المخابرات البريطانية والأمريكية وقتئذ (وتأكد هذا فيما بعد) بأن يكون للمخابرات الألمانية وجود حيوى كشبكة واسعة الانتشار. ولكنها كانت موجودة على مستوى بعض العمليات معتمدة على بعض كبار الموظفين الغربيين المدسوسين والذين كانوا يستخدمونها لتزويد برلين بالمعلومات المضللة الزائفة. وكنتيجة لدراسات عميقة ومتبعة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد ثبت لدينا بالتأكيد أن العملية الوحيدة التى قام بها الالمان للتجسس فى الغرب هى العملية الشهيرة باسم «سيسيرو» الذى سرق الأسرار من الصندوق الحديدى للسفير البريطانى فى تركيا. ولكنها لم تكن ذات أهمية لمقر الأركان فى برلين، لكثرة الأخبار المتضاربة التى غطت على هذا التقرير الصحيح، والتى كان يرسلها لهم عملاؤهم الذين كانوا تحت نفوذ الأمريكيين والبريطانيين.

وكان ازدراؤنا للمخابرات الألمانية يشاطرنا إياه عدد غير قليل من ضباطها أنفسهم وقد قام العديد منهم بعقد صفقات مع عملاء مخابرات الحلفاء عندما شعروا بانتهاء الحرب وكان بعضهم قد فعل هذا قبل انتهاء الحرب بكثير.

كما أن عددا آخر من الذين لم يفكروا بالتعامل مع الحلفاء أبدا قد وطدوا أواصر الصداقة مع بعض الحلفاء وبالتإلى فقد حصلوا على عناية خاصة قبل فوات الأوان. ولكن مع وجود أشخاص مرموقين فى الولايات المتحدة وبريطانيا (ولا نذكر فرنسا أو بلجيكا) أو هولنده أو حتى ألمانيا نفسها متعطشين للدم النازى، فإنه لم يكن هناك ضابط أمريكى أو بريطانى

واحد يتمتع بعقل «موزون» يتوقع منه أن يدافع عن أى من النازيين السابقين على أساس أنه كان ضابط مخابرات أو - على الأقل - أنه مفيد كعنصر فى المخابرات فى حرب مقبلة مع الاتحاد السوفييتى. وعندما قام السوفييت باحتجاز أحسن الأدمغة الألمانية (وكان بعضها من النازيين المتزمتين الذين أقسم الروس على الانتقام منهم) ولم يفرطوا بأى منهم، لم يعد أمامنا. نحن الأميريكيين - إلا ادخار كل ما كان متوافر لدينا من الالمان الذين لم تعرف عنهم ميول نازية. وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد عملاء المخابرات الأمريكية فى الفرع ج -٢ قائلا «ثق تماما أن بعضنا لا يزال يضع مصالح أمريكا فى المستقبل فوق لذة الانتقام». ولو قال هذا علنا فإنه كان سيطرد من الخدمة حتما.

وعلى أية حال، فإن وزارة الدفاع (ولربما بالاشتراك مع وزارة الخارجية) كان متوفرا لديها (ما بين ١٩٤١- ١٩٤٧) بعض الألمان الذين لم يكونوا من مجرمى الحرب. ولحسن حظنا فقد تمكنوا بأقل ما يمكن من الإحراج والانزعاج ان يختفوا فى دول مختلفة، وتمكنوا من مزاولة أى عمل لكسب معيشتهم بدون أن يظهروا علانية، ولقد بذلنا جهودا كثيرة نقلت أضابيرهم محاولين الكشف عن بعض المواهب للاستفادة منها فى الولايات المتحدة أو فى غيرها من بلدان العالم (كما استفدنا من وارنر فون براون عالم الصواريخ الشهير فى هونستفيل فى الاباما). وقد أثمرت بعض هذه الجهود فى الوقت الذى طلب فيه عبد الناصر مساعدات خارجية لجهاز مخابراته ودوائر أمنه. وكات حكومتنا تجد حرجا فى مساعدته مباشرة. ولأسباب تتعلق بسياسته، فقد ألح ناصر على طلب خبير عسكرى يتقن إدخال النظام الروسى إلى جيشه الحديث، واقترح الملحق العسكرى الأمريكى اسم الجنرال «ويلهام فارمباشر» الذى كان يجد صعوبة فى العودة إلى ألمانيا لميوله النازية السابقة. كما أن فقدانه لاية مواهب خاصة تتناسب ورتبته العالية لم تجعل منه شخصية مرغوبة فى أى مكان آخر. إلا أن جرأته التى ذاع صيتها فى الحرب العالمية الثانية قد جعلته مؤهلا للاضطلاع بمسؤوليات كتلك التى كانت فى مصر يومها - على حد رأى بعض ضباط المخابرات الأمريكية. (وهذا ما حدث فعلا. فقد كانت أولى مناورات الجيش المصرى تحت إمرته. ولكن لم تحظ القوات «الخضراء» بالقوات «الحمراء» طيلة المناورة فى الصحراء، لان «فارمباشر» كان قد أعطى كل فئة خرائط الآخر بالخطأ . وكات التعليمات والاوامر معقدة لدرجة ان القوات لم تتمكن من ملاحظة الخطأ). وعلى كل حال فقد كان ذا رتبة عالية جدا مما نال إعجاب عبدالناصر وزادنا حظوة

عنده. وبعدها كانت قصة «اوتو سكورزنى» الذى اشتهر بخطفه لموسولينى من معتقله الحصين. وكان اوتو من المفضلين عند الهيئة الأمريكية للعمل ضد المخابرات الأعداء وقد أقام صداقات قويه مع الذين أسروه قبل. وكان من المعتقد أنه يصلح للسير مع عبدالناصر من ناحية طباعه وشخصيته. وجرى الاتصال معه روتينيا، ثم على مستوى أعلى، وذلك عن طريق زيارة مصر ليقف بنفسه على مدى ما يمكنه تقديمه فى زيارة قصيرة. ومهما كانت النتائج فقد قيل (وهذا غير صحيح) إن سكورزنى مكث فى مصر عدة أشهر كمساعد لعبدالناصر للشؤون العسكرية ولشؤون الجغرافيا السياسية، إلا أن طول المدة التى مكثها سكورزنى فى القاهرة قد أثارت موجه اتهامات ضد نظام عبدالناصر وأظهرته على أنه يدار خلسة من قبل نازيين متعصبين. ولم يكن باستطاعة سكورزنى مغادرة مصر بسرعة تخفف من حدة الهجوم على ناصر. إلا أنه أخيرا عاد إلى مزرعته التى اشتراها فى أيرلندا ومن ثم التحق ثانية بمقر عمله فى شركة هندسية فى أسبانيا كانت تدر عليه ربحا وافرا.

وقد فكر سكورزنى بشىء من الإخلاص بإرسال حوالى مائة من الألمان إلى مصر كانوا سبب الضجة المعادية لناصر يومها. وحقيقة هؤلاء أنهم: (١) كانوا - باستثناء واحد أو اثنين - من ذوى المناصب المتواضعة ، (٢) ولم يكونوا من النازيين المتزمتين بدليل سرعة تنأقلمهم مع التفكير إليسارى لحكومة ناصر وقد اضطرتهم لهذا حاجتهم لكسب عيشهم وليس غير ذلك، (٣) لم يحاول المصريون الاعتماد عليهم رئيسيا بل اكتفوا بسماع بعض نصائحهم كما كانوا يعاملونهم بشىء من عدم المبالاة وخصوصا عندما يضطر أحد الألمان الانتظار لساعات لمقابلة أحد المسؤولين المصريين للإدلاء ببعض النصائح أمامه، (٤) لم يدفع المصريون أية مرتبات مغرية للألمان على عكس ما كانوا يدفعونه للخبراء من الجنسيات الأخرى كالبريطانيين والأمريكيين. فالجنرال فارمباشر (كمثال) لم يكن يتقاضى أكثر من خمسين جنيها مصريا فى الشهر إلى جانب بيت قريب للسكن. فى حين كان يتقاضى بعض المستشارين الأمريكان أكثر من ٥٠٠جنيه شهريا إلى جانب مسكن فخم وسيارة مع سائقها. وقد بذل سكورزنى قصارى جهوده لخدمة عبد الناصر تحت تلك الظروف. ولا يزال على علاقة وطيدة به إلى يومنا هذا.. كما أن له علاقات حسنة مع أصدقائه الأمريكيين الذين كانوا وراء استدعائه إلى مصر. هذا وتجدر الإشارة إلى أن سكورزنى قد برئت ساحته من أية تهمة بارتكاب جرائم حرب.

والحق يقال إن عبد الناصر وزكريا، بالرغم من كل المستشارين الأجانب قد بنيا أجهزة المخابرات والأمن بدون أية مساعدة خارجية تذكر. وعلى حد زعم أجهزة المخابرات الغربية - عن طريق تسللها إلى هذه الأجهزة - ان هذه الأجهزة - تتمتع بكفاءة عالية وافية بالغرض.

وأخيرا: فبالقوانين والمراسيم، وبالبوليس وأجهزة المخابرات، وبالدعاية والجيش، شكل عبدالناصر قاعدة للقمع تمكنه حقا من حكم مصر بنفس الطريقة التى حكم بها بابا دوفاليه جزيرة هايتى - دون أن يستعمل كل تلك الوسائل دفعة واحدة. وقد أعطته مركزا قويا يستطيع أن يصدر منه أية قرارات إيجابية بدون أن يخاف ويخشى أية انتفاضات شعبية. ولقد قيل الكثير عن اتباع عبد الناصر للإساليب البوليسية فى الحكم والإدارة مثل منح ممارسة حرية الرأى والتعبير، ولكن الحقيقة أن عبد الناصر لم يفعل أكثر من التخلص من بعض الصحف التافهة التى اعتادت أن تستقى أخبارها من الاذاعة البريطانية والإسرائيلية. ولذلك لم تشعر طبقات الشعب المتوسطة أنها قد سلبت أية حرية من حرياتها بتصرفاته تلك. أما المصريون أعداء عبد الناصر فهم أعداؤه سواء منحهم أية من هذه الحريات أم لا، وعلى هذا فإنه سيخسر بعقد أية صفقات صلح أو مساومة معهم، ولن يربحهم إطلاقا.

وكان أمرا محرجا وكريها للمراقبين الغربيين أن يروا حجز الممتلكات واعتقال الناس لمجرد الشبهة، مع تكميم الصحافة ومعاملة المراسلين الأجانب برعونة وفظاظة. ولم تكن هذه الأعمال محببة إلى نفوس أصدقاء عبد الناصر الذين كانوا فى السلك الديبلوماسى، وكان لهم علاقات اجتماعية متشعبة مع طبقة المصريين المروضة (البورجوازية) والتى عانت الكثير.. ومن جهة أخرى فإن إجراءات عبد الناصر فى الشدة والقمع - بغض النظر عن مظهرها أمام العالم الخارجى - كانت تخطط بهدوء ولم تكن لتتخذ اعتباطا. وهذا يعنى أن عناصر محدودة هى التى عانت من ذلك وليست عامة الشعب. وقد كان عبد الناصر يبرر أعماله القمعية بحجة (الدفاع) عن النفس تماما كما يفعل إليهود بمنعهم الهيئات غير إليهودية من العمل فى بلادهم. وكان يعتقد بضرورة إخضاع الفرد إلى الدولة فى جميع مظاهر الحياة وان كان لابد من الاعتراف بالحقيقة أن هذه السيطرة ستمارس بنفس التخلف الذى تدار به شؤون الدولة الأخرى. كما أنه من طبيعة الأشياء أن يكون البوليس فى بلد شرقى أكثر غباء من أمثاله فى الدول الغربية.

ومن جهة أخرى فلا مانع من القول بأن المصريين قد حصلوا على نتائج أفضل فيما يختص بقضايا الأمن، وبتباه وعجرفة أقل من السائدة فى بقية دول الشرق الأوسط. ومع مرور الأعوام فقد حافظ عبد الناصر على وسائله فى القمع بشتى الطرق، مع أن الناظر العديم الخبرة لن يراها من وقت لآخر إلا ألغازا محيرة. وذلك أن عبد الناصر كان يدفع إلى المسرح عملاء جددا ذوى أهداف وغايات تظهر بأنها للقمع. ولكنها كانت انتهازية ميكيافيلية مثل «بوليس ضد الإقطاع» ومحققى الاتحاد الاشتراكى العربى وغيرهم من الذين كان يحركهم ضد بعضهم البعض ليحصل على فوضى منظمة ومحسوبة، فى الوقت الذى يريده ويحتاجه فى سياسة العنف والشدة.

إن أهم ما يجب أن يفهمه المراقب الديبلوماسى من أسرار تصرفات وسائل القمع عند عبدالناصر هى:

أولاً: بالرغم من بعض المظاهر الآنية المعاكسة (مثل أخبار الاحتكاك بين عبدالناصر والجيش) فإن وسائل القمع كانت دائما على أهبة الاستعداد، ولها المقام الأول فى اهتمام عبد الناصر واعتنائه. كما أن كثيرا من تحركات عبدالناصر على المسرح العالمى، من التى اعتبرها المراقبون الأجانب مخالفة للمزاج المصرى. تفسر على أنها إحدى حاجات عبدالناصر للاحتفاظ بوسائل القمع فى داخل بلاده.

ثانيًا: وبالرغم من أن كثيرا من الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر قد هاجموه ونعتوه بأنه ديكتاتورى فاشيستى (وكان معظمهم من المسؤولين فى الحكومة الأمريكية والبريطانية) إلا أنهم كانوا على علم تام بكل خطواته عندما كان يبنى وسائل القمع وأجهزته متجاهلين عمدا كل تصرفاته فى هذا المجال.

❖❖❖

وفى كتابه «مصر الجديدة وعبد الناصر»، يشرح «كيت ويل لوك» وجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجهة نظر المراقبين المطلعين فى الخارج فى الثورة المصرية. وفيها يشير إلى ذاك «التردد» الذى كان يتصف به عبد الناصر، كما يشير إلى «تذبذب» مجلس قيادة الثورة الظاهر بين النظام البرلمانى والدكتاتورية العسكرية. ويتأسف ويل لوك على تلك المبادئ التى هجرتها حكومة الثورة فى مصر بعدما رفعتها عاليا وانتهى أخيرا إلى أن أى مؤرخ يحاول أن يدون

تاريخ تلك الفترة المضطربة فى مصر سيكون معذورا إن كال لعبد الناصر وجماعته القذف والاتهام.

إلا أن الحقيقة لم تكن كذلك (وسنرى هذا لاحقا). فلقد كان عبد الناصر أبعد ما يكون عن التردد والتقلب طوال تلك الفترة.

وإن تذبذبه الظاهر بين الحكومة البرلمانية والدكتاتورية العسكرية كان موضح دراسة عميقة وعناية فائقة من قبل الرسميين الأمريكيين وغيرهم من بعض الشخصيات المدنية الشهيرة بميولها الليبرالية. ولكنهم كانوا كلهم ينظرون إلى الأوضاع فى مصر نظرة واقعية وقد أدركوا أنه لا طريق آخر ما عبد الناصر ليسلكه غير هذا الطريق. وأن أية محاولة مبكرة (وقبل أوانها) للعودة إلى تلك المبادئ التى نادى بها الضباط الأحرار سابقا سوف تنتهى إلى فوضى واضطراب كاملين. واذا كنا لم نشارك؛ ناصر فعلا فى انقلابه وفى توطيد سلطته وفى بناء وسائل القمع فى بلاده. فذلك يعود إلى رفض ناصر لمساعدتنا له فيما عدا بعض النصائح التى كانت تهم الطرفين معا، كما أننا لم نبد أية شكوى من سلوك ناصر مسلك الديكتاتورية، لأننا كنا نعتقد أنه سيشرع فى أول فرصة مناسبة فى إيجاد الظروف الملائمة التى اتفق عليها مع روزفلت كمتطلبات ضرورية لإعادة الحياة الديمقراطية الحقة وهى: محو الأمية، وتقوية وتوسيع نفوذ الطبقة الوسطى، وانتشار الشعور عند الشعب أن الحكومة منه وإليه، ورسوخ الأفكار والقيم الوطنية حتى يصبح من السهل قيام مؤسسات ديمقراطية وطنية وليس مجرد تقليد أعمى لما هو فى الولايات المتحدة أو بريطانيا.

وبغض النظر عن كيفية نمو وسيطرة وسائل القمع، فعلينا أن نقر فى تعاملنا مع ناصر أن وجودها مهم بالنسبة لبقائه. ويجب أن لا تعترينا الدهشة عندما نرى أن عبد الناصر وضباطه جلسوا بعد أشنع هزيمة فى التاريخ العسكرى الحديث (حرب ١٩٦٧) لا ليتباحثوا فى طريقة إعادة بناء مصر من جديد بل ينسقوا خططهم حيال طريقة إعادة الثقة إلى الجيش. وستبقى هذه الفكرة ذات المنزلة الأولى فى التفكير المصرى ولسنوات طويلة مقبلة.

-١٠-

الطراز الناصرى للحكم ووَسائِل البناء

.. وهدفه الثانى توطيد سلطته بالبناء والإصلاح

فى اوائل عام ١٩٥٦ قضيت مع الرئيس عبد الناصر والسفير المتجول اريك جونستون أمسية طويلة فى حديقة قصر الأول نتباحث حول ما يستطيع عبد الناصر تقديمه من مساعدة لعرض مشروع نهر الأردن على زعماء الدول العربية الأخرى. وكان مشروع جونستون يهدف إلى إغراء العرب للدخول فى تعاون محدود مع الإسرائيليين على الأقل. ولم يكن المشروع أكثر من فكره من الدرجة الثالثة، ارتفعت إلى الدرجة الثانية لمجرد اختيار مفاوض من الدرجة الأولى لها، هو اريك جونستون. وأما فرصة نجاح المشروع فهى وجود شىء من المنطق فيه. ففى حالة تنفيذه سيستفيد السوريون واللبنانيون والإسرائيليون والأردنيون من إصلاح ٣٠٠ ألف فدان من الأراضى الصحراوية مع توفير القوة الكهربائية للصناعات اللازمة لتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الذين سيتعرضون للفاقة والمجاعة لسنين طويلة قادمة إن بقوا دون موارد ثابتة. وقد تأثر عبد الناصر كثيرا بحجج جونستون العملية، غير أن العقبات السياسية كانت أكبر من أن يتحداها بنفسه ويتخطاها.

ومع ذلك فقد بقى الموضوع شيقا ومغريا لاستمرار المناقشة، فقد قضينا النصف الأول من الأمسية نتلمس الطرق المؤدية إلى إنشاء هيئة نهر الأردن على نفس منوال «هيئة سهل تينيس»، التى يمكن لها أن تحل محل خطط مشاريع التنمية الإقليمية التى تزمع الجامعة العربية وغيرها إخراجها إلى حيز الوجود. (وفى هذه المرحلة من حكمه، كان عبد الناصر يشك فى جميع مشاريع التنمية الإقليمية. وبالسوق العربية المشتركة، وبالآراء الأخرى التى تدور حول التعاون الاقتصادى العربى، وإن كان لا يمانع من تمضية الوقت ببحثها). وأمضينا القسم الأخير من الأمسية نستعرض المضاعفات السياسية المنفرة من المشروع. فقد أبدى

عبد الناصر عطفه الشديد عليه عموما، ولكنه قال لجونستون. «لقد جئتنى فى وقت لا أملك فيه القدرة على الإقدام على أى عمل لا يحظى بموافقة الجماهير الشعبية». واندفع بعدها فى محاضرة كانت تفيض «بتوابل» الفلسفة الليبرالية، مثل «المرونة السياسية» و«إطارات التسامح» بصورة جعلته يعتقد أنه كلما زادت شعبيته فإنه يصبح أكثر حرية فى تفكيره فيما يعود بالفائدة على مصر. أما أثناء شعوره بضعف مركزه وشعبيته فإن عليه أن يسلك طرقا يتوقع مناصروه ان يسبقهم إليها، بغض النظر عن نتائج ذلك على مصر نفسها.

وكان جونستون يصغى بصبر متزايد ما لبث أن نفد، فقال لناصر إنه قد أمضى الأسبوع الفائت وهو يصغى إلى عديد من المقترحات البديلة التى اقترحها الزعماء السوريون واللبنانيون، ولكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع زعيم العالم العربى بلا منازع يتحدث عما يمكنه، ومالا يمكنه فعله بنظر الغوغاء (الديماغوجيين). ووقف جونستون مهما بالانصراف. وصافح عبد الناصر واتجه نحو الباب. ولكنه ما لبث ان التفت بطريقة دراماتيكية (مليئة بالحركة والانفعال) وقال: «سيدى الرئيس لقد تذكرت الآن كلمات مأثورة لزعيم الثورة الفرنسية «الغوغاء فى الشارع، وعلى ان اعرف إلى أين وجهتها وذلك لأننى أنا زعيمها». وهنا ارتسمت ابتسامة الابتهاج على شفتى عبد الناصر وقال: «تماما، هذا صحيح بالضبط».

كان قبول عبد الناصر للملاحظة البليغة التى أبداها جونستون على غاية من الطرافه (وما كان له أن يترك رجل الاعمال الأمريكى يفلت منه بهذه السهولة)، ولكنه فى قبوله إياها أراد أن يعيد إلى ذاكرة جونستون أن أى زعيم، فى أى مكان وخصوصا فى بلد كمصر، ليس لديه إلمام بوجهة الغوغاء وأهدافها، لا يكتب له البقاء كزعيم لمدة طويلة. وفى اجتماع لاحق بجونستون قال إن المهمة الأولى الملقاة على عاتق الزعيم هى أن يدرك أنه هو الزعيم وليس غيره، ولا يمكنك أن تصبح «زعيما صالحا» إلا بعد أن تجتاز المرحلة الأولى، أى أن تصبح «زعيما عاديا». ومضى عبد الناصر يثبت أنه كزعيم قد أدرك (أكثر من غيره) أن الغوغاء إذا ما أطلقت غرائزها، وأفلتت من عقالها فسوف تدمر نفسها بنفسها، ولكن لا يعنى هذا أن باستطاعتى أن أتجاوز ما تريده منى وتفرضه على.

ويومها لم يتوفر زعيم فى التاريخ الحديث يعرف تمام المعرفة ماذا تريد الغوغاء وإلى أين وجهتها أكثر من عبد الناصر نفسه. وبعبارة أخرى، لم يكن هناك من أدرك . أكثر من عبد الناصر نفسه . الحقيقة المحزنة بأن الغوغاء لا تدرى أنها ضائعة، ولا تعرف إلى أين هى

ذاهبة، ولا حتى على ضوء مصالحها الذاتية. فالغوغاء لا تريد مصالحها الحقيقية التى أن تحققت أعطتها كفاية وراحة، وليس مجرد تهدئة آنية للآلام. وكانت مهمة عبد الناصر التلاعب بإرواء الرغبات ذات المدى القصير (أو المستعجلة) وذلك لكسب الوقت بينما يسعى لإعداد الوسائل اللازمة لإروراء الرغبات المؤجله (البعيدة).

ومن حظ عبد الناصر أن مفاهيمه هذه لم يكن من السهل إدراكها. فعندما كان يخطط للثورة كانت لديه فكرة عما يجب على الشعب المصرى أن يطالب به (وذلك ما كان هو نفسه يطالب به) ولكنه بعد ثورته تأكد عنده أن مطالب الشعب المصرى الحقيقية أبعد من أن يحيط بها فهمه، أو فهم أى زعيم مصرى آخر. وبعبارة أخرى، فقد كانت مشكلته أنه لم يجد الغوغاء المصرية تنتظره فى الشارع، وكان عليه أن يخرجها إلى الشارع حتى يدرك إلى أين وجهتها. فلدى الشعب المصرى دوافع كامنة للتعصب (كما قال باول ليتبارغر) وكانت كافية لتبرير حرق سفارة اجنبية بين الفينة والأخرى، ولكنها ليست بالقدر الكافى لدفع عجلة النشاط الثورى إلى الأمام. وكان على عبد الناصر أن يخلق ظروفا ما يمكنها ان توقظ الدوافع فى الشعب بنفس الطريقة التى يتمكن الماء البارد، أو الساخن، من التأثير على الاميبا (وحيد الخلية). وهذا يعنى أن عدم الرضاء أو عدم النفور (وجود ظروف مناسبة أحيانا وغير مناسبة أحيانا أخرى) هى التى توجد عند الشعب حوافز جديدة للتحرك والتهيج وبالتإلى يمكنها التجاوب مع زعامة حركة عبد الناصر.

ولم يبخل الخبراء على عبد الناصر بنصائحهم فى هذا السبيل. وبشىء من تطفل مستشار أمريكى (لا أملك حرية الكشف عن اسمه) قام صلاح سالم، وزير الإرشاد القومى، بحملة واسعة لدراسة الرأى العام لتزويد عبد الناصر بأهم المقترحات التى يمكنه بها أن يوقظ الشعب. وقد قامت سيدتان أمريكيتان بأول الخطوات فى هذه الدراسة وهما من مكتب الأبحاث الاجتماعية التطبيقية فى جامعة كولومبيا. كما قام الباحثون بإشراف صلاح سالم بالبحث والتدقيق فى جميع أنحاء البلاد، واتصلوا بالفلاحين والعمال والطلاب والحرفيين وغيرهم. وكان الباحثون فى البداية ثلاثة مصريين وبريطانيا واحدا والمانيا، واتبعوا طريقة السؤال المباشر (أسلوب كالوب بول فى تصور المسؤول أنها رغبة السائل)، فوجدوا أن أفراد الشعب كانوا يجيبونهم بما يودون سماعه، فللمصرى: «نحن نكره الإنجليز والاستعمار وإسرائيل» وللبريطانى: «نحب البريطانيين وقد ساءنا أنهم تركوا بلادنا»، وللألمانى: «أننا

نأسف لأن ألمانيا خسرت الحرب». وبعدها قاموا باستخدام طريقة أخرى تقوم على فهم آراء الناس عن طريق تحريك عواطفهم وإثارتهم. فسيتكلم المسؤول عرضا عن أفضل الأفلام له، وأحب الألوان إليه، ورأيه فى المواضيع الاجتماعية غير الأساسية.. وبهذه الطريقة توصلوا إلى نتائج أفضل حول حقيقة مشاعرهم تجاه البريطانيين والعرب وغيرهم.

وقد اشتركت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى هذه الأبحاث. وكان رئيس فرعها فى مصر فى ذلك الحين يتمتع بتغطية عرقيه (عندما يكون المظهر الشخصى واللغة والعادات وجواز السفر بشكل يساعد رجل المخابرات على الاندماج مع الجو المحيط به دون تمييز). وهذه عكس التغطية الثقافية والحضارية (وفيها يستقبل رجل المخابرات على أساس مشاعره السياسية وعواطفه الاجتماعية). ولقد أنشأ شبكة من المخبرين لهم من الوسائل المؤثرة والفعالة ما لرجال «عيون المدينة» المستخدمين فى جهاز الأمن المصرى، وقد ركز نشاطه حول موضوع «مدى استعداد الشعب المصرى لقبول الشيوعية السوفييتية» محاولين التعرف على آراء كل فئة من الشعب مصنفة حسب مهنة الفرد مثل الفلاحين، العمال، الحرفيين، المثقفين.. وهى الجهات التى يحاول الشيوعيون خداعها والتأثيرعليها. وكثيرا ما وضع رئيس فرع الوكالة المركزية نفسه مكان الشيوعيين كى يتعرف على الوسائل التى يحتمل ان يقوموا باتباعها. ومع أنه محظور عليهم من قبل قيادة وكالة المخابرات المركزية أن يتوسطوا بأى تجسس مكشوف مثل التغلغل فى الحكومة المصرية. والحصول على أسرار الحكومة الرسمية، أو إغراء مواطن مصرى بصراحة لخدمة سلطة أجنبية. فإن جهازه الذى نشط تحت ستار ما، قد يتمكن من الاستمتاع إلى أحادث صريحة (فى كل المناطق) وإدراك آراء ما، لا يمكن الحصول عليها بطريقة مخبرى صلاح سالم، أو حتى التقاطها بطريقة الاستفسار أو التحرى بواسطة رجال «عيون المدن».

وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٥٤ قام باول لينبارغر، خبير البنتاغون الفريد بفن الدعاية السوداء، بزيارة للقاهرة، وكان صلاح سالم قد استبدل بالعقيد عبد القادر حاتم الذى بقى فى منصب وزير الإرشاد القومى (وأصبح بعدها نائب رئيس الوزارة لشؤون الثقافة والإرشاد القومى) لمدة عشر سنوات أخرى. وقام لينبارغر بتدوين نتائج دراساته. وقدمت فى شكل تقارير للعقيد حاتم، إلى جانب ما أُنجز من أبحاث على عهد صلاح سالم، وقام عبد الناصر بتوسيعها بعد تدوين ملاحظات ذكية جدا عليها نتيجة خبرته فى السنة السالفة. وبعدها

جمعت كلها فى دراسة موحدة احتفظ بها عبد الناصر نفسه فى درج مكتبه وأقفل عليها. وكما سنرى فإن عبد الناصر قد أدرك أن المراكز المختلفة التى عليه شغلها فى مسرحيات «لعبة الأمم» تتطلب أن يكون لدى العالم فكرة عن الدوافع والأهداف المصرية غير الحقيقية. (إن عقدة التوفيق بين الرأى المصرى الخاص والرأى المصرى الرسمى الذى يحرص ناصر على عرضه للعالم جعل ثانيهما مقبولا عند أولهما لا تزال قائمة إلى يومنا هذا. فى فصل لاحق، فإن إحدى المحاولات الصريحة لإظهار الرأى الخاص والتى جرت فى عام ١٩٦٨ انتهت إلى النتيجة ان الشعب المصرى لا يملك سوى حماس ضعيف (إن لم يكن معدوما) لاسترجاع هيبة العرب الضائعة فى فلسطين. كما أنه لم يكن متحمسا أبدا لتحسين مكانة حزب ناصر السياسى الوحيد فى البلاد. وقد عرفت هذا عن طريق جمع الأحاديث المتداولة فى المجالس والسهرات الخاصة التى أظهرت أيضا رغبة الشعب فى أن يرى ذاك الحزب ممزقا إربا إربا. وقد اضطر ناصر للادعاء ان الجماهير تطالب بصخب وإلحاح استمرار الحرب ضد إسرائيل، وذلك حتى يتمكن من رص صفوف الاتحاد الاشتراكى العربى ثانية، وليضيق الفرصة أمام الانهزاميين وأمام أولئك الذين فتتهم دعاية العدو، وليبقى محافظا على بعض الأهداف التى ما زال فى نفس الشعب المصرى بعض العطف عليها.

وآراء ناصر فى موضوع التوفيق بين فن القيادة وبين طريقة طرح الأهداف غير الحقيقية أمام العالم ذات أهمية خاصة. ونضطر هنا لمناقشة بعض جوانب التاريخ حديثة العهد بنا (وإن كانت بعيدة الصلة عن موضوع كتابنا هذا) وذلك بسبب سوء تصوير المؤرخين للعلاقات بين ناصر واللواء محمد نجيب، والذى لم يكن لهم الخيار فى تصويرها بغير ذاك المظهر الذى يتناظر مع ما سمعوا به وقرؤوا عنه. وحتى البروفسور «ليرنر» فى كتابه الدقيق «ذهاب المجتمع التقليدى» يقارن بين نمط نجيب ونمط عبد الناصر كطريقة لشرح إمكانية التقبل عند الشعب المصرى لوسائل الإعلام العامة كطريقة للتغيير الاجتماعى. وكانت جميع النقاط التى بيئنها صحيحة وجديرة بالملاحظة.

والحقيقة فإن نجيبًا لم يكن ذا طراز مستقل عن ذلك الطراز من الرجال الذين يظهرون فى دعايات التليفزيون. وقد قابلت امرأة إنجليزية نجيبًا مرة وأخبرت السفير كافرى بعد ذلك بأنه «شيطان بصورة مبهجة، وبشع المظهر ولكن بقدسية، ويغطى ذلك بابتسامة حارة، إنه مظهر الأب المثالى للمصريين»، وقد شعرت بنفس الانطباع خلال اللقاءين الطويلين مع نجيب.

فكان نجيب يحاول أن يضفى على نفسه صبغة المهدى، أو صاحب الكرامات، وينشر هذا فى ربوع الشرق الأوسط. وخاصة أن المصريين سيبتهجون بخيالات وتصورات من هذا القبيل، وهى صورة المحتال الودود. وكان نجيب من نوع المعبودين الذين يلتجئ إليهم المصريون فى لحظاتهم الهادئة التى تتخلل فورات العنف التى يدفعهم إليها المتزمتون من قادتهم. ولكن نمط كلامه وتفكيره لم يكن من ذلك النمط الذى وصفه به البروفسور ليرنر.

وأما كتاب اللواء نجيب، فقد كتب بقلم أحد الأمريكيين الأذكياء مستر ليه وايت، الذى كان أيضا مصمم الأقوال البليغة التى اشتهرت عن اللواء نجيب. فقد طلب ليه وايت اجازة لمدة سنة يسافر خلالها خارج البلاد لأسباب شخصية (ولم يكن بوسعه أن يعطى عذرا أوضح لتغطية مركز انطلاقه فى العمل) ووصل ـ ولربما فجأة ـ إلى مصر فى وقت كان نجيب فيه قد أصبح شخصية بارزه فى الصحافة العالمية. وقد استطاع ان يؤمن سلفة مالية من صاحب دار النشر التى يتعامل معها وحصل على موافقة نجيب للمشروع (وكذلك موافقة عبد الناصر الضرورية ولكن بعد جهد) ومكث فى القاهرة سنة من الزمن يقتفى أثر نجيب فى أوقات طعامه ويطيل الجلوس فى غرفة الانتظار، ولم ينس أن يشاركه حتى فى العديد من اجتماعاته كما أغراه بمناقشات وأحاديث طويلة.

كان ليه وايت من أشهر من برع فى سرد القصص وروايتها. وقد أبهج السفير كافرى بالقصص التى تدور حول نجيب، كما أعطتنا تلك القصص صورة رائعة لعمدة قرية ماكر، لكنه محبوب، ولديه من الوقت ما يكفى لمقابلة كل إنسان يواجه متاعب ومشاكل فى حياته: مثل زوجة تشتكى من زوجها المدمسن على الخمر، ورجل دين رأى رؤيا وعليه أن يجمع مالا لبناء مسجد فى الحال، وإقطاعى يشتكى من مستأجرى أراضيه.. ولكن عندما تكلم الكتاب عن فلسفة نجيب فقد كان يتكلم عن «ليه وايت» بدون أدنى التباس، وكأنه ليبرالى أصيب بخيبة أمل ولم يجد مصرفا لطاقاته منذ انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية. وكان وايت ومدير فرع وكالة المخابرات الأمريكية الإقليمى (والذى كان كما ذكرنا آنفا تحت تغطية عرقية) يكرهون بعضهم البعض (مع أننى أشك فى أن يكون «ليه» قد عرف أن ذلك الرجل عميلاً لوكالة المخابرات المركزية». وبدت الاحاديث والمسامرات التى جرت بين «ليه» ونجيب (والتى كان يغلب عليها الطابع الدموقراطى) لأول وهلة على انها ردود «ليه» فى الدفاع عن نفسه امام مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الذى كان مؤيدا لناصر من رأسه حتى أخمص قدميه. وقد حاولت

مرة أن أجرّ نجيبًا إلى إحدى مقطوعات حكمه البالغة وسرعان ما ظهرت لى الحقيقة أنه ليس لديه حتى فكرة بسيطة عما كنت اتكلم عنه.

ولقد أتحيت لى الفرصة لكى أسمع من كبار الضباط ومن ضباط الصف الثانى الروايات الحقيقية حول إدخال نجيب ضمن مجموعة ضباط الانقلاب. وكان هناك ثلاث نقاط تبدو مشتركة بين هذه الروايات كلها:

١- عندما كان عبد الناصر وأعوانه بصدد تنظيم شبكة الضباط الاحرار، شعروا بحاجتهم إلى قائد برتبة عالية: «إنسان كلكم تعرفونه وتولونه احترامكم، ولكم الشرف والسرور أن تنضووا تحت لوائه حال سماعكم باسمه. وقد امتنعوا عن الإفصاح عن اسم معين، إلا أن الحقيقة لم يكن لديهم أى اسم محدد يومها.

٢- لم يكن نجيب هو الاحتمالية الوحيدة، بل كان واحدا من جملة أشخاص للانتقاء منهم. وحتى اللحظة الأخيرة عندما أملح عامر بإقناع عبد الناصر بان نجيبًا هو الاختيار المنطقى، لم يكن نجيب لتلك اللحظة على رأس القائمة.

٣- مع أن لنجيب ماضيا ناصعا فى الشجاعة، وله شعبية واسعة عند الضباط، فقد كانت ميزته الرئيسية فقدانه للطموح أو رغبته فى السلطة. وقد اعتقد الضباط الأحرار أن بإمكانهم التعامل معه وتسييره.

وفى الحقيقة فقد استطاعوا ذلك فقد قام خالد محيى الدين العضو الشيوعى فى بطانة عبد الناصر مع أصدقائه. بالتلاعب بسلسلة من الأحداث أدت إلى اختيار نجيب لسدة الرئاسة، ظنا منهم أنهم أقدر على سياسته والسيطرة عليه من عبد الناصر نفسه، وأنه بالإمكان أن يحل محل عبد الناصر فيما إذا شق الأخير عصا الطاعة عليهم. وكان عبدالناصر بالتأكيد مدركا لهذه الغايات. وعلى أية حال، فإن لم يكن كذلك فناصر يدعى الآن أنه كان يعرف ذلك. ولكنه لم يكن يخشى أيا من خالد واصدقائه، بل تركهم يعتقدون أن عليهم قائدا من اختيارهم. ومهما كان فبعد نجاح الثورة واعتلاء نجيب سدة القيادة لم يكن أنصار نجيب. الذين يستطيع عبد الناصر أن يسوسهم. هم الذين أخذوا يوحون له أنه هبة التاريخ لمصر، ولكن كان ذلك الإيحاء من «ليه وايت». ومع أن أحد الضباط كان يكتب لنجيب خطاباته فإن «ليه وايت» كان يقوم بتجميلها وتزيينها (بعد ان تكون قد ترجمت له إلى الإنجليزية) مدعيا

بأنه يجعل منها أكثر ملاءمة للأجيال القادمة كلها، أو بعبارة أخرى، حتى تصبح مادة مناسبة لكتابة ترجمة حياة نجيب التى كان «ليه وايت» بصددها.

وأما مفاهيم عبد الناصر حول مركز القيادة فى الثورة - سواء قيادته أو قيادة أى فرد آخر أو أى رئيس صورى وضعه عبد الناصر نفسه أو غيره فى مركز صورى لقيادة الثورة - فإنها مفاهيم مهمة وشيقة. وليس ذلك لإظهارها ناصر على أنه شخصية تاريخية لكفاءاته ومواهبه، ولكن لأنها حازت أيضا قبول وإعجاب المستشارين الأمريكيين ممن كانوا حول ناصر يومها.

وكان ذلك دليلا على نوعية مفاهيم وتصورات رجال ديبلوماسية ما وراء الكواليس الأمريكيين حول دور القيادة فى المجتمعات غير الغربية.

ومع أن كرميت روزفلت والمستشارين الذين أرسلهم إلى مصر (مثل ستيفن ميد وجيمس ايخلبرغر وبارول لينبارغر، وغيرهم) لم يتمكنوا من سياسة عبد الناصر أكثر مما يفعله الروس به إليوم، إلا أن مفاهيمهم حول موضوع القيادة وانطباقها على مفاهيم عبد الناصر نفسه بهذا الخصوص قد جعلت فلسفة ناصر فى فن القيادة موضع عطفنا وتقديرنا، مع أن كثيرا من النقاد الغربيين قد أخفقوا فى إدراكها وفهم مغزاها. ولا يهمنا ما كان بقدرة عبدالناصر إنجازه سواء رضى الغرب عليه أو سخط، ولكن يهمنا إثبات الحقيقة أن كل ما أنجزه عبد الناصر قد حظى - وعلى الاقل وقتئذ - بتأييد الغربيين الذين كانوا حريصين كل الحرص على مصالح بلادهم دون أن يتبنوا مبادئ تتعارض ومبادئ العالم الغربى.

كان عبد الناصر يعتقد فى البداية أنه لا يمكن حمل فرد واحد، أو أمة كاملة، على فعل شيء معين باتباع أسلوب الترغيب والترهيب وإنما بخلق ظروف معينة تحمل الموجود فى خضمها على أن يطالب بفعل ما يراد منه أن يفعله. فرغبات الجماهير ومتطلباتها هى التى تحفزها على التحرك وليست رغبات قائدها أو طلباته. فالقيادة بمعنى آخر هى مهنة «خلق الدوافع والحوافز». فعليك ، أولا، أن تحرك الشعب وتهيجه بخلق حافز عنده لشيء ما، وبعدها توجهه لهذا الهدف بأن تريه طريقة الحصول عليه والوصول له. وإن كنت لا تستطيع هذا (وهذا ما يحدث عادة فى البلدان الناشئة التى تتلهف للوصول إلى الازدهار والرقى) فحاول أن تريه ما تظنه، ويبدو لك، أنه الطريق الصحيح. فإن هذا يجعلك تبقى فى سدة القيادة حتى يكتشف الشعب خطأ ذلك ويقرر غيره ، أو حتى يبرز إنسان آخر بحلول أفضل وآراء أصوب.

وعندما دقق عبد الناصر قبل الانقلاب فى أوضاع بلاده وحالتها، اكتشف أن الشعب فاقد الحوافز والرغبات ولا يود التحرك فى أى من الاتجاهات. ولهذا رأى عبد الناصر أن عليه أن يحيط الشعب بظروف وأجواء تساعد على تحريك الحوافز فى نفسه وتوليد الرغبات عند أفراده. وما القائد إلا جزء لا يتجزأ من هذا المحيط. وليس من الضرورى أن يكون عبدالناصر هو القائد بنفسه طالما باستطاعته ان يخلق تلك الأجواء ويبقيها تحت سيطرته. وبعد استلام عبد الناصر علنا لمقاليد الأمور بدلا من بقائه يوجهها من وراء الكواليس أصبحت هذه الفكرة مدعاه للشك؛ والتحقيق. فأما الذين يعرفون عبد الناصر عن قرب فيصدقونها، ويعتقدون أن السبب الذى أدى إلى تغيير الأحوال ليس تلهف عبد الناصر للسلطة بقدر ما هو تزايد نهم نجيب لها وشراهته إليها. فقد كان عبد الناصر يريد قائدا شكليا للثورة فقط. وكان بإمكان نجيب البقاء هكذا إلى أبد الآبدين طالما بقى اقتناع عبد الناصر بهذا الموضوع قائما. فعبدالناصر من والطراز الذى يهتم بخلق الظروف وإيجاد الأجواء المناسبة بدلا من اهتمامه بتفرده بالسلطة على النمط الهتلرى وإننى. والذين، يعرفون ناصر. أشك أن تكون رغبته فى أن يصبح معبود المعجبين به كانت رغبة دفينة فى نفسه متأصلة فيهامنذ قيامه بالانقلاب وليست مجرد حدث طارئ تملكه يومئذ.

لقد اختير نجيب لملء منصب القيادة بسبب ميزات معينة أدرك عبد الناصر معها صلاحية نجيب للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة لتطوير البلاد. فقد كان الشعب المصرى تحت ظل حكم الملك فاروق ساخطا ومستاء. بدون تطرف. وبدأ ينفس عن كربه بالتذمر والدمدمة، وكانت تلك الفترة أكثر الأوقات ألما فى التاريخ المصرى، حتى الحالى منه. فالإطارات الاجتماعية للشعب لم تتفسخ بعد، والمواطن الصرى العادى كان لا يزال يشعر بأنه جزء من عائلة وعشيرة ومجتمع. ولكن الفرد فى أفقر العائلات بقى قانعا بحرمانه لأنه لم يكن وحيدا فى آلامه وعذابه. ولأنه اعتاد على الفاقة والحرمان حتى أضحى ذلك عادة فى حياته وطبيعته لا مجال للتشكى منها. ولم يكن يشعر بتأثير الثقافة الغربية واهتمامها بحرية الفرد واستغلاله إلا بعض الضباط والمفكرين وبعض من نبذهم المجتمع وتشردوا. وقد كان عند هؤلاء فقط استقلال شخصى واطلاع وتصورات كافيه لتوليد الشعور بالنقمة وبالاضطهاد. وكان عبد الناصر مقتنعا بضرورة تفتيت المجتمع الإقطاعى الموروث، وإعادة تنظيم هيكل السلطة وأنظمة الحكومة كلها. (وكان هذا شبيها بما فعلت القوى المستوطنة (أو المستعمرة) فى بلاد

عديدة فى أفريقيا وآسيا ولم يتحقق ذلك إلا جزئيا فى مصر). وبعد ذلك عليه أن يستعد لمواجهة نتائج الاستيقاظ السريع عند الأمة. ثم بتصرف مدروس وباتزان وهدوء سيثير شعور السخط والاستياء عند الشعب ويثير نقمته ضد التقاليد المتفسخة، وبعدها ينشر بنية التلهف للتطور والازدهار. ولن يفعل هذا حتى يكون فى مركز يمكنه من تحقيق هذا التشوق والإلحاح. ففى «الحالة الأولى» - ويكون على رأسها نجيب - اعتقد عبد الناصر أن بإمكانه ازاحة العناصر التى يخلد وجودها بقاء المجتمع القديم مثل الأحزاب السياسية السابقة والإقطاعيين المقيمين بعيدا عن أراضيهم والشركات الأجنبية المتحكمة بالتجارة. بينما يدع التركيب الاجتماعى سليما حتى يشعر بالثقة والطمأنينة الكافية فيبدأ عندها بغمزة فى جنباته ليرى ردود فعله. وعلاوة على صفاته السلبية (مثل رغبته بالبقاء زعيما شكليا) فقد وقع عليه الاختيار لمظهره كالأب العطوف بالشكل القديم وبدن دوافع ثورية.

لقد تخيل عبد الناصر أن «الحوافز للبناء والازدهار» هى المرحلة الثالثة فى مراحل توعيته للشعب والنهوض به. وكان يعلم أنه ربما كان هناك بعض الوقت قبل الوصول إليها. ولم يكن ليسلم بتفسير تشاؤمى للفرص التى أمامه حتى أخبره أحد أفراد فرق الاستشارة الأمريكية التابعين له (آرثر ليتل كومبانى فى بوسطن) بما يلى: «حتى لو حصلت على مليار من الدولارات التى تحتاج إليها فى خطتك؛ الخمسية، وحتى لو بذل كل فرد فى المجتمع المصرى قصارى جهده وغاية طاقته مستخدما كل الخبرة والمعرفة الأجنبية، فإن أفضل ما تستطيعه حينئذ هو المحافظة على الوضع الراهن والحيلولة دون تقهقر أكثر إلى الوراء، وعبارة أخرى، فإن على عبدالناصر أن يمارس أقصى مهارته لحث شعبه وتحميسه، وعلى الشعب ان يستجيب له كليا وبفعالية مائة بالمائة حتى يتمكن فقط من المحافظة على الحالة كما كانت سابقا دون أى انهيار، ومع كل هذا المجهود فلن تتوفر لقمة واحدة من الخبز كزيادة لأى فلاح، كما أنه لن تزداد وسائل الراحة للفرد العادى فى المجتمع. ولن يكون هناك تعليم أفضل أو أى تحسن فى أى شىء على الاطلاق. وذلك لأن الزيادة القصوى فى الإنتاج القومى تعادل زيادة عدد السكان سنويا. ولم يكن ثمة أحد على الإطلاق - دون استثناء عبد الناصر نفسه أو آرثر ليتل كومبانى أو أى إنسان ينظر نظرة واقعية إلى المجتمع المصرى - ليعتقد أن تحديد النسل سيكون موضع ترحيب إلى الحد الذى يظهر اختلافا واضحا، وتعديلا جذريا، للوضع المتدهور.

ولم يكن عبد الناصر ليقبل هذه النظرة المتشائمة للحالة فى مصر، حتى إنه قال مرة لاريك جوستون: «يجب أن يكون هناك طريقة أخرى للعيش على هذه البسيطة تتمكن بها الدول المماثلة لمصر من إحراز بعض التقدم الذى لن يحوز على إعجابكم أنتم الغربيون، أو على إعجاب أفراد شعبنا الذين يشاهدون الأفلام السينمائية الغربية، ولكننا نعتبره نحن (من وجهة نظرنا) تقدما حقيقيا». وعلى أى حال، فقد أدرك ناصر أن شعبه يشاهد الأفلام السينمائية الغربية، وأنه حال تحرره من ربقة الحنين إلى المجتمع الذى اعتاد عليه وألفه، فإن شهية أفراده وتلهفهم ستتخطى الطريقة الجديدة التى يحاول عبد الناصر ابتداعها للعيش على وجه هذه البسيطة، والتى لا يزال يلزمه وقت طويل لاستنباطها والتعرف عليها. وهكذا فقد ادراك عبد الناصر أن عليه التوصل إلى حل وسط (أو مرحلة متوسطة) وهو ما نسميه «بالحالة الثانية». وهى حالة تطوير البلاد بالحث وبالترغيب، والتى يمكنه فيها أن يخفف من شدة التباين بين الرغبات وبين فرص تحقيقها باللجوء إلى أشياء أخرى بديلة.

«والحالة الثانية» هذه هى أكثر مراحل حكم ناصر أهمية لنا وذلك لأنها تساعد فى فهم سلوك الحكام من النموذج الناصرى Nasser Type Leader الذين تزدحم بهم طاولة «لعبة الأمم»، وتغلب نوعيتهم على حكام الدول غير الغربية الذين يواجهون باستمرار أزمة الاختيار عند مفارق الطرق. وتتضمن هذه المرحلة المقومات التالية: (١) رفض القيم الغربية وكذلك النظرة الغربية لمستقبل العالم، (٢) نكران الذات فى سبيل القضية، (٣) الثورة على النظام القائم والإطاحة به دون إعطاء أى فكرة عن النظام الجديد البديل، (٤) تفضيل الموت على الانصياع لقواعد أساسي[وذات مغزى تتطلبها اعتبارات «الحالة الثالثة» كالازدهار ومضاعفة الدخل القومى... ولكى ندرك أبعاد الرعب الذى تنطوى عليه هذه القواعد فمن الضرورى أن نتصور الأوضاع العالمية فى سنة ٢٠٠٠م (كما تصورتها مؤسسة هدسون فى كتاب جديد أصدرته حديثا) التى ستبدو لسكان الشرق الأوسط بصورة توجب عليهم بالضرورة البقاء فى «الحالة الثانية».

إن المصرى (أو الباكستانى أو الأفغانى أو اليمنى) الذى أثيرت فيه كوامن يرى أن عام ٢٠٠٠ سينطوى على نقص فادح فى الغذاء والمواد الأولية، وزيادة كثيفة فى السكان تتنافس لأجل الحصول على تلك الحاجات الحيوية، وعلى القوة التى ستقرر من سيفوز بما ينتجه العلماء بتزايد من اكتشافات لأساليب ذات مردود أفضل وبمادة أقل. وللفرد المصرى فى أوائل

عصر نهضته. فإن ظاهرتين اجتماعيتين لمجتمع «أساطير العلم» تلوحان فى الأفق وهما تتوعدان وتتهددان ، أولاهما: الهيمنة المستمرة «للصفوة المختارة» فى الغرب التى تمارس شبه سيطرة احتكارية كاملة على المعرفة العلمية، وثانيهما: ازدياد سطوة «الصفوة» الغربية الظالمة على كل فرد آخر من الغالبية العظمى لبنى الإنسان، حتى تتمكن من تأمين توزيع عادل للفضاء والغذاء ولكثير من الحاجات الضرورية الأخرى بغية الإبقاء - على الأقل - على أقل حد أدنى من الحياة. ولعبد الناصر عقل حاد وبصيرة نفاذة حيال الإمكانيات العلمية. فهو - اكثر من أى إنسان غير غربى - يعترف بحتمية الوصول إلى مثل تلك الظروف والأحوال (الآنفة الذكر) وان الغرب هو الوحيد الذى يملك امكانية معالجتها. ويتصور ناصر أيضا أن «الصفوة» الانكلو سكسونية ستبقى مهيمنة ومسيطرة على العالم وستكون حياتها شبيهة بالطراز الأمريكى الذى يراه فى أفلام السينما وفى التليفزيون، فى حين ستقتات البقية الباقية من العالم بما ستقدمه لها الليبرالية الغربية من هبات ومنح (ما عدا إليابان التى لم تجل ذاكرته فى أرجائها بعد ليفكر فى مصيرها). وبالحقيقة، فإن ناصر يتصور العالم كما يتصوره أولئك الطلبة المشاغبون. فهو لا يتمكن من إعاقة مجيئه، ولكن مع هذا فلا يزال يصر على رفضه ويحرض شعبه المهمل واللامبإلى على العمل عن طريق تخويفه بما يخبئ له مستقبل العالم من أخطار وأهوال.

وخلال «الحالة الثانية» فانه يجب على القائد أن: (١) يشوه سمعة النظام القديم إلى حد يشعر معه الشعب بالخجل من أن يبقى ذاك النظام جزءا م كيانه، (٢) يقدم ويعرض منافع ومكاسب مادية ومعنوية كان الشعب محروما منها بسبب «العدو» مع أنها حق طبيعى للشعب لا ينازعه فيه أحد. (٣) يحشد ضد «العدو» كل القوى والطاقات التى عانت من الحرمان والفشل وخيبة الأمل. وكان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يجرون حساباتهم على القاعدة التالية: فى «الحالة الأولى» يمنع الشعب من إهدار طاقاته وينصح بتوفيرها لاستعمالها فى «الحالة الثانية»، فى «الحالة الثانية» تحشد الطاقات ضد العدو مع استمرار الشعب بتوفيرها دون توقف. وطالما أن الشعب لا يستعمل هذه الطاقة ضد النظام القائم فإن هناك بارقة أمل أن يتمكن القادة من إعادة توجيه هذه الطاقة فى «الحالة الثالثة» واستخدامها فى سياسة البناء والإصلاح.

ومن مستلزمات حشد العواطف وتهييج المشاعر فى «الحالة الثانية» نكران الذات. إن الفرد العادى من اهإلى الشرق الاوسط يرى نفسه شخصا من الدرجة الثانية (وهو فى نظرته هذه اكثر وضوحا من أهالى الغرب الذين ينظرون إليه على أنه من الدرجة الثانية لأسباب عرقية - عنصرية) وبالتإلى فلا يمكن إثارته عن طريق التلويح له بالمنافع والمكاسب الشخصية كما نفعل نحن الغربيون فى الخطابات السياسية وافتتاحيات الصحف والإعلانات التجارية. ولقد أدركت هذه الناحية من أحد ضباط عبد الناصر الذى سمعنى أكثر من مرة وأنا أعرض أفكارى بنفس الطرق التجارية التى تعرض بها البضائع فى «أوكازيونات» شارع ماديسون فى نيويورك والتى بصراحة تبرز المصلحة والكسب الشخصى. فقد قال لى: «إنك فى هذه الثورة لن تفلح فى حملنا على فعل ما تريدنا أن نفعله بأن ترغبنا بمكاسب نحصلها لأشخاصنا، فلقد تخلينا عن هذا منذ زمن بعيد. إننا كلنا خَدَم لقضيتنا فاغرنا على فعل ما تريد بالوسائل التى تخدم قضيتنا».

إن «المتزمت» هو الذى يضحى بمصالحه الشخصية فى سبيل هدفه. وبالتإلى، فإن تحديد هدف ما. مثل أن يكون «عدو مشترك»، يضمن التضحية ويحقق الانقياد الأعمى. فالإنسان الذى يضن بحياته فى سبيل تحقيق بعض المصالح الشخصية الآنية يسترخصها إن كان الهدف ساميا وجديرا بذاك المستوى من التضحية والبذل، كالنضال ضد «العدو».

إن الطلاب الذين يتظاهرون للحصول على أوضاع افضل والذين لديهم فكره واضحة عما يسمونه «أوضاعا أفضل» هم نوع مختلف تماما عن ذلك النوع من الطلاب الهائجين الذين لا هدف لهم سوى تحطيم انظمة الحكم بدون أن يكون لديهم أية فكره عن النظام البديل الذى سيحل محل الأنظمة القديمة. وعليه فإن الحكم من طراز عبد الناصر يفضلون النوع الثانى لهدف واحد لا لسواه. وهو أن أولئك الهائجين الثائرين ليس لديهم أفكار واضحة محددة بخصوص الأوضاع الأفضل (ولهذا يقبلون بأى شىء)، إلى جانب ملاحظة أخرى وهى ان الصنف الثانى هو أكثر النوعين استعدادا ليصبح متزمتا ومتعصبا، فى حين يصعب التلاعب بالنوع الأول لوضوح مفاهيمه ودقتها.

وهكذا فالأهداف «الحالة الثانية» كان عبد الناصر بحاجة إلى شىء من التزمت الموجه الذى يكفى فقط لايقاظ افراد الشعب من سباتهم وليس أكثر من هذا وذلك خشية أن يفلت الأمر من سيطرته فيصبح خارج نطاق وسائله لتصريفه وتفريغه. وهذه هى النقطة التى بدأ

عبد الناصر عندها يواجه الصعاب فى الشؤون الداخلية. فكما سنرى لاحقا، فإن تحركات عبد الناصر الممثلة حول طاولة «لعبة الأمم» كانت تتطلب شيئا من التأييد المطلق والأعمى فى داخل البلاد (وهذا معناه «التضحية» بالمكاسب الشخصية فى سبيل الأهداف). ولكن الفرد المصرى لا يمكنه أن يمنح هذا بسهولة.. وبالتأكيد، فمن الصعب أن يقتنع الفرد المصرى بهذا النوع من التعصب عن طريق زعيم أو حاكم لا يؤمن هو نفسه بهذاالنوع من التعصب والتزمت فى داخل بلاده، بل يؤمن به فقط عندما يُستخدم فى أراضى أولئك الزعماء الذين يناصبونه العداء بغية إرهاقهم. وإحراجهم. كما أن ذاك الزعيم يرفض أن يكون هذا التعصب نتيجة عقائد متأصلة (أو غوغائية مطلقة التى لها نفس الأخطار) بل يريده أن يكون نتيجة منافع ومكاسب آنية وشخصية.

إن رجل الشارع فى مصر لا يتمتع بفهم سريع أو بثقافة واسعة كابن عمه السورى (الذى يتصف بسرعة تجارية مع مثل تلك الإغراءات) ولكنه أكثر هدوءًا وأقل انفعالا ولا يميل إلى تصديق كل ما يقال له.

ويجب على عبد الناصر أن يكسب مقدارا أدنى من التأييد لدعم تحركاته التى يقوم بها فى «لعبة الأمم» والتى هى فى الحقيقة من النوع الذى يتطلب تأييدا شعبيا «متعصبا». وكان عليه وعلى حكومته أن يبذلا أضعاف الجهد الذى يبذله القادة السوريون للحصول على مثل هذا التأييد. ويعجز المراقبون الغربيون عن فهم ضرورة توظيف عبد الناصر لقسط هائل من الجهد القومى فيما يسمى بالاتحاد العربى الاشتراكى (وهو حزب عبد الناصر الوحيد المسموح له بالعمل فى البلاد) بسبب عدم إدراكهم «لنوعية» ذاك التأييد الشعبى الذى يحتاج له (وهو من النوع «المتعصب») الذى يتطلب إنفاق مقدار مدهش من الجهد القومى لتأمينه وضمانه.

ومع أننا سنعالج «الحالة الثالثة» بشكل أوسع وأعمق فى فصل لاحق، إلا أنه لا مانع من القول أن هناك كافة المغريات التى كان ناصر يقدمها للشعب فى «الحالة الثانية» انما كانت تخدم تماما أهداف «الحالة الثالثة».

وهذا هو السبب الكامن وراء عدم تجاوب الشعب معها واضطرار ناصر للصياح بملء شدقيه داعيا لها. ولقد أشار المستشارون الأمريكيون إلى أن مصر لن تشكل مصدر خطر وقوة

إلا إذا تركت معتمدة على مواردها المحلية فقط. ولهذا فإن المساعدات الخارجية تشكل منطلقا حيويا لها. ولقد أدرك عبد الناصر نتيجة خبرته مع حكومة الولايات المتحدة ومع السوفييت أن حصوله على المساعدات الخارجية يتناسب طردا مع مدى اقتناع «هاتين الدولتين» باهمية دوره وأنها قوة لها وزنها فى «لعبة الأمم». والسبيل الوحيد للوصول إلى هذه المرتبة لا تستلزم سلوك طريق نموذجى فى البناء والإصلاح وإنما يستلزم تطوير قضية تسبب قلقا وخوفا للدول الكبرى التى - على الأقل - لن يكون لها الخيار فى أن تنظر إليها بعين الجد والاهتمام. وكان بإمكان ناصر أن يستحث جهود شعبه عن طريق وعده بحياة اقتصادية أفضل، إلا أنه: (١) لن يمر زمن طويل حتى يكون الشعب قد اكتشف زيف هذه الوعود، و(٢) لن تكون يقظة الشعب كافية لأن تجعل من ناصر عاملا حاسما فى «لعبة الأمم» حتى يتمكن من الحصول على المساعدات الاجنبية بغية تدعيم وضعه.

إن مشاكل ناصر فى «الحالة الثانية» تستدعى سلوكا غوغائيا مطلقا. وكما قلت سابقا، فإن ناصر ينطوى على قسط كبير من الغوغائية لا يقل عن ذاك الذى يتصف به كثير من السياسيين الناجحين ومنهم المرشحين لرئاسة الجمهورية الأمريكية، إلا أن هناك فارقا واحدا: فالزعيم الغوغائى العادى يحاول أن يحدد وجهة الجماهير وذلك ليتصدر بعدها المسيرة بنفسه، إلا أن الزعيم الغوغائى الناجح هو الذى يفلح فى اقناع الجماهير أن تطالب من نفسها بالتوجه إلى حيث يرى الزعيم أنه المكان الذى يتوجب عليها أن تتوجه إليه. وهذا ما يفعله الحكام من الطراز الناصرى بوسائل غير مباشرة، حيث يدفعون الجماهير لأن تطالب بالتوجه إلى المكان الذى يريدونه لهم، ومن ثم ليتصدروا مسيرتها بطرق لا تختلف عن تلك التى يسلكها الزعيم الغوغائى العادى. ولعلنا نستطيع القول أيضا أن عبد الناصر بوسائله غير المباشرة يخلق عند الجماهير ميولا واتجاهات تجعلهم يمارسون الضغط عليه لاتخاذ إجراءات طالما تمناها وسعى لها. واتباع ناصر لكل هذه الأساليب لا يخرجه عن القواعد العامة المطبقة فى «لعبة الأمم». وقد قال ناصر مرة لأحد السفراء الأمريكيين: «إننى أفعل ما افعله لأن الرأى العام لا يسمح لى بفعل غير ذلك». إلا أن السفير الأمريكى كان أكثر دهاء وخبثا عندما أجابه قائلا «ولكن ، سيدى الرئيس، من هو الذى دفع بالجماهير إلى هذه الحالة وتلك المواقف؟!» وهنا ارتسمت على شفتى الرئيس ابتسامة كلها رقة وعذوبة.

وبعدما مررنا مرور الكرام على هذه الطرق غير المباشرة، يجدر بنا الآن أن نعطى ملخصا عنها. فهى:

◆ **الدعاية:**

إن الدعاية التى كانت إحدى أركان جهاز القمع، قد اعتبرت أيضا من ضمن وسائل اكتساب التأييد الشعبى وأصبحت إحد أركان سياسة البناء والإصلاح. وأما أهدافها فهى:

١- تشويه سمعة الأعداء داخل البلاد بإظهارهم مظهر المفسدين والمستهترين بأبسط قيم المجتمع واعتباراته الحقيقة، ومع أن المصريين يدعون أنهم ضد الفساد المالى إلا أنهم حقيقة عكس ذلك. ولهذا فإن ثبوت الرشوة على أى سياسى لن يكون له سوى تأثير بسيط على حياته السياسية. ولكن إظهاره بمظهر الخليع الداعر غير المتدين يعنى شيئا آخر أكثر تأثيرا. فالحملة التى سمح بها ناصر خلال سنتى حكمه الأولى والثانية كانت مليئة بالقصص البذيئة والروايات الفاحشة. ولقد شنت هذه الحملة لأنها كانت الوسيلة الوحيدة المجدية لجر أفراد الطبقة الحاكمة المصرية القديمة خارج أبراجهم العاجية وتعريتهم أمام الشعب.

٢- وكان هدف الدعاية الثانى الإطاحة بكل الامتيازات الاجتماعية التى كانت تحمى الطبقات الأرستقراطية، والتى بقيت إلى ما بعد تعريتهم من الأخلاق والقيم الفاضلة. فلقد كان الخوف والرهبة من أفراد الطبقات الأرستقراطية متأصلا فى نفوس أفراد الطبقات الفقيرة إلى حد اعتبر فضح الأسرار الجنسية للأرتسقراطيين أقل ما يمكن فعله لنزع خوف الطبقات الفقيرة منهم. فقد كان أحد موظفى سفارتنا يقول: «إن المصريين يحبون «البكوات» (ولهذا السبب فقد أحبوا الديبلوماسيين البريطانيين ولم ينل أمثالهم من الامريكيين احترام المصريين)، لكن عبد الناصر قام بتحطيم هذا الخنوع لحاملى ألقاب «البكوات» التقليدية فى مصر بشتى الوسائل الخبيثة، ومنها الأفلام السينمائية وتمثيليات التليفزيون التى تمثل رجلا عاديا يطالب بحقوقه ويضرب الإقطاعى صاحب الأرض. إن مشاهد كهذه فى قاعات السينما المحلية قد أثارت الاشمئزاز فى البداية ولكن سرعان ما ألفتها الجماهير. فمشاهدة عامل على المسرح الآن تأثر على رب العمل، أو مجموعة من الفلاحين تلقى الاحجار على مالك اقطاعى سابق لن تثير سوى موجة من الهتاف عند النظارة، مع أن اعمالا حقيقية كهذه غير مقبولة إطلاقا فى الحياة العامة خارج المسرح.

٣- وهدفها أيضا إحداث موجة من الخوف والذعر فى الطبقات الأرستقراطية (طبقة البكوات) عن طريق إثارة الشكوك حولها واتهامها بإجراء اتصالات سرية مع فئات أجنبية

تنوى غزو البلاد وإحياء النظام البائد وإنزال العقوبات بالطبقات الشعبية البائسة لعصيانها تمردها. ونظرا لأنه لا يتصور وجود فئة أجنبية فاقدة العقل والتفكير إلى الحد الذى يخطر ببالها الاعتماد على فئة البكوات المصرية للقيام بانقلاب ضد حكومة عبد الناصر، فقد كان لزاما على الحكومة إذن أن تقوم بتزييف الأدلة ضد المتآمرين المزعومين، ونشير خطط خيانتهم المصطنعة والمختلفة. وكانت بعض القصص المنتقاة بمناية والمعززة بالإشاعات، تنشر بمهارة كافية للغرض ذاته. وفى خلال أزمة السويس (التى اعتبرتها الغالبية الجاهلة برهانا على وجود طاور خامس موال للاستعمار). قام فريق من الخبراء الأجانب بإجراء استفتاء للرأى العام (بعد الحصول على موافقة عبد الناصر) ووجد أنه كان هناك فعلا خوف من الطبقة الأرستقراطية المطرودة من المجتمع المصرى وخاصة أولئك الذين يشك باتصالاتهم الأجنبية. ولم يكن هذا الخوف كافيا فقط لتمرد قسم كبير من المجتمع المصرى على الروابط الاجتماعية التقليدية التى كانت تحول دون قبولهم بالثورة، بل كانت كافية أيضا. بالإضافة إلى عوامل الخوف الأخرى. لأن تشكل عنصر الخوف الرئيسى الموحد للأمة حول رئيسها. كما سبق أن تكلمنا عن ذلك.

◆ **الحزب السياسى الواحد:**

استغرب كثير من الدبلوماسيين الأجانب ورجال الصحافة الأذكياء اعتماد عبدالناصر الحزب الواحد فى النطاق السياسى، واضطربوا من القيود المفروضة على الحريات المدنية. ولكن بما أنهم كانوا مطلعين على أهداف عبد الناصر للمرحلة الثانية، فإنه من العجيب أن يدرك الإنسان أنهم كانوا يتوقعون من عبد الناصر أى شىء غير تلك الإجراءات. فكيف يمكن لنظام فيه حزبان سياسيان أن يخدم تلك الأهداف وينجزها؟ وكيف يمكن عندئذ تفادى حدوث أى تشويش أو اضطراب، وذلك ما يجب على عبد الناصر أن يتجنبه بأى ثمن كان؟ وإن كان من الطبيعى بالنسبة للغربيين أن يدافعوا عن فكرة المعارضة الحرة كأساس لتطوير المجتمع السياسى المتمدن ويناقشوها مع دى توكوفيل (كاتب مشهور) فإن مناقشتهم لعبد الناصر وتوقعهم إياه أن يفعل ذلك يوحى إلى أنهم سذج وبسطاء جدا. وسواء كان ناصر على صواب أم على خطأ ، فمن الطبيعى له وعلى الأقل أن يعتقد أن نظام تعدد الأحزاب السياسية سوف يتمخض. كما أخبر عددا من الزوار الغربيين. عن استمرار المنافسة بين الحزب المدعوم من

قبل الأمريكيين ضد ذلك المدعوم من قبل الإنكليز وكذلك ضد الثالث المدعوم من السوفييت. وهكذا تبقى البلاد عرضة للتنافس بين هؤلاء الثلاثة إلا إذا كانت لدى الحكومة القدرة المالية على منافسة هؤلاء المولين الثلاثة الكبار لتدعيم حزب من أفكارهم وآرائهم. واكثر من هذا فهو مدرك تمام الادراك قابلية انجذاب العناصر المتفوهة من المجتمع المصرى نحو الحركات المنطرفة، وكذلك نزعة هذه الحركات المتطرفة فى أن تكون ضد الفئة الحاكمة مهما كانت نوعيتها وطبيعتها. وأخيرا، وبدون الموافقة أو المعارضة، يجب على المراقب الغربى أن يدرك تمام الإدراك أن مرحلة عبد الناصر الثانية ـ كما يراها بنفسه ـ تتطلب فترة من الانضباط والخضوع السياسى والاقتصادى والاجتماعى. وفى أثنائها يتمكن من حشد أفكار وطاقات الشعب لدخول «الحالة الثالثة» الشائكة المرعبة. إن عبارة «الشعب الحر». كما يراها عبدالناصر ويفهمها، بإمكانها أن تفعل وتنجز كثيرا فى دولة غربية مثالية. ولكنها لا تعنى، فى دولة عربية نموذجية، إلا هدر الطاقات فى طرق معطلة للإنتاج ومعوقة له.

إننى أوصى القارئ المهتم بالموضوع بقراءة كتاب «الجيش المصرى فى السياسة» لمؤلفه د.ج. ڤاتيكيوتس. للوقوف على تفاصيل أكثر وأدق، وللاستمرار فى موضوعنا فإنه يجب علينا أن نقرر ما يلى: استنادا إلى نظرة الحكام من الطراز الناصرى إلى الأمور، فإن كل ما تحتاج إليه الجماهير ـ على حد رأيهم ـ هو حرية التصويت وليس حرية مناقشة أو معارضة ما هم مدعوون للتصويت عليه (إلا ضمن حدود الحزب الواحد الحاكم). ففى الديموقراطيات الغربية يعتبر الحزب أداة يستعملها أفراده للضغط على الحكومة وحملها على أن تفكر بطريقتهم. إلا أن الحزب فى مصر هو أداة الحكومة لحمل الشعب على أن يفكر بالطريقة التى يريدها له حاكم الدولة. ومن السذاجة المطلقة والغباء الصرف أن نتصور مهمة نظام الحزب الواحد غير هذا.

◆ الآلاف المؤلفة من الموظفين:

عندما ذهبت وفريق من المهندسين فى فن الإدارة إلى مصر سنة ١٩٥٣، كانت بعثتنا ذات طابع رسمى وبهدف تنظيم إدارات ومؤسسات الدولة المصرية لتعطى أكبر مردود فى الخدمة العامة وبأقل عدد ممكن من الموظفين. وبعبارة أخرى، جعل الإدارة نافعة وفعالة. ولكن سرعان ما ادركت ان النظام الاستعمارى البريطانى (أو النظام الذى كان سائدا فى أمريكا فى عهد

فرانكلين د. روزفلت) هو المفضل لبلد مثل مصر. ولا تزال ماثلة فى مخيلتى صورة رئيس دائرة الجمارك عندما ارتعدت فرائصه أمام اقتراح قدمه أحد زملائى بخصوص طريقة تصريف شؤون دائرته. فقد كانت الطريقة الجديدة المفتوحة تساعد على الإسراع بالإجراءات الجمركية الشائكة، وتقدم خدمات أفضل لشاحنى البضائع. وتقلل من فرص التهرب من تسديد الرسوم المتوجبة. ومع ذلك فقد كانت موضع اشمئزاز وامتعاض رئيس الدائرة لا لشىء سوى أنه لا يحتاج تنفيذها لاكثر من عشرة موظفين بدل الثلاثين موظفا المداومين يومها فى تلك الدائرة. ولكن دهشتى قد زالت عندما التقيت بصديق بر[illegible] كنت أسعى حثيثا لأسمع بعض نصائحه، فقال لى: «لو كنت المسؤول عن معالجة الوضع، فباعتقادى أنه يجب على استخدام خمسين موظفا وليس الثلاثينن». إن غاية الحكومة فى مصر (من وجهة نظر أكثر عمقا) ليست خدمة الشعب وتسهيل مصالحة بقدر ما هى تجنيب القسم الأعظم من الشعب التسكع فى الشوارع بدل تركه عاطلا عن العمل مشردا، الأمر الذى يجعله يشكل خطرا كاسحا. ولو أن بريطانيا لم تنفذ هذه الفلسفة فى مستعمراتها، فإن بلادا مثل الهند والباكستان ونيجيريا وغانا كانت ستحرم من قسم كبير من لابسى الياقات البيضاء الذين يشكلون الطبقة الوسطى فيها، ولن يجد عبد الناصر بعدها من ينتسب إلى اتحاده الاشتراكى العربى.

وفى أوائل ١٩٦٧ كان عند عبد الناصر حوالى مليون موظف مدنى فى جهازه البيروقراطى، باستثناء إدارات الجيش والشركات المؤممة. إن مؤسسة بوز آلن آند هاميلتن (وهى أكثر مؤسسات الدنيا جدارة فى قضايا الإدارة العامة) قالت إن الحكومة المصرية لا يمكنها أن تستخدم أكثر من ٢٠٠ ألف موظف. ولقد دفع عبد الناصر ثمن فوضى الإدارة فى بلاده. إن فى حوزته مليونا من لابسى الياقات البيضاء من أفراد الطبقات الوسطى التى يقطن معظمها فى مدينتى الإسكندرية والقاهرة، والذين عليهم أن ينضوا تحت لواء الاتحاد الاشتراكى وإلا لما خدموا أهداف زعيمهم. أما بخصوص موجة الفساد فذلك نتيجة لابد منها لظاهرة حشو الادارات بما لا يلزم من الموظفين. وقد استخدمها عبد الناصر كما استخدام دامون رونيون الاتجار بتذاكر السينما لتمويل مشروع مكافحة السرطان. وبدلا من الاكتفاء بملء الجيوب بالطرق غير المشروعة ، فقد عمدت طبقة عبد الناصر البيروقراطية (طبقة

الموظفين وخاصة التى هى فى تماس مباشر مع الشعب مثل وزارة الشؤون الاجتماعية والداخلية والتربية) إلى خدمة الأمة والنظام تماما بنفس الطريقة التى خدمت به قاعة التأمانى مرة الحزب الديموقراطى فى نيويورك.

◆ الأسطورة:

كان ناصر طرفا فى العديد من الدراسات والمناقشات التى دارت بينه وبين المتآمرين معه من الضباط، وقد تحلى فيها بالصبر والأناة، إلا أن تلك المناقشات لم تكن سوى من النوع الذى يرمز له بأنه «جيد إن كان بساقين وسىء إن كان بأربع». وقد أدرك ناصر دائما أنه حتى أقل الناس ثقافة ـ إلى جانب غيرهم من المثقفين ـ لابد من استمالتهم عنطريق تقديم مغريات أكثر واقعية وحيوية من تلك التى بمقدور ضباطه الإعلان عنها أمام الشعب.

لقد بذل ناصر قصارى جهده للعصور على «باعث ومحرض» يملك توحيد الأمة وتجميع شملها حوله. لقد كان ناصر بحاجة إلى «عامل ما» ذى تأثير شبيه بتأثير الإضراب العام على نقابات العمال فى فرنسا، أو شبيه بتأثير الثورة الحمراء الذى يريده ماركس. وبعبارة أخرى، لقد كان ناصر بحاجة إلى ما عبر عنه «جورجس سوريل» منذ أكثر من سبعين سنة، وحدده باسم «الأسطورة» وهى: «عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على إثارة كل العواطف والمشاعر بطريقة غريزية وأن تتخذ طابعا ممثلا لأحد أوجه الحرب التى تشنها «الاشتراكية» ضد «المجتمع الحديث»، إلا أننا يجب ـ فى مقامنا هذا ـ أن نستبدل كلمة «الاشتراكية» بلفظة «الثورة» وكلمة «المجتمع الحديث» بلفظة «أعداء الثورة» بغض النظر عن قصد ناصر الحقيقى من وراء هذه الألفاظ.

وليس من المهم أن يعنى ناصر أى شىء محدد من وراء تلك الألفاظ فلربما تنجح الأسطورة فى حشد العواطف ضد أى «مجهول كبير» وذلك لأن الأسطورة لا تعنى حقيقة سوى مناشدة العواطف دون العقل والتفكير السليم. وكل مستلزمات الأمر ـ كما يقول سوريل نفسه ـ هو «توفر مجموعة من الرجال ليشاركوا فى حركة اجتماعية ضخمة شريطة أن يتوفر عندهم الانطباع أن عملهم هذا إنما هو المعركة التى سيتحقق لقضيتهم فيها الانتصار بصورة أكيدة لا شك فيه ولا التباس». ولربما تكون الأسطورة على درجة كبيرة من الغموض والإبهام، أو أنها

ناقصة التفاصيل. ولربما تظهر على أنها ليست أكثر من مجرد أحلام لا وصف لها ولا تحديد. وليس من الضروري أن يكون هناك أى ارتباط بين الحقائق الملموسة وبين الانطباع الذى كوّنه الشعب لنفسه قبل أن يباشر العمل (ولا يشترط وضوح هذه العلاقة . ان كان هناك أى منها - للرجل المفكر). فالأساطير ليست شروحا وأوصافا لأشياء محددة، ولكنها تعابير عن التصميم على العمل والعزيمة على النضال. ولا يمكن دحض الأسطورة أو تكذيبها وذلك لأنها تكون فى الأساس منسجمة مع اعتقادات المجموعة. كما أن الأسطورة هى بحد ذاتها تعبير عن تلك الاعتقادات ولكن بلغة العمل والحركة. وبالتالى فإنها صعبة التفكيك ولا يمكن ردها إلى العناصر التى تكونت منها لإعادة دراستها وتسلسلها التاريخى والتحقق من أصلها. ومن غير أن أكون واثقا من أن ناصرا قد قرأ كتاب سوريل أم لا، وبدون استعمال كلمة «الأسطورة» نفسها، فإن ناصرا كان يعبر بين الحين والآخر عن أفكار مشابهة للأفكار السالفة الذكر مع فارق بسيط. ولم يختلف ناصر كثيرا عن مدير تلك المدرسة التى ينتسب طلابها إلى طبقة «أصبحت غنية حديثا» والذى اجتمع بهيئة المدرسة وطلب منها تقرير تقاليد جديدة تتبناها المدرسة وتكون ذتا تأثير على عائلات الطلاب. فقد قرر ناصر أن يتخذ لنفسه طابعا مميزا وبالتالى أن «يتبنى اسطورة» معينة، ومع أن ناصرا قد اختار أسطورة لا تمثل أيا من طموح الشعب وآماله إلا أنه تفاعل أن يتخذ الشعب من تلك «الاسطورة» مبادئ له وأهدافا.

ولا ندعى أن عبد الناصر بدأ من الصفر: لقد بدأ بإدراك تام لتخيلات واحلام الشباب المصريين بنفس الطريقة التى يحلم المراهق الغربى بإنقاذ فتاة رائعة الجمال من عمارة تستعر فيها النيران، أو بطريقة الموظف العابس كثير الصياح الذى يتخيل أنه (على طريقة والترميتى) يستطيع أن يبرر عمله المستأسد ويتفوق عليه. فالفتى المصرى يتصور أنه بطريقة ما سيتغلب على الأوربيين الذين احتقروه لزمن طويل. ولقد سمعت ضباط عبد الناصر الأحرار وهم يتبادلون القصص المفضلة لساعات طوال من غير انقطاع. عن بطولاتهم ضد قوات الاحتلال البريطانية، وكل تلك القصص مزيفة من غير شك، وكان عبد الناصر مدركا تمام الادراك للشىء الذى سيجعل منه بطلا فى أعينهم. وكما قال دانيال ليرنر: «المتفائلون - فقط - فى الغرب فسّروا استيلاء عبد الناصر على السويس (كمثال) على أساس أنه قام به بدافع الحصول على رسوم القناة وعائداتها». لقد عرف عبد الناصر كيف يصبح رمزا لنهضة الشعب المصرى المضطهد. وكما قال مورد برغر: «لقد حاول إذلال كل من أذلّ العرب». وبعبارة أبسط.

فلقد ظهر على أنه أول «منتصـر»، منذ سنوات طويلة خلت، وفى دولة أعتاد شعبها على أن يعتبر نفسه من الخاسرين دائما.

وكونه منتصرا، فلقد حاول أن يظهر فى مظهر متواضع عندما كان يصف نفسه على أنه مجرد ممثل أعلى للشعب، ولا يستبعد أن يكون ذلك اصيلا فى نفسه. وهكذا فهو يشبه كلا من موسى وكرومويل ولينين. إن ثقة ناصر الفائقة بنفسه يشعر بها كل من يقابله. وسبب ذلك أنه ـ كأولئك النماذج: موسى، كرومويل، لينين ـ قد ملأ دورا فى مسرحية كان يفتش مخرجها عن ممثل ينجح فى تأدية ذاك الدور، كما أنه قد أفصح عن هذا فى كتابه «فلسفة الثورة». ولهذا فإن تأديته لذاك الدور عمل أخلاقى ومثالى بدون أدنى ريب، كما أنه جزء لا يتجزأ من «الأسطورة». وأما أتباعه فإنهم ـ شعوريا أو لا شعوريا ـ يرون علاقتهم بتلك القوة العظمى قد تجسدت فيه ولكن دون أن يكون لديهم أى تحديد لتلك القوة العظمى، (وبالطبع فان هذا غير ضرورى لاستكمال الاسطورة)، ولكنها ـ على الأقل ـ هى تلك القوة التى وضعت المصريين مع الأوربيين حول طاولة واحدة دون تفريق أو تمييز. (ويرى عدد من علماء الاجتماع أن حب المصريين للأوربيين وكراهيتهم لهم فى آن واحد جزء هام فى التكوين العاطفى للمصريين). كما ان تلك القوة قد جعلتهم أعلى بمرتبة ـ أو بمرتبتين ـ من سائر الشعوب العربية الأخرى. (ولابد من إدراك حقيقة مهمة جدا وهى أن فكرة «القومية العربية» ليست جزءا من «أسطورة» ناصر، إلا أن مفهوم كون مصر «رائد العرب» قد غدت جزءا مهما من الأسطورة).

وبعبارة أخرى، فإن أسطورة عبد الناصر هى مجموعة تصورات وانطباعات تحيط بمعركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والأفريقيين، وهى دوائر عبد الناصر الثلاث) ضد الأوربيين (السوفييت والغربيين): معركة يثق فيها الرجل الملون كل الثقة من أنه سيفوز فى النهاية. كما أن استخدام عبد الناصر لرصيده فى أجهزة البناء والإصلاح (مثل الدعاية، الحزب السياسى الواحد، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف إلى تخليد تلك «الأسطورة». ومع أننا سنستعرض فى الفصول اللاحقة كيف انتقل ناصر إلى مرحلة الحكم البونابرتية (مفوض الشعب) فان نظرتنا حول ناصر وأسطورته ستكون ذات خدمة جليلة خلال استعراضنا لمحاولات ناصر للربح ولاكتساب التأييد الشعبى وكيف أنها قد أثرت كثيرا على مرونة حركته ومناوراته فى «لعبة الأمم».

-١١-

ناصر والحياد الإيجابى

... اما استراتيجية الضعيف العاجز فهى الإيقاع بين الأقوياء عله ينجو بنفسه

فى أوائل ١٩٥٣، لم يعد خافيا على عبد الناصر أن الاقتصاد المصرى لن يقوى على الوقوف دون مساعدات خارجية، ومع أن تقرير آرثر ليتل لم يكن يومها قد نشر بعد فإن عبد الناصر كان يطمع بمساعدات ضخمة تفوق تقدير أكثر الجهات احتمالا لتقديمها ألا وهى الولايات المتحدة. وقد حدد عبد الناصر بدقة ووضوح معالم الدور الذى يتحتم عليه أن يلعبه على المسرح العالمى حتى تقتنع الولايات المتحدة بإعادة النظر فى سياسة مساعداتها الخارجية لصالحه. إلا أن ناصرا قد أدرك أن ذلك الدور لم يكن منسجما مع أوضاع البلاد الداخلية، فهو ليس فى «الحالة الأولى»، وهذا ما اضطره إلى الأخذ «بالحالة الثانية». وكان المراقبون الغربيون يميلون إلى أخذ تصرفات ناصر فى «الحالة الثانية» والأهداف التى يعلن عنها على أساس معناها الظاهرى ودون النظر إلى ما وراءها من دوافع، ولهذا فقد كانوا يحكمون عليها بالفشل. لقد كسب عبد الناصر الحد الذى يطمح إليه من عواطف الجماهير دون أن يدفع بها إلى تطرف يفقده السيطرة عليها. إلا أنه قد أبقاها من القوة بحيث لا يتجرأ معها أصحاب النظرات الواقعية من المصريين أن يفصحوا عن رأيهم أن «مصر أولا» ذلك أن أى نجاح على أساس من هذا الرأى سيضيع الكثير على ناصر ويجعله سلاحا أمضى بيد الوزير دالس. وعندما حان وقت بحث المساعدات المالية مع الحكومة الأمريكية كان ناصر قد هيأ مسبقا الرأى العام بصورة مدروسة يظهر معها أمام الامريكيين وكأنه مقيد بسياسة معينة لا خيار له فيها (وهى السياسة التى يريدها لنفسه).

وقد تميزت الرسائل التمهيدية بين مصر والولايات المتحدة، بخصوص موضوع المساعدات المالية بامتلائها بالعبارات المتبذلة مثل «السلام والاستقرار فى المنطقة». وببعض المقتطعات

من خطابات الرئيس آيزنهاور، مثل «لقد ولدت أمتنا لأن شعبها سيكرس نفسه للحرية والعدالة»، ومن مذكره رسمية للوزير دالس «أننا نبغى سلما عالميا وعادلا للجميع». وقد استمر تبادل مثل هذه العبارات إلى الحد الذى أثارت شكوكا مخيفة فى نفس عبد الناصر. وظن أن الأمريكيين مهمتمون حقا بكل هذا الهراء والسفسطة، وبدأ بحث الأمور بالتفصيل ارتد الأمريكيون إلى انتقاء ألفاظ ومعانٍ يفهمها عبد الناصر وضباطه جيدا. فالرئيس أيزنهاور بكل خطاباته الممتازة (والتى كان فيها صادقا من قبله) كان يمثل إليانكى الوطنى القديم. فلم يكن فهمه للسياسة الخارجية التى تهدف إلى رعاية المصالح الامريكية المحضة فهما أجوف. بل كان ينظر من خلال ذلك إلى الطموح الشيوعى. فهو كعسكرى يرى أن هذا الطموح معزز بوسائل عسكرية، مثل الوسائل التى اجتاح النازيون بها أوربا. وأن الدفاع المنطقى ضدهم، هو الدفاع العسكرى، الذى يبدأ أولا عن طريق منظمة حلف شمالى الأطلسى (ناتو). وتشترك فيه الدول الأوروبية. ومن ثم بأحلاف شبيهة به فى بقية أجزاء العالم. وأما منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط «ميدو» فكانت أولى تلك الأحلاف الواجب تنفيذها بعد حلف شمال الأطلسى.

وفى ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ اجتمع انتونى إيدن وجون فوستر دالس مع الرئيس أيزنهاور ليتباحثوا فى أمور الدفاع عن الشرق الأوسط بصورة متكاملة. وفى الوقت الذى كان يعنى ذاك الاجتماع، بالنسبة للرئيس أيزنهاور، ضرورة إخراج «حلف الميدو» إلى حيز الوجود فقد كان لا يعنى، بالنسبة لأنتونى إيدن، سوى الاحتفاظ بالقواعد العسكرية فى الشرق الأوسط تحسبا لنشوب أى نوع من النزاع العسكرى: من الحرب المحلية التى ربما تعيق استخدام قناه السويس، إلى حرب عالمية ثالثة، أو من حرب بين فرقاء آخرين، مثل حرب بين العرب وإسرائيل، إلى حرب بين بريطانيا وحلفائها وبين الروس. وكان هناك سؤال خاص يتعلق بمصر. فقد كان عبدالناصر ومجلس قيادة الثورة يخشون على أنفسهم من الإنجليز، أكثر مما يخشون الروس. وليس الشرق الأوسط برأيهم معرضا لخطر أى هجوم مسلح من الروس. ولم يكن لعبد الناصر أية رغبة بالمشاركة فى معاهدة «الميدو»، كما أنه لم يكن له رأى فى بقاء أو زوال القواعد البريطانية من الشرق الأوسط لما كان أيا منها لن تبقى فى مصر. ومن ناحية أخرى كان عبدالناصر يلح على طلب المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية. وكان يطلبها حثيثا لأغراض الأمن الداخلى وليجعل من جيشه الرث المهلهل ـ كما أخبر ناصر دلاس ـ جيشا فخورا بنفسه ليصبح الدعامة الأساسية فى جهاز الأمن داخل البلاد، وإذا ما قدر وكان

لجيشه أية مهمة عسكرية فلن تكون ضد السوفييت، أو أية قوة أوربية أخرى، وإنما للدفاع ضد إسرائيل وللتدخل ضد بعض الدول المناوئة له.

ولم يكن أى من الأمريكيين أو البريطانيين مخدوعين بوجهات نظر عبد الناصر فآراؤه بالدفاع عن المنطقة واضحة لا غموض فيها فى تقارير المخابرات الأمريكية المعاصرة له يومها. ومع كل ذلك فإن اجتماع ٥ آذار (مارس) كان يدور حول فرضية اساسية وهى: أنه ضمانا لسلم عالمى عادل لجميع الشعوب، فإن الأمريكيين يرون ضرورة قيام منظمة دفاعية إقليمية كمنظمة «الميدو» أو قيام اتفاقيات (حسب اعتقاد البريطانيين) تخول البريطانيين. بدون أو مع الثورات التى تهدد القناة. ولم يكن فى صالح عبد الناصر أن نحقق كسبا لأى من هاتين الفرضيتين. ومع أننا كنا على معرفة بموقفه هذا فإننا قد تجاهلناه عمدا. ولماذا تجاهلناه؟ لأن هذه هى الطريقة التى تنجز بها الأمور بين دولتين ذات سيادة فى محاولتهما الوصول إلى اتفاق، طالما أن مرونة هذا الاتفاق وسهولة تنفيذه هما الهدف وليس الهدف معانى الاتفاق ونصوصه.

وأما الذى حدث بين البريطانيين والمصريين فى الوصول إلى اتفاقية حول قاعدة السويس فقد ذكر بإسهاب فى مواضع أخرى (وعلى سبيل المثال كتاب انتونى إيدن «الحلقة الكاملة»). ولكن هناك جانب من جوانب هذه القصة يجدر ذكره فى كتابنا هذا لأنه: أولا لم ينشره أحد بعد، ولأنه ثانيا، على علاقة قويه بموضوع ديبلوماسية ما وراء الكواليس. ففى كتابه، قال أنتونى إيدن: «رفض المصريون فكرة وجوب مشاركة الأمريكيين فى المفاوضات، بينما رأى الرئيس أيزنهاور أن موافقة المصريين شرط ضرورى للمشاركة». وبعدها بقليل ذكر إيدن: «لقد كان من سوء الحظ أن لا يكون عند الحكومة الامريكية أو خاصة عند سفيرها فى القاهرة، أى استعداد لممارسة أى ضغط على المصريين للحصول على موافقتهم». وأظن أن عند اليابانيين مثلا دارجا يقول «أعرف أننى أراه ولكننى أتجاهل ذلك» وذلك للدلالة على ما يقع عندما يجتمع ذكر وأنثى عاريان تماما فى بحيرة سباحة واحدة. ولكنهما يتجاهلان بعضهما البعض لياقة، فى حين أن كلا منهما عنده القدرة الكاملة على رؤية الآخر. ولكنه يتفادى. على الأقل. الالتقاء به صدفة. إننا بحاجة لعبارة مماثلة مثل «إننا ندرك ما هو كائن ولكننا نتجاهل علمنا به» لكى نفسر تاريخ حياة الرجال الشرفاء، الذين كانوا وقت وقوع بعض

الأحداث السياسية على اطلاع تام بالإجراءات خلف الكواليس التى كانت تمد المفاوضات بأداة ولكنهم بعد ذلك غسلوا أدمغتهم وتناسوا كل ذلك. حتى إن ذاكرتهم لتحتفظ بالصور التى تتناسب فقط مع مبادئ ومقومات أدبهم واحتشامهم. (فى كتاب إيدن «الحلقة الكاملة» سيتذكر القارئ كيف يتنصل إيدن من أية مفاوضات مع الفرنسيين والإسرائيليين، سبقت تحركاتهم ضد مصر فى سنة ١٩٥٦).

والحقيقة أنه خلال اجتماع ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ وافق الرئيس أيزنهاور على إرسال اللفتنانت جنرال ر.آ. هول (ضابط يثق به كثيرا) إلى القاهرة ليساعد المفاوضين البريطانيين. ولكن السير أنتونى لم يتحمس كثيرا لهذه الفكرة. وبعبارة أوضح. فإن مساعدى السير أنتونى لم يتحمسوا لتلك الفكرة خلال جلسات التفاصيل التى كانت تعقد بين الموظفين المسؤولين من كلا الطرفين الذين كان يقتصر عملهم على التقاط الفتات من الأرض بعدما يكون رؤساؤهم قد جرفهم الحماس فى اجتماعات تاريخية أعطوا فيها مواثيق، وقطعوا على أنفسهم عهودا، لا يعلمها إلا الله. ولم يكن عدم حماس مساعدى إيدن أقل من عدم حماس السفير الأمريكى كافرى فى القاهرة عندما نقلت إليه أنباء البرق نفس الفكرة الآنفة الذكر، فقد سارع كافرى إلى توضيح الحقيقة ان الحكومة الأمريكية قد حققت اتصالا وثيقا مع المصريين ولكنه شخصى وغير رسمى (وكلمة «غير رسمى» تعنى فى لغة «ديبلوماسية ما وراء الكواليس» اشخاصا - أو نشاطا - يمكن أن يتخذوا طابع الرسمية بعد أن يتحقق النجاح، ولكن فى حاله اكتشاف الأشخاص فإنهم يوصفون بأنهم لا يتمتعون بصلاحيات رسمية) وأن هذا الاتصال المذكور سيكون مساعدا للبريطانيين أكثر من حضور مفاوض أمريكى - مهما كانت جدارته - على طاولة المفاوضات. بل وأكثر من ذلك، فإن مجىء أى من المسؤولين فى البيت الأبيض بواشنطن سيضعف مركز كافرى فى هذه العلاقة. وأخيرا فإن المسؤولين فى وزارة الخارجية، الذين كانوا يلاحقون حثيثا الاقتراح القائل بإرسال الجنرال هول، رفضوا نفس الفكرة لخشيتهم أن الجنرال هول (مثله مثل أيزنهاور) سينظر إلى موضوع معاهدة «الميدو» على أنها اقتراح جدّى، وسيجعله مدار بحث مباشر مع بعد الناصر دون أن يمهد له بغمزات ولمزات يتبادلها معه بالذات.

وبخصوص الطرف المصرى، فقد أدرك عبد الناصر تماما أن المعاهدات بين دول كبيرة ودول أفريقية آسيوية صغيرة، هى معاهدات سريعة الزوال، سهلة النقض، وبالتالى فباستطاعته أن يتملص من أى من بنودها التى لا تروق له بعدما يتسلم المساعدات العسكرية

التى تعتبر جزءا من الصفقة. وأما جنرالاته فقد كانوا أقل حنكة وخبرة. فناصر - مثل كافرى ومثل كبار المسؤولين الأذكياء على طرفى الأطلسى - قد تخيل الجنرال هول جالسا مع الجنرالات المصريين، يتباحثون بجدية واهتمام ويتبادلون ما لديهم من أدلة وبراهين وردود عليها - بخصوص معاهدة دفاع إقليمية - إلى الحد الذى يفقدون فيه صبرهم تجاه بعضهم البعض. وتكون النتيجة ضياع الاتفاقية الإنجليزية المصرية بين الأقدام.

وبدرجات متفاوتة من الصراحة، فإن المشكلة كلها كانت موضع نقاش بين الأمريكيين والبريطانيين (على مستوى مسؤولين ومنفذين)، وبين المصريين والأمريكيين (كافرى - ناصر)، ولربما بين البريطانيين والمصريين. وتحت تلك الظروف كان الطريق الوحيد لإنهاء القضية هو ان يقوم المصريون بإعلان رفضهم لها رسميا. وعندما بدأ إيدن يدون مذكراته، كان قد نسيها. ولكنه أخبر وقتها أن الأمريكيين سيقدمون مساعدة «غير رسمية»، ولكنهم (لأسباب يستحسنها هو دون سائر الناس) لا يستطيعون المشاركة فى المناقشات فعلا.

أدت محادثات الوزير جون فوستر دالس مع عبد الناصر فى القاهرة فى آيار (مايو) ١٩٥٣ إلى وضع فكرة منظمة «الميدو» على الرف نهائيا. وإن لم يكن كذلك، فلقد حولتها على الاقل إلى فكره للمستقبل بدلا من كونها محتملة التنفيذ فى الوقت الحاضر. وأصبح السفير كافرى حرا لاستئناف مهمته التى أولاها كل أهمية كبيرة وهى: التوصل إلى اتفاقية عسكرية بين المصريين والأمريكيين تسهل لحكومتنا تزويد عبد الناصر بالأسلحة اللازمة لحفظ الأمن الداخلى، وبنفس الوقت تعزز الفرص أمام البريطانيين لأن يحصلوا على أى اتفاقية من أى نوع يثلج صدورهم ويشفى غليلها. وعلى خلاف ما يتذكر إيدن، فالامر السابق كان وقفا على الأمر اللاحق. وكما فهمها يومها عبد لناصر، وكما يفهمها اليوم، فإن التنسيق بين الأمريكيين والبريطانيين فيما يختص بسياسة الدفاع الدولية، له الأولوية الكبرى - عند واضعى خططنا - على علاقاتنا مع أى زعيم فى الشرق الأوسط (منذ عهد الرئيس أيزنهاور إلى عهد أى رئيس سينتخب فى المستقبل).

وقد احتجزنى السفير كافرى فى آب (أغسطس) لمدة من الزمن ، بينما كنت فى طريقى إلى تناول طعام الغداء مع عبد الناصر، ليقف على مدى استعدادى - بصفتى أمريكيا «غير رسمى» - لتفهم الموقف النهائى الذى يود عبد الناصر اتخاذه فى مفاوضاته مع البريطانيين، واقترح طريقا مختصرة متجاوزين كل المساومات لتصل إلى ذلك الموقف، أو إلى موقف معتدل بين الموقف البريطانى (الذى كان كافرى على علم به) وموقف عبد الناصر النهائى. وقد قال

لى كافرى يومها : «حاول أن تحدد أقصى ما يطمح إليه عبد الناصر، وأدنى ما يرضى به، واقنعه أننا سنتحتفظ بجوابه هذا لانفسنا».

وكانت تلك المرة الأولى التى طلب إلى فيها مباحثة عبد الناصر فى شؤون سياسته الدولية. ولم يكن سهلا تجنب الخوض فى السياسة الداخلية. لأنها كانت تمت إلى ما اهتم به من بعض مشاكل «العلاقات العامة» بصلة وثيقة. كما أننى لم أجد نفسى على استعداد لأخبره بأكثر من اقتراح كافرى. «بأن عليه أن يكون واضح الذهن بخصوص «أقصى ما يطمح له وأدنى ما يرضى به» سواء أكان راغبا بإبلاغى ذلك أم لا». وعندما نجحت فى طرق الموضوع، ونحن على مائدة الطعام، قلت له إنه ليس من الحكمة إعلامى شخصيا بموقفه، لأن إطلاعى على موضوع المفاوضات وقتها كان معدوما تقريبا، ولن أتمكن من استيعاب أى شىء عن الموضوع. واقترحت على ناصر أن نقوم معا باختيار رجل أعمال ذى مصالح فى الشرق الأوسط، ويهمه أن يرى الموضوع منتهيا بطريقة ما، وإن لم تكن لصالح البريطانيين ، ونستثير همته لإنهاء الصفقة على أحسن وجه ممكن. ولم تكن لصالح البريطانيين، ولم نعثر يومها على رجل اعمال مناسب لمثل هذه المهمة، ولذا تباحثنا فى صلاحية كيرميت روزفلت بوكالة المخابرات المركزية سيكون عقبة كأداء فى طريق إنجاز المهمة. ولكن عبد الناصر خالفنى فى هذه النقطة، ورأى أن روزفلت يمكنه أن يأخذ الصفة الرسمية كما كنا نبغى تماما. واعتقد ناصر أن موظفا كبيرا فى وكالة المخابرات المركزية مثل روزفلت سيكون لديه نفس فرصة أى مواطن عادى، ذلك لأنه لن يكون ممثلا لحكومة الولايات المتحدة كما هو معروف، ولن يكون فى موقف يضطره إلى اطلاع البريطانيين على حقيقة موقف عبد الناصر. كما أن إشرافه على قضايا الأمن الهامة فى حكومة الولايات المتحدة سيمكنه من فهم الموضوع جيدا. وكذلك فإن علاقة روزفلت الوثيقة بالأخوين دالس ذات أهمية عند عبد الناصر. كما اطمأن ناصر إلى عدم اعتراض كافرى على هذا الاختيار.

لم يصدق عبد الناصر فى قرارة نفسه أن روزفلت لن يخبر البريطانيين على منا سيطلع عليه . فلم يكن بوسع عبد الناصر أن يصدق أن أى شخص «غير رسمى» فى أى بلد كان . بغض النظر عما يقسم من أيمان مغلظة كأى انسان . لن يفشى الأسرار إن رأى ذلك مناسبا لمصالح بلاده الخاصة. وقد قادته خبرته السابقة إلى الاعتقاد بأن روزفلت هو من النوع الذى

يعلم كيف يتظاهر أمام البريطانيين بجهله لحقيقة الموقف الذى يساوم عبد الناصر عليه البريطانيين. والذى لن يخبره عبد الناصر به ولن يخبر غيره كذلك. وبهذا يتمكن ناصر من الحصول على صفقة رابحة من البريطانيين أكثر من تلك التى يمكن لمندوبى ناصر أنفسهم أن يحققوها. وكما حدث فعلا، فقد تمكن روزفلت من أن يكون صريحا مع الطرفين. وقد أخبرت كافرى بحديثى هذا مع عبد الناصر حال انتهاء تناولنا طعام الغداء. وقام كافرى بإبراق الفكرة إلى واشنطن، بدون تأخير، فى نفس بعد ظهر اليوم. ووصل روزفلت إلى مصر قبل نهاية الأسبوع بعد توقفه فى لندن ليتزود من وزارة الخارجية البريطانية بآخر المعلومات المهمة - أو الثانوية - عن المفاوضات. وفى أول اجتماع له مع بعد الناصر كان قد أصبح على علم تام وفهم عميق بمسألة «الحالة الأولى» و«الحالة الثانية»، وألمَّ بجميع جوانبها إلماما كافيا لأن يهيىء للأمريكيين والمصريين أحسن الظروف للوصول إلى حل عسكرى، أو إلى أى نوع آخر من الحلول بين مصر وبريطانيا وأمريكا. ومنذ ذلك الحين، انحصر عمل روزفلت فى تحديد رغبات المصريين والبريطانيين. وهى عكس ما يعلنون عنه. وفى إعداد الصيغة التى سيقبل بها كل طرف لاحتوائها على النقاط المهمة. والغامضة أحيانا. ويدع كل طرف منها الطرف الآخر يربح ما ليس مهما (وإن كان يظهر أنه مهم أحيانا). وهكذا، فإن «حيلة» ديبلوماسية ما وراء الكواليس ليست فى بعض الأحيان أكثر من طرح مطول ومتعمد على الطاولة لمواضيع عديدة، ومن ثم مناقشتها بصورة صريحة، وبطريقة لا يمكن أن تكون جزءا من مباحثات ديبلوماسية رسمية، أو أن يحتفظ بها مدونة فى مذكرات وتقارير.

ومع أنه لا فائدة ترجى من الدخول فى تفاصيل تسوية مشكلة قاعدة السويس، فإن أحد اهدافنا هو المساعدة على فهم ما قصدناه آنفا من أن بعض النقاط الواردة فى التسوية تعتبر حقا مهمة مع أنها قد أغفلت ولم تعط الأهمية اللائقة بها، فى حين أن نقاطا أخرى كات تثير اللغط وترتفع الأصوات لأجلها مع أنها فى الحقيقة غير مهمة. ففى المحادثات الأولية اقترح البريطانيون ثلاثة حلول لمشكلة قاعدة السويس ليتم اختيار أحدها.

(أ) يعطى البريطانيون للمصريين حق السيادة على القواعد. كما تمارس إسبانيا سيادتها على القواعد الأمريكية. مقابل السماح لعدة آلاف من البريطانيين بالبقاء فى مصر للإشراف عليها وخدمتها. (ب) يقوم رجال الصيانة المصريون بخدمة القاعدة ورعايتها تحت إشراف المراقبين البريطانيين. (ج) يقوم المصريون بصيانة القاعدة ورعايتها تحت إشراف مراقبين

مصريين، على أن يكون للبريطانيين حق التفتيش عليها من حين لآخر. وقبل أن يتبادل روزفلت الآراء مع عبد الناصر، كانت المفاوضات عبارة عن مماحكات ومساومات تدور كلها حول الحالة (أ)، التى كانت تمثل الحد الأقصى الذى لن يتجاوزه البريطانيون فى حين كانت مرفوضة كليا من قبل المصريين، وحول الحالة (ج) التى كانت أدنى ما يقبل به البريطانيون، ولكنها نالت موافقة المصريين لأنها - فيما عدا ظاهر القول فيها - لا يترتب عليها شىء ذو بال. ولو ان المفاوضات استمرت على تلك الأسس لقبل المصريون - على ما يبدو - بالحالة (ب). ولكن روزفلت أكد أن المقترحات الثلاثة المذكورة ليست هى الحلول المقترحة للمشكلة.

ولا أقصد أن أقول هنا أن روزفلت، نفسه هو الذى أوجد تسوية مشكلة قاعدة السويس. فقد توصل إلى التسوية فريق من المفاوضين المهرة لاحظ عدم جدوى الحالة (أ) و(ب) و(ج) كحلول للقضية. إلا أننى أوكد ان روزفلت قد ساعد المفاوضين البريطانيين على تجنب كثير من المماحكات التى لا تمت إلى الموضوع بصلة، وبذلك يكون قد خدم قضية المفاوضات أكثر من مشاركة الأمريكيين المباشرة (التى افتقدها إيدن)، أو الضغط المباشر الذى كان يود إيدن لو أن السفير كافرى مارسه على المصريين. وأن أى شخص فى وزارة الخارجية البريطانية لديه إلمام بسيط بطريقة تنظيم صيغة الدفاع الأنكلو أمريكى عن العالم الحر، لكان باستطاعته أن يدرك النقاط التالية:

(١) ان منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط (ميدو) كانت من المفارقات التاريخية التى جاءت فى غير وقتها. (كما أن منظمة الناتو تكاد تصبح من هذا القبيل أيضا). والسبب الوحيد الذى دفع بوزارة الخارجية الأمريكية إلى بحثها (بجدية متكلفة) هو وزير الخارجية نفسه المستر دالس الذى لم يتمكن من تناسى هذه الفكرة مع أنه رجل لامع ذكى. فإذا كانت الحالات (أ) و(ب) و(ج) تؤخذ بعين الاهتمام. وإذا كانت تنال أى اعتبار، فليس لأن لها علاقه بمخطط الدفاع عن المنطقة. ومع أن الحالات الثلاث تستأثر بقسط وافر عن اهتمامنا، فإن ذلك لن يجعلها، بأية صورة جزءًا من مخططات الدفاع الأنكلو أمريكية عن المنطقة. ولكنها بصراحة ستبقى فى خطة الدفاع البريطانية (وليست الأمريكية) عن المنطقة شرقى السويس.

(٢) وعلى أية حال فإن نقل القوات البريطانية من السويس إلى شرقها كانت على وشك؛ أن تكون صورية لأسباب لا تمت إلى الشؤون الدفاعية بصلة مباشرة.

(٣) لم يكن المصريون على استعداد لأن يحافظوا على نصوص أى اتفاق يتوصلون إليه، كما كانوا يصرون على الحالة (ج) أو ما يعادلها لما تتيحه لهم من دعاية وشهرة. فلو أن المصريين وافقوا على الحالة (أ) فإنهم يبدأون بالصراخ منها بعد شهر واحد من توقيعها، وربما يشنون موجة تخريب انتقامية ضد القاعدة. وأما الحالة (ب)، فإنها ستدوم حتى يجد عبد الناصر عذرا يبرر وضع المشرفين البريطانيين على القاعدة على متن مركب لإعادتهم إلى وطنهم، متحديا الحكومة البريطانية أن تتخذ أيه إجراءات مضادة. كما فعل معها عندما أمم شركة قناة السويس فيما بعد. أما مصير الحالة (ج)، وهى الوحيدة التى نالت الموافقة أخيرا، فقد كان يتوقف على مدى اطلاع الرأى العام عليها. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن كل أولئك الذين كانت تعنيهم المفاوضات ، من قريب أو من بعيد، من البريطانيين والمصريين والمتطفلين الأمريكيين كانوا على علم تام بكل ما سبق ذكره، ولكنهم لا يتمكنون من الكشف عنه، إلا أن روزفلت ـ وهو ديبلوماسى ما وراء الكواليس ـ كان يقدر على كشفه كله ، وقد فعل ذلك.

وأما ناصر، فقد كان على علم بأن العلاقات الإنكليزية ـ الأمريكية كانت تعانى من بعض الاحتكاكات العائلية، لنفور شخصى بين دالس وإيدن، إلا أنها لم تفقد صفة التفاهم والاتفاق كعادتها فيما يتعلق بأوضاع ناصر ومشاكله. وكان ناصر يتعجب حيال هذا النوع من المناورات السياسية بين البريطانيين والأمريكيين وكيف أنها لوحدها تتكفل فى تحديد صلاحيات وسلطات كل طرف فى إدارة وتوجيه منظمة حلف الأطلسى ومنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط والقواعد العسكرية الأخرى. وأما بخصوص تحديات الروس للغرب (على غرار ما فعله هتلر فى الحرب العالمية الثانية) فقد كان ناصر يعلم تمام العلم أن الفرص أمامهم لفعل ذلك عديم الاهمية (وأن البريطانيين والأمريكيين يعلمون هذا أيضا أكثر من ناصر نفسه). إلا أن تصميمنا ـ نحن الأمريكيين ـ على إيقاف هذا الخطر الذى لا وجود له، وسيظهرنا بمظهر مثيرى الحروب، وذلك كما كانت الدعاية السوفييتية توصمنا به. ورأى عبد الناصر أيضا أن الهجوم السوفييتى على العالم العربى وعلى الشرق الأوسط هو من النوع السياسى التآمرى الذى لن يتأخر عن استغلال وجود «الإمبريالية» العسكرية فى بعض الدول ليزيد من حدة هجومه هذا. ولم يكن لعبد الناصر أن يتصور اهتمامنا الجدى بموضوع المعاهدات. أما نحن فمن المؤكد ـ نظرا لخبرتنا الطويلة وحنكتنا الديبلوماسية ـ أننا نعلم بما فيه الكفاية أنه فى اللحظات التى تنشب فيها الأزمات فإن الأمم تتصرف على أساس مصالحها المطلقة وقتئذ،

سواء أكات هناك معاهدات أو لم تكن، وأن الأزمة المتوقع نشوبها فى المستقبل ستكون سياسية بطبيعتها وخارج نطاق ما يحل بالمعاهدات (مع اضطرابات وحروب عصابات وهجمات يقوم بها ما يظهر أنهم «عناصر داخلية» لتقديم العون المادى بدلا من غزو عسكرى مكشوف). وقد اعترف عبد الناصر بصراحة لكيرميت روزفلت أنه اذا «ما تفضل» وأولى فقرات اتفاقية قناة السويس بعض اهتمامه فإنه يفعل ذلك من باب مداعبة ايدن ودالس وملاطفتهم. وذلك ان كل ما كان يهمه هو إخراج البريطانيين، وهو على استعداد لأن يعطى أى وعد طالما أن الشعب المصرى يعرف أنه ليس بنيته المحافظة على وعودة وإنجاز عهوده.

أما بالنسبة لنا: فإنه لم يفهم وجهة نظر عبد الناصر إلا البريطانيون والأميركيون الذين أتاحت لهم ظروفهم أن يتتبعوا مراحل الثورة من أولها، أو الذين لاحظوا مشاكلها المصاحبة لآمالها وتطلعاتها المتزايدة. ولقد فهمنا أن عبد الناصر قد ألزم نفسه بسياسة ترفض فكرة التحالفات مع الدول الكبرى. ولهذا كان ملزما بنقض أية معاهدة بشأن قاعدة السويس - أو - غيرها من المعاهدات - يضطر إلى توقيعها لأسباب «تكتيكية». وكما أخبر ناصر كلا من السفير البريطانى والسفير الأمريكى وروزفلت ومن أرسلهم روزفلت من الاختصاصيين إلى القاهرة. وأخبرنى أيضا - من جملة الذين أخبرهم من اصدقائه الغربيين الذين تعاملوا معه بمسائل إدارية واقتصادية ومالية - إن هدفه الرئيسى هو أن يتسلل إلى مركز يتيح له أن يقرر المسائل الفردية فى السياسة الدولية على أسس موضوعية بغض النظر عن كونها تلائم مصالح دولة كبرى معينة أم لا. ولحين قيام روسيا بشن هجومها على الشرق الأوسط. فإن ناصر كان يرغب بأن يتمتع بحرية كاملة فى معارضة الدول الكبرى أو مخالفتها وفى كيفية إنجاز ذلك، تاركا إيانا نضرب أخماسا بأسداس بدون أن نعرف ما يريد حتى اللحظة الأخيرة. ومن الطبيعى أن يكون من مخططة أن يفهم الغرب والسوفييت هذا، ويقبلوا به، ويعاملوه على أساسه، بل ويلاطفوه ويداهنوه.

وبالإضافة إلى قوة المساومة التى سيكسبه إياها استقلاله هذا، فقد كانت تواجهه مشكلة اشباع كبرياء الشعب المصرى المتقد حديثا، والذى دفع عجلته إلى الأمام برنامج «الحالة الثانية» الذى لا يجوز التخفيف من شأنه. فعندما ينظر المرء فيرى أن اللاجئين الفلسطينيين (الذين نبعث) «الحالة الثانية» من الواقع التعيس الذى يعيشونه وليس من طموح أى زعيم عربى) قد جمعوا خيامهم وأغطيتهم فى إحدى ليالى الشتاء القارسة وأشعلوا فيها النار. يبدأ

بإدراك الحقيقة التاليه وهى: أن إشباع كبرياء شعب محروم أكثر أهمية من تأمين الغذاء والمسكن له. وبعد أن أرسى عبد الناصر قواعد راسخة «لأجهزة القمع» فى نظام حكمه، وبعد ان بدأ العمل على إنجاز «أجهزة البناء» فقد أخذ يعتقد أن إشباع كبرياء شعبه يشكل بديلا مناسبا عن إشباع حاجاته الاقتصادية التى لم يتمكن وقتها من تحقيق أى منها. ولقد اكتشف عبد الناصر سريعا أن إلهاء الشعب المصرى فى «نهضته الحديثة»، يؤثر إشباع كبريائه. وبعد الضربة الكاسحة التى تلقتها مصر من إسرائيل بعد أشهر، وفى خضم الصعوبات الاقتصادية التى لم تر مصر مثيلا لها طوال تاريخها، قال أحد المصريين الذين لا يشك بذكائهم ألا وهو مصطفى أمين، الذى كان قد أمضى حتى ذك الوقت ثلاث سنوات فى السجن): «إن عبد الناصر قد أساء كثيرا إلىَّ وإلى اصدقائى، وحتى إلى بلادى كلها، ولكن يجب أن أعترف أنه علمنى كيف أكون فخو بكونى مصريا». وفى الوقت الذى أصبح فيه منصب عبد الناصر «لمدى الحياة» (ونستعمل هذه العبارة على غرابة معناها فى الشرق الأوسط) كان قد حفظ عن ظهر قلب أن الشعب المصرى فى «نهضته الحديثة»، يؤثر إشباع كبريائه فى اغتنام أية فرصة لتحسين أوضاعه الاقتصادية.

وأما اشباع كبرياء الشعب المصرى. فقد قطع شوطا بعيدا عندما أصبحت مصر دولة مستقلة حقيقة، وتتمتع بحرية كاملة لتقرير ما يعنيها من المشاكل الدولية على أساس من حالتها الراهنة، بدون أن تلتزم باطار يصنع فى لندن أو واشنطن أو موسكو. وقد أعطت عبدالناصر - على الأقل - منطلقا لخطوات اخرى، تعزز أهدافه الأخرى الأكثر واقعية فى الوقت الذى يتابع فيه إشباع جوع الشعب للكبرياء. وكان عبد الناصر بحاجة إلى تأييد وطنى قوى ليعقد صفقة جديدة فى مجال الوحدة العربية، تعطى مصر فرصا أكبر من تلك التى تقدمها مقترحات البريطانيين مثل فكرة الجامعة العربية، وفكرة سوريا الكبرى، والهلال الخصيب.

إن تمتع مصر باستقلال حقيقى بدون أن يكون فيها أمثال لورنس العرب يديرون سياستها من وراء الحجب، وهم قابعون فى غرف خلفية، هو العامل الوحيد الذى يرسى فكره القومية العربية على الأسس الجديدة التى يتخيلها عبد الناصر. وقد كان من أهم المخططات عند عبدالناصر هو ان تثير مصر اهتمام الدول العربية الأخرى بالموضوع حتى يتمكنوا من الحكم على قيادته السياسية على أساس المبادئ الجديدة التى تفرضها العروبة الجديدة. ولم يكن من

المهم الوصول إلى ما يسمى «بالأمة العربية». وعندما يتحرر عبدالناصر من الاحتلال البريطانى . حسب تعبيره . يصبح واقفا على أرض صلبة يتمكن معها أن يلهب كبرياء المصريين عن طريق رفع راية قيادته للعالم العربى.

أما كيف كانت هذه الفكرة من نيات ناصر الواقعية الغريبة، فإن ذلك سيكون موضوع بحثنا فى الفصل اللاحق. ولكن يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن عزمه الحقيقى على هذه الفكرة، كان معروفا من قبل الوزير دالس نفسه ومن غالبية الموظفين العاملين فى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع. وكان هؤلاء الموظفون . بالرغم من ارتباك رؤسائهم . يبذلون قصارى جهدهم لوضع وتطبيق الخطط السياسية التى تأخذ جميع حقائق الحياة . مهما كانت مرة . بعين الاعتبار. وكانت حقائق الحياة هذه تميل إلى بروز قائد . ناصر أو غيره . يدرك تماما كيف يستغل نزاع الشرق مع الغرب لمصلحته الخاصة وبالتإلى يحرز قوة كبيرة فى «لعبة الأمم» تعدى حدود قوة بلاده الاقتصادية والعسكرية.

وقع المصريون والبريطانيون اتفاقية قاعدة السويس فى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤. وبعدها بشهر واحد أرسل البنتاغون اثنين برتبة كولونيل (مقدم)، هما البرت جبرهارت وويلبر (بل) إيفلاند، إلى القاهرة. ليتفقا على الأسس الجديدة للعلاقات المصرية . الأمريكية التى ستقوم حكومتنا بموجبها بتزويد المصريين بالسلاح الذى يحتاجونه للأمن الداخلى. وكان من الضرورى أن تكون فى منتهى السرية ولا يدون بها سجل أو يوضع عنها تقرير. وقد طلب منى السفير كافرى أن أرتب المقابلة، وأحضرها بنفسى، ثم أنقل له ما يدور فيها. ومن الطبيعى أن يكون وجودى كمراقب ودون أية صفة رسمية.

وقد تم اللقاء فى الساعة الثامنة مساء فى بيت حسن التهامى . كبير أعوان عبد الناصر. فى ضواحى القاهرة. وحضرها ناصر وعامر والكولونيلان الأمريكيان وحسن التهامى بالإضافة إلىَّ. كان الجو وديا وبعيدا عن التكليف والشكليات إلا أن المرء يخدع بذلك المظهر. فالبرغم من كل الآراء التى تبادلتها حكومتنا مع ناصر شفويا، فقد كانت تلك الجلسة أولى الجلسات التى يبرز فيها التباين فى وجهات النظر بين الأمريكيين والمصريين كما بدأ فيها يتحدد شكل رقعة اللعب بين ناصر ودالس. وقد خلع الحضور ستراتهم وعلقوها على مساند الكراسى وراءهم، وأخذوا ينادون بعضهم بالأسماء دون الألقاب مثل «عال» و«بيل» وحتى «جمال»، ثم وضعت وجبة طعام منزلية على مائدة مستديرة تناولها الجميع وكأنهم عائلة

واحدة. وبعد ساعة من مرح العسكريين، بدأنا الحديث لننتهى إلى ما أطلقنا عليه بعد سنوات اسم «الأحاديث» الصريحة التى اعتدنا على تبادلها».

بدأ جيرهارت الحديث بشرح الفلسفة التى تكمن خلف فكره منظمة حلف شمال الأطلسى ـ ناتو. قائلا: «لنعطى حلفاءنا فرصة نرتبط بها معا على قدم المساواة قبل نشوب الحرب لكى لا يكون هنك سوء فهم وتباين فى المسؤولية مثل «ماذا يدين كل منا ولمن؟» كتلك التى حصلت فى الحرب الأخيرة». وإجابة ناصر بأن فكرة الارتباط معا على قدم المساواة جميلة ومغرية، ولكنه ابدى شكه فيما إذا كانت فرنسا مثلا، ستبقى مهتمة بالفكرة بعد عشر سنوات!.

ثم شرح ايفلاند، فكرة «المساواة» فى الارتباط وقال إنها ليست بأهمية «الفعالية» فى الارتباط، وأن كل من شارك فى وضع مخططات منظمة الناتو أدرك يومها أن القدرة العسكرية الإجمالية للدول المرتبطة أصبحت أكبر من مجموعها الحسابى وهى منفردة. ثم التفت إلى عامر قائلا: «إنك كرجل عسكرى يجب أن تعترف أن الدفاع الإقليمى عن منطقة الشرق الأوسط هو الأسلوب الوحيد ذو الفعالية فى المنطقة، وأن الطاقات العسكرية الفردية لكل دول الشرق الأوسط، اذا ما جمعت معا، فإنها لربما تفى بحاجة أمنكم، ولكن لن تقوى على الدفاع عن أى طرف أخر».

فأجاب عامر: «صحيح إن ترتيبات إقليمية قد تخدم أهدافكم، ولكن قبل أن أحدد ما يخدم أهدافنا علينا أن نحدد من هو عدونا الذى سنقاتله؟» وبعد هذه المحاورت جرت مجادلة كان كلا الطرفين فيها متحفظا. فالأمريكيون لم يذكروا مرة واحدة عبارة «المستعمرين الإمبرياليين». فقد حاول كل من جيرهارت وايفلاند أن يبرهن على أن فكرة «الوحدة العربية» أو اية وحدة إقليمية أخرى لن تكون ذات مدلول ومغزى طالما أن الدول القائمة فى المنطقة تصر على برنامج الدفاع الفردية. ولكن عامرا أصر على سؤاله «دفاع ضد من؟» وهنا اضطر جيرهارت وايفلاند أن يقرا بأن «افتراضات التخطيط فى واشنطن أظهرت أن الروس هم العدو المتوقع، ولكن لا لزوم هناك لإبراز هذه الفكرة فى الخطط الإقليمية، وأن موقف واشنطن هو أن تكون خطط دفاعكم الاقليمية موجهة ضد أى عدو يظهر بعد ذلك». واختتم جيرهارت قوله: «لنجرب ونرى فيما إذا كان يمكننا معا أن نتعرف إلى العدو المشترك؛ لحظة مواجهتنا الخطر الحقيقى».

أما ناصر فقد أخلد إلى الهدوء طيلة فترة تبادل الآراء. ولكن لم يلبث أن قاطعهم معترضا على أن كل هذا الغموض فى النظريات حول تعريف من هو العدو لا يلائم سوى المناقشات الثقافية المحضة، ولكنها ستنقلب إلى مجرد هراء حال وصولها إلى واضعى الخطط العسكرية من العرب. ففى لقاءات الاستراتيجيين العرب لن يجد أحد منهم أى صعوبة أو التباس فى الوصول إلى أن العدو هو إسرائيل بالنسبة لنا، وروسيا بالنسبة للأمريكيين. ثم قال: «إن العرب سيقولون إنكم تحاولون أن توحدوهم ليحاربوا عدوكم، فى حين أن مجرد ظهور نياتهم فى محاربة عدوهم هم - إسرائيل - فانكم ستوقفون مساعداتكم على الفور. وإن أيه معاهدة دفاعية إقليمية لا تأخذ هذه النظرة بعين الاعتبار فستكون محض احتيال وخداع».

وحدث بعد ذلك تبادل فى الآراء حول عبارة أفادت التقارير أن الوزير دالس قد قالها، ومعناها «على العرب أن يشعروا أن عدوهم الحقيقى هو الشيوعية العالمية». وقد دافع جيرهارت وايفلاند عن هذه الفكرة بحماس، مدَّعين أنها كافية لتحريك الحوافز عند العرب لعقد تحالف يدفع خطر الغزو العسكرى السوفييتى. ولكن ناصرا أجاب بمحاضرة طويلة، ومملة، دارت حول التفريق بين خطر التغلغل الشيوعى السوفييتى الذى - إن وجد- سيكون حافزا لترتيبات دفاع إقليمية. وأضاف ناصر بعد ذلك: «ولكننا فى هذه المنطقة من العالم لا نعرف سوى عدوين: أولهما إسرائيل التى لا نزال فى حروب معها بحسب العرف والعادة، وثانيهما: البريطانيون، الذين مازالوا يحتلون بعض المناطق الغربية. والعرب لا يعرفون شيئا عن الروس، ومن الحماقة أن نحاول لفت أنظارهم وإخافتهم من الغزو السوفييتى.

وانتهى اللقاء بعدما تبادل الجميع الآراء، وأفرغوا ما فى جعبهم من مقترحات وبراهين. وقد قدم بيل ايفلاند تقريره للأمريكيين، وذكر فيه، بعبارات خفية، أنه مهما كانت فكرة إيجاد خطة دفاع إيجابية لمنطقة الشرق الأوسط مقبولة أو مرفوضة فإن ذلك ما يريده المخططون العسكريون فى أمريكا. وبناء على ذلك فإن كل مساعداتنا الاقتصادية والعسكرية لدول الشرق الأوسط يجب ان تتناسيب مع درجة حماستهم لفكرتنا هذه.

أما ناصر، فقد قال للمصريين الشىء الذى أصبح فيما بعد الهدف الرئيسى لسياسته الخارجية، وموطئ قدمه فى مواجهة الدول الكبرى ليحصل على ما كان يريده منها لتأييد أهدافه الأخرى وتعزيزها. ومما قاله مرة فى هذا الصدد: «ربما لا يجد نورى باشا أى حرج فى اتخاذ قراراته بناء على مدى انسجامها مع استراتيجيتكم العالمية. ولكننى لا أستطيع أن

أفعل ذلك»، وكان نورى باشا رئيس وزارة العراق «بعبع» عبد الناصر فى تلك الفترة وأضاف ناصر: «وإننى عازم على أن أتخذ مواقفى من القضايا بناء على ما لها من الآثار الموضوعية، وستكون كلها مما يناسب مصر ويخدم مصالحها. إن تمتعنا بمثل هذه الحرية هو من اهم الأهداف لنا، ولا يقل أهمية عن الازدهار الاقتصادى. وإننى أعتقد أخيرا أن حكومتك - فى النهاية - ستفضل مساعدة أمة حرة على مساعدة أمة تدور فى فلكها».

وهكذا فقد انتهى اللقاء المذكور آنفا بنفس العواطف التى سادت بدايته من بشاشة غير متكلفة، ونكات عابرة ثم ترتيب العودة إلى المدينة. ولم يكن ظاهر الاجتماع أكثر من دعوة لتناول طعام العشاء فى سهرة اجتماعية بحتة. ولم يتولد عندى يومها أى شعور بأننى كنت من حضور الجلسة الافتتاحية للعبة بين الحكومة الأمريكية وعبد الناصر التى بدأت يومها بداية سيئة، واستمرت فى ذلك حتى يومنا هذا، مرورا بأزمة الحرب العربية الإسرائيلية فى حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

وفى صبيحة اليوم التالى تكونت لدى فكرة غامضة عن ذلك عندما سألت بيل ايفلاند: «ما رأيك بما قاله جمال البارحة؟» فأجابنى: «إنها مقامرة خاسرة، فليس هناك ما يسمى باستقلال كامل لأية دولة فى هذا العالم، وخصوصا لدولة مثل مصر، لا يمكنها أن تعيش أبدا بدون الاعتماد على المساعدات الخارجية. وإذا ما أعطيناه المساعدات التى يريدها فسيشعر أن من واجبه النظر إلى مصالحنا بعين الاهتمام. فإذا كان لا يريد أن يسير معنا فهناك كثيرون غيره سيفعلون ذلك». فقلت: «ولكن ما رأيك لو أنه شكّل مع البقية جبهة واحدة كما يقف اتحاد العمال مع العمال صفا واحدا ضد مجلس الإدارة؟ فأجابنى: «لقد تأخر كثيرا. فلقد كسبنا لجانبنا كلا من العراق ولبنان والأردن وتركيا وإيران والباكستان.

وهكذا فإن الوزير دالس قد قرر أن يسلك الطريق الأسهل «طريق إغراء الأمم بالمساعدات». وقد سنحت لى الفرصة مرة أن أختلس نظرة إلى جواز سفر ايفلاند أثناء إيصاله مع زميله إلى المطار، وتأكدت أنه قد زار فعلا لبنان والعراق والأردن. ولعلمى بعلاقة إيفلاند الحسنة مع كل من الرئيس شمعون ورئيس وزراء العراق نورى السعيد والملك حسين، لم يعد عندى أى شك بأنه قد جمعهم بشكل ما لإنشاء منظمة دفاع عن الشرق الأوسط. وما أظن أن إيفلاند كان يهدف إلى دفعى لممارسة ضغط متزايد على ناصر. فلو أنه قال: «أرجو منك أن لا تخبر ناصرا بهذا»، فسأجزم عندئذ أنه يحاول أن يخدعنى. لقد كان الطيش المدروس فى ذلك الوقت قياسيا ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا.

إن الطريق الأسهل «لفن إدارة الدولة والديبلوماسية» (الذى كان يعرف عند البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية باسم «عمل الجواد») كان يعتمد على الرأى القائل بأن جميع أمم العالم تطمح بطرق أفضل للحياة اقتصاديا واجتماعيا، وأن طريق إنشاء علاقات مشتركة معهم فيها نفع للجميع هى فى تقديم مساعدات اقتصادية وتكتيكية بمقادر مغرية. ولكن المؤمن بهذه الطرق السهلة لاستمالة وإغراء الأمم سيصاب بالذهول عندما يرى جمهورا من اللاجئين الفلسطينيين يجمعون خيامهم وأغطيتهم. التى قدمها لهم الغرب كمساعدات، فى يوم قارس من أيام الشتاء ويشعلون فيها النار. وأعجب من ذلك عندما يرى ذاك المؤمن المصريين، بعد هزيمة نكراء أنزلها بهم الإسرائيليون، يلتقون مع السوريين والجزائريين ليضعوا الخطط لتجريب عضلاتهم مرة أخرى. وبنفس الوقت يمارسون أشد أنواع الأعمال التى تنفر الدول الغربية التى هم فى أمس الحاجة إلى مساعدتها. ولقد علق مؤخرا أحد كبار المؤمنين بسياسة الإغراء بالمساعدات على ذلك بقوله: «لا يمكننى أن أصدق أن العرب سيصرون إلى الأبد على قطع أنوفهم نكاية بوجودهم». أما الذين يؤمنون بعكس ذلك، أى بالطريق الصعب، فيعتقدون أن العرب - ولنفس السبب، عديد من شعوب البلدان المتخلفة - سيدأبون على مثل هذه التصرفات، ويعود سبب هذه المواقف الاعتزالية - الكئيبة - إلى أن شعود تلك البلاد تشعر عند انتمائها لمثل هذه المخططات أن ذلك لا يمكن أن يكون إلا على أساس أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ومعزولون عن المشاركة فى تقرير الأمور المشتركة. ولقد أخبرنى حديثا أحد السفراء الأمريكيين فى إحدى الدول الأفريقية عن انطباعاته فقال ما يلى: «إن هذه الشعوب لن تتمكن ابدا من إنتاج ما تحتاجه من أجهزة المذياع الترانزستور أو من الثلاجات بنفس الأسعار الرخيصة التى تشتريها من الخارج. كما أنه لن يكون لهم أى دور فى الاقتصاد الغربى أو السوفييتى أكثر من تصدير المواد الأولية التى تعاد لهم مصنعة جاهزة. ومهما كانت سرعة تقدمهم مع كل ما نقدمه لهم من مساعدات فإن الدول الغربية ستحرز تقدما بصورة أسرع بكثير. وبعد عشرين عاما من مراقبة تأخرهم وحرمانهم فإنه نادرا ما تصيبنى الدهشة عندما أراهم يرفضون المنطق والقيم الغربية حتى مع أنهم لا يملكون ما هو أحسن منها للتمسك به». هذه هى نظرية الطريق الصعبة التى تصل إلى حد الاعتقاد أن شعوب البلدان المتخلفة تعانى من الحرمان وخيبة الأمل إلى الحد الذى فقدت فيه عقلها السليم وتفكيرها القويم. والسياسة الغربية، التى تظن أن هذه الشعوب ستتصرف بناء على رغبتها فى تأمين أقصى ما يمكنها من المنافع المادية، تبوء بالفشل الذريع.

لقد اختار الوزير دالس «الطريق السهلة» وكان يمكن أن نرى كثيرا من نتائجه قبل انهياره. ولكن مستويات الحل والتخطيط فى وزارة الخارجية والبنتاجون كانت تسير منحدرة فى اتجاه الطريق الصعبة» ـ أى الدفع بدون تجاوب ـ على مرأى ومسمع الوزير دالس نفسه. إن تنفيذ سياسة المساعدات كان على الغالب متعارضا مع سياسة الوزير الأساسية، ومع هذا فقد لعب ذلك دورا رئيسيا فى تحديد شكل العديد من الوقائع اللاحقة. وبعبارة أوضح، فبعد أيام من تأكيد جيرهارت وايفلاند لناصر، أن حصوله على المساعدات يعتمد على مدى موافقته على السياسة الدفاعية للمنطقة، وجواب ناصر الصريح بعدم عزمه على الموافقة حصل ناصر على أربعين مليون دولار كمساعدات اقتصادية كانت معلقة. وبدأت أيضا المحادثات بين ناصر والحكومة الأمريكية حول السماح له بشراء ما يعادل عشرين مليون دولار من المعدات العسكرية بأسعار مقبولة وبشروط دفع مخففة.

ومع أننا سنخرج عن موضوعنا الأساسى فإننى أشعر بضرورة الإشارة إلى رجل اسمه «هنرى هانك بايرود» الذى شغل منصب مساعد وزير الخارجية. وكان فى واشنطن فى أواخر مدة خدمة السفير إنرى ثم حل محله كسفير لنا فى مصر فى ٥ كانون الثانى (يناير) ١٩٥٥. كان بايرود يبلغ من العمر ٣٩ عاما فقط ـ نفس سن ناصر تقريبا. وقبل مجيئه إلى وزارة الخارجية كان ضابطا ناجحا جدا فقد وصل إلى رتبة عميد قبل الثلاثين من عمره. وكان شخصا متواضعا بعيدا عن التكلف بصورة تكسبه محبة كل من يلتقى به، وعلى الأخص ناصر. وكان مخلصا صدوقا جديرا بالثقة وخدوما مرحا، وشجاعا وقورا. وبالاختصار فقد كان من النوع الذى يوصف بأنه سفير نموذجى.

صدر الإعلان عن تقديم الأربعين مليونا من الدولارات كمساعدة فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٤. وبعد ستة أسابيع نشرت أنباء الاتفاقية العسكرية التى تحدث عنها ايفلاند وكان ذلك فى كانون الثانى (يناير) ١٩٥٥. ووصل بايرود إلى القاهرة فى الاسبوع التالى. كما أن الاتفاقية العسكرية التى عرفت فيما بعد باسم «حلف بغداد» بدأت كاتفاقية بين رئيس وزراء العراق نورى السعيد ورئيس وزراء تركيا عدنان مندريس، ثم انضمت إليها فيما بعد الباكستان، لتشكل منظمة الصف الشمالى التى فضلها دالس على منظمة الدفاع الإقليمية كوسيلة للوقوف فى وجه السوفييت. ومع أنها لم تضم سوى دولة عربية واحدة فقد كانت

مصدر ازعاج كبير لناصر، لأنها أفسدت عليه خطته فى إيجاد جبهة عربية محايدة. وقد قمت مع جيمس ايخلبرغر بإبلاغ ناصر نبأ التوقيع عليها، فقد كان ناصر قد اعتبر كلام ايفلاند وجيرهارت مجرد خدعة وإيهام: فكيف يحذره كل من ايفلاند وجيرهارت من ان معاهدة كهذه على وشك التوقيع، وبنفس الوقت تقوم الحكومة الأمريكية بدفع (أربعين مليون دولار) كمساعدة اقتصادية له ثم تعطيه تسهيلات بعشرين مليون دولار كمساعدة عسكرية لشراء المعدات!؟ لذلك فقد اضطرب عبد الناصر تماما للأمر، وطلب منى أن أخبر السفير بايرود برغبته الملحة للاجتماع به فور وصوله إلى القاهرة. وقد كان تنفيذ طلب كهذا صعبا لأن بايرود فضل السفر بحرا، وكعادته فقد أنشأ علاقات صداقة مع كثير من الذين كانوا على ظهر السفينة من سائحين مسنين وبحارة وبعض الموظفين المتجهين إلى مراكز أعمالهم. ومما لا شك فيه ان دعاهم إلى المجىء إلى القاهرة فى عطلة الأسبوع. وكانت هناك مسألة تقديم أوراق الاعتماد. فحسب الأصول الدبلوماسية لابد للسفراء من تقديم أوراق اعتمادهم رسميا وقبولها من رئيس الدولة رسميا أيضا، ليتسنى لهم التكلم باسم حكوماتهم. ومع أن غضب عبدالناصر من نشر أخبار حلف بغداد لم يهدأ، فإنه لم يمانع أن يجرى الاحتفال بتقديم أوراق الاعتماد على أن يعقب ذلك لقاء بالسفير بايرود مباشرة. وللإسراع بذلك فقد دعوت كلا من ناصر وبايرود بالإضافة إلى حسن التهامى وعبد الحكيم عامر لتناول طعام العشاء فى بيتى.

كانت تلك الوليمة بداية العلاقات بين ناصر وبايرود تكونت على أثرها الحقبة المسماة «ناصر موضة المستقبل». وعقب ذلك الاجتماع نزهة حضرها معى كل من ناصر وبايرود والتهامى، وتم خلالها مراجعة كاملة لكل المسائل التى تهم البلدين مع إعطاء اهمية خاصة لكل من النقاط التالية:

١- ان بلدا مستقلا حقيقة كمصر جدير بأن يؤخذ كصديق، فى حين أن مصر إن كانت مرتبطة معنا بأية معاهدة فإنها ستظهر بمقاييس النهضة العربية الحديثة على أنها مجرد تابع.

٢- أن العرب يملكون نفورا فطريا من الشيوعية لكونهم مسلمين، بالإضافة إلى أن الروس لا يمكنهم تحدى قوة الاقتصاد الأمريكى عند بدء التنافس على منح المساعدات الاقتصادية. ولهذا لا داعى للخوف من المنافسة الروسية فى المنطقة.

٣- ستتمكن مصر وهى مستقلة من أن تلعب دورا طليعيا فى حركة الوحدة العربية بصورة تتناسب وأهداف الحرب الباردة (أو أى صراع بين الشرق والغرب). وستكون هذه الحركة مضادة للفكرة التى يدعمها الوزير جون فوستر دالس بالتعاون مع البريطانيين ، والتى ترتكز على الوصول إلى شكل الوحدة عن طريق التحالفات العسكرية التى لا تختلف كثيرا عن انطباع «لورانس العرب» البالى عن العقلية العربية.

٤- وأكثر من هذا فإنه يمكن لمصر المستقلة، القوية، أن تأخذ بزمام المبادرة، فى تخفيف حدة التوتر بين العرب والغرب منذ قيام إسرائيل، وهنا قال ناصر: «لا يمكننى أن أتخذ مثل هذه القرارات غير الشعبية إلا عندما أصبح فى مركز قوى!». ولمح إلى أنه لربما يستطيع القيام بخطوات إيجابية لتخفيف حدة التوتر بين العرب وإسرائيل اذا ما أصبح فى ذلك المركز القوى.

وبالتأكيد لم يكن بايرود مقتنعا تماما بمثل تلك الأقوال. ولكن بعد تلك النزهة فى ضواحى المدينة، أصبح مقتنعا بأن ما سمعه هو موقف ناصر فى الواقع، وأن ناصرا لن يُجر إلى أكثر من هذه النقاط. وقد اعتقد بايرود أن «الموقف» الذى عناه ناصر له ما يبرر تأييد الأول له. واخيرا فان سياسة ناصر على الأقل أصبحت مفضلة على غيرها من السياسات التى بدأت تظهر فيها موجة القومية العربية التى تنبأ بها كل من بايرود ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأى إنسان آخر يدرك الأوضاع العامة. كما أن لسياسة ناصر ميزة آخرى على رأى إنسان آخر يدرك الأوضاع العامة. كما أن لسياسة ناصر ميزة أخرى على سياسة نورى السعيد فى العراق، وشمعون فى لبنان، المؤيدتين للغرب،فهى تملك فرصة البقاء فى الأيام التى تظهر بها السياسة الأمريكية والبريطانية بطبيعة الأشياء على أنها بشكل متزايد لصالح إسرائيل وضد العرب.

وقد ساند بايرود طلب ناصر للمعدات العسكرية بعدما أخذ موقفه السابق بعين الاهتمام. وكرجل عسكرى، فقد أدرك بايرود أنه ليس هنك ثمة خطر من احتمال استخدام ناصر لهذه الأسلحة ضد المصالح الأمريكية. وبما أن بايرود كان مساعدا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وأفريقيا. فقد أدرك مدى التأثير النافع الذى يمكن أن يحدثه ناصر فى المنطقة كلها اذا كان يميل حقا إلى فعل مثل هذا الشيء. وقد تولد عند بايرود انطباع أن ناصرا هو القائد

الوحيد فى العالم العربى الذى يمثل الاتجاه الجديد، والذى بنفس الوقت يمكن لدبلوماسى غربى أن يجرى معه مناقشات مفيدة ومتزنة، كما أن ناصرا هو من النوع الذى يمكن للإنسان أن يباحثه بأى موضوع - حتى موضوع الصلح مع إسرائيل - دون أن يخرج عن تحكيم العقل ويلجأ إلى العواطف عند سوق الحجج وسرد البراهين. ولهذا السبب فقد رأى بايرود ضرورة بقاء ناصر فى الحكم، كما رأى تحويل جيشة من رث هزيل إلى آخر عزيز وفخور بنفسه هو من أول ما يضمن هذا البقاء ويعززه.

وكما ذكرت سابقا، فقبل وصول بايرود إلى القاهرة كانت الحكومة الأمريكية قد منحت ناصرا أربعين مليونا من الدولارات كمساعدات اقتصادبية له، كما أنها وافقت مبدئيا على أن تقدم له تسهيلات بحدود عشرين مليون من الدولارات لشراء تجهيزات عسكرية بأسعار معقولة وبشروط مخفضة للدفع. (وبالمناسبة، فمن المغالطة الظن أن المساعدات الاقتصادية أو العسكرية تدفع نقدا وعدا، حتى ولو أنها قد منحت تحت قيود شديدة، وذلك لأن تقديم المساعدة لأية حكومة ما، بغية أى هدف ما، يعنى رفع القيود من مدخرات الحكومة المانحة للمساعدة، ووضعها تحت تصرف الحكومة الأخرى التى لربما تستعملها لأى هدف آخر غير هدفها الأساسى) وكان كل ما تبقى من القضية هو تحديد التفاصيل مثل نوع التجهيزات وهل ستكون حديثة أم مستعملة وعلى وشك التسيق من الخدمة، وكيف سنبيعها، وكم سنتقاضى ثمنها؟ ونظرا لأن مثل هذه الأمور الآنفة الذكر هى تفصيلات محضة، فقد قام وزير الحربية المصرى بتنظيم قائمة بالاحتياجات أرسلها إلى واشنطن. ومن ثم قامت وزارة الدفاع الأمريكية بإجراء بعض التعديلات عليها، واعادت القائمة ثانية لوزير الحربية المصرى، الذى بدوره أعادها ثانية إلى واشنطن بعد إضافة تغييرات جديدة عليها. وهكذا بقيت القائمة تتناقلها الأيدى بين واشنطن والقاهرة مرات عديدة وبقى الخلاف على أسعار التجهيزات قائما. فالمسؤولون فى وزارة الدفاع الأمريكية قد وضعوا نظاما مرنا لترتيبات الأسعار، ولكننى لم استطع فهمه يوما. فهو يتيح الوصول إلى سعر ما نتيجة مساومات ومباحثات، إلا أن قائمة التجهيزات التى نالت أخيرا موافقة الطرفين لم تتعد، مع قائمة الأسعار. مرحلة ما قبل الأخيرة إطلاقا.

وبنفس الوقت، لم يكن هناك أية بادرة تشير إلى أن المشاكل المعلقة - مهما كان نوعها - لن تجد فى النهاية حلا مناسبا. فقد استمر ناصر وبايرود فى توطيد العلاقات وتوثيق عرى الصداقة بين المصريين والأمريكيين بغية الوصول إلى حلول مثمرة لجميع المشاكل التى تعانى منها المنطقة بأسرها، مما يحقق السلام والازدهار اللذين بقيا همّ مخططى سياستنا المثالية وشغلهم الشاغل. إلا أن الرياح لم تجر كما اشتهاها كل من ناصر وبايرود.

وشاءت الظروف أن تبقى المشاكل مستعصية الحل. وبقيت مشكلة المساعدات العسكرية معلقة دون تنفيذ لعدة أشهر، مع استمرار التأكيدات المتقطعة من واشنطن: «أننا على وشك أن ننجز دراستها، إلا أن مسائل كهذه عادة ما تستغرق زمنا غير قليل».

وسأريح القارئ من عناء الإتيان على كل تفاصيل المناظرة التى جرت يومها فى واشنطن حول أمر تزويد ناصر بالمساعدات العكسرية أم لا. ولم يخطر ببالنا - ونحن فى القاهرة - أن مناظرة كتلك قد دارت رحاها فى دهاليز وزارة الدفاع فى واشنطن، فلقد كان بايرود يتابع بسرور ترتيب أموره على أساس أن بعض شحنات الأسلحة سوف تكون فى طريقها إلى القاهرة قريبا. وكان بايرود يأمل فى أن تتمخض خطط التعاون المصرى الأمريكى - على الأقل - عن تسوية مؤقته (أو تجميد) للنزاع العربى الإسرائيلى.

وبالتالى فإن أحد مصادر الاحتكاك الرئيسية بين الأمريكيين والعرب ستجد طريقها إلى الزوال. وفى ١٦ تموز (يوليو) ١٩٥٥، أنهيت زيارتى التى دامت عامين للقاهرة وعدت متباطئا إلى وطنى حيث قضيت شهرا كاملا على الطريق. ولدى وصولى إلى واشنطن فى أواخر آب (أغسطس) كانت هناك فى انتظارى رسائل من بايرود وناصر تستعجلنى لبذل ما فى وسعى لأنتشل مسألة المساعدات العسكرية من مأزقها الذى وقعت فيه، كما كانت هناك صورة عن الرسائل المتبادلة بين جيم آلن (الذى أعمل برئاسته فى شركة بوز آلن اندهاميلتن) وبين هربرت هوفر (وكيل وزير الخارجية) يطلب فيها الاخير استعارتى لوزارة الخارجية، ولفترة غير محدودة، لأخدم فى فريق أطلق عليه اسم «لجنة التخطيط السياسى للشرق الأوسط».

وكان الهدف الرئيسى من تأليف هذه اللجنة، وضع الخطط لاستغلال فرصة الصداقة النامية بيننا وبين ناصر.

وكان أول مـا قمت به فى واشنطن . بشكل مهمـة رسـمية . هـو بحث موضوع المسـاعدات العسكرية لناصـر مع جورج آلن، الذى حل محل هـانك بايرود كمساعـد لوزير الخارجية لشؤون أفريقيا والشرق الاوسـط. وكان جُلُّ دراية جورج بالموضـوع، هو أنه معلق لأسباب إدارية، وطلب منى أن أجد مكانا مريحا فى غرفة مجاورة لمكتبه لأطلع على البرقيات المتبادلة بين واشنطن والقـاهرة خـلال الشـهـر الذى كنت فيـه بعيـدا عن العـمل. وقـد فعلت، وقلبت نظرى فـى تلك البـرقيـات جيئـة وذهبـا، كما يتـابع لاعب التنس بنظراته الكرة فى مباراة مثيـرة. وسـرعـان مـا اتضح لى أن الأمر برمته قد غاص فى مستنقع الإجراءات البيـروقراطية. ولاحظت أن الملفات الإضافية قد اشتملت على رؤوس أقلام مناظرة واسعة النطاق، جرت حول موضوع المساعدات العسكرية لناصر وفيمـا إذا كان يمكن تقديمها له دون أن نحصل منه على ضمـانات أنها لن تستـعـمل فى عـمل عـداوئى ضـد إسـرائيل. إلا أن تلك المحـاورات والمناظرات أضـحـت غـيـر موضـوعية، عندمـا طلب منى السفير المصرى فى واشنطن فى اليوم التالى ونحن نتناول طعام الغداء، أن أخبـر جورج آلن أن فى وسـعنا تخفيف الضغط على ناصر عن طريق تزويده ببعض التجهيـزات العسكرية الاستعراضية كخوذ لماعة ومسدسـات فى قراب جميلة وغيرها بما لا يتجاوز المليونين من الدولارات، مما يضفى على الجيش بعض مظاهر القوة والاحترام. إلا أن المشاكل الإدارية (التى لا أزال أجهل كنهها للآن) قد حالت ثانية دون انجاز طلب ناصر الاخير، وغاص المشروع الأخير فى نفس ما غاص فيه سابقه.

إلا أن البـرقيـة الأخيرة من الملف كانت تفرض علينا أن نعيد التفكير بموضـوع المسـاعدات العـسكرية لناصـر بصـورة ملحـة. فـقـد حـذرنا بـايرود من أن امـتنـاعنا عن تزويد نـاصـر بالتجهيزات العسكرية سيلزم الأخير بقبول المساعدة العسكرية الروسية (التى أصر يومهـا جـورج آلن على أنهـا غيـر ذات بال)، وأكـد ضـرورة تزويده ولو بمقـادير رمـزية منهـا وبسـرعـة كافية. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد أكدت خبر تقديم الروس فعلا عرضـا لتزويد ناصر بمثل هذه المسـاعـدات سيفسح المجـال امـام الروس لتحسـين مـركزهم فى المنطقـة ولتثبيت أقدامـهم فيـهـا. وقـابلت لجنة التخطيط السيـاسى للشـرق الأوسط نبـأ العـرض السـوفيـاتى بالدهشـة والارتبـاك، الا أنهـا لم تتـخذ أى تدبيـر حيـاله. وفى منتصف أيلول (سبـتمبـر) ١٩٥٥ تلقى كيـرميت روزفلت رسـالة شـخصـية من ناصـر تفيـد أن الأخير على وشك التوقيع على

اتفاقية مع الروس، وأنه يرحب بروزفلت فى القاهرة إن كان عازما على الرجوع عن عزمه هذا. وفى اليوم التالى غادرت وروزفلت واشنطن متوجهين إلى القاهرة.

وفى مطار القاهرة، كان احد أعوان ناصر فى استقبالنا. ومن ثم توجهنا برفقته إلى شقة ناصر فى الطابق الأعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة، وكان ناصر فى مزاج الشامت الساخر، ولكنه منبسط الأسارير. وكان لسان حاله يقول: «لقد قلت لك هذا يا روزفلت، فيما عساك أن تفعل الآن؟» وجلس الجميع ليتمتعوا برؤية روزفلت يتلعثم عندما يبدأ محاولا الرد على حجج ناصر الدامغة. ولكن روزفلت أدهش ناصرا عندما عزف عن إقناعه برفض الأسلحة (فقد كانت وكالة المخابرات المركزية قد أقنعتنا ان ناصرا قد قبل الصفقة ولا مجال لينثنى عن عزمه هذا) وقال له: «إن كانت الصفقة فعلا بهذه الضخامة التى سمعنا بها، فما عليك الا القبول بها، لأنها وإن اغضبت البعض نستعجل منك بطلا عظيما وتكسبك تأييدا فريدا. فلماذا يا ناصر لا تستقل هذه الموجه المفاجئة من التأييد الشعبى لتتخذ بعض القرارات التاريخيه حقا؟! وما أظن أن ذاك التأييد سينحسر إن أعلنت مثلا: «أن هذه الأسلحة دفاعية فقط، وأننى على استعداد لأن أقبل مشاركة الإسرائيليين للقيام بمجهود مشترك بغية الوصول إلى سلم دائم فى المنطقة، إن هم أرادوا ذلك فعلا». ولم يتمالك ناصر نفسه عند سماع هذا الاقتراح، فقد طار له فرحا وقفز مبتهجا وقال: «إنها لفكرة رائعة».

وتابعنا مناقشة الفكرة حتى منتصف الليل: فناصر سيصدر بيانا يدرج فيه نبأ عقد صفقة السلاح الروسى، وهكذا فلن يهتف له المتطرفون فى مصر لوحدهم بل والمحافظون (وحتى الشرق) أيضا. وبعد ذلك يبدأ ناصر بحملة حياد دولية ترضى الجميع ويستمر، بنفس الوقت، فى الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الملحة داخل البلاد معتمدا على المساعدات الأمريكية. وهكذا توفرت الاحتمالات من جميع الانواع والضروب. فناصر سيلقى خطابا بعد يومين فى حفلة التخريج فى كلية الطيران. ومن الممكن ان يضمنه نبأ الإعلان عن صفقة السلاح الروسية. واتفقنا على أن أكتب لناصر مسودة المقطع الذى سيتضمن هذا النبأ، ثم يقوم ناصر فى الليلة التالية بالتعاون مع روزفلت بتوضيب هذا المقطع فى شكله الأخير وانزاله المكان الملائم من الخطاب.

وحضر عدد غير قليل من المتطفلين إعداد مسودة ذاك المقطع من الخطاب. إلا أن السفير بايرود لم يكن بينهم، فهو لم يعلم بعد بوصولنا إلى القاهرة. وخلال النهار التالى للاجتماع بناصر، وصل حشد من الزوار إلى فندقنا لإعطاء الرأى فيما يجب أو لا يجب أن يدرج فى البيان، وكان بينهم مصطفى أمين - صاحب جريدة أخبار اليوم - ومحمد حسنين هيكل - المحرر فى أخبار اليوم - وكلاهما من أمناء سر عبد الناصر، وحسن التهامى المساعد الوطنى الأول لناصر، وجيمس ايخلبرغر من السفارة الأمريكية فى القاهرة (الذى علم بوصولنا من حسنين هيكل دون أن يذكر ذلك لبايرود) واحمد حسين السفير المصرى فى واشنطن، إلى جانب حشد آخر من بعض الشخصيات الأخرى، ويبدو ان الجميع كانوا على إلمام تام بالأنباء السرية لصفقة السلاح الروسية وعلى الرغم من الجهود المشتركة، فقد كان نص البيان مقتضبا، ولم يتعد توضيح النقطة التى وافق عليها ناصر دون ان يمس ذلك بشعور أحد أو أن يخفف من الأثر الدراماتيكى الذى كان يريد أن يتركه خطابه على جماهير الشعب.

وفى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى لوصولنا إلى القاهرة ذهبت وروزفلت إلى شقة ناصر فى المبنى الخاص بمجلس قيادة الثورة الذى يقع مواجه السفارة البريطانية عبر نهر النيل، ونالت المسودة إعجاب ناصر، ولم يمانع فى حشرها بين فقرات خطابه. إلا أنه أبدى رغبته بإجراء تعديل طفيف عليها، فهو لا يستطيع ذكر عبارة «الصلح مع إسرائيل» صراحة، ويفضل أن يستبدلها بعبارة «تخفيف حدة التوتر بين العرب وإسرائيل». ووافق روزفلت على هذا، بل واعتبره خطوة جليلة نحو مستقبل أكثر هدوءا واستقرارا، فقد كان يخفى فى جعبته عديدا من الاقتراحات لإنهاء حالة العداء بين العرب واسرائيل، إلا أنه تريث فى طرحها حتى ينتهى ناصر من خطابه.

وبينما كان ناصر منهمكا فى إخراج زجاجة من «السكوتش ويسكى»!!! الذى يحتفظ به عادة لضيوفه البارزين، قرع جرس الهاتف ليقول له الضابط المناوب فى الطابق الأدنى أن السير همفرى تريفليان، السفير البريطانى. يطلب مقابلة مستعجلة مع ناصر.

والتفت ناصر إلينا متسائلا: «ما تظنون وراءه؟».

فأجاب روزفلت: «طبعا، يريد مباحثتك بشؤون صفقة السلاح الروسية».

فقال ناصر: «واعجبا، إنها سر، فكيف بلغته أنباؤها؟».

فرد عليه روزفلت قائلا: «حتى ولو أخفى أصحابك أنباءها فإن السوفييت لن يفعلوا هذا، فليس من مصلحتهم أن يدعوها طي الكتمان، أليس كذلك يا جمال؟».

فقال ناصر: هذا صحيح، وما أظن غير ذلك!».

وفى تلك الاثناء كنا ننظر إلى ساحة السفارة البريطانية عبر النيل، فرأينا سيارة السفير تغادرها الى الشارع الرئيسى، لتشق طريقها عبر الازدحام، ومن ثم تعبر الجسر لتصل إلى الشارع الذى يطل عليه مبنى مجلس قيادة الثورة. وفى هذه الفترة كنا نتناقش فى الموقف الذى يجب أن يتخذه ناصر من السفير البريطانى الذى لم يكن ـ كسفيرنا بايرود ـ على علم بوجودنا فى القاهرة. ذلك أن الوزير جون فوستر دالس ـ تمسكا بالتقاليد ـ لم يخبر باقى أعضاء وزارة الخارجية، ولا البريطانيين، ولا حتى سفيره بايرود فى القاهرة، بالدعوة التى وجهها إلينا ناصر أو بحقيقة هدف زيارة روزفلت للقاهرة (فقد كان الهدف منها محاولة إقناع ناصر بانتهاج سياسة جديدة وجريئة، لتوثيق عرى الصداقة وتطوير البلاد اقتصاديا). والآن، وتحت ظروف مماثلة، ما الذى يجب على ناصر أن يخبر السفير البريطانى به؟

قال له روزفلت: «وعلى سبيل تسويف اعلامه بالحقيقة حتى مساء الغد، اخبره أن الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا، فإن هذا لن يثير قلقهم، فتشيكوسلوفاكيا تعتبر من مصادر السلاح الرئيسية لإسرائيل».

وهكذا غادر ناصر الشقة ليلتقى بالسفير البريطانى ويخبره أن الأسلحة من براغ Prague، إلا أن ناصرا لفظ حرف "P" فى كلمة براغ على الطريقة العربية كحرف "B" فلم يفهم السفير إلا أن مصدر السلاح Brague، وهذه ليست مدينة فى تشيكوسلوفاكيا. وقدر أن ناصرا قبل صفقة السلاح الروسية، ولم يكن بوسعنا أن نقابل السفير البريطانى لنصحح له لفظ ناصر لكلمة Pragoe وكانت النتيجة أن أبرق السفير بالنبأ حالا إلى وزارة الخارجية البريطانية، التى بدورها أشارت على هيئة الإذاعة البريطانية BBC أن تذيعه دون تأخير.

ولم تستمر مقابلة السفير تريفليان لناصر أكثر من خمس دقائق. وما كدنا ننتهى من مراجعة مسودة خطاب ناصر، الذى سيلقيه فى حفلة خريجى مدرسة الطيران، حتى دخل علينا عبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين وذهبنا بعدها معا لتناول طعام العشاء عند السفير المصرى (فى واشنطن) أحمد حسين. وكانت ساعات المساء التى أمضيناها فى شقة

ناصر ـ قبل ذهابنا إلى بيت أحمد حسين ـ مليئة بالمرح والبهجة، تعرضت خلالها لمضايقات من صديقى زكريا محيى الدين الذى لم يكن يعلم بوجودنا فى القاهرة إلا قبل دقائق معدودات. وتبادلنا النكات حول ما كان يمكن أن تتحول إليه تقاسيم وجه السفير البريطانى، لو أن روزفلت ـ أو أنا ـ قطعنا عليه خلوته مع ناصر لنسأل الأخير: «عفوا يا جمال، لقد نفدت الصودا، فمن أين لنا بمزيد منها!؟». وتبادلنا النكات الضائعة حول ميكروفونات التجسس المدسوسة فى غرفة الاجتماعات. وبعبارة أوضح، فقد تبادلنا جميع أنواع المزاح البرىء الذى يدور عادة بين المراهقين من حضارات مختلفة وخاصة بعد تحررهم من قيودهم وانطلاقهم من كبتهم.

واستمر هذا المزاح وتراشق النكات طوال الطريق إلى بيت السفير أحمد حسين وحتى خلال القسم الأول من حفلة السمر هناك، إلا أن موضوع المزاح ـ وهو مقابلة السفير لناصر، لم يكن ليسمح لأى قادم جديد بالمشاركة فيه لجهلة بما جرى. وقد وصلنا متأخرين ساعة من الزمن إلى بيت السفير حسين، إلا أن السفير بايرود كان قد سبقنا الى هناك، ولم يعلم بوجودنا فى القاهرة الا عندما رآنا ندخل بيت السفير حسين مع رئيس الدولة وكبار نوابه، والكل مستغرقون فى الضحك؛ يتبادلون النكات التى كان بايرود غريبا عنها كليا.

ربما لا يدرى القارئ إلا القليل عن طبيعة نظام التشريفات فى المؤسسات الضخمة، مثل وزارة الخارجية الأمريكية، أو شركة جنرال موتورز، أو الكنيسة الكاثوليكية، أو الجيش الصينى. ولهذا فمن دواعى السرور أن أخبره أنه ليس هناك ما يزعج أحد كبار الموظفين أكثر من تسلل موظف آخر الى مملكته دون علم مسبق منه، أو أن يتصرف ذاك الموظف الآخر بصورة مستقلة تماما عن الاول وعلى مستويات رسمية عليا. وكان يحدث هذا كثيرا على عهد الوزير دالس. فعندما تواجه الوزير أية مشكلة ـ ولتكن مثلا أفغانستان ـ كان يتلفت يمنة ويسرة ليتفرس فى وجوه هيئة وزارته. ثم يخاطبهم قائلا: «والآن، لنرى من منكم ضليعا فى معالجة الشؤون الأفغانية؟». ثم ما يلبث الوزير أن يختار أحد الموجودين لمجرد تذكره أنه قد سمع منه حديثا عن «أفغانستان» زمن غير بعيد، واعتبره الوزير صحيحا. ولم يكن دالس من النوع الذى له فى مجلسه من يرغب أن يقول له: «يا حضرة الوزير، لكننا نملك سفيرا جيدا فى أفغانستان!». وعلاوة على ذلك.. فإن الوزير لا يثق باولئك الذين يعملون مباشرة تحت إمرته بل ولا يتذكر غيرهم.

وبعد ان نتقى الوزير دالس مبعوثه الخاص، فإنه لا يقوم بإبلاغ السفارة المعينة بالأمر، أو أنه يعلمها بصورة شكلية فقط مثل: «افريل هاريمان يصل على البان أمير كان رحلة رقم ١٠ لا يرغب بالنزول فى البيت الخاص، نرجو حجز جناح له فى الهيلتون». وإن ذكر أحيانا سببا للرحلة فلا يكون السبب الحقيقى. وفى عهد الوزير دالس، كان أى سفير لنا فى الخارج يخشى أن يلتقى عرضا، وهو فى طريقه من مسكنه إلى مبنى السفارة، بأى من تلك الشخصيات التى كانت تعمل فى مجال دبلوماسية ما وراء الكواليس (مثل روبرت مورفى أو روبرت اندرسون) مستقلا «الكاديلاك» المخصصة للضيوف، وسالكا اتجاها معاكسا فى الشارع وهو فى طريقه لمقابلة ما فى القصر. إلا أن السفير الأمريكى بايرود كان أكثر السفراء مرونة، وأقلهم حقدا وحسدا، وأكثرهم رحابة نفس وسعة أفق. وكان أيضا من أقل كبار الموظفين اهتماما بالشكليات والرسميات. ومع كل هذا، فمن المحتمل جدا أنه قد أصيب بذهول ودهشة لدى رؤيته كيرميت روزفلت - وغيره - بين المدعوين لحفلة العشاء، ويدخل القاعة متأبطا ذراع رئيس الدولة واثنين من وزارئه، وبمظهر لا يمكن ان يوحى إلا أنهم قادمون لتوهم من اجتماع عقد بينهم. وعلاوة على هذا، فان ذاك المزاح الذى كان مقتصرا عليهم، دون غيرهم، لا يمكنه أن يعطى إلا ذلك الانطباع. فمهما كانت الظروف، فمن المزعج حقا أن يجد الإنسان نفسه ضمن فئة من معارفه تمزح وتمرح، وهو لا يدرى من أمرها شيئا.

وبين المدعوين، كان جيمس ايخلبرغر، الذى نسى أن يخبر بايرود أنه رآنا صباح نفس ذاك اليوم. وكان السفير المتجول اريك؛ جونستون من بين الحاضرين أيضا. فقد أمضى فترة فى القاهرة يجرى مشاورات بخصوص مشروع نهر الاردن فأثار فى الحفلة موجة من المرح والتنكيت لعلها تنسيه الآم الفشل الذى لاقاه فى جولته. وأخيرًا كان هناك صاحب الدعوة نفسه السفير المصرى فى واشنطن، احمد حسين، جالسا يشاطر الشراب . وأما السفير بايرود، فقد انتحى زاوية لوحده، وعليه إمارات الكآبة والنكد، وفى يده وتد من الحديقة يعبث به.

كان اللقاء مبهجا للجميع باستثناء بايرود. واستهله السفير جونستون بقصة تشبه قصص المتشردين من الأحداث، وألقاها بلهجة أيرلاندية احتوت كثيرا من العبارات مثل: الراهبة الحاملة، موسى، اليهود، الخروج الى الغائط. وبينما كنت والسفير حسين منهمكين فى ترجمة

القصة إلى العربية، إذ بالسفير بايرود يتنحنح ويقاطعنا قائلا:

«جمال، هناك قضية أود أن ألفت انتباهك إليها».

وهنا انقطع الضحك، وأنصت الجميع، واندفع بايرود يلقى خطبة طويلة ضد الحكومة البوليسية فى مصر، وضد مجلس قيادة الثورة الذى يتصرف مثل «الأحداث من المجرمين»، وضد بعض مظاهر نظام حكم ناصر التى ذكرته بها تلك المعاملة السيئة التى لقيها الملحق الأمريكى لشؤون العمال فى سفارة بايرود على أيدى جال البوليس فى الاسكندرية لأيام خلت. وكانت الخطبة مسهبة، وبألفاظ بليغة، وكأن أحد مشاهير كتاب المسرح قد خطها بقلمه. إلا أنها، مع الأسف، لم تكن مناسبة أبدا، لا فى زمانها ولا فى مكانها، ولم تلق إلا على مسامع أقل الناس اتعاظا بها. وما كان من ناصر إلا أن أطفا سيجارته، وهب واقفا، وغادر القاعة بخطى سريعة. ولحق به وزراؤد وغادروا الحفل معه. إلا أن روزفلت هب واقفا ولحق به حتى السيارة، محاولا ان يعتذر عما حدث، وجلس بايرود بعدها الى الطاولة لا ينبسى ببنت شفة، فلم تذهله مغادرة ناصر الدراماتيكية للحفلة بقدر ما أذهلته المضاعفات التى ستترتب على حضور جونستون وروزفلت الحادثة. ولقد أدرك بايرود هذا تماما. وعندما سمع جونستون صوت «كاديلاك» ناصر تبتعد، ربت على يد بايرود وقال له: «هانك، لقد حان وقت الانصراف». وانصرفوا، وبايرود بينهم «كالسائر غافيا» يؤخذ بيده الى الفراش.

ومع أننى تاكدت أن هذا النظام قد ألغى فيما بعد، فقد كان سهلا يومها أن تستعمل احدى الشخصيات الزائرة تسهيلات السفارة لإرسال برقية إلى واشنطن دون علم السفير وخبره، ففى الوقت الذى كان بايرود فى فراشه يتقلب أرقا، كان روزفلت وجونستون يأمران موظف الشيفرة فى السفارة بإرسال برقية للوزير دالس، يذكران له فيها كثيرا من الأخبار التى لا تعطى انطباعا حسنا عن بايرود. ومع ان روزفلت قد شعر بالثم لأهماله أخبار بايرود بوصوله، إلا أن سلوك الاخير فى بيت أحمد حسين سوف يعرض الخطة التى جاء روزفلت لتنفيذها فى القاهرة للخطر باكملها. أما جونستون، فقد علمته التجارب ان على رجل الأعمال ألا يفقد أعصابه مع زبائنه وحتى مع خصومه. وظن جونستون أن بايرود يواجه حالة انهيار نفسى، إلا انه كان الُطف من ذلك عندما قال فى سياق برقيته للوزير دالس: «أنه - بايرود - فى حاجة

ماسة للراحة». ووصلت البرقية واشنطن، ورفعت إلى الوزير دالس فى صباح نفس ذاك اليوم (وذلك لوجود سبع ساعات كفرق زمنى بين القاهرة وواشنطن) الذى سيلقى ناصر فيه خطابه المتضمن ذاك المقطع الذى صممته مع روزفلت بعناية ودقة.

فى الساعة السابعة صباحا بتوقيت القاهرة المحلى، اتصل بايرود بى هاتفيا، وطلب منى الحضور إلى مكتبه. وعندما وصلت إلى هناك بعد نصف ساعة، بدا بايرود بنفسية جديدة تذكرت معها ما ذكره احد الكتاب عن «السفير النموذجى» وقد نسى كل ما حدث الليلة السابقة بعد عدة جولات فى لعبة التنس. وكان مرتديا سترة الرياضة وهى من صوف خشن. وبدأ يومه بخفة ورشاقة رجل الأعمال. إلا أن ردود فعله تجاه ما جنت يداه الليلة الماضية كانت أقل من أن تثير قلقه حيال مهمته كرجل دولة كاد استهتاره وقلة أكتراثه ان يسببا تصدعا خطيرا فى العلاقات المصرية الأمريكية. وبطريقة لا تختلف عن تلك التى وصف بها «إدوارد سيهان» السذج فى روايته «مملكة الاوهام»، رمى بايرود بورقة أمامى وسألنى عن رأيى فيما كتب عليها.

لم أعد أذكر النص المكتوب تماما، إلا أنه كان شيئا من هذا القبيل: «عزيزى جمال: إننى جد آسف لإثارة موضوع كريه فى لقاء لطيف مساء أمس. ولكننى لا أزال متألما جدا بسبب ما حل برجال سفارتى من ضرب وإهانة، وإنك بالتأكيد ستتألم إن واجهت نفس الظروف. ومهما كان فإننى أكرر اعتذارى راجيا منك القبول. المخلص: هانك». وأخبرت بايرود أنها رسالة جيدة وأننى سأعطيها لناصر حالا.

قابلت ناصرا فى الساعة التاسعة صباحا وهو يهم بمغادرة سيارته «اللوموزين» ليدخل مكتبه الرسمى. إلا أنه أمسك؛ بيدى، وأدخلنى معه وهو يصف سهرة الليلة الماضية وكم كانت ممتعة للجميع، وقال: «أظن أن قصة أريك؛ (جونستون) حول موسى وخروجه للغائط كانت طريفة»!. وبعد دخوله لمكتبه، أعطيته رسالة بايرود، فرمقها بنظرات سريعة، وورمى بها داخل أحد أدراج المكتب مع غيرها من الأوراق، وقال: «حسنا، أرجو أن أراك مع كيم (روزفلت) هذه الليلة». إلا أنه لم يعط أى تعليق حول رسالة بايرود. وعندما هممت بمغادرة الغرفة سألته: «وماذا بخصوص رسالة بايرود»؟

قال: «وماذا تعنى»؟

قال: وهو يلوح لى بيده مودعا: «حسنا، سأضمها إلى ملف مثيلاتها»!

قلت: «وما... مثيلاتها»؟

قال: «حسنا، فمن عادة هانك أن ينفجر هكذا. أرجو أن لا يكون كيم وأريك قد تأثرا كثيرا بسببها»!.

وجلست ثانية وأنا افكر فى جملته «لم يتأثرا بسببها». واحسرتاه، إن ناصرا لا يدرى أنهما معا - أريد وكيم - قد ذهبا توا بعد السهرة إلى السفارة ليلا، وأبرقا إلى الوزير دالس بما يكفى لنفى بايرود إلى جزيرة فرناندوبو (جزيرة إسبانية فى غرب أفريقيا).

وسألت ناصرا: «وماذا تعنى تماما بمثيلاتها»؟ وفهمت منه أنه لم يمض أكثر من أسبوع واحد على تقريع بايرود لناصر لسماحه لأحد الطيارين الذين تخرجوا حديثا بالتحليق فى أول مهمة طيران له فوق اسرائيل، حيث أسقطت طائرته هناك. وفى مناسبة أخرى، اتخذ بايرود من أحد تصريحات ناصر المعادية لأمريكا مثارا لنقاش وخلاف بينهما. ومما لا شك فيه ان بايرود كان قد وطد علاقاته إلى حد سمح له هذا الأخير ان يناقش علنا أيا من تصرفاته التى لا تروق له. وفى الوقت الذى كان ناصر ينظر إلى بعضها بعين الاعتبار، كان لا يعير البقية أى اهتمام أو اكتراث، ودونما أدنى انزعاج أو اضطراب. ومما لا شك فيه أن ناصرا لم يكن راغبا اطلاقا فى أن يسمع أيا من ملاحظات بايرود فى تلك السهره بالذات خشية أن تثير له بعض المتاعب. وعندما هممت بالمغادرة قال لى: «إلا أننى عازم على مفاتحة كيم بهذا الأمر عند لقائنا هذا المساء».

ومع ان الفارق الزمنى فى التوقيت بين واشنطن والقاهرة يقارب سبع ساعات (التاسعة صباحا فى نيويورك تعادل الرابعة بعد الظهر فى القاهرة). غير أن الفارق الزمنى فى سرعة العمل أقل من هذا بكثير. فهو لا يتجاوز ساعة واحدة من الزمن. ففى العاشرة صباحا فى واشنطن (الخامسة مساء فى القاهرة) من نفس ذاك اليوم وقعت حوادث عدة أهمها:

❖ الوزير دالس قرر إرسال جورج آلن - مساعده - إلى القاهرة ليحقق فى صحة تصرفات بايرود، وسلامة عقله.

❖ وليام رونترى، نائب مساعد وزير الخارجية، وضع مسودة رسالة قاسية لناصر يحذره فيها من أخطار قبول الأسلحة الروسية.

❖ مساعد نائب ويكل وزير الخارجية ، مستر سومبودى، جعل أنباء قصة السلاح الروسية تتسرب إلى الصحافة بشكل يبرر ظهور بعض العناوين فى الصحافة مثل «آلن فى القاهرة ليقدم إنذارا لناصر». وما لبث أن أبرقت وكالة الاسوشيتد برس بالنبأ إلى القاهرة قبل الساعة السادسة مساء (الحادية عشر صباحا بتوقيت واشنطن). وبحلول الساعة السادسة والنصف كنت وكيرميت روزفلت فى غرفة الاستقبال ننتظر مقابلة ناصر. إلا أن ناصرا وقتها كان محاطا بكبار موظفيه وهو يصدر الأوامر لهم:

لموظف أول: «اشطب ذاك المقطع السخيف (الذى كتبته مع روزفلت) من مسودة الخطاب واستبدله بآخر أكثر تحديا وعداء للأمريكيين».

لموظف ثان: «اتصل بوزارة الخارجية واطلب منها تفاصيل مضاعفات قطع العلاقات مع دولة عظمى».

لموظف ثالث: «اتصل بالاذاعة بدورها من الشعب انتظار أخبار هامة.

وعلى الغالب، فإنه قد التفت إلى موظف رابع وأمرد أن ينتقى أحقر السيارات المخصصة للزائرين ليرافقنى بها وكيرميت روزفلت إلى المطار دون مقابلتنا لناصر. ولعلم القراء - غير الرسميين فى واشنطن - فإن سلسلة تصرفات ناصر الآنفة الذكر تسمى «صفعة»، إلا أن «صفعة» أخرى كانت تأخذ مجراها وفى نفس الوقت فى واشنطن.

ويعود الفضل لمصطفى أمين الذى تكرم بالسيطرة على الحالة المتدهورة، وأقنع ناصرا بأنه لا ضرر من مقابلتنا - أنا وكيرميت - وذلك - على الأقل - لسماع رأينا فى الأحداث قبل أن يتخذ ناصر أية إجراءات عنيفة. وتواضع ناصر أخيرا، وصعد الى شقته فى الطابق الأعلى حيث كنا بانتظاره. ولم يكن لى أو لروزفلت أى علم بما أبرقت به وكالة الاسوشيتدبرس. كما أن مكتب الوزير دالس فى واشنطن لم يبرق إلى السفارة فى القاهرة - وذلك جريا على عادته - بالغرض من زيارة جورج آلن للقاهرة: ألتقديم انذار، أم لغير ذلك. ولهذا فقد دهش كيرميت روزفلت حينما وجد ناصرا وبدون أى علم مسبق بما جرى - غضبان مزمجرا.

بعد عدة شهور، ألقى ناصر خطابا ذكر فيه أن «أمريكيا» ما حضر لعنده ليعلمه بأمر إنذار آلن (قبل وصول آلن نفسه). وأوصاه أن لا يعير الإنذار أى اهتمام. لقد ثار لغط كثير حول هذا النبأ بالذات يوم نشر فى الصحافة، وكان النبأ يومها احد الأمثلة على غلو العرب. ان كل ما

قاله روزفلت فى ذاك اللقاء لم يتعد: «لماذا لا تؤخر خصامك ـ يا ناصر ـ حتى تستلم الإنذار، وذلك بدلا من العكس! فلربما تكون الاسوشيتدبرس مخطئة كما هو الحال احيانا»؟. ولكن ناصرا لم يوافق على ذلك، وأصر على أن الاسوشيتدبرس ليست مخطئة بل أنها نادرا ما تخطئ. (لقد كان مراسل الاسوشيتدبرس فى القاهرة، ولتون واين ، يتجشم المشاق فى سبيل مراقبة الأنباء والتحقق من صحتها، فأخباره إلى المركز الرئيسى للوكالة كانت على جانب كبير من الصحة والدقة). ولم يكن بمقدور روزفلت أن يقول لناصر: «إذا قدم آلن إلينا أى إنذار فلا مانع من أن تجيبه بالطريقة التى تراها ضرورية ومناسبة للموقف إلا أننى لا أعتقد أن الوزير دالس قد أرسل إليك أى إنذار بدون أن يخبرنى بذاك». لقد كان هذا تخمينا مقبولا من روزفلت، لكنه غير صحيح. وما لبث أن هدأت ثائرة ناصر، ونال اقتراح روزفلت موافقته، وقرر ان يرجئ اتخاذ أى ردود فعل قاسية حتى يرى بأم عينه الإنذار بين يديه. إلا أنه اصر على حذف ذاك المقطع «المدلل» من خطابه.

ومع أن خطاب ناصر (الذى ألقاه فى متخرجى الطيران) كان ملطفا قدر الإمكان نظرا لما احتواه من أنباء مثيرة، إلا أنه خلا كليا من أية ايماءات رجل الدولة التى كنا نحرص على وجودها فى سياق الخطاب، مثل تخفيف حدة التوتر مع إسرائيل. وعندما حان وقت إلقاء ناصر لخطابه، كانت الاسوشيتدبرس وهيئة الإذاعة البريطانية، قد اذاعتا كثيرا من أخبار صفقة الأسلحة الروسية (أو التشيكية) إلى الحد الذى لم تتركا لناصر أية فرصة لاعلان اخبار جديدة على الشعب. وكل ما تبقى لناصر أن يقوله هو: «نعم لقد قبلتُ أسلحة روسية (أو تشيكية) فما عساهم أن يفعلوا!؟ ولم يأت الخطاب على ذكر أن الهدف من شراء الأسلحة هو دفاعى محض، بل تركه مبهما. وعندما قابلنا انا وروزفلت ناصرا بعد الانتهاء من خطابه، خرج عن صمته وقال: «لم يكن ذلك ما رغبتما به تماما، الا أنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت».

وفى صبيحة اليوم التالى، وصل جورج آلن إلى القاهرة وذلك بعد ساعة تقريبا من استلام رجال السفارة لبرقية من واشنطن تقول: «احجزوا له جناحا فى الفندق»، واحتشد عدد غفير من رجال الصحافة والمراسلين فى مطار القاهرة، وكان بينهم بايرود ومساعدوه. والتقط المصرورن له صورا عديدة وهو لا يزال على سلم الطائرة، كما التقطوا صورا أخرى لبايرود وآلن وهما يتصافحان، وكذلك لآلن وهو يصافح موظفا مصريا بسيطا من موظفى التشريفات. واحتشدت الجموع على شرفات المطار وهى تهتف بشعارات معادية للأمريكيين. وكان المنظر

بكل عناصره يؤلف مسرحية مؤثرة تخفى وراءها نفسية التحدى الناصرى بالصورة التى يطرب لها العرب ويعشقونها. وقبل أن يتمكن أى مراسل من الاقتراب من آلن ليطرح عليه بعض الأسئلة، تسلل حسن التهامى من خلال حزام حرس البحرية الأمريكية المضروب حول آلن وسلمه مذكرة من روزفلت وجونستون مكتوب فيها:

«لا تعترف بالإنذار، أو على الأقل لا تأت على ذكره حتى نلتقى معا ونتباحث بشأنه».

وبعد نصف ساعة من الزمن عقد اجتماع فى مكتب بايرود ضم كلا من روزفلت، وأريك؛ جونستون، وجورح آلن، وبايرود، ولويس جونز (مساعد بايرود) وأنا. لقد أرسل الوزير دالسن آلن إلى القاهرة، وبصورة رئيسية، لاستبدال بايرود المخبول. إلا أن هذه الفكرة قد أصبحت الآن غير ذات بال: فها هو بايرود فى مكتبه يترأس اجتماعا يحضره على الأقل ثلاثة من كبار موظفى واشنطن فى آن واحد، وهم كيرميت روزفلت وجورج آلن واريك؛ جونستون. ثانيا، أن الستار الذى أسدل على الإنذار قد حجب كل شىء آخر إلى الحد الذى لم يتمكن روزفلت وجونستون ان يفهما المقصد الحقيقى من زيارة آلن. وبقى الأمر هكذا حتى انعقد لقاء سرى بينهم بعد بضع ساعات. ثالثا، لقد تجاوز رد فعل العالم العربى لأنباء صفقة الأسلحة الروسية أسوأ الحدود التى توقعناها، وأصبح بحد ذاته مسألة لا تقل أهمية عن الصفقة نفسها. وكان سبب كل ذلك تلك البرقية التافهة التى أرسلها روزفلت وجونتسون قبل يوم واحد، والتى سماها الاثنان فيما بعد «برقية منتصف الليل اللعينة».

ولا أزال أذكر تماما تلك الدمدمة التى أحالت ذاك الاجتماع بين كبار موظفى واشنطن إلى مجرد «لعبة صينية» لا يفهم أحد لغة أطرافها. لقد كنت تسمع: «لقد دفعتم بناصر إلى أحضان الشيوعيين»... «لو أنكم سمعتم من الكونغرس ما سمعته أنا منه»... «أنها غير مثمرة»... «والآن أين تقف المصالح الأمريكية فى خضم هذه الأحداث»؟... فى هذه اللحظة المناسبة»... «إنها إيماءه تجل دولة». ومع أننى أكن احتراما فائقا لذكاء جورج آلن ورجاحة عقله، إلا أننى على استعداد لأقسم يمينا على أنه قال: «لماذا لا نناشد ناصرا باسم شعبه؟» فكان جواب روزفلت أنه خير لنا «أن نرقص تحت المطر». وغادر الاجتماع ليلعب التنس. وأما أريك جونستون، الذى اعتاد أن لا يتكلم إلا بعد أن ينهى الجميع كلامهم وهو مستمع لهم وناصت، فقد قال: «أن القضية لا تزال كتلك التى سمعنا بها قبل شهر من الزمن حول الأسلحة الروسية، سوى أننا الآن بتصرفاتنا الرعناء هذه نساهم فعلا فى نفخ أخبارها

وتضخيم أنبائها. وهذا ما يريدنا ناصر أن نفعله تماما. إذا كان الإنذار ينطوى على أية تهديدات فباستطاعتنا تقديمه مهما كانت العواقب. وإذا لم يكن كذلك فدعونا ننساه نهائيا».
وهكذا انفض الاجتماع الذى انسحب روزفلت منه قبل قليل.

وكان هناك «إنذار»، وهو جدير بإلقاء نظرة عليه هنا. فلقد أعد ذاك «الإنذار» على جناح السرعة، ونتيجة لإمر من الوزير دالس. وأى امر ذاك! ولعلمى، فقد التفت الوزير دالس لآلن وقال له:

«يا آلن، لما كنت إلى القاهرة ذاهبا، فهل تتكرم بانتهاز الفرصة لتعرج على ناصر، وتقص عليه ما يدور بخلدنا حيال صفقة السلاح»؟

والتفت الوزير إلى موظف آخر اسمه «بيل» وقال له:

«هل لك يا «بيل» فى أن تضع لنا بعض رؤوس الأقلام حول هذا الموضوع»؟

ومع أن ألن قد استحسن تقليل روزفلت لأهمية الإنذاز فى حديثه مع ناصر الليلة التى سبقت وصوله، إلا أنه لم يكن له الخيار، وكان عليه ان يبلغ «إنذار دالس».

وكان الوضع يتطلب بالتأكيد التقليل من شأن ما أرسله دالس، وليس إظهاره مظهر الجد والإصرار. فعندما ذهب آلن للقاء ناصر، لم يحاول الاول أن يقرأ بصوت مسموع أكثر من بضع فقرات من الإنذار. ثم انتقل آلن الى استعراض أمور أكثر طرافة وأسلس حديثا (بدل تصعيده لحدة التهديد كما توقع ذلك ناصر). وكان من بينها استفهامه من ناصر حول «الطرق التى تنوى حكومة ناصر أن تنفق فيها الأربعين مليونا من الدولارات» (التى نالتها من الحكومة الأمريكية كمساعدات اقتصابية قبل عقد ناصر لصفقة السلاح. وما منعت عنه كعقاب له على شرائه أسلحة السوفييت).

وأظن أن هذا هو كل ما يتعلق بالموضوع، موضوع صفقة السلاح. لقد امتلأ قلب ناصر سرورا لتطورات الأمور وتعاقب الأحداث. وفرح بصفقة السلاح التى لم تلق أية معارضة حقيقية منا. وفرحت جماهير الشعب بها على عادتها. وخدمت مسرحية «الإنذار» المزعوم تسلسل الأحداث: ناصر يقف ضد الإنذار، والجماهير تؤيد ناصرا فى موقفه هذا. لقد فرح ناصر بكل هذا طبعا، إلا أن فرحته قد بلغت الذورة عندما علم فى النهاية «أنه ليس هناك

إنذار على الإطلاق». ولم يكتف ناصر بهذه اللعبة التى رفعت من قيمة أسهمه فى العالم العربى (إلى جانب منافع الأسلحة)، بل بذل قصارى جهده لإفراغها فى قالب مسرحى ولإخراجها مفعمة بالحركة والشعور. وكان ذلك ـ وذلك كله ـ بمساعدتنا.

لقد تمكن ناصر من الاحتفاظ باستقلاله بعد حصوله على السلاح الروسى. ولم يفقده أمام السوفييت. وهكذا فقد وضعنا أمام أمرين لا ثالث لهما: إما أن ندعه لقمة سائغة للسوفييت، أو نحاول كسبه إلى جانبنا ثانية، وبعد انتهاء تلك المسرحية التى كان عمادها جورج آلن «وإعطلته الأسبوعية الضائعة» (كما اتفقنا على تسميتها فيما بعد) كان الطريق أمامنا واضحا لا غموض فيه: لقد ارتضينا حياده الإيجابى، بل شاركنا فى ولادته.

-١٢-

ناصر واتحاد «المحايدين الإيجابيين»

... فإن كانت كل تلك المغانم نتيجة جهد لاعب ضعيف لوحده فالمغانم أعظم «لاتحاد» من أولئك الضعفاء...

الحياد الايجابى - أو حرية التقرير، أو ما شئت أن تسميه - لم يكن من أهداف ناصر فحسب، بل كان استراتيجيته العليا. ففى عام ١٩٦٥ نظم بيتر ما نسفيلد قائمة بقروض مصر الأجنبية وتسهيلات الدفع الممنوحة لها. وتأكدت كل من وزارة الخارجية الأمريكية ووزارة الخارجية البريطانية من أن الأرقام صحيحة تماما، وإن كان هناك أى شك فهو - على الأقل - لا يزال قيد المناقشة. والقائمة، مع مجموع الديون، مبينة هنا، على أساس أن قيمة الجنية المصرى تعادل ٢,٣٠ دولارا.

● **من الدول الشيوعية:**

الاتحاد السوفياتى	٣٣٢,٥ مليون جنيه مصرى
تشيكوسلوفاكيا	٦٢,٠ مليون جنيه مصرى
ألمانيا الشرقية	٤٥,٠ مليون جنيه مصرى
بولندا	٢٤,٤ مليون جنيه مصرى
المجر (هنغاريا)	١٢,٠ مليون جنيه مصرى
يوغوسلافيا	٧,٠ مليون جنيه مصرى
المجموع	٤٨٢,٩ مليون جنيه مصرى

● **من الدول غير الشيوعية:**

الولايات المتحدة	٥٢٥,٦	مليون جنيه مصرى
ألمانيا الغربية	٩٣,٠	مليون جنيه مصرى
إيطاليا	٩٣,٩	مليون جنيه مصرى
اليابان	١٧,٠	مليون جنيه مصرى
فرنسا	١٠,٠	مليون جنيه مصرى
بريطانيا	٥,٤	مليون جنيه مصرى
هولاندا	٥,٠	مليون جنيه مصرى
سويسرا	٤,٠	مليون جنيه مصرى
السويد	٣,٣	مليون جنيه مصرى
وغيرهم	٦,٣	مليون جنيه مصرى
المجموع	٧٧٢,٥	مليون جنيه مصرى
● **البنك الدولى:**	١٩,٧	مليون جنيه مصرى
● **هيئة التمويل العالمى:**	٣٦,٠	مليون جنيه مصرى
المجموع الكلى	١٣١١,١	مليون جنيه مصرى
	٣٠١٥,٥٣	مليون جنيه مصرى

وعلاوة على المنافع المالية، فهناك مساعدات تقنية وهبات لتجهيزات صناعية ومساعدات غذائية. كما أن الولايات المتحدة وغيرها باعت مصر غذاء يسدد ثمنه بالجنية المصرى - العملة المحلية. وحصل ناصر على تجهيزات عسكرية من السوفييت يقدر ثمنها بخمسمائة مليون من الدولارات. ولو رضى ناصر أن يقف فى الصف ينتظر دوره - كما أراد الوزير دالس - لبقيت كل الأرقام السابقة مجرد احلام، وما كان ليحصل يومها على أكثر من أربعين أو خمسين مليونا من الدولارات سنويا من الولايات المتحدة وبريطانيا ودون أى شيء من السوفييت. كما أنه كان

سيبقى دون أية مساعدات عسكرية ما كان ليطول بقاؤه على رأس نظام حكمه فى مصر بدونها. وهكذا فقد سلك ناصر طريقا عاد عليه بعشرة أضعاف ما عرضناء عليه وقتئذ.

وأول ما نذكر فى معرض حديثنا عن استغلال ناصر لفكرة الحياد الإيجابى وانتسابه إلى «رابطة المتسولين، جابى المساعدات» (كما سماها المسؤول الاقتصادى فى سفارتنا فى القاهرة) هو الوقت الذى اثيرت اثناءه مشكلة المساعدات الاقتصادية البالغة أربعين مليونا من الدولارات. ففى اللقاء الذى جرى بين ناصر والوزير دالس فى أيار (مايو) ١٩٥٣ كان الانطباع السائد عند ناصر آنذاك أن قيمة المساعدات الاقتصادية التى نفكر بها لا تقل عن مائة مليون دولار. وأن قيمة المساعدات العسكرية لا تقل عن هذا الرقم ايضا. كما كان يظن ناصر أن كل ما يقتضيه فعله للحصول على كل ذلك هو التوصل إلى اتفاق مع بريطانيا حول قاعدة قناة السويس. واعتقد ناصر أنه غير ملتزم بالانتظار حتى يوقع الاتفاق بل كان كافيا يومها ان يبرهن المصريون على حسن نياتهم واخلاصهم اثناء سير المفاوضات. وأن يغدو التوصل الى الاتفاق وشيكا. وبناء على هذا سافر على صبرى (وكان أخلص أصدقاء الأمريكيين فى مجلس الثورة آنئذ) إلى واشنطن لمساعدة الملحق العسكرى المصرى، عبدالحميد غالب، فى المفاوضات. وقد أصبح على وعبد الحميد من خصومنا فيما بعد لاعتقادهما أننا اتبعنا معهما اسلوب المراوغة فى موضوع المائتى مليون دولار التى وعدنا بها ناصر على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية. وهكذا انقلب اثنان من المسؤولين المصريين (أحدهما بقى نائبا لرئيس الجمهورية لمدة قريبة، والآخر أضحى مساعدا لوزير الخارجية) إلى عدوين لدودين لنا. نتيجة شعورهما بالمذلة والمهانة أثناء المفاوضات فى واشنطن والذى اخفقنا فى التخفيف من حدته حتى الآن.

لقد وقعت وزارة الخارجية يومها فى حيرة وارتباك.فقد لمس صبرى وغالب من كل المسؤولين الذين التقوا بهم فى واشنطن برهانا على صدق انطباعاتهما حول المائتى مليون دولار التى وعد دالس بها ناصرا. وعانى السفير كافرى كذلك من ارتباك شديد حيال حديث ناصر عن المساعدات الأمريكية، فقد شعر كافرى أن كلام ناصر فيه كثير من الصدق ولم يستبعد أن يكون لسان الوزير دالس قد زلّ على مائدة الطعام ووعد ناصرا بمبلغ المائتى مليون دولار، دون أن يصل ذلك إلى أسماع كافرى أو مساعديه. وفى أحد أيام الصيف طلب منى كافرى أن أقوم بزيارة ناصر لسؤاله إن كان بمقدوره إعارتنا «مذكراته عن المحادثات» مع

دالس. وعندما التقيت بناصر اقتضى الأمر أن أشرح له لعدة دقائق ما أعنى بعبارة «مذكراته عن المحادثات»، فهو لم يعهد من قبل اشياء كهذه، ومنذ تلك الحادثة، ازداد ناصر دقة وتعقيدا وطفق لا يدع حديثا مع مسئوول مهم إلا وسجله صوتيا من خلال الميكروفونات المخبأة فى مكتبه وغرف الاستقبال وغرفة الطعام. فقد اعتبر تسجيل موظفينا لما دار فى الاجتماع بينه وبين دالس مكرا وخداعا لان اللقاء كان سريا، ولا يحق لأحد أن يدون ما دار فيه، فناصر نفسه لم يحتفظ بأية مذكرة عن اللقاء، ومن المدهش أن يكون دالس قد احتفظ بشىء من هذا القبيل.

ومن خلال حديث لاحق جرى بين ناصر والسفير كافرى، إلى جانب حديثى السابق، بدأت أميل للاعتقاد ان ناصر قد غفر لنا ما سماه «خطأ شريفا». إلا أن على صبرى وعبد الحميد غالب لم يغفراء لنا. (أخبرنى عبد الحميد غالب لاحقا أنهما قد عوملا معاملة الأطفال. فعندما ظنا أن الأمر قد تم والموافقة على المائتى مليون دولار أصبحت جاهزة إذا بهما يفاجآن فى اليوم التالى بأحد المسؤولين فى وزارة الدفاع يخاطبهما وكأنهما «جنود اغرار»، وبآخر من وزارة الخارجية يلقى عليهما درسا فى «السلام والاستقرار» وكأنهما أغبياء). وكان جل هم ناصر أن يعرف: «حسنا، وماذا ستكون حصتنا منكم، أيها الأمريكيون»؟.

وفى أثناء أحدى الأمسيات التى أمضيتها مع ناصر فى حديقته، وبحضورحسن التهامى، حاول ناصر ان ينتزع منى جوابا عن سؤاله السابق، لكنه لم يجد لهذا سبيلا، فقد كان محظورا علينا ـ نحن المواطنين غير الرسميين ـ فيما يتعلق بعلاقاتهم مع حكومة الولايات المتحدة وتوجيهها وجهة معينة.. ولهذا فليس من مهمتى أن أجيبه على سؤال كهذا. كما لم أشأ إحراج السفير كافرى وإزعاجة. إلا أننى قلت لناصر: «كنت أفضل ان تقتصر المطالبة على عشرين مليونا من الدولارات، ولا مانع من أن أرفق بها المشاريع المزمع تنفيذها بهذا المال. ومتى وضعت تلك المشاريع موضع التنفيذ، فسأطالب بغيرها». ومع أن ناصرا لم يبد أى تأثر بكلامى هذا، فقد انفجر حسن التهامى غاضبا وقال: «إننى لا أرغب بالبقاء هنا حتى لا أسمعك توجه الشتائم لرئيس جمهوريتى! تحدثوننا بالمائتى مليون ثم تمنحوننا عشرين مليونا كصدقة علينا ان تستجديها منكم»! إلا أننى لم أجبه بشىء. وفضلت الصمت على الكلام. وغادر ناصر المجلس إلى فراشه. وعدت إلى المدينة مع حسن التهامى بدون أن ينبس ببنت شفة طوال الطريق. إلا أنه ودعنى عندما وصلت إلى منزلى بكلام ساخر وقال: «لن يمضى

زمن طويل حتى تستجدوننا لقبول المائتى مليون دولار»!. إلا أن ذلك لم يحدث قط، بل العكس قد حصل.

وفى صبيحة اليوم التالى، أسرعت لأقص على كافرى حصيلة ما حدث معى فى الليلة الغائتة. واستحسن كافرى ما فعلته من ذكر العشرين مليونا كرقم معقول طالما كان ذكره نتيجة تخمين مواطن «غير رسمى». إلا أن كافرى عزم على أن يطالب وزارة الخارجية بمضاعفة العشرين مليون دولارا، ثم زيادتها عشرة أخرى، تحسبا لما قد يطرأ عليها من نقصان.

وفعلا، فقد حدث ما توقعه كافرى، فوزارة الخارجية لم تمنح ناصر أكثر من أربعين مليونا من الدولارات، مع أن طلب كافرى كان خمسين مليون دولار، (لقد أخبرنى بعض أصدقائى فى وزارة الخارجية أنهم أنفقوا وقتا طويلا، وبذلوا جهدا كبيرا، قبل أن يقعوا على الرقم «أربعين». ولم يكن ذلك مجرد صدفة كما ظننا نحن فى القاهرة. لقد قال لى أحدهم أن الكونغرس ما كان ليوافق على أى مبلغ يتجاوز الخمسين مليون دولار. ونظرا لأن رقم تسعة وأربعين مليون دولار سيبدو على أنه السعر الأدنى للمساومة، فإننا تمسكنا برقم الخمسين مليون دولار الذى قدمه كافرى لنا، إلا أننا خفضناه قليلا بعد أن شعرنا أن كافرى قد وضع دسما زائدا فيه).

وخضت غمار كثير من المجادلات والمناقشات فى تلك الأيام، إلا أننى كنت دائما أبدأها متنصلا بقولى: «هذا ليس من اختصاصى، ولكن....». فلقد جعلت منى تلك الظروف الوسيط المناسب «وغير الرسمى» بين ناصر وكافرى. وتقديرا لمصلحتى على المدى البعيد فقد تجنبت المساهمة فى الصفقات الفاشلة، وكان اعتقادى أن ما قدمناه لناصر من مساعدات لا يكفى لإقامة علاقات وطيدة معه، ولا أجد مانعا هنا من أن نستعرض معا كيف تم تقديم المبلغ له. ففى أثناء زيارة قصيرة لى إلى نيويورك فى أواخر صيف ١٩٥٣، التقيت ببايرود (وكن يومها مساعد وزير الخارجية) واتفقت معه على أن نوضح لناصر أن مبلغ الأربعين مليون دولار هو «دفعة على الحساب» ومعرض للزيادة (أو النقصان) بناء على الطريقة التى سيستثمر فيها وعلى النتائج التى سيعطيها، وأفلحت فى إقناع بايرود بإضافة مبلغ آخر لاستعمال ناصر الشخصى، وللاستعانة به فى اتخاذ تدابير أمن استعدادا لمواجهة مصاعب جديدة بدأت رياحها تلفحه من الداخل (كان هذا عام ١٩٥٣). كما طلبت من بايرود أن تقوم حكومة الولايات المتحدة بتقديم سيارة «كاديلاك» مصفحة الجدران كهدية لناصر. وترسل له أيضا

خبيرا فى المباحث ليشرف على تنظيم الحرس الخاص بناصر. وتزوده بأجهزة إنذار خاصة لحماية منزله وأخرى لاستخدامها فى السيطرة على أعمال الشغب والمظاهرات.

ومع أن اقتراحاتى هذه قد لا تسترعى انتباه القارئ الآن إلا أنها كانت يومها ضرورية ومعقولة. وقد استحوذت على اهتمام بايرود الذى اعتبر معلوماتى عن الوضع معلومات من الدرجة الأولى. وباشر فى إنجاز الاقتراحات جميعا. ورأى بايرود أن مبلغا لا يتجاوز الثلاثة ملايين دولار يمكن تسليمه لناصر نفسه يدا بيد، وبسرية تامة، بعد اقتطاعه من مخصصات رئيس الجمهورية الأمريكية مباشرة. ويمكن لوكالة المخابرات المركزية أو مكتب المباحث الفيدرالية إنجاز ما يلزم من ترتيبات الأمن وضروراتها. وهكذا ارتفعت قيمة المساعدة إلى ثلاثة وأربعين مليون دولار، تدفع الأربعون منها حسب الأنظمة المرعية كمساعدة رسمية، وتسلم الثلاثة الباقية سرا ودون أى مستند، وتقتطع من ميزانية رئيس الجمهورة. ثم يقرر إرسال خبير الأمن السرى، وأجهزة الحماية وادوات السيطرة على المظاهرات والشغب بعد أن تستكمل الخطوة الأولى.

اما الملايين الثلاثة من الدولارات، التى سلمت من دون ايصال ولا مستند، فقد كادت أن تبقى سرا . لولا هذا الكتاب . يحير الباب علماء الآثار عام خمسة الاف بعد المسيح كما تحير أهرامات مصر الباب علماء الآثار فى يومنا هذا. وأعنى هنا تلك التحفة المعمارية الرائعة المتمثلة فى «برج القاهرة» الذى يفوق فى ارتفاعه ارتفاع اهرامات الجيزة. ويضفى على منظر منطقة الجزيرة المقابلة لفندق هيلتون عبر النيل (فى القاهرة) منظرا رائعا. كما يبدو للمشاهد على بعد أميال من القاهرة وهو لا يزال محلقا فى طائرته الضخمة قادما من أوروبا أو افريقيا أو آسيا.

عندما استلم السفير كافرى رسالة بخصوص الثلاثة والأربعين مليونا من الدولارت . أو بالأحرى الأربعين مليونا بالإضافة إلى الملايين الثلاثة . اعتبر فكرة تقديم أيه منحة شخصية لناصر غير حكيمه، أن كان لابد منها فليس هاك غيرى ليسلمها له. وقام كافرى فى اليوم التالى بزيارة وزير الخارجية المصرى الدكتور فوزى ليطلعه على امر الأربعين مليون دولار بدون أن يشير الى الملايين الثلاثة من قريب أو من بعيد. واثارت ردود فعل كافرى تجاه المنحة الشخصية لناصر شكوكا متزايدة فى نفسى، وفضلت عندها القيام أولا بزيارة لحسن التهامى

للبحث معه فى الأمر، وأخبرته «بأن حكومة الولايات المتحدة لا تلزمكم بقبول هذا المبلغ، إلا أنه جاهز للتسليم وهو رهن إشارتكم». وأجابنى حسن التهامى (وكان يومها رئيس الحرس الخاص لناصر، وهو الذى تصدى للذين حاولوا اغتيال ناصر فى تلك الفتره وأطلق عليهم الرصاص، وقد ذكر للذين حاولون اغتيال ناصر فى تلك الفترة واطلق عليهم الرصاص، وقد ذكر ناصر هذا فى كتابه فلسفة الثورة) قائلا: «أننا - بدون شك - سنجد طريقا لإنفاقها، ولا مانع من أن نرى كيف تبدو تلك الدولارات ببريقها»! وهكذا فقد تأكدت من موافقة ناصر على استلام الملايين الثلاثة سرا. وعندما أخبرت كافرى بهذا أجابنى ساخطا بان الملايين الثلاثة قد وصلت صباح ذلك اليوم نفسه نقدا بصحبة رسول خاص من بيروت، وبعد مشاورات مقتضبة مع رجال السفارة، أحبرنى ضابط الأمن فيها أن اصطحابى لأى رجال مسلحين للحراسة سيثير كثيرا من الشكوك. وكان منزل حسن التهامى يقع فى ضاحية المعادى ويبعد خمسة أميال عن وسط المدينة. وهكذا آثرت التوجه إلى هناك دون حراسة ولكن بصحبة أشقى سائقى السيارات فى القاهرة، سالكين الطريق الريفى الوعر، وبرفقتنا الملايين الثلاثة من الدولارات مدسوسة فى محفظة سفر بين حوائج منزلية أوصتنى زوجتى بأن ابتاعها لها من محلات «جروبى».

استقبلنى حسن فى منزله فى المعادى - وكان محاطا باثنين من رجال الأمن المصريين - دون أن يظهر أى شعور بالانفعال أو الاهتمام - واحصينا المبلغ مرتين بعناية، فوجدناه أقل بعشرة دولارات عن الملايين الثلاثة. وعلق حسن على ذلك قائلا: «حسنا، لن نتشاجر بسبب الدولارات العشر»، ثم ما لبث أن استقل سيارة مرسيدس ضخمة وغادر المنزل مع حرسه قاصدا منزل ناصر فى الطرف الآخر من القاهرة.

وعلى حد قول حسن التهامى، فقد فكر ناصر فيما بعد باعادة المبلغ إلينا كما فكر بفضح النبأ أمام الرأى العام وتصويره على أنه رشوة (كما فعل رئيس وزراء سنغافوره بعد سنوات عندما أعطى نفس المبلغ بظروف مماثلة). ومع ان شعورا بالانزعاج والراحة معا قد خالج ناصر، كما خالج أيضا السفير كافرى - إلا أن ناصرا لم يكن من ذاك النوع من الرجال الذى كان منه رئيس وزراء سنغافورة. واقترح حسن التهامى أن ينفق المبلغ على تشييد بناء بشكل أبى الهول مؤلف من تمثالين ضخمين، ويقام على شاطئ «الجزيرة» المطل على النيل فى مواجهة المكان الذى كان معدا لتشييد أوتيل هلتون عليه. وكان الجزء الخلفى من البناء على شكل رأس

ضخم ذى أنف كبير متطاول، فى حين كان الجزء الأمامى عبارة عن كف يد بحجم يتناسب وضخامة الراس. ويتجه إبهام الكف نحو الأنف فى حين ترتفع الاصابع الأربعة الباقية عاليا فى السماء. ومع ان ناصرا قد استحسن الفكرة إلا أنه لم يعثر على مغزى لها. واقترح ناصر شيئا آخر صعب الوصف وأكثر ضخامة من الفكرة السابقة إلا أنه باهظ التكاليف وأكثر إثارة للناظر وصمودا امام عوامل الطبيعة. وتمخضت كل تلك الاقتراحات عن بناء «برج القاهرة» الحالى الذى يشاهده الأمريكيون أصدقاء المصريين كلما أطلوا من شرفات غرف أوتيل هلتون وهم يتناولون طعام الإفطار.

ولم تصل أنباء الاقتراح إلى واشنطن إلا متأخره فتصميم وتشييد برج بمثل هذه الضخامة يستغرق وقتا غير قصير، حتى ولو كان مجرد برج بدون فائدة ترجى أو منفعة تجنى. كما أعرب حسن التهامى مرة عن رأيه فيه. إلا أن كيرميت روزفلت قد استطاع الحصول على أنباء الاقتراح قبل أن تحصل عليها الحكومة الأمريكية بعدة أشهر وذلك من تقرير رفعه له أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية المندسين فى هيئة مساعدى ناصر نفسه. وقد زعم ذلك التقرير ان اعوان ناصر اخذوا يشيرون إلى البرج على أنه «وقف روزفلت». فى حين ان روزفلت نفسه الذى كان فى طليعة المتحمسين لموضوع الملايين الثلاثة من الدولارات. وذلك لاسباب تتعلق بما كان يحيكه من الاعيب. قد وجد نفسه يواجه موجة عارمة من اللوم والتأنيب للطريقة التى ستنفق الملايين الثلاثة فيها. وأخيرًا تسربت أنباء البرج فى تموز (يوليو) ١٩٥٥. وذلك بعد ثمانية أشهر من دفع المبلغ لناصر، (أو بعد شهرين من مشروع حسن التهامى وبنائيه فى تشييد البرج، أو قبل ثلاثة أشهر من وصول آلن إلى القاهرة وإضاعته لعطلة الأسبوع. وفى نفس اليوم الذى وصلت أنباء صفقة السلاح الروسية. التى كانت على وشك التنفيذ. إلى وكالة المخابرات المركزية).

وفى اوساط وزارة الخارجية، أثارت هذه الأنباء موجة أخرى من اللوم لروزفلت لظنه أن ناصرا مغفل وساذج. كما تصدى أصدقاء ناصر لروزفلت واعتبروا الملايين الثلاثة محاولة لرشوة ناصر، إلا أنهم غفروا له ذلك بعد تفاديها بتدبير انتقامى معاكس. أما ناصر. وهو ادهى اصحابه. فقد عاتب روزفلت على فعلته تلك لأنه كان. على الأقل. مدركا لأهداف روزفلت البعيدة، والتى كانت وراء إقناع الحكومة الأمريكية بدفع الملايين الثلاثة كتحد لناصر نفسه. ومع أن روزفلت لم يعتبر الملايين الثلاثة على أنها منحة منه لناصر، إلا أنه اقتنع ان تصميم

ناصر على اقامة برج بالمبلغ المذكور يخفى وراءه ادراك ناصر للطريق التى بدأت «لعبة الأمم» بسلوكه معه، ولهذا فقد ترك ناصر أنباء «وقف روزفلت» ـ البرج ـ تتسرب عن عمد وسابق اصرار.

لقد أثارت سياسة المساعدات المتاعب لكلا الجانبين. فقد اعتبر ناصر وضباطه ان قيمة المساعدات غير كافية، فى حين اعتقد رجال الكونغرس وعدد من مسؤولى وزارة الخارجية أنها أكثر مما يجب. ومهما كان فلقد أعادت الطريقة التى قدمت بها المساعدات إلى ذاكرة ناصر القاعدة القديمة القائلة: «لا يوضع الشحم إلا على الدولاب الذى يحدث صريرا». ولم يكن يدرك حقيقة هذا إلا ناصر نفسه وزوج من الديبلوماسيين الأمريكيين، ولم يمض زمن طويل حتى أدرك ناصر أنه لا مساعدات بدون صرير، ولا منافع بدون ضجيج، وأنه كلما زاد الصرير ارتفاعا والضجة حدة كات العوائد أكثر، شريطة ان لا ينفذ كل ذلك إلى خارج حدود «الاسطورة»، أو يفلت من قيودها.

ولم تكن وجهة النظر الأمريكية تجاه هذه المساعدات لناصر غامضة مهيمة، بل كانت واضحة محددة، فلا ازال اذكر ما حدث لاحد موظفى وزارة الخارجية الأمريكية عندما كان يطوف على مختلف دوائرها حاملا بيده مشروع منح ناصر مساعدات أخرى. فقد قال له احد كبار المسؤولين فى الوزارة وهو يمهر مسودة المشروع بتوقيعه: «إننا لن نواجه أية مصاعب ومتاعب مع ناصر لو أنه يهتم بشؤون بلاده فقط ويقلع عن التدخل فى أمور الدول الأخرى». ولقد قال المسؤول رأيه هذا وهو يوقع مسودة المشروع دون أية ممانعة أو تسويف. ومع أن تدخل ناصر فى شؤون الدول الأخرى فى منطقة الشرق الأوسط قد ازداد، وازادات معه متاعبنا، إلا أنه من الواضح جدا أن مساعداتنا له لم تتوقف على الإطلاق، بل على العكس من ذلك، قد ازدات باطراد. لقد كنا سعداء جدا أن نرى ناصرا فى المستقبل يتوجه فى تمثيل ادواره على مسرح الأحداث العالمية بدافع من التحامنا معه ومساعداتنا له بدلا من الوعود الخلابة والعهود المعسولة. ولم يكن ناصر عن هذا ببعيد. فقد فهم بذكائه الحاد مرامينا، ولم نفشل معه إلا قليلا.

وبغض النظر عن كافة تصريحات الوزير دالس وغيره من المسؤولين فى الحكومة الأمريكية حول فكرة «الحياد اللاأخلاقية» فالحقيقة أننا كنا متأثرين بفكرة حياد ناصر أكثر من تأثرنا بفكرة صداقتنا مع شاه إيران، أو الرئيس شمعون فى لبنان، أو الملك حسين فى الأردن، أو

الإمبراطور هيلاسلاسى فى أثيوبيا . مع الاعتذار لذكر الأسماء. لقد دهش ناصر لسذاجة هؤلاء الحكام بقدر ما كانوا هم أنفسهم يدهشون لسلوكنا وسياستنا. لقد أدرك ناصر ردود فعلنا بنفس الطريقة التى كان يتصرف بها كلب العالم النفسانى بافلوف عندما كان يسمع الجرس يقرع له. وبصفته زعيما لدول عديدة انضمت إلى «اتحاد المحايدين الإيجابيين» فقد أدرك ناصر أن بإمكانه خلق ردود فعل عندنا ذات مغانم أوفر وعائدات أكثر. فدخول عامل واحد إلى مكتب رب العمل مطالبا إياه بزيادة أجره وتخفيض ساعات عمله لا يتمخض إلا عن طرد العامل من المكتب ، وعلى مثل هذه القواعد التى ارتضيناها «نحن» لأنفسنا تعتمد طبيعة «لعبة الأمم».

وهكذا يفكر ناصر، بل وأظهر ذلك أرقام المساعدات الأمريكية له، وبصورة صحيحة تماما. واعتقد ناصر أنه فى الوقت الذى تصاعد ضغط «اتحاد المحايدين» على مصادر المساعدات الأجنبية الرئيسية . وهى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى . بصورة حسابية بسيطة، فقد تضاعف ضغطه عليه بصورة هندسية مركبة. وعلى سبيل المثال، فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين لوحدهم له. وكانت قيمة المساعدات التى يتقاضاها منا لا تتجاوز جدلا «س». وعندما يضمن تأييد العالم العربى له فالنتيجة أحسن، والقيمة تتضاعف وتغدو «س٢» (س مربع). وفى حال وقوف العالم الإسلامى معه فإنه يحصل على مساعدات تبلغ «س٣» (س مكعب). وعند مؤازرة الدول غير الغربية له (الأفريقية والآسيوية)، فأنه يحصل على مساعدات قيمتها «س٤» (مرفوعة إلى القوة الرابعة ولم تكن نشترط عليه أن يكون الناطق بسلان «جميع» الدول الأفريقية والآسيوية، أو «جميع» دول العالم الاسلامى، بل كا يكفيه ان يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته. ولم نكن لنتفرد فى سلوك مثل هذا الطريق لوحدنا بغية تنفيذ مآربنا . بل كان السوفييت يشاركوننا فى هذا أيضا. فلنا واياهم نفضل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستنا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء «اتحاد المحايدين» مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا.

لقد تفوق ناصر على كل من نكروما وسوكارنو كما تفوق على غيرهما من زعماء «اتحاد المحايدين» أمثال نهرو وتيتو. ويعود الفضل فى ذلك . كما وصفه فيليب تالبوت مساعد الوزير. إلى كونه صعبا مع إمكانية التحدث إليه والتفاهم معه.

وباستثناء ناصر، فإن أيا من زعماء «اتحاد المحايدين» لا يملك أى نفوذ أو تأثير خارج حدود إقليمه. فلم يكن ليخطر ببال الحكومة الأمريكية أن تطلب من سوكارنو مثلا ممارسة نفوذه بغية التأثير على الدول الآسيوية التى تعطف على الشيوعية وحملها على انتهاج سياسة الحياد الإيجابى. كما أن السوفييت أنفسهم لم يقتنعوا بصدق ميول سوكارنو الشيوعية حتى يرجوا مساعدته لهم فى تعزيز أهدافهم فى آسيا، إلا أن ناصرا قد أفلح فى إقناع الأمريكيين والسوفييت بأن يستشيروه فى شؤون كثير من الدول الأفريقية والآسيوية مثل فيتنام وأندونيسيا وسوريا بل ـ إلى حد ما ـ إسرائيل نفسها. (ففى عام ١٩٦٢ وقبل تزويد إسرائيل بصواريخ هوك؛ المضادة للطائرات قام الرئيس جون كيندى بتوضيح القضية لناصر وحصل على موافقة منه على أنه لا يمكن للأمريكيين أن يتصرفوا بغير تلك الطريقة، وعلى الأقل فى ذلك الوقت). وقد صاح الرئيس جونسون فى بعض ساعات غضبه قائلا: «... كنت أود أن يكون لنا سفير فى القاهرة لا يفقه شيئا عن فيتنام، بل ولا يدرى أين موقعها من الخارطة». إلا أنه لم يمض على ذلك أسبوعان من الزمن حتى أرسل جونسون مبعوثه أفريل هاريمان الى القاهرة ليطلب من ناصر التدخل مع فيتنام الشمالية بغية إطلاق سراح بعض الطيارين الأمريكيين الذين أسقطت طائراتهم هناك.

وعندما يذكر ناصر فى كتابه «فلسفة الثورة» أن مصر قد حظيت بنقطة تقاطع عوالم ثلاثة، هى العالم العربى والعالم الإسلامى وأفريقيا، فإنه كان يحاول وقتها أن يشيد صرح «الأسطورة» الوطنية. وعندما شرع ناصر فى تطبيق استراتيجيته فى إيجاد الكتل الدولية فى «لعبة الأمم» كان اهتماه فى النواحى الجغرافية أكثر من اهتمامه فى توطيد نفوذه وزيادة فاعليته. ففى بعض الأحيان، لم تكن كوبا لتقل أهمية عن الباكستان كحليفة متوقعة لناصر. كما أن بلادا كثيرة فى أفريقيا الغربية كانت أكثر أهمية عنده من بلاد أفريقية مجاوره لمصر. وفى الحقيقة، كان نفوذ ناصر «المزعوم» فى تلك المناطق النائية من ضمن الأسباب التى دعت أحد الدبلوماسيين الأمريكيين إلى اعتبار ناصر من «العوامل التى علينا أن نحسب لها حسابا» وبالأحرى إلى اعتباره «موضة المستقبل». ومن وجهة نظرنا ـ نحن الأمريكيين ـ فإن النفوذ «المزعوم» لا يقل أهمية عن الشكل الآخر من النفوذ «الموجود حقا». أما ناصر نفسه فقد كان يفضل النفوذ «المزعوم» لأنه كالطبل الأجوف. صوته هائل ومرعب وباطنه أجوف فارغ. كما أن تشييد صرح النفوذ «الحقيقى» الذى غالبا ما يقوم على أسس راسخة وقواعد ثابتة. وبالتالى

فإن النوع الأول يجنب ناصرا كثيرا من الأزمات والمآزق التى تثير له متاعب ومصاعب هو فى غنى عنها.

ومن ضمن المآزق التى كان ناصر يصر على تجنبها. «المسؤولية الإدارية». ان كثيرا من الكتاب المطلعين كالصحافيين والمؤرخين والدبلوماسيين الذين تقاعدوا ونشروا مذكراتهم قد افاضوا فى الكلام حول «أحلام ناصر لتأسيس إمبراطورية فى شمال أفريقيا» أو «طموحه لحكم العالم العربى». وقد سمعت مرارا بعض المسؤولين فى الحكومة الأمريكية يرددون ان «ناصرا يسلك الطريق الخطأ لحكم العالم العربى، ان كان يريد ذلك حقا»، كما لاحظتهم ينظرون إلى ناصر بعين الارتياح والسرور لأنه «لم يحالفه الحظ فى حملته لحكم العالم العربى». إلا أن حقيقة الأمر لا توحى بذلك. فمعظم الموظفين الأمريكيين الذين سمحت لهم ظروفهم بالاحتكاك بناصر لفترات طويلة (امثال كيرميت روزفلت وروبرت اندرسون ويوجين بلاك وتشارلز كريمنيز وكل سفرائنا فى القاهرة) يميلون للاعتقاد أن ناصر لا يطمح إلى حكم العالم العربى أو الإسلامى أو قارة أفريقيا، كما أراد هتلر أن يحكم أوربا، وأن جل ما يريده هو توجيه سياستها الخارجية فى مواجهتها للدول الكبرى. وكان ناصر يريداقناع الغرب أنه لن يتمكن من عقد أية صفقات مع حكومات الدول الواقعة فى مناطق نفوذه بدون التشاور معه أولا، وأن ما يعقده الغربيون معه من اتفاقات فإنما يعقدونها مع جزء من العالم أوسع من حدود مصر الإقليمية. وهذا الموضوع يشكل المادة الرئيسية فى حوار صراعنا مع ناصر ضمن مجال «لعبة الأمم»، والتى عادة ما تكون من النوع الذى «حاصل جمعه صفر مطلق». ولم يكن صراعنا مع ناصر صراع عقائد وأفكار بل كان حرب خطابات (شديدة أو مسالمة) ومقالات فى الصحف (وكل ذلك جزء من «لعبة الأمم») ومنافسة بين ناصر الذى بل كل جهده لتجميع الدول الصغيرة فى منطقة نفوذه وبين أولئك؛ الذين حاولوا ان يضموها إلى مناطق نفوذهم هم، مستغلين بذلك فكرة القومية العربية. وتنطبق هذه الحالة على الصراع فى العالم الإسلامى وفى مجموعة الدول الأفريقية الآسيوية.

ومع أنها ستبدو غريبة ومتناقضة مع التطورات الأخيرة لاوضاعه السياسية، إلا أن ناصر فكر فى البداية بإيجاد هذا «التكتل الدولى» من خلال الإسلام وليس القومية العربية. فالإسلام هو الدين السائد فى الشرق الأوسط منذ عام ٦٤١هـ بعد الميلاد، وهو، فى مفاهيمه الأساسية، دين واضح بعيد عن التعقيد، وذو جاذبية وإغراء. كما أن له رصيدا ضخما من

الحضارة والثقافة التى ـ مع بعض التعديلات الطفيفة ـ تشكل نداء مناسبا للوحدة التى كان يحلم بها ناصر. كما أن النجاح الذى حققته إحدى الحركات التى تتبنى الفكرة الإسلامية وهى حركة «الاخوان المسلمين» والتى لم يحالفها الحظ أبدا، وقد أثبت لناصر فعالية النداء الإسلامى فى حشد المتطوعين وإخضاعهم لنظام صارم وتوجيههم إلى اهداف شبيهة بتلك التى اختارها ناصر وارتضاها لنفسه.

إلا أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن مرتاحة للفكرة السابقة، واقترحت على ناصر أن يظهر بمظهر «تقدمى» فى العالم الاسلامى. ونقل له هذا الرأى أحد موظفى وزارة الخارجية الأمريكية الذى عرض عليه فى الوقت نفسه رأى وزير الخارجية دالس بأن يجعل ناصر من مصر «حصنا ضد الشيوعية». وقد أخذ ناصر هذا الرأى بعين الاعتبار فى الوقت الذى كان دعاة العقيدة الشيوعية فى حاشيته يتضجرون بصراحة من الفكرة القائلة «إن الاسلام عدو الشيوعية اللدود» ويرون أن اقتران الناصرية بالشيوعية يمكن أن يغدو «موضة المستقبل» ويحل محل النزعة الدينية عند المسلمين. إلا أن ناصر بقى يفكر باحتمال ارتكازه على إحدى تلك الأفكار لتوصله إلى مركز عالمى باندفاع وقوة وبطريقة تضمن له قاعدة واسعة يتمكن منها أن ينخس الدول الكبرى بمهمازة لتتنافس حقا على طلب وده وضمان جانبه.

أما قرار ناصر بدفع فكرة الاعتماد على العالم الإسلامى إلى المرتبة الثالثة فقد كان سببه وصول رجل المانى الجنسية إلى القاهرة تحت اسم «فرانز بونش». كان هذا خبيرا فى «الفظائع التى ارتكبها اليهود» وقد الف كتابا رائعا تحت اسم «العادات الجنسية عند اليهود» نقل إلى عدة لغات مثل التركية والفارسية والعربية، كما قام النازيون بتوزيعه أثناء الحرب العالمية الثانية كدليل على ان نفوذ اليهود وقوتهم من أكبر الأخطار التى تهدد الإسلام (كما وتهدد قوة الزنوج السود والمسيحيين البيض فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية). وعندما وصل بونش الى مصر بدأ عملا شبه روتينى بنطوى على كتابة مقالات ضد السامية، إلا أن ذلك لم يخدم أيا من أهداف وزارة الدعاية المصرية. وتمكن بونش أخيرا من تقديم اقتراح حاز على اهتمام المصريين سريعا، وكان عبارة عن خطة لتجميع النازيين العنيدين من مخابئهم فى مختلف دول العالم (كالأرجنتين والبرازيل وأيرلندا وإسبانيا وغيرها). واستبدال أسمائهم بأخرى اسلامية وضمهم إلى «الموجودات السرية التى تشكلت أثناء الحرب العالمية الثانية». وبهذا يمكن تكوين منظمة مخابرات لاهداف التخريب والتدمير تجمع بين أحسن المواهب

المصرية والألمانية. ومن ثم وضعها تحت تصرف جمال عبد الناصر فى حربه العالمية ضد الشيوعية والإمبريالية.

وعندما قدمت الخطة إلى سعد عفرة ، وكان من أكثر ضباط جهاز المخابرات العامة دهاء وكان المسؤول يومها عن شؤون الخبراء الالمان، تظاهر باهتمامه البالغ بالخطة، سوى أنه أصر على الحصول على معلومات أوفى حول ما يسمى «بالموجودات السرية». وكان رد فعل بونش حسنا ، فقد امضى مدة من الزمن دون أن يلمس أى اهتمام من قبل المصريين بما يفعله. وبتشجيع من سعد عفرة فقد توصل بانش إلى جمع كافة المعلومات المتصلة بالموضوع والتى تمكن من استذكارها أو من تجميعها من بقية أفراد المستعمرة الألمانية فى مصر يومها. وكانت النتيجة أن توفرت لدى جهاز المخابرات العامة أدلة تكفى للحكم بالإعدام على نصف «الإخوان المسلمين». كما بانت أطراف ألغاز تكفى لإشغال موظفى الأمن المصريين لسنتين على الأقل بغية ترسيخ أقدام جهازهم الجديد فى مصر والعالم العربى كله. أما الأخبار المباشرة التى جمعت من المصادر الألمانية فقد أفادت أن «الإخوان المسلمين» كانوا عبارة عن خلية مخابرات نازية (تعمل ضد الحلفاء). وبعد تتبع الأدلة المتوفرة، توصل التحقيق إلى أن هذه الخلية النازية كانت لا تزال محافظة على تماسكها ولها من القدرة على العمل ضد ناصر كقدرتها على العمل لصالحه. إلا أنها كانت قوية إلى حد أن أى محاولة من ناصر للتعاون معها ستنتهى به إلى وضع يجد فيه نفسه مطية لها، وليس العكس ابُدا.

وليس هذا كل ما فى الأمر. فلقد دلت إفادات مؤسسى «الإخوان المسلمين». نتيجة جلدهم بقسوة بالغة، أن أجهزة المخابرات الفرنسية والبريطانية والروسية والأمريكية، قد تغلغلت فى قواعد المنظمة وتسللت إلى أعلى مستوى للقيادة فيها. ولقد أضحى بمقدور كل من أجهزة المخابرات تلك أن يستخدم المنظمة كما يشاء ويهوى، أو أن ينسفها من داخلها نسفا عندما يجد من مصلحته ان يفعل ذلك. وكان الدرس الهام الذى تعلمه الجميع هو أن التزمت والتعصب لا يشكلان ضمانا أكيدا ضد الفساد، بل إن كليهما متنافسان ويسيران متوازيين، ولم ينس أعوان ناصر المنتشرون فى الأمصار هذا الدرس عندما بدأوا بتنفيذ المرحلة «السلبية» من المخطط الناصرى.

وعندما يتحرك الإنسان ضد أية منظمة تزعم أنها تحمى الدين السائد فى البلاد، فعليه أن يفعل ذلك بحذر شديد. وهذا ما قام به يومها رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى مصر. ففى محاولة لكشف الكفر والزندقة السوفييتيين، قام الأخير بتوزيع منشورات شيوعية عديدة تعود إلى عهد ما قبل الحرب العالمية الأولى وكانت تحمل عناوين ذات طابع استفزازى مثل «محمد: ليس له وجود» و«النتائج السيئة للصيام فى رمضان» و«ضد الحجاب»، وأظهرها على أنها من توزيع السفارة الروسية فى القاهرة. وعندمارفع ناصر اتفاقية الجلاء عن قاعدة قناة السويس فى تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٤، كان ضباط جهاز أمنه منهمكين فى التحقيق فى تلك الأدلة التى وفرها لهم نشاط فرانز بونش. وفجأة قام الاتحاد السوفييتى بشن حملة عنيفة على صفحات الصحف الشيوعية ضد ناصر ونعت أعوانه بالاستبدادية والظلم ورفع لواء الدفاع عن منظمة «الإخوان المسلمين» وامتدحها على أنها «أكثر الفئات المصرية مناهضة للإمبريالية، وأجدرها بالثقة». وعندها قام رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية فى مصر بالاتصال بواشنطن وطلب منها أن تقنع الإسرائيليين بأخذ زمام المبادرة لتحطيم منظمة «الإخوان المسلمين» ولكن بطريقة غير مباشرة. وهكذا أخذت الإذاعة الإسرائيلية تظهر على طريقتها الخاصة. قدرة منظمة «الإخوان المسلمين» الضخمة على الإطاحة بنظام ناصر. وهكذا أيضا ظهر كل من الاتحاد السوفياتى وإسرائيل على أنهما من مؤيدى منظمة «الإخوان المسلمين». وقد اتبع رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية هذا «التكتيك» استنادا إلى إحدى قواعد الدعاية، وهى «المدح من العدو»، التى تستعمل فى بلدان الشرق الأوسط. وتستعمل هذه القاعدة بنفس الطريقة من قبل المرشحين المحافظين فى الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك بتجميع أعداد هائلة من الناس، الذين يشمئز المرء من مظهرهم وينفر من شكلهم، بغية مضايقة المرشحين بأسئلة كثيرة وإخراجهم بتحديات مريرة.

وفى أواخر عام ١٩٥٧، قام النظام فى مصر بمحاولة لجمع شتات «الإخوان المسلمين»، إلا أن تلك المحاولة قد صاحبتها دعاية قوية على الطريقة التالية: «إننا بحاجة إلى منظمة مسلمة ولكن جيدة ذات طابع عالمى، ويا للأسف أن لا تكون كذلك منظمة الإخوان المسلمين». وكانت الدعاية تركز يومها على «أن الإخوان المسلمين أعداء لدينهم وقد أساءوا له كثيرا» بدل أن تركز على «عداء الإخوان المسلمين للدولة والنظام القائم»، وفى الوقت نفسه، فقد بذلت جهود،

ظاهرها الإخلاص، لتأسيس منظمة مسلمة جيده بدل منظمة «الإخوان المسلمين» إلا أن ناصرا لم يكن فى نفسه أى ميل لها، فكان رأيه أن أى اتحاد إسلامى حقيقى لا يبلث أن يظهر على أنه شبيه بنظام الخلافة السابق وسيصبح مناوئا للسلطة السياسية، وبالتإلى فإنه سيبعث النشاط فى القوى «اللاتقدمية» ويجعل لها صوتا مسموعا. كما أنه سيثير الخلافات بين مختلف الطوائف (مثل الدروز والشيعة والسنة والزيديين) بدلا من تلطيفها وتسكينها وسيكون مرتعا لإنجاب قادة متزمتين باستفزاز كما كان قاده منظمة «الإخوان المسلمين» من قبل، إلا أن أنور السادات وحسن التهامى قد أفلحا فى إقناع ناصر أن أطلق لهما العنان للدعوة إلى «مؤتمر إسلامى» وليحاولا أن يستغلانه قدر الإمكان، وحسب ما تسمح به الظروف.

وفى عام ١٩٥٤ ظهر «المؤتمر الإسلامى» إلى حيز الوجود برئاسة أنور السادات. وبعد مضى سنة من الزمن أصبح حسن التهامى نائبا لرئيس المؤتمر. وقد قام المؤتمر بنشر الثقافة القرآنية فى أفريقيا ووجه الدعوة لعقد مؤتمرات للبحث فى مواضيع مثل القانون الإسلامى والفن الإسلامى وعلم الآثار الإسلامى. وأوفد المؤتمر مبعوثين لتعليم أصول الدين وألحقهم بالبعثات المصرية الرسمية فى الدول الأجنبية. وطفق المؤمر بعد ذلك يترقب الفرصة، بغية تحقيق اتحاد «تكتيكى»، مستخدما المشاعر الدينية المشتركة للوقوف فى وجه الدول الكبرى وانتهاج سياسة محددة. ومع أن الحكومة الأمريكية، قد أبدت بعض التشجيع المحدود للمشروع، بغية فسح المجال أمام المصريين ، لإقناع بعض الدول الأفريقية (مثل نيجيريا الشمالية) أن الإسلام لا يتعارض والحضارة الحديثة، إلا أن هذا التشجيع قد انقلب إلى معارضة عندما ثبت فى أوائل السيتينات، أن الملحقين لشؤون الدين قد وجهوا جل نشاطهم إلى توثيق الروابط، بغيه «السير معا فى طريق الصراع مع العدو الإمبريإلى المشترك» وليس إلى الإقناع بالأخذ بالحضارة الحديثة.

وتأتى الدول الأفريقية والآسيوية فى المرتبة الثانية أهمية عند ناصر. فلقد أخذت الشعوب الملونة تظهر وعيا متزايدا لحركة ناصر وعلى مقياس جغرافى أوسع مما تخيله سابقا، فالشعار الذى رفعه ناصر فى تحديه للعالم الغربى وهو «الرجل الملون يتحدى الرجل الأبيض» قد لاقى قبولا فائقا ورواجا واسعا فى افتتاحيات الصحف والرسوم الكاريكاتورية امتد من السنغال فى غرب أفريقيا حتى كوريا الشمالية فى أقصى شرق آسيا. ومن البديهى

أن ناصرا لم يكن يطمح إلى إقامة إمبراطورية أفريقية آسيوية (كما اعتقد عدد من المعلقين الغربيين لغموض الأمر لديهم). إلا أنه تمكن من جعل نفسه فى أعين العالم غير الغربى زعيما، وتمكن بالتإلى من تطوير الأحداث بصورة تحث على الاتحاد لأهداف معينة.. مما حقق تقاربا مع بعض الأمم الأفريقية والآسيوية بغيه تحصيل بعض المنافع الآنية فى مجال «لعبة الأمم». إلا أن الناحية الأخيرة تخدم أهداف الناحية المتقدمة. فكلما زاد ارتباط ناصر بشؤون الكونغرليين أو الغانيين، وظهر على صفحات الصحف كمشارك؛ رئيسى لهم فيها، كلما تحسن مركزه وأضحى يُنظر له بعين الجد والاعتبار لما له من نفوذ حقيقى (وليس مزعوما. وهكذا يصبح ناصر من العناصر التى يطلب ودها ويحرص على ولائها على المقياس العالمى الواسع).

وفى شباط (فبراير) ١٩٥٥ التقى ناصر بنهرو. ولم يمض عشرة أيام حتى التقى بتيتو. وفى الوقت الذى لم يحظ الأول على أية مكانة فى قلب ناصر. ملك الآخر عليه فؤاده وملأ عليه حياته. كان الأول يلقى عليه دروسا فى الوعظ فى حين كان الثانى يخاطبه الند للند. إلا أن الاثنين مما قد أنزلا ناصرا من نفسيهما منزلة الجد والاحترام. فقد بادراه بالتحضير للاجتماع به وقاما بزيارته فى عقر داره ـ القاهرة. كما طلباً منه أن يتخذ الإجراءات اللازمه للتحضير للمؤتمر الأفريقى الآسيوى، والذى عقد فى باندونغ فى أندونيسيا، وذلك لتتخذ الدعوة إليه أهمية خاصة عندما تصدر عن حاكم له اعتبار خاص. إلا أن الفضل كله فى بروز ناصر يعود لهذين الزعيمين، نهرو وتيتو. فقد تملك ناصر شعور أنه قد أصبح فى «الجامعة الكبيرة» قبل أن يحط رحاله فى باندونغ بزمن بعيد.

ولم يكن تشجيع أصدقائه الأمريكيين له أقل من تشجيع نهرو وتيتو فقد غمرهم السرور قبل مغادرة ناصر القاهرة إلى باندونغ، وأعربوا له عن اعتقادهم أن مؤتمر باندونغ سيكون فرصة مناسبة له لينضم إلى «الجامعة الكبيرة». وانهمك بعض الخبراء فى واشنطن فى كتابة عدة موضوعات حول كيفية اتخاذ المواقف الاستراتيجية. وقام على صبرى ـ وزير الدولة ـ بترجمتها إلى اللغة العربية ليستفيد منها ناصر ويقتبس من أفكارها قدر الإمكان. كما تم تزويده بمعلومات وافية عن سلوك شوان لاى المتوقع وعن غيره من القادة الشيوعيين. ووضعت وزارة الخارجية الأمريكية تحت تصرف ناصر وأعوانه معلومات غزيرة عن الحالة السياسية الراهنة فى أندونيسيا. وكان هذا الموضوع ذا أهمية فائقة لحكومة الولايات المتحدة وبناصر

وذلك لأن سوكارنو سيكون أحد منافسيه الأشداء فى قاعات المؤتمر ودهاليزه. أما الخبراء الذين وصلوا إلى القاهرة من واشنطن فقد قدموا تقاريرهم إلى السفير بايرود فى السفارة الامريكية. وقام بعدها على صبرى بترجمتها ومن ثم دونها على أوراق رسمية من أوراق ديوان رئاسة الجمهورية حتى لا تعرف أنها مترجم عن أصول أمريكية. واستفاد ناصر منها فائدة جمة لما أوحت له بمواقف معينه كان نفسه يرغب باتخاذها. وعندما قام بيتر تشيس بإعادة ترجمة تلك التقارير - بعد تعديلات المصريين لبعضها - إلى الإنكليزية، ورفعها إلى السفير بايرود، طرب منها الأول طربا بالغا لأنها غمرت قلبه بالسرور، ووصفها بأنها من أدهى ما عرفه من أفكار ومواقف، ومن أذكى ما يمكن لحكومة فى الشرق الأوسط أن تتجه. وقال بايرود إن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية سوف ترى فى ناصر كل الأمل للتأثير على دول أفريقيا وآسيا وحملها على انتهاج نهج «حيادى حقا» بدلا من انتهاجها نهج «حيادى مع عطف على الشيوعيين» وذلك عندما يحين موعد ظهور «الحياد الإيجابى» على مسرح الأحداث العالمية.

ولم يقم الروس بتغيير وجهة نظرهم تجاه ناصر، إلا فى ذلك الوقت عندما لمسوا تزايد نفوذه فى أفريقيا وآسيا. فقد التزموا بموقف مناهض لناصر أثناء توقيع اتفاقية قاعدة السويس (وكانوا يمتدحون الإخوان المسلمين ويؤيدونهم ضد ناصر كما ذكرنا سابقا). وأخذوا يعتقدون باحتمالية أن يصبح ناصر عاملا رئيسا فى الحرب ضد الإمبريالية الغربية التى غدت عدوهم اللدود فى الدول الأفريقية والآسيوية بدلا من «البورجوازية الوطنية». وهكذا أضحى دور ناصر الرئيس فى مؤتمر باندونغ موضع ترحيب من الروس أكثر منه من الأمريكيين أنفسهم. ولم يخيب ناصر ظنهم فى باندونغ. ففى الوقت الذى تعمّد ناصر تمييع الجبهة المعادية للإمبريالية فى مؤتمر باندونغ، فإنه قد طوّرها إلى عداء معتدل ومخفف للغرب حتى يكسب رضا الروس الذين رحبوا بنتائج مؤتمر باندونغ كليا وبدون أدنى تحفظ.

وهكذا فقد أفلح ناصر فى مسايرة الطرفين معا ولكن مع فارق مهم. فالسوفييت انطلقوا فى استحسانهم لسلوكه دون تحفظ، فى حين أبدى الأمريكيون عليه تحفظات عديدة. فقد تمكن ناصر من الظهور كعامل مؤثر وعام، وبدأ - بالمقارنة مع أقزام كنكروما وسوكارنو - وكأنه رجل دولة من درجة شوان لاى ونهرو اللذين كانا ينزلان عند رأيه فى كثير من الأمور، وقد

أصر شوان فى إحدى المرات على ناصر أن يستجيب لدعوته لتناول الطعام ولو مرة على الأقل، ولانشغال ناصر اضطر الأول ان يؤخر وقت المأدبه إلى منتصف الليل. كما أنهما قد حضراها معا بعد انصرافهما من مناسبات ومآدب أخرى. وهكذا لمس ناصر أنه قد نجح فى مهمته. وقد أشعره الروس بهذا أيضا فى أول مناسبة بعد اختتام مؤتمر باندونغ، إلا أننا ـ نحن الأمريكيين ـ لم نكن لنظن ذلك، وبدا لنا أن الطريق لا يزال شاقا وبعيدا.

وبخليط متنافر بين حوداث موسعة وحظ تعيس، نقلت أخبار قلة حماسنا وعدم اكتراثنا بناصر بطريقة مزعجة جدا. فلقد أخفق السفير بايرود فى أن يكون عند أسفل سلم الطائرة مع أفواج المستقبلين لناصر وهو عائد من باندونغ إلى القاهرة على متن طائرة الرئاسة الأولى، تحف به هالة النصر والنجاح. وبعد أن طاف ناصر فى شوارع القاهرة المزدحمة بالجماهير الهاتفة له، وصل إلى مقره ليقرأفى أول تقرير رفع له، أن السفير بايرود، لم يكتف بأن أحجم عن استقبال ناصر رسميا، بل حث بقية السفراء الغربيين على عدم الذهاب إلى المطار، فى محاولة لازدراء عودة ناصر إلى بلاده عودة الأبطال. إلا أن بايرود اتصل حقيقة بالسفير البريطانى للاستفهام عن «البتروتوكول» اللائق وكان رأى الأخير أن ينفرد سفراء الدول الأفريقية والآسيوية بالاحتفاء بناصر يومها دون أن يشاطرهم غيرهم إياه. وعندما اتصل سفراء الدول الغربية بالسفير بايرود ليستطلعوا موقفه من الذهاب إلى المطار أجابهم بأنه يعتقد أن استقبال ناصر يجب أن يبقى مظاهرة آسيوية أفريقية، كما أن ناصرا نفسه سيقدر موقفنا ـ نحن سفراء الشعوب البيض ـ إن تنازلنا له عن ذلك اليوم. ولقد قال بايرود هذا الكلام عن حسن نية ودون ؤن ينطوى على احتقار أو ازدراء. إلا أن هيئة مراقبة الاتصالات الهاتفية قامت بترجمة المكالمة لناصر بجفاء ودون أن تنقل له لهجة الصداقة التى فيها. وأورث ذلك فى نفس ناصر انطباعا بأن بايرود قد قال ذلك الكلام وكأنه أمريكى يفتخر بشرف العضوية فى منظمة الكوكلوكس كلان (العاملة فى أمريكا ضد السكان السود). ومما زاد الطين بلة ذلك التقرير الذى رفع إلى ناصر وهو يعدد بعض العبارات التهكمية التى يتداولها موظفو السفارة الأمريكية عند ذكرهم لمؤتمر باندونغ ومنها: «إنه لعبة المحتالين من السود سكان المدن». ومن السهل أن يتخيل الإنسان مدى رد فعل ناصر حيال هذا التهكم والسخرية!.

وبعد نجاحه فى مؤمر باندونغ، شرع ناصر فى رعاية الزعماء الأفريقيين وتعهدهم، كما

بدأ يفكر بتطوير الوسائل التى تمكنه من استغلال نفوذه الجديد على أوسع نطاق ممكن. وقد أخفق كثير من دبلوماسيينا فى إدراك مقاصد ناصر وفهم مراميه، كما أنهم قد رقصوا طربا لفشله فى تحقيق بعضها . والتى لم تخطر على باله أصلا . مثل الوحدة الأفريقية وعدم قبول مصر على أنها دولة أفريقية محضة. فناصر لم يكن ليطمح فى مجال الدول الأفريقية إلى أكثر مما كان يطمح إليه فى مجال العالم العربى أو الإسلامى، وهو إيجاد نوع من التنسيق والائتلاف فى السياسة العامة تجاه الدول الكبرى وذلك لدعم فكرة الحياد الإيجابى. كما كان ناصر يهدف إلى معرفة أولئك الزعماء الذين يمكنه الاعتماد عليهم واتخاذهم كحلفاء مهرة له عندما تدعو الحاجة لذلك أثناء مساومة الدول الكبرى على مطالبه وغاياته. وكان الأمر يستلزم تجشم مشاق عديدة للحصول على تأييد أمثال نكروما رئيس غانا، وسيكوتورى رئيس غينيا، وكيتا رئيس مالى، وعلى تفويض منهم للتحدث باسمهم فى المؤتمرات العالمية. (لقد أسرّ إلىَّ كل من نكروما وسيكوتورى أنهما يشجعان ناصر على التحدث بلسانهما والدفاع عنهما فى بعض المواقف التى يشعران بالحرج فيها). وهما بهذا يقومان بأروع المناورات فى مجال «لعبة الأمم» وهى ما تعرف باسم «منافع الطرف الثالث». ويهدفان من ورائها جس النبض بدون التورط مباشرة، وفى نفس الوقت يدخلان السرور على قلب ناصر الذى يظهر عندئذ أمام الدول الكبرى على أنه زعيم بدون منافس فى العالم الآسيوى الأفريقى).

وقد أتبع ناصر وسائل إدارية لتثبيت نفوذه فى العالم الأفريقى شبيهة بتلك التى استخدمها للغرض نفسه فى العالم الإسلامى. إلا أنه لم يحاول أن يجعل من نفوذه فى أفريقيا وآسيا «دائرته الأولى» مع أنه كان جادا فى تثبيته هناك. وقامت وكالة المخابرات المركزية بتكليف إحدى خلاياها بتحديد المناطق التى يرغب ناصر أن يشملها بنفوذه. كما قامت وزارة الخارجية البريطانية بإنشاء هيئة خاصة بقصد إسداء النصح حيال الخطط السياسية الملائمة للدول الواقعة جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى، على أن تكون متسمة بطابع فريد من المرونة والكياسة. واستدعى الأمر أيضا تأليف لجنة صغيرة ملحقة بمقر الرئاسة الأمريكية للقيام بمهمة التنسيق بين الخطط السياسية وتنفيذها فى أفريقيا. ولقد اتخذت هذه اللجنة فيما بعد طابعا أكثر اهمية من سابقتيها من اللجان. وكادت أن تكتسب هيئة «وزارة» بذاتها.

ومن خلال كل هذا الاهتمام فى تنظيم الشؤون الأفريقية، يبدو واضحا وجليا، أن حماسة

مستشارى ناصر حيال الشؤون الأفريقية، قد خرجت عن طورها وأفلتت من عقالها، إلا أن كل ما وضع لها من مخططات دفعت إلى حيز التنفيذ لم تكن لتظهر سوى طموح غير معقول، يستحيل تحقيقه أو الوصول إلى أهدافه.

إلا أن آمال ناصر وأطماعه فى أفريقيا كانت أكثر تواضعا وأقل مغالاة، فقد أصبحت القاهرة ملاذ المضطهدين من الحكومات الاستعمارية. وأضحت إذاعة القاهرة نصيرا لحركات الاستقلال فى أفريقيا بدون كلل أو ملل. وكم أغضب البريطانيين تأييد ناصر لحركة الماو ماو فى كينيا، إلا أن ذلك لم يكن موضع دهشة أبدا عند كثير من المطلعين وذلك عندما خرج جومو كينياتا من السجن ليصبح أول رئيس وزراء للدولة المستقلة. وأحداث كهذه لا يمكنها أن توحى لمراقب غير مطلع إلا بطموح مفرط وآمال عريضة لا حدود لها، وخاصة أنها وقعت فى الوقت الذى بدأ فيه ناصر سلسلة من الزيارات الخاطفة لكل من بريونى ومونروفيا وتونس وأكرا وأديس أبابا والدار البيضاء وبلغراد، فى محاولة لبعث الحياة فى الأهداف المشتركة بين مصر ومثيلاتها من الدول الأفريقية. وقد احتلت أنباء زياراته هذه الصفحات الأولى فى الصحافة العالمية، ونجح يومها فى جذب أنظار الدول الكبرى إليه، كما جنى فوائد جمة كانت مقدمة لكثير غيرها، إلا أن الصحافة قد أظهرته وكأنه قد فشل فى تحقيق مآربه الرئيسية ـ التى لا وجود لها أصلا، فلم ينجح ناصر فى تأليب الدول الأفريقية ضد إسرائيل (وهو هدف غير خطير) إلا أنه مرغوب من الدول الأفريقية والآسيوية لقرارات الأمم المتحدة التى تندد بالإمبريالية والاستعمار والمؤيدة لحق تقرير المصير. وهكذا فقد أفسح ناصر المجال أمام الدول الأفريقية الآسيوية لتتبوأ مركزا أكثر حساسية فى الشؤون العالمية. وكان من حصيلة هذا المجهود تبنى الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين لسياسة أكثر تساهلا مع مصر لكسب ود ناصر وتجنب أذاه.

ولم تسنح لناصر فرصة «لبسط نفوذه ونشر دعايته» أفضل من تلك التى سنحت له فى «دائرة العالم العربى». فقد كان جمع كلمة الدول العربية وتوحيدها حوله أمراً واجباً لا مناص منه، وعرفت هذه المشكلة بوضوح على أنها الجزء من «لعبة الأمم» التى يطلق عليها اسم «اللعبة التى حاصلها يساوى صفرا» من وجهة نظر كلا الطرفين. ولا يزال الإشكال يحيط بنصوص هذا النزاع فى العالم العربى بصورة لم يعهدها العالم فى أيامنا هذه فى أى من نزاعاته الرئيسية.

وللمرة الثانية، فان سبب النزاع فى العالم العربى يعود إلى إساءة فهم أهداف ناصر نفسها، وأود أن أؤكد ثانية أن ناصرا ليس بعربى، ولم يعرف الكثير عن العرب إلا حديثا، كما أنه لا يشعر بميل وعطف خاص نحو العرب كما نتصور ونتخيل. وهو لا يطمح إطلاقاً فى إرهاق نفسه وتحميلها مسؤولية حكم العالم العربى، فالقومية العربية قوة ذات أهمية رئيسية فى مخططات ناصر، إلا أن أهميتها عنده تكمن فى كونها «أسطورة» وليست «حقيقة». ولننظر إلى النواحى التالية:

● **اللغة**: إن من ضمن أشهر الإجابات على السؤال الشهير: «ما هو تعريف العربى» هو : «كل من يتكلم العربية كلغته الأصلية». إلا أن حقيقة اشتراك العرب بلغة واحدة لا تعدو أكثر من كونها صورة طبق الأصل للحقيقة أن أوربا لم يكن لها فى القرون الوسطى سوى لغة لاتينية واحدة. إن العربية الفصحى ـ لغة الكتابة ـ هى الوحيدة التى تفهمها القلة المثقفة المنتشرة من العراق شرقا حتى مراكش غربا. وعلاقتها باللهجات العربية المتداولة والمختلفة ليست إلا كعلاقة اللغة اللاتينية بكل من اللغات الإيطالية والبرتغالية والإسبانية والرومانية فى القرون الوسطى. إن سائق التاكسى فى بغداد يعجز عن فهم زميله السائق فى تونس إذا ما نشب بينهما أى حديث ما. وإن نجاح مثقف من بغداد فى فهم حديث مثقف آخر من تونس مرده إلى اطلاع واسع لكل منهما على لهجة الآخر وعلى العربية الفصحى.

● **الحضارة**: إن تعريفا أكثر شمولا لـ «من هو العربى» يعنى بالضرورة الأخذ بعين الاعتبار مفهوم «الحضارة المشتركة». والحقيقة أن هناك تشابها كبيرا فى حضارة مختلف البلاد العربية: إلا أن هذه الحضارة لم تكن سوى وليدة الدين السائد وهو الإسلام فى تلك البقعة من العالم. كما أن أوجه الشبه هذه ليست وقفا على العرب وحدهم، بل ويشاطرهم إياها ملايين المسلمين المنتشرين خارج العالم العربى، كما أن التشابه البسيط فى الذوق الموسيقى وفى طعام المطاعم (وليس ما يطهى فى البيوت)، وفى بعض المهن الشعبية المختلفة، مرده إلى تأثير الأفلام السينمائية المصرية، وانتشار المطاعم اللبنانية فى كل أرجاء الشرق الأوسط وأفريقيا، وباستثناء أوجه الشبه هذه فإن الفوراق فى الحضارة بين القرويين فى العراق وقبائل البدو وأهل الريف فى لبنان والفلاحين فى مصر وغيرها من الأقاليم العربية ليست أقل من تلك التى تبدو بين مجتمعات الشرق الأقصى (الصين واليابان والهند)، هذا إن لم تكن أكثر منها،

وعلاوة على ذلك، فإن الضغائن المستحكمة بين مختلف المجتمعات تجعل الانصهار فى بوتقة حضارية واحدة أمرا مستحيلا من الناحية العملية، فالدروز والعلويون والمتاولة والأكراد والأشوريون ومختلف الطوائف المسيحية واليهود والأرمن والشيعة ومذاهب أهل السنة المختلفة وغيرهم يميلون إلى عدم احترام بعضهم البعض، إلى جانب دفاعهم عن تقاليدهم الإقليمية فى اللباس والزواج والأواصر العائلية وغيرها بشىء من التعصب والتزمت اللذين يتحديان جميع نواحى الحياة الأخرى، باستثناء الافلام المصرية والمطربة الشعبية الشهيرة «أم كلثوم».

● **العرق:** إن نظرة واحدة يلقيها الإنسان على رجل من السودان ذى لون مغرق فى السواد إلى جانب لبنانى ناصع البياض، أو عراقى داكن اللون أسمر البشرة، أو أحد أفراد القبائل فى السعودية الأصليين، أو سورى ذى شكل يونانى، يدرك أن فكرة «العرق العربى» فكرة لا تقل زيفا وانتحالا عن فكرة «العرق اليهودى». إن غالبية سكان الجزيرة العربية هم عرب أصلاء فى عرقهم، أما المصريون - قادة العالم العربى - فليس هناك قطرة واحدة من دم عربى تجرى فى عروقهم. وكذلك الأمر بالنسبة للسودانيين واللبنانيين وعرب شمال أفريقيا. كما أن الأتراك والشركس والأكراد هم من أبرز العناصر التى تتركب منها «الخلطة» السورية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى «الخلطة» العراقية مع إضافة شىء من النكهة الهندية إليها. وخلاصة الكلام، فإن فكرة «العرق العربى» قد حظت بمقت ناصر لها ونفوره منها إلى الحد الذى جرفت فكرة القومية العربية من أى خطورة أو اعتبار.

● **الطموح السياسى:** لا أزال أذكر كلام صديق «عربى» عندما قال لى: «عندما يقوم أى منا بعمل بناء إيجابى كإنشاء جسر، أو رقع حذاء، أو خبز رغيف، أو حشو ضرس، فهو فى لحظة قيامه بعمله ليس أكثر من مجرد مهندس، أو اسكاف، أو خباز، أو طبيب «سورى» أو «لبنانى» أو «مصرى». ولكنه عندما يقوم بعمل هدام «فهو عندئذ عربى قح». ففى سبيل الحصول على مصالحه المادية اليومية والاقتصادية العادية، فإن «التفكير الإقليمى» هو المسيطر على العربى آنئذ. ولكنه عندما يتأنف من إسرائيل أو يتشكى من الإمبريالية أو يشارك فى مظاهرة لحرق سفارة أجنبية، فإن «التفكير القومى العربى» هو المسيطر وقتئذ. وطالما أوقعت هذه المفاهيم عديدا من الدبلوماسيين الأمريكيين حديثى العهد فى حيرة وارتباك. ففى كل مكان يحلون فيه لا يسمعون سوى عبارات «الإخوة العرب» و«الآمال والآلام العربية» و«الوحدة العربية»، إلا

أنهم يخفقون فى لمس أى حماسة أصلية لتوحيد التعريفة الجمركية، أو لإنشاء سوق عربية مشتركة، أو لإقامة دولة عربية متحدة، وحتى اتحاد فيدرالى بين الدول العربية.

وكما ذكرنا سابقا، فلقد كان إلمام ناصر بدائرة العالم العربى محدودا للغاية عندما بدأ بمعالجة شؤونه والغوص فى مياهه. إلا أن جهله بالعالم العربى لم يكن بتلك الاهمية وذلك لبساطة اهدافه وعدم خطورتها. فلم يكن ناصر يطمح إلى أكثر من إقناع مختلف زعماء الدول العربية وحكامها إلى أنهم يخدومون مصالحهم. ويجنون فوائد كثيرة من الدول الكبرى، إن هم أحجموا عن الدخول معها فى اتفاقات ثنائية، ووافقوا على تنسيق سياستهم الخارجية تجاهها. وبذلك تبقى جبهتهم المشتركة قوية منيعة.

وسعى ناصر حثيثا على تقوية «أسطورة» القومية العربية إلى حد يصبح معه خروج أى من الحكام العرب عن الصف امرا عسيرا بل ويغدو الحاكم عند ذلك «منشقا خطيرا» ومن الصعب أن يتخيل الإنسان كيف يمكن لناصر أن يحقق هذين الهدفين بعناد وإصرار وبدون أن يتمتع بإلمام كاف ودراية واسعة بأحوال البلاد العربية، وبدون أن يملك شعورا بالمحبة لها أو العطف تجاهها. لقد كانت تلك الأهداف لخدمة مصر فقط دون سواها، ولكن لا مانع عند ناصر أن يصيب الدول العربية بعض من الخير، أو أن تظفر بشىء من المكاسب بمحض الصدفة. لا أكثر ولا أقل. وبدون سابق تصور أو تصميم.

وعندما وصلت إلى مصر فى تموز (يوليو) ١٩٥٣، لم أجد عند أى من أعوان ناصر أو أصدقائه. مع أننى أعرف معظمهم جيدا. أى اهتمام فى قدرة مصر أن تتزعم فكرة الوحدة العربية، أو أى نوع آخر من أنواع الاتحاد. ولقد آثار إلمامى بشؤون الدول العربية الأخرى. وخاصة سوريا. اهتمام ناصر وفضوله. وأذكر تماما أن مجموعة القصص والنوادر التى كنت أعرفها عن الانقلابات الناجحة والفاشلة فى سوريا قد جعلتنى من أقرب المقربين لناصر وفى داخل منزله بالذات. وعلى سبيل المثال. فقد غمر السرور قلب ناصر عندما قصصت عليه ذكرياتى عن المحاولة الأولى الفاشلة التى قام بها حسنى الزعيم للإطاحة بالحكومة المدنية فى سوريا، فلقد وضع حسنى الرعيم خطتها لوحده ودون مساعدتنا، وحاول تنفيذها قبل تلك التى تكلمنا عنها سابقا. فقد حاول يومها أن يضم إليه كلا من أحمد الشراباتى وزير الدفاع

آنئذ وفوزى القاوقجى قائد جيش الإنقاذ الفلسطينى. ولكن بعد اجتماع سرى ضم الثلاثة لتخطيط الانقلاب، وانعقد فى ساعة متأخرة من إحدى الليالى، ذهب كل من أولئك الثلاثة على التو وبمفرده - بدون استثناء حسنى الزعيم نفسه - إلى الرئيس شكرى القوتلى للإفساد على زميليه الآخريْن. جعلت ناصر يضحك (بينه وبين نفسه)، - وارتسمت على محياه علامات الحيرة والذهول وأدرك ما كان ينتظره من متاعب ومصاعب. إلا أن دهشة ناصر أمام الطريقة التى كانت الحكومة الأمريكية تحاول أن توجد بها نوعا من الوحدة الاقتصادية العربية كانت أشد وأقوى. وقد أعرب ناصر عن رأيه فى هذا الموضوع قائلا: «إننا نحن المصريون نفكر بطريقة متشابهة تقريبا، وباستطاعتنا أن نقف صفا واحدا فى سبيل هدف مشترك، ولكننا لن نخضع للمحاولات التى تفرض علينا التعاون مع غير المصريين بأية طريقة مدروسة، فلربما نفلح فى الاتفاق مع بعض الدول العربية الأخرى حول أهداف مشتركة إلا أننا نرفض العمل مشتركين للوصول إلى تلك الأهداف وتحقيقها». لقد كان الانقلاب فى مصر مصريا بحتا، ولم يكن أى من قادته، وعلى الأخص ناصر نفسه، يفكر به أن يكون غير ذلك إطلاقا.

إلا أنه فى أواخر عام ١٩٥٣ قفزت فكرة الوحدة - أى نوع من الوحدة - إلى مركز الصدارة كطريقة لدعم مركز ناصر ضد الدول الكبرى، وليس غريباً أن تكون هذه الفكرة قد خطرت على بال ناصر وأخفاها حتى يحين الوقت المناسب لها. فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٣ استدعى كبار سفرائه فى الخارج إلى مصر، ودعاهم إلى عقد اجتماع مشترك مع أعضاء مجلس الثورة بغية وضع خطة للسياسة الخارجية المصرية تتألف من شقين: الشق الأول منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول التى تعانى من نفس المشاكل التى تعانى منها مصر، وتعيش نفس الظروف المصرية تجاه الدول (مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتى ودول أوربا الغربية واليابان) التى هى بحد ذاتها أهدافا مشتركة للدول الوارد ذكرها فى الشق الأول من الخطة العامة. وتهدف هذه السياسة، إلى اقامة تعاون وثيق مع دول الشق الأول، للوقوف صفا واحدا فى النزاع مع دول الشق الثانى، دون أن يتطور ذلك إلى نزاع «غير ودى».

استمرت تلك الجلسات حتى كانون الثانى (يناير) ١٩٥٤، ولأول مرة تناول البحث وضع خطة سياسية لإنشاء «جبهة عربية» من أهدافها ظاهرا حماية مصالح الشعوب الإسلامية

الآسيوية والافريقية. وبانت وجهة نظر ناصر بهذا الخصوص جليا عندما سأله أحدهم فى إحدى تلك الجلسات: «لماذا لا نشكل وحدة مع الشمال الأفريقى: مصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب؟ فكان جواب ناصر أنه لو كانت الوحدة الجغرافية دون سواها هى هدفنا. فالوحدة مع الأقاليم الواقعة إلى الغرب من مصر أمر لا يخلو من الأهمية. إلا أن اتحادا كهذا لا يملك من مصادر القوة التى نحرص عليها شيئا. فى حين أن المنطقة العربية الآسيوية تملك مصادر النفط، وطرق المواصلات، كما أنها تعانى من قضية فلسطين التى تكثر حولها المساومات». إن كل هذه الأمور ذات أهمية كبيرة لكل من الدول الغربية والاتحاد السوفياتى.

لقد اعتبر باتريك سيل (فى كتابه الشهير «الصراع على سوريا أن يوم ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٤ كان يوم إعلان ناصر رسمياً أن مصر جزء من الأمة العربية. وجاء هذا فى الخطاب الذى ألقاه ناصر فى الاحتفال الثانى لذكرى الثورة المصرية. ومما قاله ناصر يومها.

«أيها المواطنون: لقد بدأت مصر مرحلة جديدة من علاقاتها لمواجهة المشاكل ببسالة وإيجاد الحلول لها. إن هدف حكومة الثورة أن يصبح العرب أمة واحدة يعمل كل أبنائها بتعاون وتضافر للمصلحة العامة... وإن الثورة تعتقد أن مسؤولية الدفاع عن الدول العربية تقع أولا وقبل أى شىء آخر على عاتق العرب أنفسهم وهم جديرون بتحمل مثل هذه المسؤوليات».

إلا أن هذا الكلام قد قيل بعد أسبوع واحد من تسلم ناصر - عن طريق اللواء نجيب - تأكيدات من الرئيس أيزنهازر تفيد أن التوصل إلى اتفاقية مصرية إنكليزية حول قاعدة السويس سوف يفتح الطريق أمام مساعدات أمريكية مالية على مقياس واسع جداً. وإلى جانب هذا، كانت هناك تأكيدات شخصية من بعض أعضاء السفارة الأمريكية فى القاهرة أن قيمة هذه المساعدات تتوقف على مدى نجاح ناصر «كعامل تهدئة وتلطيف» فى السياسة العربية ضد الغرب. ولقد أسرَّ لى ناصر مرة وقال: «عليك أن تبسط نفوذك أولاً على المناطق العربية حتى يتسنى لك بعد ذلك أن تمارس سياسة التهدئة والتلطيف وأن تنجح فيها». ولا أدرى إن أدرك ناصر تماما ما نعنى بعبارة «عامل تهدئة وتلطيف» أم لا، إلا أن الفكرة بالتأكيد قد لاقت عنده قبولا وفى نفسه ترحيباً.

وعلى وجه العموم كان ناصر يريد بسط نفوذه على الدول العربية ومهما اشتط خيال الإنسان فإنه لا يعقل أن يفسح أكثر من واحد من أولئك القادة المجال أمام ناصر لوضع سياسة خارجية واحدة للعرب أجمع فى حين كان ناصر يميل إلى الاعتقاد بإمكانية تحقيق

هذا وذلك لأنه مهما كانت الفوائد التى تجنيها الدول العربية متفرقة من الدول الكبرى فإن الفوائد أعظم إذا ما وقفت الدول العربية كلها مجتمعة فى صف واحد أمام الدول الكبرى. وكانت هذه من مبادئ ناصر العامة وليست من مشاكله الخاصة التى، وإن برزت فجأة، فإنها ليست من ذلك النوع الذى يستعصى التوصل إلى اتفاق حوله. ولم يكن يومها ليخطر ببال ناصر أن يتبوأ سدة قيادة أى اتجاه عربى نحو وحدة حقيقية - وعلى الأقل فإن ذلك لم يكن ليخطر بباله بصورة واضحة ملحوظة تلفت نظر بقية الزعماء العرب. فقد كان اللواء محمد نجيب لا يزال الرئيس الصورى للدولة، وكان - على حد اعتقاد ناصر - يصلح تماما لترأس مثل ذلك الاتجاه. كما أن زعماء الدول العربية الأخرى، مهما كانت انطباعاتهم عن الزعامة المصرية السياسية النشيطة، فإنهم جميعاً لا يفكرون برفض الحقيقة أن القاهرة - مركز العرب الثقافى - هى مركز القيادة منطقياً.

وعندما بدأ ناصر بجس نبض مختلف الزعماء العرب، وجد أن الأمر ليس بتلك السهولة التى تخيلها قبلاً. فالوفد الذى أرسله إلى بغداد فى آب (اغسطس) ١٩٥٤ لإجراء مباحثات مع الملك فيصل الثانى والوصى على العرش الأمير عبد الإله ونورى العسيد، وجد أن الزعماء العراقيين لا يميلون إلى فكرة الحياد لأنهم يخشون السوفييت والشيوعية كثيراً، كما أن علاقات العراق الوثيقة مع بريطانيا والولايات المتحدة، ستجلب لهم منافع كثيرة بدون أن يدفعوا أى ثمن لها. إلا أن نورى السعيد وافق على الاستمرار بالمباحثات حول الموضوع وقام بعد شهر بزيارة للقاهرة لهذا الغرض. وبعد هذه الزيارة اتضح لناصر أن الوفد المصرى الذى سافر للعراق لم يكن على المستوى اللائق لشرح أفكاره وآرائه، وأن نورى السعيد قد سيطر على محادثات بغداد لعلمه التام بنقاط الضعف عند رئيس الوفد المصرى صلاح سالم، التى حصل عليها - حسب اعتقاد ناصر - من وكالة المخابرات المركزية. كما رتبت الأخيرة لصلاح سالم مؤتمراً صحفيا ملغوما حشدت فيه بعض رجال الصحافة الذين قاموا بتوجيه أسئلة محرجة لصلاح سالم أربكته ودفعته إلى التصريح علنا ببعض العبارات التى أثارت سخط بعض الزعماء العرب.

كانت إحدى تلك التصريحات على شكل جواب لسؤال حول موقف ناصر تجاه وحدة ثنائية تعقد بين بعض الدول العربية - وهذا تلميح واضح لاحتمال قيام وحدة ثنائية بين سوريا والعراق التى كانت مصر تعارضها بشدة. ولم يكن جواب صلاح سالم إلا حسب ما يتوقعه الكثير ممن يعرفونه. فقد قال «إذا ما رغبت أية دولتين عربيتين فى الوحدة، فإن مصر لن

تكون من المعارضين لهذا». ومع أن السوريين كانوا متأكدين أن نورى السعيد لم يأت على بحث موضوع الوحدة مع المصريين، إلا أنهم اعتبروا تصريح صلاح سالم على أنه محاولة من رجال الثورة فى مصر لتقديم الدعم لنورى السعيد فيما إذا حاول ضم سوريا للعراق. وقد تأثر اللبنانيون أيضا بمثل ذلك التصريح لظنهم أن مصر تعد الترتيبات لإعادة تقسيم العالم العربى، وأن قصة الجبهة المتحدة إنما هى للتضليل والتموية. ومهما كانت النتائج فقد اعتبرها ناصر درسا نافعا فى حياته السياسية. فقد أدرك أن العالم العربى لن يترك أى تصريح مهما كان بريئا وبعيداً عن الغمز واللمز إلا ووضعه تحت المجهر لفحصه واستقصاء خفاياه. وستكون مثل تلك التصريحات مصدر مضاعفات مشؤومة يحاول المعارضون ترويجها والتهويل من أمرها. لقد أتقن ناصر هذا الدرس إلى الحد الذى لم يعد ليتعمد الغموض عمداً» من تفسيرات وتكهنات.

ولم تنجح الاتصالات المصرية التى جرت مع الزعماء العرب، سواء التى جرت عن طريق السفراء العرب فى القاهرة وعن طريق السفراء المصريين فى العواصم العربية، أو تلك التى تمَّت عن طريق زيارات عديدة قامت بها وفود من شتى المستويات. وفى شهر كانون الأول (ديسمبر) قام ناصر بتوجيه الدعوة لوزراء الخارجية العرب لحضور اجتماع كان يأمل فيه أن تتاح له الفرصة كاملة لشرح أفكاره عن جبهة «الحياد الإيجابى» المتحدة. إلا أن الاجتماع قد عجز عن إحراز أى تقدم بخصوص بعض القضايا، وبالتإلى فلم يحقق أى نجاح باستثناء بعض المكاسب التى جناها ناصر من جراء رفضه الخوض فى مناقشة بعض القضايا التى اكتفى بالقول عنها: «إنها مهما تكن فلابد من إيجاد حلول مناسبة لها، ولنفترض ذلك جدلا». كما لمح إلى أن مصر لا ترى فى تلك القضايا مدعاة لتعرض الوحدة العامة إلى الخطر.

وبحلول نهاية العام، كان ناصر قد أيقن أن محاولته الرامية إلى إقناع الزعماء العرب بأفكاره - وخاصة أولئك الذين كانوا يومها فى الحكم - قد باءت بالفشل. إلا أنه كان قد احتاط للأمر مسبقا. فقد أعد برامج دعائية موجهة للعالم العربى كله، وأصدر أوامره إلى محطة صوت العرب التابعة لإذاعة القاهرة أن ترفع من قوة بثها إلى الحد الذى تتمكن معه من إسماع صوتها إلى العرب فى كل مكان، وبوضوح لا يقل عن وضوح اذاعة صوت أمريكا أو إذاعة لندن أو أى اذاعة عربية أخرى. كما أعطى برامجها مادة شيقة تجذب إليها المستمعين. فكانت فيها النشرات الإخبارية والقصص والتمثيليات الدعائية، وجلها باللهجة المحلية. وكانت موشاة بالموسيقى والمارشات العسكرية، إلى جانب بعض البرامج الترفيهية التى كانت تحوز

على إعجاب المستمعين - حتى أولئك القابعين فى أقاصى الصحارى العربية. وكم ترك المستمع أزرار مذياعه مثبتة على أمواج إذاعة القاهرة دونما تغيير أو تبديل!

كانت مواضيع وشعارات الإذاعة كما يلى:

❖ «علينا نحن العرب أن نتحد لنحمى أنفسنا من الاستغلال الأمبريالى لنا»: إن البريطانيين هم أوغاد الإمبريالية الرئيسيون، ولكننا يجب أن لا ننسى أن الأمريكيين والروس هم أيضا كذلك. وقد نشرت قصص كثيرة وكلها تدور حول دخول البريطانيين أو الروس أو الأمريكيين البلاد تحت شعار تقديم المساعدات ولكنهم ما يلبثون أن يستغلوا البلاد ويجعلوها معتمدة كلياً على تلك المساعدات. ولم يكن هناك أى هجوم على شخصيات الزعماء العرب، إلا أن خطة كهذه ما لبثت أن وضعت المتساهلين مع الدول الكبرى منهم فى موقف حرج وأشعرتهم فجأة أنهم أصبحوا فى وضع يتطلب منهم الدفاع عن تصرفاتهم وإعطاء التبريرات لسياستهم.

❖ «إننا - نحن المصريين - جزء من أمة العرب»: وهذه هى - بعبارة أخرى - «الأسطورة» التى تبناها ناصر. فلم يكن هناك أى حماس أو دفاع عن الوحدة السياسية أو تعاون وثيق على مستوى الحكم والإدارة (مثل توحيد الجمارك، وتسهيل انتقال الرعايا العرب من بلد عربى لآخر دون تأشيرات دخول، وتصفية تلك الخلافات المتنوعة التى ما زالت تعصف بالعالم العربى). وتحت الشعار المذكور أعلاه، كانت مادة التوجيه فى معظمها ثقافية مثل القصص التاريخية والبحوث الفلسفية وكل ما يمكن أن يشكل مادة تساعد المستمعين وتشجيعهم على أن يكون تفكيرهم مشبعا بأفكار مثل «كيان العرب» و «استقلال العرب».

❖ «ناصر يقارع الدول الكبرى وحيداً» : بعد نجاح ناصر فى تنحية اللواء محمد نجيب ونجاحه - لمرة أو مرتين - فى الظهور على أنه أول مصرى لقرون عديدة ينجح فى شق عصا الطاعة على الأوربيين ويرفض الخضوع لهم، بدأت البرامج الدعائية تذاع على الشعب وهى مبرزة هذا الوجة لشخصية ناصر ومؤكدة حقيقته. وكانت التمثيليات الإذاعية تظهر ناصراً جالسا وراء طاولة المفاوضات بهدوء كامل وببرودة أعصاب فريدة، ثم ما تلبث أن تنهى حواره مع الكولونيلات البريطانيين بإذاعة بعض عباراته المؤثرة والرنانة بصوت رزين هادئ ينبئ عن إصرار وتصميم وعن رفض للخنوع والخضوع. وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشاعرية من خطب ناصر التى تفيض بأخبار الشعوب الآسيوية والأفريقية والعربية التى تعانى من اضطهاد الأوربيين واستغلالهم، إلا أنها كانت تختم بترنيمة شاعرية تقول: «ولكن

ناصرا «سوف» ينقذنا من كل هذا». ومع أن هذه البرامج كانت غاية فى الابتذال والركاكة إلا انها كانت ذات تأثير غير قليل فى نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والإدراك السطحى. ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها فى إظهار شخصية ناصر إلا واستخدمت. فقد وزعت صوره فى كل مكان وحتى فى الكويت - التى لم تكن فى يوم من الأيام ضمن دائرة نفوذه - وكان نادراً ما تجد حانوتا يخلو من صورته معلقة فى أبرز مكان فيه.

❖ «ناصر فى الجامعة الكبيرة»: لم يكن ساسة العرب القدامى يكنون أى احترام أو تقدير لناصر بعد استلامه زمام السلطة علنا من يد محمد نجيب. وكانت نظراتهم لا تختلف عن تلك التى اعتادوا أن يتبادلوها عن إنسان حديث العهد بالزعامة قليل الخبرة بخفايا السياسة والاعيبها. إلا أن سرعان ما تبدلت نظرات الاستخفاف بناصر إلى أخرى مليئة بالاحترام عندما طفقوا يشاهدونه متصدراً أفلام «جريدة السينما» وهو يتبادل الأنخاب مع كبار زعماء العالم برباطة جأش واتزان، ودون تنازل أو استحياء. ففى خلال شهر واحد - شباط (فبراير) ١٩٥٥ - استقبل ناصر فى القاهرة كلا من تيتو ونهرو وأنتونى إيدن والملك حسين، إلى جانب سيل متدفق من رجال الكونغرس وبرلمانات العالم ومن مراسلى الصحف والمجلات العالمية الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يفدون إلى القاهرة زرافات ووحدانا.

وأما انعكاسات الشعب العربى فقد كانت شبيهة بشعور أهل الريف عندما يشاهدون - وهم فى أريافهم - أحد أبنائهم يظهر فى مقابلة تلفزيونية مع أشخاص على شىء من الأهمية والمكانة. لقد شارك العرب انتصاراته وكان ناصر «منهم وإليهم».

وهكذا أوجد ناصر «الأسطورة» وكانت عبارة عن : «القومية العربية بقيادة إنسان كناصر - أى إنسان بطل - ولا يشترط أن يكون بالضرورة ناصرا نفسه». إلا أن القومية العربية لم تنتقل إلى الواقع الملموس إطلاقا وبقيت بعيدة عن كونها حقيقة. فما زال عليك أن تمضى ساعتين من الزمن واقفا على الحدود بين سوريا ولبنان لإنهاء الإجراءات، وتقريبا نفس الوقت على الحدود الأردنية السورية، إلى جانب تفتيش دقيق للمسافر نفسه وإجراءات أخرى مهينة. ومازالت العلاقات بين الحكومات العربية متردية وسيئة، علاوة عن الإجراءات التعسفية فى الشؤون الثقافية والتعليمية بين كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر. وأما اللاجئون الفلسطينيون فإنهم فى الوقت الذى كان ناصر يدعو هم فى خطاباته «بإخواننا العرب شعب فلسطين» كانوا يعاملون أسوأ المعاملة - وكأنهم أجانب - فى مصر والبلاد العربية المضيفة لهم. ومع كل هذا فقد نمت تلك «الأسطورة» وترعرعت وأصبحت - على حد تعبير بعض

المصادر المطلعة - القوة المسيطرة فى سياسة العالم العربى فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. بل لقد أصبحت بالنسبة للعرب حقيقة بقدر ما أصبح «بابانويل» حقيقة عند الأطفال يوزع عليهم اللعب والهدايا عشية عيد الميلاد.

وعلى أى حال، فإن هذا الاتجاه لم يكن مسيطراً لدرجة كافية. لقد أفلح ناصر فى فتح طريق قليل المصاعب والمقاومة أمام الزعماء العرب وهو طريق «أسطورة القومية العربية» - أو طريق الترغيب - كما تفهمه القاهرة. إلا أنه مازال هناك بعض قادة العرب الأقوياء يكنون كراهة للقاهرة ويصرون على أن يسيروا فى ذاك الطريق لوحدهم دون وصاية من ناصر عليهم، ودون الانتساب إلى «جمعيته»، وهكذا وجد ناصر نفسه مضطراً لأن يسلك «طريق الترهيب» لاستكمال عناصر «جميعته» ولإخضاع من شق عليه عصا الطاعة.

-١٣-
الناصرية والإرهاب

... ولن يلين عودهم وينضموا إليك حتى تصير حياة «خوارجهم» شقاء وضجراً

أمضيت الهزيع الأخير من عام ١٩٥٦، وأوائل عام ١٩٥٧، منهمكاً في شرح أفكار ناصر أمام مجموعات عديدة من الرسميين الأمريكيين، باسطا لهم متاعبه ومشاكله، ومعلقاً عليها بنفس الطريقة التي كان هو نفسه يود أن تعرض شؤونه بها أمامنا. وكنت أنفق الساعات الطوال في مكتب الوزير دالس، أو في مكتب وكيله هربرت هوفر، بغية ضم جهودنا معاً في محاولة لتحديد معالم وأبعاد ردود الفعل التي كنا نتوقع أن تصدر عن ناصر، رداً على بعض الإجراءات التي كانت الحكومة الأمريكية تنوي اتخاذها. ولم أكن أواجه أية صعوبة في شرح سلوك ناصر، عساه يكسب بعض عطفنا وينال شيئاً من رضانا. إلا أنني لم أنجح في تبسيط سائر نواحي سلوكه، وأخفقت في شرح إحداها. كما أخفقت في عدم إثارة حفيظة زملائي ورؤسائي كلما حاولت ذلك ثانية، ولقد أخبرت مرة أن أحد كبار الرسميين في وزارة الخارجية قد التفت إلى جاره بعدما غادرت أحد تلك الاجتماعات الهامة التي كان يدعوني فيها الوزير دالس إلى تمثيل دور ناصر في «لعبة الأمم» - وقال له: «إنني لا أثق بذلك الإنسان - أي بي - فإنه يتكلم بإلحاح واهتمام أكثر من ناصر نفسه». وفي مناسبة أخرى التفت إلى آلن داليس «مدير وكالة المخابرات المركزية» وقال لي: «إذا حاول بكباشيك أن يحشرنا في الزاوية فلن نتأخر في شطره نصفين!» ولا أظن أن إنساناً على وجه البسيطة يفوق آلن دالس في فهم وتطبيق أحد مبادئ التحليل السياسي القائل: «ضع نفسك في مكان الآخرين». ومع ذلك فلن يتمكن آلن نفسه من طرق ومعالجة أي من مشاكل ناصر دون أن يثور ويغضب، وذلك لأنها حقاً «مصدر غيظ وإزعاج».

كان اقتران المناصرية بالإرهاب، وتلازمها به، مصدر تعب لنا وقلق، أقض مضاجعنا، دون

أن نجد سبيلاً لفهمه أو تحليلاً لدافعه. فالأمريكيون ينفرون من الإرهاب، ويكرهون سماع أخباره، متناسين أن تحركات الغرب ضد المتمردين من زعماء آسيا وأفريقيا لا تعرف غيره غاية وسبيلاً، ولكن ما العمل؟ فناصر نفسه يمتدح العنف وأساليبه، ويدعو لها جهراً بافتضاح. ففى داخل بلاد ناصر وأراضيه، يسود القانون ويعم النظام، وفى خارجها لا تجد لهذا دعياً ولا سبباً، فإذاعة القاهرة تحض علنا على إشعال الفتن وإحداث الاضطرابات المدنية فى البلاد - كل البلاد - التى يسوسها زعماء معارضون له أو يحكمها رجال يأبون أن يكونوا مطية له. ولا تجد إذاعة القاهرة أحياناً أى حرج فى توجيه الدعوات علنا لاغتيال الحكام والرؤساء. وكانت نتيجة كل هذا وذاك اشمئزاز رجال السياسة الأمريكيين من هذه الاستفزازات، وقلق الدبلوماسيين ورجال المخابرات من هذه الحماقات، وأعمال الطيش والجنون.

إلا أنه لا يستبعد وجود تفكير ذكى خلف ارتكاب ناصر لأعمال العنف والإرهاب. فهو يحاول أن يظهر على أنه زعيم «كتلة»، ولكنه مضطر لمقاومة المنشقين عنه ولاستخدام العنف للبطش بالخارجين عليه والرافضين دخول «كتلته»، وله ذلك. فاتحادات العمال لا تملك أن تصبح قوة فعالة دون أن تضمن «وحدة الصف»، ويلتزم قادتها «بوحدة الهدف». والمتمردون فى مثل هذه الظروف - مهما قل عددهم وضعفت قوتهم - يفسدون جهود الغالبية، ويحيلون قوتها ضعفاً ووحدتها افتراقا. وهكذا يتصرف ناصر فبالعنف وحده يعامل الخارجين عليه كما يعامل زعماء اتحادات العمال «فى الولايات المتحدة، ولا أظن ذلك» المتمردين عليهم، بل أن ناصراً أشد بطشاً منهم وأكثر تنكيلاً، وما مرد الفارق فى الشبه إلا إلى تلك الفوارق بين المجتمعات.

ومن الصعب التسليم بأن الإرهابيين يجيدون فن العنف أكثر مما يجيده شعب وديع ألجأته ظروفه إلى تبنيه كسبيل للنجاة. وفى الوقت الذى لا يلعب الإرهابيون أى دور رئيسى حتى فى أسوأ المظاهرات التى تحدث فى أمريكا، فإنهم يفوزون بحصة الأسد منها فى البلاد «المنشقة» عن ناصر. وقد أطلق المشرفون على النشاط السياسى الناصرى لقب «المتعصبين» على هذا النوع من الإرهابيين.

وفى قاموس السياسة الناصرية، فإن كلمة «المتعصب» ترمز إلى ذلك الإنسان الذى أنكر ذاته فى سبيل المبدأ الذى اعتنقه، وكرس حياته للوصول إلى الهدف الذى ارتضاه، مهما كانت المشاق وبلغت المصاعب. وبالتعريف، فإن «المتعصب» هو الخاسر دوما، ولكنه دائماً يستخدم

سلاحاً فى أيدى أولئك الذين يعيشون للأهداف نفسها، ولكن «دون تعصب أو تزمت».

ويدفع ناصر باستمرار أمثال هؤلاء «المتعصبين» إلى خوض غمار المعارك تلو المعارك، ومهما كانت الخسائر جسيمة وخرجت عن حدها المألوف، حتى يحبط مساعى «المنشقين» عنه ويقنع «الخارجينش» عليه بالانضمام «للكتلة».

وبعبارة أوضح. فلعبة «المتعصب» شبيهة جداً بلعبة «التشكن» أو «الفرخة». فلسان حال المتعصب يقول: «إننى أعلم علم اليقين أننى لن أذوق طعم النصر، بل قد أموت، إلا إننى لن أكون وحيداً، فستكون معى حتماً، إن لم تكن قبلى».

ولاعب مثل ناصر، لا يملك من الموارد إلا أقلها، لن يتلكأ فى استغلال أولئك «المتعصبين». لقد أثبت التاريخ، مراراً وتكراراً، أنه بهذه الطريقة دون سواها تتمكن الأقلية من فرض إرادتها على الأكثرية - مهما بلغ تعدادها وقويت حجتها، إن كان لها حقاً أية حجة لتدفع بها عن نفسها - وتنال منها ما شاءت من التنازلات. وكلما زاد ضغط الأغلبية على المتعصبين، وتصاعد اضطهادها لهم، فإنهم عاجلاً أو آجلاً سيندفعون فى أعمال شغب وعنف، غير مكترثين بالنتائج ولا مبالين بالعواقب. غير أن ارتباطهم بقيادة «غير متعصبة» يجعل منهم سلاحاً ذا مرونة ودهاء. وعندما يمكن إيقافهم فجأة، ولو قبل الانتحار بقليل. وهم يتقنون التصنع، ويضيع على الخصم معها معرفة ما فى قلوبهم حقاً: هل سيقعون فجأة؟ أو هل فى نيتهم أصلاً أن سيقفوا فجأة؟ أم أنهم ماضون ولن يعودوا أبداً؟ وغالباً ما يمكن تزيين ذلك الهذيان الذى يتفوهون به وتحسينه، حتى ليغدو كلاماً معقولاً ومنطقاً مقبولاً، بل ويتراءى لهم كأنهم شعار أخلاقى سام. وكلما أمكن عزل الحركات المتزمتة عن المفكرين والمتفوهين، وعن الاحتكاك المباشر بالصحفيين، فإن هذه الحركات تصبح من أحسن وسائل التأثير على الجماهير، وإن هؤلاء المتعصبين ليسوا أكثر من «مجموعة رجال بواسل، يكافحون فى سبيل أهدافهم، وضد الاضطهاد والاستبداد». إن قيمهم وهم أموات لا تقل أحياناً عن قيمتهم وهم أحياء، إنهم يتساقطون رغم أنوفهم فى أروع صورة وأجمل مشهد.

وليس من الصعوبة بمكان، توفير مثل هذه العناصر المتزمتة. ففى أى بلد يسوده الحرمان ويتفشى فيه اليأس، تعشعش هذه العناصر المتعصبة، وترتع فيه وتمرح. ويملأ نفوسها التزمت، ويجيش فى صدورها الحقد والكراهية، وتهدر وتزار وهى تنتظر انبعاث «المهدى» من مرقده

ليوقظها، ويأخذ بيدها إلى شاطئ الكفاية والكرامة. وتهدف الأفلام الغربية فى دور السينما وعلى شاشات التلفزيون، إلى تثقيف الشباب وتوجيههم إلى استخدام العقل وعدم اللجوء إلى العنف. كما يلفتون الاشمئزاز منه ويرغبون بالوسائل المريحة التى قدمها لهم القرن العشرون. إلا أنهم سرعان ما يدركون أنه لا حاجة لاستعمال عقولهم. فكل ما يتقاضونه ٠ إن هم التحقوا بعمل شريف أو زاولوا مهنة كريمة - لا يعادل إلا جزءاً بسيطاً ما تتطلبه حياتهم على الطريقة الغربية، وكما تعرضها الأفلام وبرامج التليزيون. لقد ترعرعنا - نحن الأمريكيين - فى مجتمع يعتقد أن كل إنسان - وإن كان متوسط الذكاء - بإمكانه أن يصبح رئيس مجلس إدارة شركة «جنرال موتورز» وإن كان أصله فلاحاً أو مزارعاً. وكل ما يحتاجه هو أن يتمتع بالكفاءة اللازمة لشق طريقه بنفسه، وأن يملك التصميم على التسمك بمبدئه مهما كانت الصعاب. ولقد جرت مناقشات بينى وبين عشرات من شباب الشرق الأوسط، واقتنعت أنهم جميعاً - باستثناء بعض المحظوظين - قد قضى عليهم أن يعيشوا طوال عمرهم دون أن ينالوا شيئاً، ولا حتى ما لقنوا إياه. ولم يبق - مع الأسف - سوى طريق واحدة مفتوحة أمامهم ألا وهى طريق التضحية بالمصالح، والارتباط بأهداف مقدسة ضد أشياء محددة معينة. وهكذا فإن هذه الطريق هى أحسن طريق لتصريف المشاعر السلبية المكبوتة، مثل الشعور بالخيبة والإحساس بالحرمان.

إن حقيقة اعتناق الحركات المتزمتة لأهداف ثابتة محددة، تعمل لها، وتناضل فى سبيلها، تجعل منها عنصراً غير مرغوب به فى أى بلد ما، وخصوصاً إذا كان من بين تلك الأهداف إسقاط نظام الحكم نفسه، كما كانت الحالة أيام حكم ناصر الأول. إلا أن الحركات المتزمتة تصبح ذات فائدة ضخمة إن أمكن تسخيرها لخدمة أهداف ما فى بلد آخر. كإسقاط نظام حاكم ما، أو الضغط على سياسة زعيم آخر. ومن السهولة بمكان إقناع «المتعصبين» بفساد النظام السائد فى بلدهم وغرس الكراهية له فى نفوسهم، مهما كان شكله ونوعه. فالجماهير المحرومة واليائسة لا تنظر إلى الأمور كما يجب أن ينظر لها. وفى هذه الحالة فإن نظام الحكم يشكل هدفاً مناسباً فى حد ذاته. وكان ناصر يسلك هذا المسلك فيكشف عن تقصير أنظمة الحكم المتمردة عليه، ويفضح أخطاءها حتى يعجل فى إسقاطها وزوالها. ولم تكن هناك ضرورة لاقتراح وسائل معينة للمعالجة، وإنما كان يكتفى بإطلاق شعارات عامة مثل «القضاء على الاستعمار» الذى لا يشكل إغراء للمتعصبين فحسب، بل إنه منيع لا يناله ولا يطاله تحليل.

وأخيراً نصل إلى جوهر التكتيك الناصرى فى محاربة المتمردين على مؤسسة «ناصر» إن «المتعصبين» لا يحتاجون البتة إلى توجيه محدد وأسلوب منظم، وإنما يكتفون بأن تنير لهم الضوء الأخضر، حتى ينطلقوا فى تنفيذ مهمتهم وإنجازها. لقد اعتاد الأمريكيون والبريطانيون - وإلى حد ما السوفييت انفسهم - على إتقان الخطط المفصلة والتفنن فى أسلوب تنفيذها عندما ينوون الإطاحة بأى نظام حكم. فإن كان هدفهم القيام بانقلاب عسكرى، فإن سلسلة العمليات التى تؤدى إليه يجب أن تكون دقيقة التنظيم واضحة المعالم وكأنها عمليات عسكرية محضة. «وعلى سبيل المثال»، فإن العملية التى نفذت ضد «مصدق» فى إيران، كانت تتطلب من ساعتين إلى ثلاث ساعات من الحصص المدرسية لشرحها مع الاستعانة بالخرائط، وتفاصيل مراكز القوة، وطرق تحويل وتنظيم هذه القوى، وغير ذلك» وأما فى حالة استخدام الحركات المتعصبة بالطريقة التى استخدمها ناصر بها، فإن كل ما يجب فعله هو تهيئة المسرح عالمياً، ثم إصدار الأوامر لإذاعة القاهرة بالهجوم على الهدف المحدد، ومن ثم اعتماد أكثر الحركات المتعصبة تحمساً للهجوم، بعد تزويدها ببعض الأسلحة والاحتياجات الأخرى، ثم تركهم وشأنهم لإنجاز المهمة واتمامها، والدفاع الوحيد لاهتمام الإنسان بمثل هذه المخططات، هو لمعرفة نصيبها من النجاح، والوقوف على الطريقة التى لا يمكن لجماعة المتعصبين بدونها المحافظة على أى نصر يحرزونه فى أى من الأقاليم الخارجية على السياسة الناصرية.

ولا مانع من أن نستعرض هنا ملخصاً للإجراءات النموذجية التى يتبعها ناصر فى محاولته للإطاحة بأنظمة الحكم المتمردة عليه:

أولا: تبدأ إذاعة القاهرة بالهجوم على نظام الحكم لاصقة به الاتهامات الكافية لإثارة بعض الجماعات المتعصبة، متجنبة توجيه الاتهامات التى لربما تكون موضع إحراج لناصر فى حالة نجاح الضربة.

ثانياً: محاولة دراسة ردود الفعل لحملة الدعاية السابقة عسى أن يتعرف ناصر من خلالها إلى «المتعصبين» أو إلى الحركات المتزمتة التى يمكنه الاعتماد عليها حال بدء العمل.

ثالثاً: محاولة الاتصال بالمتعصبين، وغالباً ما يكون هناك عدة فئات تتنافس مع بعضها البعض، ثم يتم تزويدهم بالسلاح، ويحدد ناصر بالضبط ما يمكنه الحصول عليه من مخططاتهم.

رابعاً: محاولة التعرف إلى بعض العناصر الملائمة والبعيدة عن التصعب، والتى يمكنها أن تتسلم القيادة فى اللحظة المناسبة «إما قبل الإطاحة بالحكم أو بعده» لتستفيد من المكاسب والمنجزات. ثم يحاول ناصر، عقد اتفاقات معهم، تضمن له انضمام ذلك البلد إلى «جمعيته»، إلى جانب جملة أهداف أخرى. كا يعدهم ناصر بتأمين الاعتراف بنظام الحكم الجديد فور نجاح الانقلاب مع استمرار تأييد إذاعة القاهرة له.

إلا أن هذا المخطط لا يخلو من وجود خطأين خطيرين فيه. أولهما: أن القيام بسلسلة عمليات كالسابقة الذكر، سلاح ذو حدين، فمن السهل أن تبدأها ولكنه من الصعب أن توقفها. وثانيهما: أن وجود عناصر غير متعصبة فى مثل تلك العمليات - وهم غالباً ما يتحلون بسلوك انتهازى، كناصر نفسه - سيشكل حجر عثرة فى سبيل ضمان إتمام الصفقات المتفق عليها معهم، ومن أبرز الأمثلة على الخطأ الأول هو النزاع السابق الذى وقع بين ناصر والملك حسين فى الأردن، فعندما قرر الملك حسين الانصياع لناصر، وقال له بالفعل «إننى قد وافقت على ما تريد»، لم يكن عندئذ لدى الأخير أية طريقة لإعادة الأمور إلى نصابها وكبح جماح فئاته المتعصبة. ويعطى الانقلاب العسكرى فى العراق سنة ١٩٥٨ مثالاً واضحاً على الخطأ الثانى. فزعماء الانقلاب ما كانوا ليقوموا به لولا التشجيع المصرى ووعد ناصر لهم بمنحهم بركاته، وبركات كل الأطراف الملتزمة معه فى «جمعيته». لكن قادة الانقلاب، سرعان ما استقلوا برأيهم عن ناصر، وسلكوا طريقاً آخر، قادهم أخيراً إلى تشكيل جبهة معارضة له، لا تقل عداوة ومشاكسة عن جبهة نورى السعيد السابقة.

إن الحرب التى يشنها ناصر ضد المتمردين على مخططاته، قد آلت إلى نتائج جعلت حكام العرب لا يتجرأون على الارتباط بأية قوة كبرى، شرقية أم غربية، دون الأخذ بعين الاعتبار وجود «جمعيته»، وحتى موافقته الشخصية على ذلك. ولقد خدمه هذا المخطط - وعلى الأقل- لمدة من الزمن. وإن التصدع المتزايد «لجبهته المشتركة»، وما أصابها من شروخ وانقسامات، لم تكن نتيجة أخطاء جذرية فى استراتيجيته «عندما وضعها خلف الأبواب المغلقة» أكثر من كونها نتيجة التغييرات المستمرة للظروف العالمية.

ولقد لفت شخصياً أنظار أصدقائى المصريين، وأنظار ناصر نفسه عندما كنت ألتقى معه، إلى أن تحالف الناصرية مع المتعصبين والغلاة فى البلاد المجاورة، يثير ردود فعل سيئة فى

العالم الغربى، وبالتالى فإنه يحيل ميزات «جمعية» ناصر إلى سيئات، وأدرك الجميع وجهة نظرى هذه واعترفوا بصحتها، ولكنهم احتجوا بأن لا طاقة لهم بالمخططات الأمريكية المعاكسة لفرط قوتها ووفرة مالها، ولهذا فليس أمامهم إلا طريق اللجوء إلى ما تبقى لديهم من وسائل، مهما كان نوعها ولونها، وهم بهذا يطبقون الاستراتيجية القائلة: إن الأمة الضعيفة لا يمكنها أن تلعب دورها ضد القوى الكبرى - وعلى الأقل حول طاولة «لعبة الأمم» - دون استخدام العنف، الذى يسد العجز فى نواحٍ عديدة من ميزان القوى.

ولادراك هذه الحجة يجب أن نملك فكرة واضحة عن «استراتيجية المخططات المعاكسة» التى يظن الزعماء الناصريون أننا نتبعها فى تحركاتنا ضدهم، فلقد بقيت هذه الاستراتيجية لغزا محيراً لهم، وذلك لأننا كنا نتظاهر باتباعها فى نفس الوقت الذى كنا نستغل فكرة «جمعية» ناصر نفسه، وما لها من نفوذ واسع فى المنطقة بغية إيصال مخططاتنا الهامة إلى درجة النجاح - الذى ما كان لنا أن ندركه دون اتخاذ نفوذ ناصر الواسع مطية لنا - وعلى سبيل المثال، فقد كان مشروع أريك جونستون لنهر الأردن واحداً منها. وذلك لأنه لم يكن ممكنا تنفيذه دون موافقة ناصر وضغطه على بقية زعماء العرب للقبول به.

ومثال آخر على ذلك، هو محاولاتنا المتكررة لجر ناصر إلى قيادة العرب بغية السيطرة عليهم، وبالتالى إقناعهم بتخفيف حدة التوتر بين العرب وإسرائيل.

ولقد قامت الحكومة الأمريكية بأكثر من محاولة لدعم هذه الفكرة ووضعها حيز التنفيذ. كما ألقت بثقلها وراء «جمعية» ناصر بغية تحقيق ذاك المأرب، وإخراجه إلى حيز الوجود.

وكان التناقض واضحاً وجلياً فى كل أفعالنا وقرارتنا، فقد كنا نسدد باقى حسابنا مع ناصر بشكل محاولات تهدف تقويض نفوذه، أكثر مما تهدف إلى تقويته. وكنا نفعل هذا جهراً بافتضاح، وأول ما نذكر فى هذا المجال «حلف بغداد» نفسه. فقد قال عنه باتريك سيل «فى كتابه الصراع على سوريا» إنه «كان ذا تأثير بالغ على السياسة العربية فى كل المستويات». كما قال ب.ج. فاتيكيوتس أن حلف بغداد كان صدمة عنيفة على سوريا. ولم تكن هذه سوى عبارات مخففة لتصوير الموقف بشكل أقل مما كان عليه حقيقة، لقد هز حلف بغداد العالم العربى إلى حد تعذر علينا معه - وذلك لفترة من الزمن - الاحتفاظ بمواقع الغرب فى الشرق الأوسط، مستنفدين كل ما تحت تصرفنا من مساعدات اقتصادية. وقد أدرك هذه الحقيقة كل

من كان له علاقة مباشرة مع العالم العربى من الرسميين الأمريكيين والبريطانيين. غير أننى فى ذلك الوقت لم أكن أملك الشجاعة المكافية لإدخال قاعة تلك الاجتماعات التى كانت تعقد فى مقر الوزير دالس، وأعلن هذه الحقيقة المؤلمة، كما أعلنها باتريك سيل وفاتيكيوتس.

وفى نيسان «أبريل» ١٩٥٤، وقعت كل من الباكستان وتركيا معاهدة صداقة ودفاع مشترك. وبعبارة أدق، لم تكن تلك المعاهدة تعنى قيام حلف عسكرى بينهما. وقد وقعت تركيا والباكستان تلك المعاهدة بدافع ذاتى، ودون أى ضغط خارجى من الولايات المتحدة أو من بريطانيا. ولكن رجال الأمن العام التابعين لناصر، قاموا بتصوير جميع صفحات جوازات سفر كبار المسؤولين الأمريكيين والبيريطانيين لدى عبورهم نقاط الأمن العام فى مطار القاهرة. وكان من السهل بعدها أن تقوم القاهرة بنشر معلومات تدعى فيها أنه قد مر فى مطار القاهرة - وقبيل توقيع المعاهدة - ما لا يقل عن ثلاثة من الرسميين الأمريكيين، الذين لهم علاقة بالمعاهدة، وعلى جوزات سفرهم تأشيرات دخول وخروج تركية وباكستانية. وفى نفس الشهر، وافقت الولايات المتحدة رسمياً على منح العراق مساعدات عسكرية فى ظروف أثارت الشكوك فى نفس ناصر، وظن أن حكومة نورى قد قامت بتقديم تنازلات سرياً، مع أن العراق لم يكن قد أعلن ليومها عن أية ارتباطات رسمية شبيهة بتلك التى طلبها من ناصر كل من جيرهارت وايفلاند سابقاً. ولكن بعد تسعة أشهر، وفى كانون الثانى «يناير» ١٩٥٥، أعلن كل من العراق وتركيا، فى بيان مشترك، أنهما على وشك توقيع حلف بينهما، وقد حدث هذا حقيقة فى الشهر التالى من العام نفسه، ولحقت بهما بريطانيا ووقعت على الحلف بعد ثلاثة أشهر.

ومع أن مقرى كان يومها فى القاهرة، إلا أننى كنت أتردد إلى سوريا والولايات المتحدة، حيث كان يسمح لى وقتى بزيارة زملائى القدامى فى وشنطن. وفى إحدى زياراتى للقاهرة مع البرت جيرهارت فى تشرين الثانى «نوفمبر» ١٩٥٤، نقل إلى بيل ايفلاند صورة محتملة من تسلسل الوقائع، وأشار بوضوح إلى أن ناصراً سوف يجد نفسه وحيداً ومتخلفاً عن الركب، ولكن لم يكن بيننا من صدقه فى حينه. وأهمل كل من السفير كافرى وجيمس ايخلبرغر حديثه ولم يعيرا تنبؤاته أى اهتمام أو انتباه، وفى اليوم الذى أعلن فيه الأتراك والعراقيون توقيع الاتفاق بينهما، لم يعلم ايخلبرغر به إلا عن طريق نشرة الأخبار الداخلية التى تصدر داخل السفارة، فلم يرد أى ذكر للاتفاق فى سياق البرقيات الرسمية، التى ترسلها وزارة الخارجية فى واشنطن إلى القاهرة. واقترح يومها ايخلبرغر أن أذهب وإياه لزيارة ناصر فى

منزله لنطلعه على النبأ. وفعلنا ذلك حالاً. وبعد أن نقلنا له الخبر، جلس ناصر لدقائق معدودات فى صمت مطبق ودون أن ينبس ببنت شفة. ثم ما لبث أن خاطبنا بصوت منخفض، ولكنه منذز بالشؤم، مذكراً أيانا أنه - بغض النظر عن حديثه مع ايفلاند وجيرهارت - لم يفهم من جميع الأمريكيين الذين لهم علاقات معه، ومنهم السفير كافرى، سوى أن الحكومة الأمريكية الذين لهم علاقات معه، ومنهم السفير كافرى، سوى أن الحكومة الأمريكية ستعطيه الفرصة الكافية لإنشاء منظمة دفاع إقليمية عربية بدون أن يكون لها أية علاقة مكشوفة مع الغرب. وسيتم بناء هذه المنظمة الدفاعية بصورة تسمح لها أن تجد مكانها المناسب ضمن مجموعة الخطط الغربية حال ظهور أى خطر يهدد الجميع. وكاد حسن التهامى - وكان حاضراً - أن يفقد أعصابه عند سماعه النبأ، إلا أن ناصراً خفف عنه، وهدأ من روعه. وعندما غادرت وإيخلبرغر المنزل كان الاثنان غارقين فى صمت تام، والدنيا من حولهما تنظر وتترقب.

وبعد قرابة يوم، غادرت القاهرة إلى دمشق لقضاء بعض الأعمال التى لا علاقة لها بما سبق ذكره. وفى دمشق صحبنى صديقى مجد الدين الجابرى «وكان يشغل يومها منصب وزير الأشغال العامة» معه إلى عند وزير الخارجية فيضى الأتاسى الذى ألقى على محاضرة مليئة بشكوك الأطفال وأوهامهم، ولو أننى أعدت ما سمعت منه على المسؤولين فى واشنطن، لشكوا بصحة عقله واتهموه بالجنون «ولم يكن هو كذلك». إلا أن الحديث قد وضح لى الفكرة التى رسمها العرب فى مخيلتهم عن الأمريكيين. وكانت محاضراته تحتوى على عبارات مثل: «الاستعمار.. يحاول أن يبقى العرب ضعفاء.. أنكم لستم سعداء إلا عندما نصبح عبيداً لكم.. إنكم تتمنون أن نبقى مختلفين وخياليين.. وكالة المخابرات المركزية.. فاضل الجمالى عميل لها.. ولى العهد «الأمير عبد الاله» يأمل أن يصبح ملكاً على سوريا..» إلى غير ذلك من العبارات المماثلة لما سبق ذكره. وفى اليوم التالى، أمضيت ست ساعات وأنا أشق طريقى خلال الثلوج المتراكمة على جبل لبنان، وخلال مراكز المراقبة التابعة للجمارك والأمن العام على حدود البلدين، حتى أصل إلى بيروت، وفى المساء التقيت بعدد من اللبنانيين المؤيدين لناصر ألقوا على محاضرة لا تختلف عن تلك التى أصغيت لها فى دمشق. ومع أننى التقيت أيضاً بعدد من اللبنانيين المناوئين لناصر، إلا أن حديثهم لم يكن يختلف كثيراً عن الحديث السابق فى معانيه، سوى أنه كان أخف حدة وألطف منطقاً. وعندما قصدت فى نفس اليوم مبنى

السفارة الأمريكية فى بيروت التقيت صدفة بأحد معارفى القدامى «وكان قادماً من واشنطن فى زيارة لبيروت». ولكنه سرعان ما تأبط ذراعى والتفت إلى قائلاً: «وأخيراً فلقد عثرنا عليكم يا عشاق ناصر، أليس كذلك؟!».

وعندما عدت إلى القاهرة، كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق، تحضيراً لمؤتمر وزراء الخارجية العرب. ولم يكن أصدقائى المصريون، من الذين لهم علاقة بالمؤتمر، ليتحدثوا إلى إلا عندما يودون توجيه انتقادات لاذعة للوزير دالس. وعندما وصل الوزراء العرب إلى القاهرة قمت بالاجتماع بأكثرهم، فقد كنت أعرف نصفهم تقريباً. ولقد أعربوا لى عن وجهات نظر متفاوتة كانت كلها تلتقى حول حقيقة واحدة، وهى أن خلافاً جديداً قد نشأ بينهم لكنه من نوع أشد وأقوى من تلك الخلافات السابقة التى اعتادوا عليها. ونتيجة لذلك، فقد أخذت كل من بغداد والقاهرة فى استقطاب الدول العربية الأخرى حولهما، وحلت سياسة المحاور محل سياسة الاتفاق والتفاهم، وأضحى الصف العربى متصدعاً إلى حد استفاد منه السوفييت أكثر مما استفاد منه الغرب بكثير. وفى تلك الأثناء، وصل السفير بايرود ليتسلم مهام منصبه كسفير للولايات المتحدة فى القاهرة، وقام بايرود بعدها بتناول طعام العشاء فى منزلى بصحبة كل من ناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامى «وقد أتيت على ذكر ذلك سابقا». وقد أطلعت وأيخلبرغر، بايرود على وجهتى نظرنا السلبيتين حول حلف بغداد. ونظراً لبعده عن تأثيرات أجواء واشنطن الرسمية عليه، فقد نجحنا فى استمالته إلينا، وضمه إلى صفنا. وساعد تعاطف بايرود مع وجهتى نظرنا اتخاذ موقف أقل ما يوصف به أنه ملطف لردود فعل ناصر تجاه حلف بغداد، وحاول بايرود أن يطمئن ناصر حول نتائج الحلف، مؤكداً له أن الأمور لن تتطور إلى أسوأ، وأن مساندة بريطانيا والولايات المتحدة للحلف لن تبلغ درجة هامة وخطيرة.

وفى آذار «مارس»، علمنا أن بريطانيا على وشك التوقيع على معاهدة حلف بغداد، وأن هناك ضغطاً على الحكومة الأمريكية حتى تحذو حذوها. وفى تلك الأثناء، كان الموقف قد اتضح تماماً لبايرود، وصار يراه كما كنا نراه وعندها اقترح على بابرود أن أنتحل بعض الأعذار - كقضاء بعض الأعمال - للسفر إلى الولايات المتحدة، وأحاول هناك أن أتصل ببعض الأصدقاء المسؤولين فى وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأبلغم شفهياً ما كان يعنيه كل من بايرود وأبخلبرغر فيما أرسلاه من برقيات ومذكرات وكانا فيها متحفظين جداً «حتى لا

يبدو بايرود وكأنه قد غير مواقفه فجأة بين عشية وضحاها مما يسىء إلى مكانته، ويظهره بمظهر الغبى الأحمق». وقد دأب بايرود على إرسال مثل تلك البرقيات والمذكرات منذ اليوم الأول لوصوله إلى القاهرة، دون أن يأتى صراحة على ذكر آرائه التى كان يتمسك بها يوماً ما بقوة، وجب عليه أن يفعل ذلك بهدوء وتدرج لئلا يثير أزمة ثقة واطمئنان.

وعندما وصلت إلى واشنطن، قمت بزيارة لكيرميت روزفلت فى مقره فى وكالة المخابرات المركزية، وبسطت له وجهة نظرى بخصوص حلف بغداد «وكانت شبيهة بآراء كل من الكاتبين بايريك سيل وفاتيكيوتس» ومع أن كيرميت روزفلت لم يظهر استحساناً كلياً لوجهة نظرى، إلا أننى أفلحت فى أن أضفى - على الأقل - شيئاً من الصبغة الواقية «كما هى حقيقة فى الشرق الأوسط» على النظريات التى كانت سائدة أنذاك فى واشنطن، وأخذ روزفلت كلامى هذا بعين الاعتبار، مما منحنى شجاعة وجرأة لأن أنتقل إلى شرح أكثر صراحة وأوسع شمولاً، وسرعان ما أدار قرص الهاتف ليتخذ الترتيبات التى تسمح لى أن أمثل لدقائق معدودات أمام أحد الاجتماعات الرسمية، التى كان مقررًا لها أن تعقد بعد ظهر ذلك اليوم فى مكتب وزير الخارجية دالس، ويحضرها معنا خبراء وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية. ولا أزال أذكر جيداً ذلك الاجتماع الذى أقنعنى يومها أنه مهما أوتى أولئك المؤرخون «مثل باتريك سيل وفاتيكيوتس» شجاعة وجرأة لعرض أفكارهم وآرائهم، بنفس قوة الإقناع الملموسة فى مؤلفاتهم «وهى تدور حول سوء ردود الفعل ضد الأمريكيين نتيجة توقيع حلف بغداد» أمام المجتمعين يومها، لما أفلحوا فى زحزحتهم عن مواقفهم المتعنتة، تجاه سياستنا فى الشرق الأوسط، ولا قيد أنملة.

كان يحضر ذلك الاجتماع الوزير دالس، وإلى جانبه كل من بيل رونترى «الذى حل محل بايرود فى منصب مساعد الوزير لشؤون الشرق الأوسط» وكيرميت روزفلت من وكالة المخابرات المركزية، بالإضافة إلى أربعة أو خمسة من ألمع خبراء الوزارة من الشباب الذين استظهروا معلومات واسعة حول البلدان المتعددة فى الشرق الأوسط. وكانت تلك المعلومات تشمل كل شىء حول الموارد الطبيعية وغيرها من الحقائق والإحصائيات الاستراتيجية الهامة. وليس متأكداً من حضور بيل ايفلاند لذاك الاجتماع، إلا أن ممثلاً عن وزارة الدفاع كان بالتأكيد فى طليعة المشتركين فيه. وضم ذلك الاجتماع فعلاً كبار مخططى الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط، وكان فى متناول يدهم كامل المعلومات المتوفرة فى كل الأجهزة

والدوائر فى واشنطن ولندن حول استراتيجية السوفييت، وقوتهم العسكرية، وحالة التسلح النووى آنئذ، والتغييرات فى معدلات إنتاج النفط حتى عام ١٩٧٠، وحالة التطور الصناعى فى أوروبا، وتقارير مختلفة عن نشاطات حلف الأطلسى، وما لا حصر له من التقارير والمعلومات المصنفة والواردة من كل حدب وصوب. ولم أجد صعوبة فى اجتذاب انتباه الحاضرين فى الاجتماع، فقد كانوا كرماء فى ذلك، كما حصل بسرعة وعن طيب خاطر. إلا أننى لا أدرى ماذا انتابنى وأنا ماثل أمامهم. فلم أوفق فى أن أنقل اليهم سرداً كاملاً لتفاصيل سياسة البعثيين، وللرفض الذى يحمله العرب لسياسة نورى السعيد وفكرة الهلال الخصيب. كما لم أوفق إلى شرح أمور عديدة، شبه رسمية، تعتبر مخالفتنا لها فى المنطقة ظلماً وقسوة، ولكن الإنسان لا يقيم لها وزناً عندما ينظر إليها وهو قابع خلف الجدران فى واشنطن، وقد يشعر أنها لا تساوى ولا حتى ذاك التشويش الذى يثار بسببها. فالمسؤولون فى واشنطن لا ينظرون إلى الشؤون العالمية إلا من خلال منظار القنابل الذرية والحرب الباردة بين الشرق والغرب، وحلف وارسو، ومعاهدة دفاع حلف الأطلسى. وكان جل تفكيرهم بالشرق الأوسط لا يتعدى حدود مشاكله الاقتصادية وموارده الطبيعية. وأما مشكلة إسرائيل فإنها كانت تتطلب اهتماماً زائداً وذلك لأسباب سياسية داخلية ذات أهمية لا تتناسب إطلاقاً مع أهمية إسرائيل الاستراتيجية.

ولقد دأب أولئك الرسميون على النظر إلى غيرهم من خلال المنظار السالف الذكر، فمثلاً: ما هى سوريا؟ إنها لا تعنى بالنسبة إليهم سوى أنها بلاد لا يتجاوز سكانها ستة ملايين نسمة، فهى بهذا لا تتجاوز ربع سكان مدينة نيويورك «الكبرى» ولقد حدث مرة أننى قابلت قنصل أحد البلدان الصغيرة وهو «راوندا أوراندى» وانتهزت الفرصة لأستمع منه إلى شرح حول السحرة وعاداتهم المقدسة «فى أفريقيا» من جهة أخرى. وكان ذلك القنصل يظن نتيجة لذلك أن الحرب العالمية الثالثة ستبدأ من هناكو ومن «راوندا أوراندى» بالذات. وهنا أدركت مدى السخافة والسذاجة التى يتصف بها أولئك المسؤولون الذين لا يفكرون فى الشؤون العالمية إلا من زاوية التعصب لأقاليمهم والتمسك بها «وذلك على حد تعبير الجنرال بديل سميث».

لم يكن عرضى لوجهة نظرى موظفاً كما كنت أتمنى وأشتهى. وعند انصرافى من الاجتماع، التفت إلى «كيرميت روزفلت» وقال معلقاً: إنه قد وجد متعة فى إصغائه إلى وأنا أزار ولكن كهر صغير لا حول له ولا قوة. وعندما عدت أدراجى إلى القاهرة كان شعور أيخلبرغر

وبايرود أننى قد خذلتهما وتخليت عنهما» ولكن ما العمل إزاء أحداث كهذه؟ فجوهر الأمر يكمن فى الخلاف الشاسع بين تصور المسؤولين لأبعاد الموضوع وهم وراء مكاتبهم فى واشنطن، وبين تصور أولئك الذين يعيشونه فى وسط الميدان، وتحت أشعة شمسه المحرقة. وباستثناء بعض التلميحات والإرشادات. فإن كلا التصورين يبقيان فى عالمين منعزلين تمام الانعزال عن بعضهما بعضاً. ودونما أى اتصال أو تبادل للآراء والأفكار.

ومهما كان فلقد وافقت واشنطن على أن تبقى خارج حلف بغداد، إلا أن ذلك لم يكن أهون الشرين وأخف الضررين، ففى الوقت الذى بقى الحلف ضعيفاً دوننا، أخذت الأطراف المشتركة فيه تشن علينا حملة قاسية، ناعتة إيانا بالتخلى عنهم وبتركهم فى العراء، وعرف المصريون وغيرهم أن الحلف كان من بنات أفكار الوزير دالس، وكان هذا مطعناً جديداً بسلوكنا، وعلى أية حال فقد كان حلف بغداد أمضى سلاح أعطيناه لناصر ضدنا، وبنفس الطريقة تماماً التى أعطانا بها السوفييت، عام ١٩٦٨، سلاحاً جديداً ضدهم عندما قاموا بغزو تشيكو سلوفاكيا. ومع أن ناصراً كان يتمنى أن تسنح له الفرصة لتوجيه شكر رسمى لنا على موقفنا ذلك فإنه لم يتردد بترك انطباع كهذا عند السفير بايرود خلال لقاءاتهما المتكررة.

كان حلف بغداد بمثابة منطلق جديد لناصر يشن منه حملاته ضد أولئك «الخارجين» عن سياسته. وزاد هذا المنطلق قوة ومتانة، عندما شاركت بريطانيا «وهى أحد الأطراف الموقعة على حلف بغداد» كلا من فرنسا وإسرائيل فى الهجوم على قناة السويس فى تشرين الأول «أكتوبر» ١٩٥٦. وكان أمراً حيوياً وضرورياً لناصر أن يشن تلك الحملات ضد الحلف وموقعيه. فقد أثبت توقيع الحلف «بغض النضر عن عداء الجماهير العربية له، وعن مدى الإحراج الذى سببه للزعماء العراقيين فى علاقتهم العامة»، على أن هناك وسائل عديدة قد تمكنت إحدى الدول التى تعتبر من الأركان الأساسية فى «جمعية» ناصر من اتباعها، ومن انتهاج سياسة مستقلة عنه تماماً. وأما الوسيلة الثانية التى شجعت البعض الآخر على انتهاج سياسة «الخروج» والاستقلال عن ناصر فهى «مبدأ ايزنهاور».

جاء إعلان «مبدأ أيزنهاوز» كنتيجة من نتائج فشل العدوان الثلاثى «البريطانى الفرنسى الإسرائيلى» على قناة السويس فى عام ١٩٥٦. إلا أنه قد زود ناصراً بمجموعة رهيبة من الاحتمالات والأخطار، التى لها علاقة «بلعبة الأمم». وكان أول ما لاح فى الأفق احتمالية دخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى فى منافسة شديدة لكسب ود ناصر واستمالته. فقد أبرق

سفير ناصر فى واشنطن مطلعاً أياه على آخر رأى لنا فى المنطقة، وأننا قد أدركنا أن خروج البريطانيين من المنطقة بعد هزيمة السويس سيترك فراغاً فيها، وأن كبار مخططى السياسة الأمريكية أخذوا يسهرون الليالى الطوال علهم يجدون ما يريحهم ويزيل عنهم القلق، وكلمة «الفراغ» هذه كلمة كريهة لناصر، فهى لا تعنى عنده سوى ضرورة وجود إحدى الدول الكبرى على مسرح الأحداث فى المنطقة. وأن خروج إحداها يحتم بالضرورة حلول أخرى محلها. ولقد أثارت امتعاضه حقاً تلك المساعى الحميدة التى بذلتها واشنطن للإفراج عن الأرصدة المصرية المجمدة انتظاراً لنتائج المفاوضات حول تسوية مطالب شركة قناة السويس العالمية. إلا أن ناصراً أدرك نهائياً، وبوضوح تام، أن أبعاد تصورنا لفكرة «ملء الفراغ» فى المنطقة ليست أكثر من مجرد كسب لصداقته ومودته، كما أنها تعنى، بالوقت ذاته، منحه مطلق التسهيلات فى سبيل إنشاء «تجمع» فاتر على طلب كان قد تقدم به للأمريكيين والسوفييت يطلب فيه منهم بإلحاح قمحاً وعقاقير. فى حين كان الرد السوفييتى سريعاً، ولبى الروس طلبه بالحال.

ولناصر العذر كله فى تخوفه من النتائج وفى ترقبه للشرور. فقد تظاهر «الخوارج» بتأييده، وتكاتفوا معه أثناء أزمة السويس. ولكن بقيت قلوبهم بعيدة عنه، وفى نفوسهم تحفز وانتظار. أما وقد انتهت الأزمة، وانفرجت الكربة، فقد أدرك ناصر أنها قد زلزلت أركان «الخوارج» وهزت قواعدهم هزاً، وأنهم قلقون، غير مرتاحين، لانحسار نفوذ بريطانيا عن المنطقة، وعليهم البحث عن بديل لها ليمد لهم يد العون ويمنحهم التأييد. وقد استرعى انتباهى مرة، وأنا فى حديث مع أحد كبار أعوان ناصر، أن العلاقات بين السفراء المصريين ووزرات الخارجية فى كل من بيروت وعمان وبغداد، تمر بمرحلة فتور وبرود، فلم يكن استقبالهم هناك أكثر من مجرد رسميات متكلفة، ولياقة شكلية مفرطة، مما أثار الهواجس والشكوك حيال ما يدور وراء الكواليس.

وكان تلهف ناصر شديداً على سلاح آخر كسلاح حلف بغداد، نقدمه له دون وعى منا، ليستخدمه فى شن الحملات على «الخوارج» فيزيدهم إحراجاً فوق إحراج «حلف بغداد» لهم. وأحس ناصر بأن فى نيتنا هذا، وأننا على الدرب سائرون. فقد أبرق له سفيره فى واشنطن، فى الأول من كانون الثانى «يناير» ١٩٥٧ بأنباء مفادها: أنه يعتقد أن الأمريكيين منهمكين فى وضع مخطط بغية الإطاحة بنظام حكم ناصر والتخلص منه.

وحدث ما أراد ناصر له أن يحدث. فقد كنت فى تلك الأثناء ملحقاً بلجنة كلفت بمهمة

الإشراف على كل ما يمت إلى سياستنا تجاه ناصر بصلة. وعندما حضرت لمكتبي في أحد الأيام. أصبت بدهشة مذهلة عندما علمت أن رئيس الجمهورية قد قدم في الخامس من كانون الثاني «يناير» ١٩٥٧ اقتراحاً إلى الكونغرس الذي وافق عليه «في الجلسة المشتركة بني مجلس الشيوخ ومجلس النواب» حالاً، وأصبح نافذ المفعول ابتداء من شهر آذار «مارس» من نفس العام. وقد خول الكونغرس رئيس الجمهورية «وكان يومها أيزنهاور» حق إرسال القوات المسلحة الأمريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة في الشرق الأوسط التي تواجه تهديداً مسلحاً من قبل أية دولة أخرى تدور في فلك الشيوعية العالمية. وفي حال عدم وجود مثل هذا التهديد السافر بالسلاح، فللرئيس الحق في تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج إليها تلك الحكومات بغية بناء جهاز دفاعها الذاتي، وقد عرف هذا «بمبدأ أيزنهاور» وحتى يومي هذا، لم أعثر على ذلك المسؤول الذي استنبط هذا «المبدأ» واخترع فكرته. إلا أنني متأكد تماماً أن «المبدأ» نفسه كان مصدر مزيد من الإحراج والتوريط لأعداء ناصر، دون أن يقدم لهم المساعدة الفعلية التي أضحوا في أمس الحاجة إليها للصمود في وجه ناصر وحملاته المتلاحقة القاسية ضدهم.

وعندما أجول بذاكرتي في أجواء «مبدأ ايزنهاور» فإن الشك يخامرني في أن الوزير دالس نفسه، أو مساعده بيل رونتري، كان وراء اختراعه وصياغته. وكلي يقين، بأنه لم يكن وراء مبدأ يزنهاور أي من أولئك المسؤولين في لجنة تخطيط السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط «وهي لجنة مشتركة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية»، أو في لجنة شؤون الشرق الأدنى وشمال أفريقيا. ولا يستبعد إطلاقاً أن تكون الفكرة وليدة أحد تلك اللقاءات السياسية غير الرسمية «التي يحضرها بعض الدهاة الأذكياء»، إلا أنها كانت بالتأكيد دون مشورة منا - نحن خبراء «الميدان» - أو رأي. وفي ضوء معلوماتنا وتصوراتنا عن العالم العربي، لم تكن الفكرة لتعني أكثر من مجرد لغو وهذيان. ولا أزال أذكر جيداً ذلك الموقف السلبي الذي أجمع عليه الخبراء بشؤون الشرق الأوسط حيالها. فعندما سئل ممثل وكالة المخابرات المركزية «في لجنة التخيطط السياسية للشرق الأوسط» عن رغبة الوكالة في إرسال أي من مسؤوليها في مهمة رسمية لشرح مبدأ أيزنهور للزعماء العرب، أجاب قائلاً: «إننا لا نحمل أن نشارك في كل ما يخطر لكم من أفكار طائشة ومخططات حمقاء!».

ومع أن ناصراً كان يترقب بلهفة إعلان «مبدأ أيزنهاور»، إلا أنه لم يخف قلقه إزاء العبارات

التى صاغ الرئيس أيزنهاور بها مبدأه. فعبارة «الدول التى تدور فى فلك الشيوعية الدولية» كانت تشير، من قريب أو من بعيد، إلى مصر، دون سواها. ومع هذا، فقد كان سروره أعظم عندما جلس حول طاولة «لعبة الأمم» «وهو طرف فيها» يراقب خصمه وهو يرتكب الأخطاء، الواحد تلو الآخر، وقد أخبرنى ناصر فيما بعد أن انتداب جيمس ب. ريتشاردز، عضو الكونغرس، لنقل الأخبار السارة إلى كل من الرئيس شمعون والملك حسين وغيرهما، كانت الناحية الوحيدة من مبدأ أيزنهاور التى استرعت انتباهه واستحوذت على اهتمامه. فاختيار رسول لمهمة كهذه، وهو لا يعرف من شؤون العرب أكثر مما يعرفه ناصر نفسه عن الفنون الشعبية وأغانيها، قد أوقعت ناصراً فى حيرة شديدة، وساورته الشكوك فى أن «مبدأ أيزنهاور» قد أخذ يسير فى مسالك انتهازية بغية تطويق ناصر فى داخل مصر بالذات. وأذكر أنه قد خاطبنى مرة - بعد مضى مدة غير قليلة على إعلان مبدأ أيزنهاور - قائلاً: «إنه ببساطة ووضوح، بل غالباً ما تجعلونها معقدة وغامضة إلى الحد الذى نضطر معه إلى التفتيش عن العديد من الاحتمالات التى لربما كانت تنطوى عليها. إلا أننا دائماً نكتشف - ولو بعد حين - أنها لم تخرج عن كونها حماقات، دون ذكاء فيها أو دهاء».

ولقد بقى ناصر يعتبر «مبدأ أيزنهاور» إحدى بنات أفكار الوزير دالس، ولكن المبدأ بحد ذاته كان من أفحش الأخطاء التى يرتكبها أحد كبار ديبلوماسيى دولة عظمى.



وبعد ذلك، بدأت لعبة الأرباح والخسائر.

بدأت الدعاية السوفييتية تشيع أن الأمريكيين كانوا طرفاً فى المؤامرة الفرنسية - البريطانية - الإسرائيلية على قناة السويس، ولكن بشكل «شركاء أوصياء». فدورهم تمثل فى البقاء جانباً إلى أن حان موعد تدخلهم على شكل وسطاء خير، ورسل سلام، جاؤوا نتيجة شطط من كان قبلهم وفشله. كما ساعد خبراء الدعاية فى إذاعة القاهرة الروس فى مهمتهم هذه فأخذوا ينشرون الحيل والإشاعات ويلفقون لها الأدلة والبراهين مدعين الحصول عليها من مختلف المصادر السرية فى الشرق الأوسط. وكان جلها يدور حلو المؤامرات التى تدبرها الولايات المتحدة للإيقاع بين العرب ليسهل عليها بعد ذلك استعبادهم. كما أنها تعول على أعوانها فى بعض الحكومات العربية لتنفيذ مثل هذا المخطط وفى الدعوة إليه.

ولم تكن فى البداية حملات ناصر ضد «الخوارج» أكثر من مجرد نقد للأفكار، بدون تهجم على الأشخاص، وكان النقد يهدف إلى إيجاد رأى عام، وتكوين محيط متعاطف معه ومتحمس له. وبهذا كان يأمل أن يقطع الطريق على كل من تسول له نفسه الخروج عليه، عاجلاً أم آجلاً. إلا أن هذه الوسائل لم تلق نجاحاً كاملاً، وإن كانت قد حققت شيئاً من أهدافها مثل تلقين الشعوب العربية الوسائل التى تكشف «الخوارج» وتظهر زيفهم. كما تمكنت من إلقاء الظلال وإثارة الشكوك حول كل من نورى السعيد فى العراق، والرئيس شمعول فى لبنان، والملك حسين فى الأردن، وأظهرتهم على أنهم من «الخوارج» «وخاصة فى حالة نورى وشمعون» حتى قبل أن يتحركوا فعلاً ضد ناصر بزمن غير يسير. إلا أن ناصراً شعر أخيراً أنه لابد من القيام بخطوة أشد ضد «الخوارج» وأن الوقت قد حان لتصعيد الحملات وتوجيهها ضد أهداف واضحة ومحددة.

وأعد ناصر لائحة بأسماء «الخوارج» احتل فيها نورى السعيد - رئيس وزراء العراق يومها - مركز الصدارة، إلا أن ناصراً قد أدرك أن الإطاحة بنظام نورى السعيد سيستغرق وقتاً غير قصير، ورأى أن عزله عن بقية «الخوارج» يسهل تنفيذ المهمة ويدفع بها إلى الأمام حتماً. ولهذا قرر ناصر أن يستبدل نورى السعيد بالملك حسين، وغدا الأخير يحتل مركز الصدارة بعدها كان فى المرتبة الثانية تسلسلاً بعد الأول. وحدث هذا قبل إعلان «مبدأ أيزنهاور». ومع أن الملك حسين لم يكن بأهمية نورى السعيد، إلا أنه كان فعلاً مصدر إزعاج لناصر وإقلاق له، لأكثر من سبب واحد. ولذا بدأت الحملة ضد حسين قاسية وسريعة، ودون رحمة ولا هوادة. ففى كانون الثانى «يناير» ١٩٥٦ أوفدت الحكومة البريطانية السير جيرالد تيمبلر إلى عَمَّان فى محاولة لإقناع الملك حسين للانضمام إلى «حلف بغداد». إلا أن صيحة واحدة من إذاعة القاهرة «مع تشجيع مباشر من أركان القيادة المصرية على أعمال العنف» كانت كافية لإثارة الشعب فى أنحاء المملكة الأردنية، وإسقاط الوزارة القائمة يومها. وبعد أشهر، قام الفدائيون الفلسطينيون، المدربون على أيدى المصريين، بشن الغارات على الأراضى الإسرائيلية من قواعد أردنية، مما أوقع نظام الملك حسين فى مآزق جديدة نتيجة العمليات العسكرية التى قامت بها إسرائيل انتقاماً لغارات الفدائيين. وعندما علم الملك حسين بأهداف ناصر، بادر إلى الإعلان عن عدم نيته الانضمام «لحلف بغداد»، واتخذ موقعا فيه أكثر تعاوناً مع ناصر. وأعلن بعد شهرين إقالة الجنرال جون باجوت غلوب - القائد البريطانى الذى كان يشغل

منصب رئيس أركان حرب الجيش الأردنى - واسبدله باللواء أبى نوار ذى الميول الناصرية، وفى حزيران «يونيو» أعلن الملك على البرلمان، وفى تشرين الأول «أكتوبر» جرت انتخابات وأسفرت عن نجاح المرشحين الموالين لناصر بصورة لم يسبق لها مثيل.

ولا يزال المسؤولون المصريون يصرون إلى يومنا هذا على عدم قيامهم بإرسال أى من عناصرهم المختصة بأعمال العنف وإثارة الشغب إلى الأردن خلال هذه الفترة. وإذا صح هذا - وليس ذلك ببعيد - فإن معالجة ناصر لهذا بالذات كانت من طراز ناجح، فلقد كان «المتعصبون» لناصر من أشد العناصر الفلسطينية اللاجئة عناداً وتشبثاً فى حين كان بعض ضباط الجيش الأردنى وبعض السياسيين والانتهازيين يشكلون مجموعة ناصرية «غير متعصبة» وقد اتبع ناصر طرقاً عدة، وغير مباشرة، للوصول إليها والتقرب منها، ومن هذه الطرق ما يلى: حضر اللواء أبو نوار بدافع ذاتى إلى القاهرة حتى يقف على حقيقة التأييد العالمى الذى باستطاعة ناصر تأمينه حال نجاح الانقلاب الذى يزمع القيام به، وكان أبو نوار يأمل فى الحصول على مساعدة تختلف عن تلك المساعدة التى قدمت دول حلف الأطلسى إلى الثوار المجريين عام ١٩٥٦، بعدما دفعتهم إلى الثورة وحرضتهم عليها. وكان يصر على نوع من المساعدة أكثر جدية وأثقل وزناً. وأوصت القاهرة أبا نوار أن يخبر سليمان النابلسى الذى على رأس الوزارة الأردنية يومها «حزيران، يونيو ١٩٥٦» أن إذاعة القاهرة ستباشر إبراز أخباره للعالم العربى لتجعل منه بطلاً.

وتكللت الخطة بالنجاح عندما أذعن الملك حسين للضغط الذى مارسه عليه كل من اللاجئين الفلسطينيين، والإسرائيليين «عن طريق العمليات العسكرية»، وإذاعة القاهرة، وغادر بعدها الملك عمان إلى القاهرة ليلتقى بناصر، وبصبرى العسلى رئيس الوزراء السورى، بقصد التوصل إلى اتفاقية دفاع مشتركة، ولإيجاد وضع يسهل الاستغناء عن المساعدة المالية البريطانية - الأمريكية، وبالتالى يمكنه البقاء خارج حلف بغداد بكل ارتياح وطمأنينة، وهكذا تم انضمام الملك إلى «جمعية» ناصر، وغدا معه فى الصف حتى حين.

❖❖❖

وبنفس الوقت، كانت الحكومة السورية تبذل المستحيل لتفكيك «جمعية» ناصر وإفسادها، ولكن بطريقة شيقة وجديدة. ففى الوقت الذى كانت سوريا تساند ناصراً فى كل مواقفه ضد الغرب، وترفض الخروج عنه كانت تحاول جاهدة أن تلعب دوراً خاصاً بها وبمعزل عنه فى

علاقاتها مع الاتحاد السوفييتى فناصر لا يريد أن يكسب تأييد السوريين له فقط فى مواقفه مع الغرب، بل كان يريد تأييدهم له فى كل المواقف، وضد جميع الأطراف، فترتيب ناصر لقوى «جمعيته» يتطلب وقوف العرب جبهة واحدة فى ميدان الصراع ضد كل الأطراف، حتى تنجح لعبة «الوقوف على الحبلين» فى آن واحد.

وفى عام ١٩٥٤ قام كل من الحزب العربى الاشتراكى «أكرم الحورانى» وحزب البعث العربى «ميشيل عفلق» و«كلاهما حزبان سياسيان ذوا عقائد متقاربة» بالاندماج فى حزب واحد تحت اسم «حزب البعث العربى الاشتراكى» ومع أن هذا الحزب ليس حزباً شيوعياً، فإن آراءه وأحقاده «ضد الغرب» جعلت منه مرتعاً خصباً لنمو الشيوعية فى سوريا. وعندما برز حزب البعث فى انتخابات عام ١٩٥٤ حصل يومها الشيوعيون على مقعد فى المجلس النيابى وفاز به خالد بكداش، زعيم الحزب الشيوعى السورى منذ منتصف الأربعينيات «وكان قد فر من البلاد إثر ملاحقة حسنى الزعيم له» ولم يحاول خالد بكداش يومها أن يظهر حقيقة شعاراته، بل حورها لتظهر منسجمة تماماً مع شعارات بقية الزعماء السياسيين السوريين من البعثيين وغيرهم، وهذا ما جعله يبدو «شعبيا» بل وأظهره بمظهر «الطاهر الشريف!!». ولقد أخبرنى خالد بكداش مرة عن بعض تلك الشعارات فقال: «إننا كلنا فى سورية ضد أهداف واحدة، فنحن ضد الإمبريالية وضد الأتراك مغتصبى لواء الإسكندرونة، وضد الصهيونية، وضد الهاشميين «الملك فيصل الثانى فى العراق والملك حسين فى الأردن». إلا أن أثر دفاع الشيوعيين عن سموهم العقائدى وميزاتهم الفكرية «كما أخبرنى أحد الدبلوماسيين الأمريكيين فى سوريا». لا يعدو ذاك الأثر الذى تحدثه بنات الهوى عندما يتكلمن عن الفضيلة ويناضلن لأجلها.

وفى الفترة التى أعلن فيها «مبدأ أيزنهاور» كانت السياسة السورية تلعب هى الأخرى على حبلين فى آن واحد، ففى الوقت الذى كانت سوريا تمنح ناصراً تأييدها التام فى مواقفه ضد الغرب، كانت نزعتها الاستقلالية عن خط القاهرة تتزايد فيما يختص بالعلاقات مع السوفييت. فقد باتت سوريا تعاكس مبدأ الطاعة الكاملة لناصر، والالتزام التام «بجمعيته» وخرج ناصر عن طوره وثارت ثائرته عندما أعلن السوفييت رسمياً، فى منتصف عام ١٩٥٥، تأييدهم المطلق لسوريا فى حال تعرضها إلى اعتداء تقوم به الأطراف الموقعة على حلف بغداد. وعندما أعلن مولوتوف، وزير الخارجية السوفييتية، فى آذار «مارس» ١٩٥٥. عن

مساندة حكومته لمواقف سوريا، واستعدادها لتقديم المساعدة للسوريين فى أى شكل كان، وقامت إذاعة القاهرة والصحف المصرية بشن حملة على السوفييت لا تقل قسوة وشراسة عن تلك الحملات التى كانت تشنها على الدول المشتركة بحلف بغداد نفسه. وهكذا فقد غدت «لعبة الأمم» فى الشرق الأوسط عام ١٩٥٥ مزيجاً غريباً من المثلثات: المصريون يزجون بالأمريكيين وبالروس فى منافسة حادة، يحاول كل طرف فيها كسب ود ناصر وضمان جانبه، والأمريكيون يثيرون ناصراً «ومن معه من العرب الناصريين والتقدميين» والمحافظون من العرب« ومعهم معارضو ناصر» ضد بعضهم البعض فى آن واحد. كما كان الروس يحاولون إثارة السوريين ضد المصريين، ويحاول السوريون إثارة المصريين ضد السوفييت. ولم تكن تلك المناورات لتخدم الأطراف المشتركة فيها إلا قليلاً، إلا أن المصريين كان لهم هدف بعيد بل واستراتيجية فى اتباعهم لمثل تلك الأساليب وفى إذكاء نارها. فقد كانت تشكل إحدى الوسائل الهامة التى تضمن لناصر الاستمرار فى تنفيذ مخططاته وتكفل له جنى الفوائد وكسب المنافع.

وشهد عام ١٩٥٦ توطد زائد فى العلاقات السورية - الروسية إلى الحد الذى بات معه رتق الصدع فى الجبهة الموحدة تجاه السوفييت، أمراً غير بسيط، بل إن هذه المشكلة لم تعد أقل صعوبة عن المشكلة التى أثارها «الخوارج» أمثال نورى وحسين بسبب طريقة تعاملهم مع الغرب، وعندما عاد الملك حسين إلى صف ناصر وانضوى تحت لوائه. أضحت مشكل قوة العلاقة السورية - الروسية أكثر صعوبة وأتعس حظاً. إلا أن ناصرا عزم على أن يجد للأمر مخرجاً، وفطن إلى قواعد «لعبة الأمم» التى كان قد سنها لنفسه، فوجد فيها البلسم الشافى، فقد لجأ إلى التشاور مع أصدقائه الأمريكيين واستنفزهم للتعاون معه بغية سد الثغرة التى ظهرت فى «جبهته ضد الشرق» وفى الوقت نفسه استحث همة الروس للتعاون معه فى تقوية جبهته ضد الغرب، والتى باتت مهلهلة ممزقة. وبالنبة لنا - نحن الأمريكيين - فقد كنا «حسب قواعدنا فى «لعبة الأمم» فى موقف مساعد لتبادل الآراء مع ناصر بخصوص الوضع فى سوريا. ولم يكن هذا ليؤثر على الدول العربية الأخرى. ومما يذكر فى هذا المقام، أن ناصراً لم يخاطر بمكاشفتنا باحتمالية القيام بعمل مشترك ضد سوريا وإنما اكتفى بشرح الوضع كلياً لنا مع تبيان جميع مساوئه ومخاطره. كما أظهر لنا إلى أى مدى يقوم السوفييت باستغلال الوضع هناك لصالحهم، ولم يكن هدف ناصر من هذا كله سوى إقناعنا بالامتناع عن القيام

بأية محاولة انقلاب عسكرية فى سوريا فقد كان ناصر يشك بإمكانية نجاح أى انقلاب عسكرى يومها فى سوريا، ورأى أن فشل اية محاولة كهذه سيزيد الحالة سوءاً وسيضعها على شفرة الهاوية. إلا أن أصدقاء ناصر من الأمريكيين أعطوه تأكيدات قاطعة أنهم لا يزمعون أبداً على التدخل بالشؤون السورية لأنهم لم ينسوا بعد احتراق أصابعهم عندما فعلوا ذلك فى أيام حسنى الزعيم.

ونقل الأمريكيون إلى ناصر أخباراً موثوقة «مصدرها أحد أفراد المخابرات السوفيتية» تفيد أن فى نية الروس دفع حكومة موالية لهم إلى السلطة أولاً، ثم قيام هذه الحكومة بافتعال الحوادث، وتصعيد الأزمة، إلى الحد الذى تجد هذه الحكومة - الموالية لهم - نفسها مضطرة إلى استعدائهم بغية إعادة الهدوء وحفظ النظام، وتشبه هذه العملية، إلى حد كبير، تلك التى افتعلتها حكومة الولايات المتحدة فى لبنان حقاً قبل عدة سنوات.

ومع أن ناصراً قد صدق ما نقلناه له من أخبار حول نيات السوفييت فى سوريا، فقد ظلت الشكوك تساوره حول نياتنا «بخصوص سوريا» وكان سبب ذلك كثرة الوافدين من واشنطن إلى المنطقة والعائدين منها. فقد قام لوى هندرسون «وكان يومها أحد نواب وزير الخارجية، وكان قبلها سفيرنا لى إيران أثناء أزمة الدكتور مصدق» بزيارة ملفتة للأنظار إلى أنقره، وقد حضر هناك أحد اجتماعات حلف بغداد وقام بعدها بزيارة بيروت سراً حيث التقى ببعض أصدقائه من السوريين لقاءات عابرة ودون أية صبغة رسمية لها. وبعد ذلك ألقى الوزير دالس بيانا عبر فيه عن قلقه حيال الأوضاع فى سوريا. كما حذر الرئيس أيزنهاور من اعتداءات تقوم بها سوريا - بعد أن أمست تحت التأثير الشيوعى - ضد جاراتها. إلا أن تصريح الرئيس بدا سخيفاً لدى مقارنته بحقيقة القوة العسكرية السورية المحدودة. وكان هذا ما دعا ناصراً لاعتبار التصريح نوعاً من المقدمات لمخططات تطبخ وراء الكواليس. وجرت بنفس الوقت، تحركات عسكرية على الحدود السورية التركية، وارتد العراقيون والأردنيون إلى سابق عهدهم، فقاموا ببعض الاستعدادات العسكرية المكشوفة، وفى خضم كل هذه الأحداث المعقدة، قام كيرميت روزفلت بصحبة ابن عمه آركى بزيارة إلى بيروت، ودعا عدداً من كبار السوريين والعراقيين والأردنيين والسعوديين إلى حفلة استقبال أثارت قلق عبد الحميد غالب، السفير المصرى فى بيروت، الذى أسرع فأبرق إلى القاهرة قائلاً: «... وبالتأكيد، فإن الأمريكيين يدبرون أمراً ما وهم يتصرفون علنا على غير عادتهم، ودون أى اكتراث بالعيون الساهرة

حولهم». وعندما التقيت صدفة بالسفير غالب فى بهو فندق سان جورج، التفت إلى سائلاً بخبث ودهاء: «هل ستعرضون تذاكر للبيع عندما يحين موعد انقلابكم؟!».

لم يكن رد فعل ناصر الأولى، تجاه هذا كله، سوى تصنع اللامبالاة، وعدم محاولة التشويش على الأمريكيين. فهو يدرك تماماً أن أى فشل للمحاولات الأمريكية المزعومة، لن يتمخض إلا عن مضاعفات سيئة تجعل النوع الوحيد من العمليات، التى لا يجيد القيام بسواها، صعب التحضير مستحيل التنفيذ، وعلاوة على ذلك، فإن فرصة السوفييت فى التدخل ستكون أوفر حظاً، وسيجنون الأرباح لوحدهم دون تطفل إنسان أو تدخل شريك. فناصر يتصف بطريقة تفكير تميل إلى قبول الأمور على علاتها، ودون تحر لبواطنها. ومع أن لناصر فى حاشيته، كثيراً من دبلوماسيى ما وراء الكواليس الأمريكيين «أمثال كيرميت وآركى روزفلت» ممن يمكنهم تبديد مخاوفه منا وشكوكه حول نياتنا، إلا أنه أصر على الاستدلال - من المعلومات الركيكة التى تجمعت لديه - بأننا ماضون فى تنفيذ عملية أمريكية خرقاء، قد انفضح معظمها ولم تعد سراً مكتوماً.

كما أن سفيرنا فى القاهرة، ريموندهير، الذى حل محل بايرود، قد أكد لناصر إنه فى الوقت الذى ينتاب الأمريكيين قلق شديد حول الأوضاع فى سوريا، فإنه لا صحة أبداً للأنباء القائلة أنهم يدبرون أية مؤامرة ضد النظام فيها، ولقد أخبرت ناصراً شخصياً بنفس الشىء عندما قمت بزيارة إلى القاهرة بناء على طلب من المدير الإقليمى لوكالة المخابرات المركزية فى بيروت، وذلك بقصد تخفيف حدة شكوك ناصر، وتبديد الغموض المحيط بحقيقة موقفنا من الأحداث فى سوريا. كما طلب منى الأخير أن ألفت نظر ناصر إلى ضرورة توجيه جل اهتمامه إلى المؤامرات التى يحيكها الروس فى سوريا بدل توجهه إلى المؤامرة الأمريكية المزعومة. ولم تذهب أخيراً جهودنا سدى. فقد بدأ على ناصر أنه ارتاح لكلامنا واطمأن لتأكيداتنا، كما تبين أن الأمور بدأت تسير كما نحب ونشتهى.

ولم يكن تشوقنا، رسمياً، لرؤية مستقلة عن «جمعية» ناصر بقليل. وكان انطباعى يومها أن الفرصة قد سنحت لناصر ليدخل معنا فى مساومة حول الوضع فى سوريا، بعدما انتابنا قلق شديد من أوضاع الروس هناك. وبالتأكيد فقد كنا نعتقد أن كل ما سيطرحه أمامنا على طاولة المساومات سيكون لصالح العالم العربى - على غرار تكتل دول الحياد الإيجابى - الذى بدأت الأوضاع تتضح فيه وتتبلور. فلقد أصبح نورى السعيد فى موقف صعب ومكشوف كلياً.

كما كان الملك حسين يتظاهر بالالتحاق بركب ناصر دون أن يشعر بالارتياح والاستقرار الذى تصور أن الانضمام «لجمعية» ناصر سوف يضمنهما له. وأما الملك سعود، فإنك لا تلمس خلافاً فى سلوكه بين فترات صداقته معنا وفترات صداقته مع ناصر نفسه. كما أن الأوضاع فى لبنان لم تكن حسنة، وبقيت مناصفة بين المسيحيين والمسلمين، وأضحت على وشك الانفجار حال اختلال التوازن بين القوى فيه. ولقد شاركنا ناصر رأينا فى أن الحالة فى العالم العربى بلغت حداً يرثى له. كما أن مؤامرات السوفييت هناك قد ازدادت بصورة لم يسبق لها مثيل، وعزموا على ألا يخرجوا منها إلا بصيد ثمين. وهكذا ترعرعت فكرة التقارب بيننا وبين ناصر، وبدا أن كلا الطرفين يتوق للوصول إلى اتفاق يزيل القلق ويفرج الهموم، ويضع «ما تساومنا عليه» موضع التنفيذ.

ولا أدرى للآن من الذى نسف الجسور، وزرع الألغام فى الطريق، ولا أدرى كذلك أن أحداً يدرى من الذى نسف فرصة تنفيذ تلك الصفقة التى كانت بيننا وبين ناصر. إلا أننى لا أستبعد أن يكون ذلك هو حادثة اللواء أبى نوار ذاتها، والتى وقعت فى الأردن، فلقد تصور أبونوار، رئيس أركان الجيش الأردنى، أن بوسعه تنفيذ مؤامرة انقلاب ضد الملك حسين، وأنه واثق من نجاحه دون مساعدة أى إنسان آخر له. ولقد أغرى المصريون أنفسهم أبا نوار بهذا إلا أن مجىء سليمان النابلسى إلى رئاسة الوزارة الأردنية قد أحال هذه الحركة إلى خطوة غير ضرورية فى مخططات ناصر. ومهما كان، فقد أصر أبو نوار على القيام بانقلابه، وحاول ذلك، ولكن كانت النتيجة أنه قد نال الجائزة الأولى لتخطيط أخرق وأسخف انقلاب عرف فى التاريخ الحديث، وبقيت الجائزة الأولى فى حوزة أبى نورار حتى عام ١٩٦٨، عندما قام الملك قسطنطين بمحاولة للإطاحة بالحكومة العسكرية فى اليونان، فاستخلصها منه، وسافر إلى روما حيث انتحى بها مكاناً قصياً، وبمجهود بسيط، نجح الملك حسين فى إعادة تنظيم جيشه بصورة يضمن ولاءه ثانية. وأعلن الأحكام العرفية، وربض بلفهة وتشوق شديدين مترصداً ردود فعل السوريين ضده إلا أنهم لم يحركوا ساكنا، وقامت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بتحريك الأسطول السادس إلى ميناء بيروت، وبذلك وضعت علاقاتها مع سوريا فى نفس الموضع الذى تلقى السوفييت بطعمه قبل شهر من الزمن. وفى غمرة الأحداث، أعلن الملك سعود تأييده التام لسوريا، ومساندته لها ضد أى اعتداء يقع عليها - وكان يعنى اعتداء أمريكا. وكم بودى أن أذكر الأسباب التى دفعت به لى إعطائه هذا التصريح، إلا أننى لا أملك

حرية إفشاء مثل هذه الأسرار، وأتركها للقارئ عسى أن يكتشفها بنفسه أن كان ملماً بأذواق الملك وظروفه، ورفعت يومها كل من المخابرات الأمريكية والبريطانية تقارير مطمئنة لنورى السعيد، تفيد أن حالة القلق والاضطراب ضده آخذه بالتضاؤل إلى حد يمكنه السيطرة عليها. وأما الرئيس شمعون، وهو من ألد أعداء ناصر، فقد اتخذ كافة الإجراءات التى وضعت كافة النشاطات الناصرية والشيوعية فى لبنان تحت سيطرته، كما حرم على أعداء حسين ونورى وغيرهم من «الخوارج» استخدام بيروت كمركز لمؤامراتهم.

وبقى هناك عضو واحد، من أعضاء «جمعيتة» ناصر، لم يظهر احتراماً كافياً لرئيس «الجمعية» بل وكان لا يتأخر عن انتهاز الفرص للتلاعب عليه تحت ظل حمايته له. وكان ناصر لذاك الوقت يعتبر أن «جمعيته» لا تزال ركنا رئيسياً من أركان استراتيجيته. وشعر أن الوقت قد حان لاستمرار زحفه على العالم العربى بغية صياغته بالشكل الذى يريده له. فقد تأزم الوضع فى سوريا، وأصبح ينذر بالحظر، وما كان لناصر أن يتركها هكذا وهى قلب القبضة العربية النابض، فقد وجد لزاماً عليه أن يخرج عن إحدى القواعد التى رسمها لنفسه سابقاً، والتى كانت تقول: «خذ بنواصى السلطة ومقاليد الأمور كلما سنحت الفرصة لك، ولكن إياك ثم إياك أن تضطلع بالمسؤوليات، وفر منها فرارك من المجذوم». وهكذا قرر ناصر أخيراً أن يبدأ ببسط نفوذه على السياسة الخارجية لسوريا، ثم ينتهى عن طريقها إلى السيطرة على سياستها الداخلية «والتى تنبثق السياسة الخارجية منها حقا» مجازفاً بتحمل المسؤوليات، والاضطلاع بكافة أعباء الإدارة، ومتاعب الحكم التى سوف لن تريحه أبداً.

وفى كانون الثانى «يناير» ١٩٥٨ وافق ناصر على اتحاد سوريا ومصر فى دولة واحدة أطلق عليها اسم الجمهورية العربية المتحدة. وهكذا أضحى ناصر رئيس جمهورية للإقليم المصرى، ولإقليم آخر لم تطأ قدمه ثراه بعد.

ولو كنت معلقاً على هذه الحادثة التاريخية «والمضحكة - المبكية» فى سياق لعبتنا مع ناصر لما ترددت فى إعادة كلام «مالكولم كير» فى كتابه «الحرب الباردة بين العرب ١٩٥٨-١٩٦٤». ولهذه فإننى أحض القارئ على الرجوع لذاك المؤلف الثمين ليقف بنفسه على تفاصيل الأمور ودقائقها. وكل ما أود إضافته هنا هو أنه بغض النظر عن الزاوية التى ينظر منها الإنسان إلى خفايا هذه الخبرة المزعجة لكل الأطراف وإلى ظلواهرها، فإن درساً واحداً قد تعلمه ناصر منها ألا وهو:

«عليك بتركيز اهتمامك على استثارة عواطف طبقات عامة الشعب التى سوف تمارس ضغطاً على الزعماء لكى لا يتجزأوا على عقد صفقات مع الدول الكبرى وهم منفردون. وعليك أن تفعل ذلك عن طريق اتصالات شخصية بين المسؤولين المصريين وشعوب الدول التى هى ضمن أهدافك. وإذا تمكنت من إلقاء مسؤولية ذلك على أنصارك من «المتعصبين» فى تلك البلاد، فإياك أن تتأخر لحظة واحدة فى فعل هذا. تبناهم، واعطف عليهم، فإنهم خير ظهير لك. وعليهم فاعتمد فإنهم أصلح ما يخدم مثل تلك الأهداف».

-١٤-

عندمَا تعرّت الشخصيّات فى لبْنَان عام ١٩٥٨

... ولن تسلم من خصومهم الألداء، حتى تغامر فى حرب ضروس ضدهم

إن إلقاء نظرة شاملة على التقارير الرسمية الأمريكية حول ما بدا، فى أوائل عام ١٩٥٧، على أنه ذروة «لعبة الصدام» بيننا وبين ناصر تظهر أننا قد بدأنا نفهم سياسته بصورة أكثر عمقاً وأوسع شمولاً. كما أنها تظهر، فى نفس الوقت، أن حدة عدائنا معه بدأت تخف وتلين. فلم تظهر وزارة الخارجية الأمريكية أى تحمس «لمبدأ أيزنهاور» فيما عدا الوزير دالس نفسه، واثنين من الموظفين العاملين معه مباشرة. كما أنه لم تعترينا الدهشة حيال ردود فعل ناصر العنيفة ضد «مبدأ أيزنهاور». وعندما بدأ ناصر بشن حملات دعائية مركزة على «الخوارج» الذين قبلوا بمبدأ ايزنهاور «ومنهم الرئيس اللبنانى شمعون ورئيس الوزراء العراقى نورى السعيد» لم نصب بأية خيبة أمل، لأننا لم نكن فى وزارة الخارجية نتوقع غير ذلك. ولا أزال أذكر إحدى الجمل التى وردت فى أحد تقارير سفير لنا فى إحدى عواصم الشرق الأوسط، وفيها يقول: «إنه معيب جداً أن نتيح لناصر مثل هذه الفرصة». وهكذا فقد طغت على وزارة الخارجية موجة من النقد الذاتى، أثارتها سلبيتنا تجاه تصرفات ناصر. إلا أن معظم المسؤولين الأمريكيين المعنيين بسياستنا فى الشرق الأوسط، بدأوا يميلون إلى الاعتقاد أن مجاراة ناصر فى سياسته قد تصبح أمراً محتوماً، فقد أضحى «موضة» المستقبل.

ولم ينفرد مسؤولو وزارة الخارجية بوجهة نظرهم المعتدلة تجاه ناصر، بل شاركهم فى هذا مسؤولو وكالة المخابرات المركزية الذين يتصفون برزانة أكثر وإدراك أعمق، وكانت أولى تحركات ناصر ضد «الخوارج» قيامه بهجوم معاكس ضد محاولة الأمريكيين تشتيت شمل «جمعيته»، وذلك بتشجيعه قيام «الجبهة الوطنية المتحدة» فى لبنان. فقد كانت هذه الجبهة

عبارة عن ائتلاف بين مسلمين ومسيحيين، جمعهم خلافهم مع شمعون فى جبهة واحدة ضده. وكانت هذه الجبهة ترى ضرورة انغماس لبنان فى مشاكل الأمة العربية إلى حد أكثر من ذلك الذى أراده شمعون له. «كان الرئيس شمعون يحبذ يومها انطواء لبنان على نفسه وانعزاله عن العالم العربى» وقام فريق ماهر من رجال وكالة المخابرات المركزية فى بيروت بتوجيه الحملة المضادة لمعاكسات ناصر. وكان أول ما فعلوه هو تركهم لأخبار «الجبهة» تتسرب عمداً بقصد الإيقاع بين السياسيين اللبنانيين، وتنفيرهم منه، وبالتالى كسب جانبهم لصالح الرئيس شمعون. وبعدها قامت سفارتنا فى بيروت «وليست وكالة المخابرات» بتقديم مساعدات متواضعة لبعض الحملات الانتخابية للمرشحين الموالين للغرب «فى انتخابات حزيران ١٩٥٧». وقد أطلقت عليها صفة «التواضع» لأنها لم تزد عن قيمة تلك المساعدات التى دفعتها السفارات الفرنسية والبريطانية والسوفييتية والمصرية للمرشحين الموالين لها. واستغلت المخابرات المصرية العامة ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مساعدات السفارة الأمريكية هذه، وحورتها إلى أدلة مقنعة على تدخل وكالة المخابرات الأمريكية فى الانتخابات وتلاعبها بها. ومهما كان، فإن اللعبة، بحد ذاتها، كانت طريفة وعادلة للطرفين معاً، وفى آن واحد. فغالبا ما يسود أوساط أجهزة المخابرات الضخمة، رغم الاختلاف بين دولها، نزعة احترام متبادلة. وتعزى هذه النزعة إلى احترافها مهنة واحدة، كما يحدث أحياناً أن تنشأ علاقات متبادلة ورسمية بين فروعها، إلا أن هذا نادر الوقوع وخاصة بين أجهزة المخابرات التابعة لدول متعادية. وفى بيروت، فقد كانت العلاقات السائدة بين رؤساء أجهزة المخابرات العديدة وثيقة بشكل غريب وشبيهة بتلك العلاقات التى كانت متوطدة بينهم فى «طنجة» أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت العلاقات بين رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وبين رئيس فرع المخابرات العامة المصرية فى بيروت، ودية واجتماعية، ولم تفلح الخلافات المهنية القاسية فى التأثير عليها إلا قليلاً، وقد بدأ هذا جلياً، عندما أثارت الأدلة التى جمعتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، حول حقيقة التأييد المصرى حول تلاعب الأمريكيين بالانتخابات، نوعاً من الإعجاب المتبادل، بدل أن تكون مناراً للعداوة والبغضاء.

وفاز المرشحون الموالون للغرب، والمناوئون للمصريين، بالأكثرية فى المجلس. إلا أن أخباراً كهذه لم تكن لتشكل موضوعاً مناسباً للتسلية والمسامرة بعد وليمة أو لقاء عابر بين

الأمريكيين باندفاع وقوة. وبدأ لكل المتتبعين للأحداث فى بيروت، أو للمستمعين إلى إذاعة صوت العرب من القاهرة، أن ناصراً سيبذل المتسحيل لإسقاط شمعون والإطاحة به. وعندما قمت بزيارة للقاهرة فى آب «أغسطس» ١٩٥٧، أسر إلى بعض أصدقائى من المصريين بتنبؤاتهم عن سقوط كل من شمعون ونورى السعيد «بل وأصروا على هذا التسلسل». ولكن توقعهم لوقوع الأحداث بهذا التسلسل قد أخطأ، ولم يتحقق سوى ثلثى ما قد تنبأوا به، مع أنهم بذلوا كل ما فى وسعهم لتحقيقه. إلا أنه فاتهم أن سقوط أولئك الزعماء سوف يزيد من حدة الصراع بين المخابرات الأمريكية والمصرية، وسيرفع من مستواه إلى الحد الذى يصعب على المصريين معه مجاراة الأمريكيين ومنافستهم.

لم يعر المصريون «وإلى حد ما وزارة الخارجية الأمريكية» لبنان الأهمية الكافية وذلك بعدما أضحى بلداً حيوياً للمصالح التجارية الغربية. وكان الإلمام بشؤون العالم العربى قبل الخمسينيات وقفاً على الإرساليات التبشيرية، وعلماء الآثار، والمستشرقين، والمدرسين الأجانب، وغيرهم من هواة هذا الجزء من العالم. وكانت الجامعة الأمريكية فى بيروت، ومثيلاتها فى أسطنبول «روبرت كولدج» وفى القاهرة «الجامعة الأمريكية» تمارس التأثير المباشر والرئيسى على المنطقة فيما يختص بالمصالح الأمريكية، وعلى الحكومة الأمريكية فيما يختص بمشاكل الشرق الأوسط، وفى خلال الخمسينيات، حطت شركات البترول الضخمة رحالها فى الشرق الأوسط وتدفق بعدها سيل عرم من بائعى المعدات الهندسية، ومن المستثمرين الذين أغرتهم الآفاق الجديدة التى فتحها لهم النمو المطرد للجاليات الأمريكية «مثل أُسر موظفى شركات البرول». ثم انضم إليهم وكلاء الشركات الأمريكية للبضائع الاستهلاكية. وعندما بدأ ضخ النفط على مقياس واسع، ظهرت طبقة الأغنياء من العرب الذين وظفوا أموالاً طائلة فى لبنان، مما أدى إلى ازدهار اقتصادى سريع فى المدن، وجذب المزيد من المستثمرين ووكلاء الشركات إلى المنطقة مع عائلاتهم التى ساهمت فى تضخيم حجم الجاليات الأوروبية والأمريكية، وتوسيع مجال الأعمال التجارية فيها، وفى منتصف الخمسينيات أمست مصالحنا التجارية فى المنطقة ضخمة ومتسعة، وعلى خلاف ما كانت عليه فى الأربعينيات. وعلى غرار المركز العالمى للأعمال التجارية فى مدينة نيويورك، فقد أضحت بيروت المركز التجارى للعالم العربى.

وبرز الوجود التجارى الأمريكى فى المنطقة بصورة جلية واضحة خلال أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦. فقد قامت يومها الحكومة الأمريكية بتشكيل عدة لجان من كبار رجال الأعمال بغية إسداء النصح لها بخصوص الشرق الأوسط، وكانت غالبية أعضاء هذه اللجان من مدراء شركات البترول. وهكذا أصبح لأروقة شركات البترول تأثيراً مباشراً على سياسة الحكومة الخارجية بعدما بقيت سيطرة ملوك المال بعيدة عن أجواء واشنطن طوال عهدى الرئيسين روزفلت وترومان. ومع أن حماس شركات البترول قد فتر بعدما وجهت وزارة العدل إنذاراً لإحدى تلك اللجان بتهمة محاولة تشكيل تكتل احتكارى «تروست» «مع أن اللجان قد شكلت بناء على طلب من وزارة الخارجية»، إلا أن تأثيرهم على سياستنا فى الشرق الأوسط قد استمر بقوة وجرأة. وعندما بدأت الأزمة اللبنانية تلوح فى الأفق عام ١٩٥٨، كان تأثيرهم قد بلغ الذروة، وصار عاملاً رئيسياً لا يمكن إغفاله البتة.

والتقت الصحف الشيوعية مع غيرها من الصحف المعادية للغرب على اتهام موظفى شركات البترول الأمريكية بأنهم «مجانين سلطة ومال» ومجردون من الأخلاق والضمير، ولا يأبهون لمصلحة الشعب أبداً، كما اتهمتهم بعدم التحرج فى اتباع أية وسيلة بغية الوصول إلى أهدافهم، كإرشاد المرشحين للانتخابات، وإفساد الرسميين، ومحاولة الإطاحة بالحكومات التى لا ترضخ لرغباتهم.

وبغض النظر عن شهوات رجال المال وحرصهم الشديد على مصالحهم، فإن لديهم هيئات استشارية على كفاءة عالية، وتضم نخبة من علماء الاقتصاد والاجتماع وعلم طبائع الإنسان والعلوم السياسية. إلى جانب ألمع رجال القانون والمحاسبة، ولهذا فإن رجال المال يدركون تماماً أن استقرار الحكومات وازدهار المجتمعات، عاملان مهمان «لأسباب عملية محضة» من عوامل استمرار وجودهم وازدياد أعمالهم. فلقد أنفقوا الملايين الطائلة من الدولارات على مشاريع أجمع النقاد على أنها كانت «لصالح الشعب». كما أنهم كانوا يرفضون بقوة وإصرار كل المحاولات الرامية إلى إضعاف كيان الحكومات التى هم على وئام معها واتفاق، كما كانوا ضد مؤامرات أجهزة المخابرات «على اختلاف أنواعها» الرامية إلى الإطاحة ببعض الحكومات، ووقفوا ضد المواقف السلبية لرجال السفارات الأمريكية «أو ضد تلكئهم فى ممارسة الضغط المطلوب». فقد كان رجال سفاراتنا غالباً ما يلتزمون بإحدى العبارات التى أطلقها مرة أحد

سفرائنا وجاء فيها: «من الصعب أن نتجاوب كلية مع العرب، إن هم أصروا على سلوكهم كعرب».

وفى منتصف الخمسينيات، كان فى بيروت جالية واسعة من الشرقيين الذين تأقلموا مع الغرب، وأخذوا يشاطرون شركات البترول آراءهم ومواقفهم. وقد ضمت هذه الجالية الكثير من أصحاب البنوك، ومقاولى الأبنية، وأصحاب شركات الشحن وشركات استيراد مواد البناء وأجهزة آبار البترول، وهيئات دراسية لشركات البضائع الاستهلاكية، وعدد كبير من الشركات الاستثمارية فى مختلف النواحى التى تخص مسألة استقرار شركات البترول، وتأقلمها مع المجتمعات التى هى فيها. وكانت نتيجة كل ذلك، ظهور وجهة نظر جديدة تجاه طبيعة علاقات الغرب مع ناصر، ففى الوقت الذى كانت وزارة الخارجية الأمريكية غير راغبة فى ممارسة أى ضغط على ناصر ومحاولة المحافظة على علاقات هادئة معه فإن الجالية التجارية بدأت تعاكس هذا الاتجاه معاكسة شديدة وجلية. فقد أدرك المسؤولون أنه مهما كانت وجهات النظر تجاه ناصر، فإن امتداد نفوذه أمر واقعى، لا فائدة من أغفاله. ولكن أى الطريقين أجدى فى سلوكنا معه: طريق التفاهم والاتفاق، أم طريق المقاومة والعداء؟ لقد كان الغرب - وخاصة الأمريكيون - يميلون إلى سياسة التفاهم والاتفاق طوال المدة التى لم يكن لهم أثناءها أية مصالح تذكر فى المنطقة. إلا أنه فى نهاية عام ١٩٥٧، وبعدما أضحى للأمريكيين مصالح اقتصادية وتجارية فى المنطقة، بدأ الاتجاه نحو سياسة المعاكسة والعداء يزداد قوة ووضوحاً مع ازدياد النشاط المصرى الهدام فى لبنان.

ومنذ ذلك الوقت بدأت الغيوم تتلبد فى سماء المنطقة، وأخذت تنذر بعاصفة هوجاء على وشك الهبوب فى أية لحظة. وفى تلك الأثناء قدمت استقالتى من وزارة الخارجية فى أيار «مايو» ١٩٥٧، وأسست أول مكتب لى «للعلاقات الحكومية» وتقديم النصح والمشورة إلى شركة بترول وشركة طيران وبنك» وكان هذا فى بيروت وفى حزيران «يونيو» ١٩٥٧، وفى نفس الوقت تريباً أقامت عدة شركات بترول رئيسية مكاتب عدة «على غرار مكتبى» لكى تبقى على صلة بالأحداث التى بدأت تتصاعد بغرابة وتنذر بالسوء والخطر. وكان مكتب «العلاقات الحكومية» لشركة أنابيب التابلاين يضم خيرة الرجال أمثال ساندى كامبل، ودافيد دودج «ابن بافتارد دودج الذى كان رئيساً سابقاً للجامعة الأمريكية فى بيروت، وأحد المتكلمين باللغة العربية بطلاقة تفوق طلاقة أى متكلم آخر فى الجالية الغربية». وفى تلك الأثناء، بدأ هارى كيرن،

وسمير سوقى، بإصدار «التقرير الأجنبى» الذى كان من أوائل النشرات الدورية الخاصة كما كان ذا نفوذ كبير لدى شركات البترول المشتركة به «وكانت قيمة الاشتراك به فاحشة». وبعد ذلك بقليل، قام فؤاد ايتايم بإصدار سلسلة جديدة أطلق عليها اسم «نظرات فى اقتصاد الشرق الأوسط». وتدفق بعده سيل من هذه النشرات والمجلات الدورية. وفى غضون سنوات أضحى عدد البنوك فى بيروت أكثر من عددها فى نيويورك، كما ارتفع عدد الصحف فى بيروت حتى فاق عددها فى لندن. وفى منتصف عام ١٩٥٨، بلغ عدد النشرات الخاصة الدورية فى بيروت أكثر من عددها فى كل من لندن وباريس ونيويورك مجتمعة. ومنذ ذاك الوقت، أضحت «لعبة الأمم» المقنعة بين الناصريين والغرب شبيهة بتلك الحفلات الليلية التى تجرى فى حدائق الحيوانات الطبيعية فى أفريقيا حيث تظن الحيوانات أنها فى ليل دامس لا يراقبها فيه إنسان. إلا أنها فى الحقيقة تكون غارقة فى بحر من أشعة ما تحت الحمراء «التى تجعل الأشياء منظورة فى الظلام» وأبصار المتفرجين محملقة فيها، من خلف نظرات خاصة. وهذا ما آلت إليه الحالة فى لبنان. ففى أواخر ١٩٥٧ وأوائل ١٩٥٨، اقتنع المراقبون «على خلاف المشاركين فى الأحداث» أن الوضع بات يهدد بالانفجار بين عشية وضحاها.

ولم تكن مراقبة الأحداث لتقتصر على السفير الأمريكى فى بيروت وحده «وكان يومها دونالد هيث سفيراً حتى أواخر ١٩٥٧، ثم روبرت ماكلينتوك فى أوائل ١٩٥٨» بل كان يشاركه فى هذا عدد من كبار المراقبين الرسميين وشبه الرسميين «الذين كانت لهم صفة الاستقلال عن السفير، أو كانت تربطهم به مجرد علاقات شكلية». وكان على رأس هؤلاء ويلبور «بيل» إيفلاند، الذى أرسله البيت الأبيض كمبعوث خاص ليبقى على اتصال وثيق بالرئيس شمعون وليشرف على تنفيذ «مبدأ أيزنهاور». وعلى حد قول أحد أصدقائى فى وزارة الخارجية الأمريكية، فقد كانت مهمة إيفلاند المحافظة على التوازن تجاه السفير ماكلينتوك. وأما مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فقد كان بصورة استثنائية، ذا رتبة عالية أتاحت له «إلى جانب مركزه المرموق فى واشنطن وقربه من الأخوين حون وآلن دالس، وكون مهمته فى بيروت للتنسيق فقط» فرصة الاستقلال فعلا عن السفير ماكلينتوك. وكانت لديه تعليمات أن يقتصر فى مهمته على التنسيق بين مصادر المعلومات وعدم الانغماس فى عمليات سرية. إلا أن المدير الإقليمى «المقيم» لفرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى بيروت قد اضطلع بمهمة استكمال عمل المدير السابق، وخاصة فى نواحى الإشراف على العمليات السرية، ومع

أن المدير الإقليمى «المقيم» لم يكن أمريكى الجنسية، إلا أن تمتعه بذكاء وافر وقدرة فائقة على الإقناع، أهلاه لأن يصبح ذا مكانة مرموقة عند كل من المقيمين فى بيروت «ومنهم طائفة رجال المخابرات» ومحللى المعلومات فى واشنطن، الذى كانوا يولون تقاريره وتوصياته أهمية لا تقل عن تلك التى كانوا يولونها لتقارير السفير نفسه. «وهذا المدير هو الذى مد يد المساعدة للأمريكيين عندما بدأت المبارزة بينهم وبين المخابرات المصرية أثناء الانتخابات» وعلاوة على هذا، فقد كان هناك سيل متدفق من كبار المسؤولين الذين اعتادوا التردد على بيروت لإذكاء ليهيب الأحداث وتأجيج نارها، «وقد انتابتهم موجة من الأسى عندما هدأت الأحوال فى لبنان، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون بيروت من أجمل بقاع العالم التى يؤمها الموظف فى رحلة للمتعة، تحت ستار تكليفه بمهمة رسمية على حساب الدولة». وأما السفير ماكلينتوك، فقد كان فى حالة أجاد أحد موظفى السفارة عندما وصفها قائلا: «فى خضم هذه الأمواج المتلاحقة من المتطفلين غصباً على شؤون السفارة، فإن السفير ماكلينتوك، قد اضطلع بمهام أكثر المناصب فى السلك الدبيلوماسى قساوة وفظاظة وقرفا».

وفى الثامن من أيار «مايو» ١٩٥٨ انطلقت الشرارة الأولى التى فجرت الصراع كله فى لبنان عندما قام مجهول باغتيال صحفى ناصرى اسمه «نسيب المتنى» وكان المتنى يشكل مصدر إزعاج كبير لشمعون، مما دعا أعداء الأخير إلى اتهامه بتدبير قتل الأول «وذلك حسب ما جرت عليه العادة عند اللبنانيين حين إصدار الأحكام». وبلغ عدد الضحايا فى حوادث العنف خلال الأسابيع القليلة التالية لحادث الاغتيال أكثر من عشرين قتيلاً فى أنحاء متفرقة من البلاد، وجاءت تلك الأحداث ملائمة للمخطط الذى كان يريد المناوئون لشمعون تنفيذه، واعتبروا وقتها مناسباً جداً. واحتج شمعون «وبيل ايفلاند» على أن عملية اغتيال المتنى كانت مدبرة من قبل المناوئين له، واستدل بالحجة القائلة إن رد فعل المعارضة كان من السرعة، والإحكام فى الإعداد، بحيث يؤكد أنه لم يكن مجرد أمر عارض أو تصرف مفاجئ. وإنما كان الرد مهيئاً ينتظر حادثة كحادثة المتنى حتى يفلت من عقاله، وينطلق إلى أهدافه. والحقيقة أن كلا من أنصار شمعون وأعدائه يتساوون فى حمل أوزار تلك الحادثة المشؤومة وتبعاتها. وقد برهنت الأحداث المتلاحقة على هذا فعلاً، فعندما قامت المعارضة بوضع المتاريس عند النقاط الحيوية لمدينة بيروت، وسدت منافذ الطرق الرئيسية، وأغلقت الحوانيت، وحفرت الخنادق حول مناطق تجمعها، وحاولت فعلاً أن تشل الحياة التجارية والاجتماعية فى البلاد، كان رد

أنصار شمعون سريعاً ومماثلاً وفى غضون بضعة أيام، غدا لبنان مسرحاً لحرب أهلية شاملة شلت البلاد كلية، إلا أن تلك الحرب كانت شبيهة بلعبة الشطرنج، فلا تضع أوزارها حتى يستقيل «الشاه»[1] أو يُقال.

وأما المعارضون لشمعون «ولا مانع من إطلاق اسم «المتمردين» عليهم، بخروجهم على حكومة شرعية قائمة» فقد كانوا فئتين: فئة الزعماء الحقيقيين الذين كانوا يمثلون مناطق كاملة اشتهرت بعدائها لشمعون، وفئة الزعماء الذين يغلب طابع الحياة السياسية لمدينة بيروت على أنصارهم من الأفراد المنتسبين للأحزاب والجماعات السياسية المنظمة، و«القبضايات»، والمريدين المأجورين، وكان من الفئة الأولى كل من صبرى حمادة من سهل البقاع، ورشيد كرامى من مدينة طرابلس، وكمال جنبلاط عن طائفة الدروز، وقد طلبوا من المصريين تجهيزات عسكرية ومعدات أخرى حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، وانضم أخيراً لهم - باستثناء جنبلاط قد تمكنوا من تدبير شؤونهم بمساعدات يسيرة. إلا أن الجيش اللبنانى تحت قيادة اللواء فؤاد شهاب قد رفض مساندة شمعون، ولم يفعل أكثر من إبقاء الأطراف المتقاتلة بعيداً عن الالتحام مع بضعها البعض. ولم يكن لدى شمعون الأعداد الكافية من المدنيين المسلحين حتى يقف فى وجه كل من كرامى وحمادة، ووجد جنبلاط نفسه وجهاً لوجه مع عناصر الحزب القومى الاجتماعى المدججة بالسلاح، والتى بصفتها يمينية الاتجاه، قد خاضت غمار المعركة بدافع من كراهيتها لناصر أكثر من حبها لشمعون.

وكانت الفئة الأخرى من الزعماء تشتمل على «البيارتة الأربعة» وهم صائب سلام وعبدالله اليافى وعدنان الحكيم وعبدالله المشنوق. ولم يكتف هؤلاء الزعماء بطلب التجهيزات العسكرية من المصريين، بل ألحوا فى طلب المساعدات المالية بغية شراء الدعم والتأييد لأنفسهم، وفى الوقت الذى قام المصريون بتلبية الاحتياجات الضرورية لكمال جنبلاط، فقد اقتضت استراتيجيتهم تقديم دعم كثيف «للبيارته الأربعة» حتى يتمكنوا من استقطاب الأحياء الشعبية فى المدينة، والسيطرة على الغوغاء فى الشارع ليسهل - بالتالى - التحكم بالمنطقة الرئيسية فى لبنان، ألا وهى مدينة بيروت نفسها. ولقد أناط المصريون مسؤولية الإشراف على شؤون مخابراتهم العامة فى بيروت بمسؤول ذى كفاءة عالية وخبرة رائعة فى مجال اختصاصه. وكان يعاونه فى هذا فريق من المسؤولين المهرة أيضاً. وقد شكلت المخابرات المصرية فريق عملها فى

(١) يقصد «بالشاه» الرئيس شمعون.

الميدان من المتشردين السوريين الذين جندهم رئيس المخابرات فى سوريا، عبد الحميد السراج، وأرسلهم إلى لبنان متسللين عبر الجبال، وكان السراج يشكل همزة وصل مثالية بين المحترفين من المصريين وغوغاء الشارع فى لبنان. وهكذا، فلم ينتصف عام ١٩٥٧ «حزيران، يونيو» حتى كانت المعارضة قد حشدت ضد شمعون ومؤيديه من الغربيين طاقات هائلة وقدرات ضخمة، ولم يكن يومها قد مضى أكثر من شهر واحد على اندلاع نار الحرب الأهلية فى لبنان.

وبقى المسؤولون الغربيون فترة من الزمن هائمين على وجوههم وسط زحام الأحداث فى لبنان، لا يدرون ما يفعلون. كما بقيت جهودهم دون تنسيق، وآراؤهم دون توحيد. وقد وصفت إحدى النشرات الدورية الخاصة الحالة يومها قائلة: «لقد كثر اللغط حول حقيقة الأحداث المتلاحقة فى لبنان، وتباينت الآراء حول أسبابها ودوافعها. كما ظهر تضارب فى المواقف الأدبية تجاه الأحداث وأشخاصها. واختلط الحابل بالنابل، فلم تعد تدرى من يسيِّر دفة الأمور ويمسك بزمام الموقف». فقد أيد السفير ماكلينتوك فكرة التجديد للرئيس شمعون «ولم يتلكأ عن الإعراب عن رأيه هذا أمامه» إلا أنه سرعان ما عدل عن رأيه هذا إلى آخر معاكس له تماماً. وبذلك أضحى السفير على خلاف فى الرأى مع كل من بيل ايفلاند، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ومعظم طبقة رجال الأعمال الذى أصروا على فكرة التجديد وتمسكوا بها. إلا أن البقية الباقية من طبقة رجال الأعمال. وخاصة خبراء مكاتب «العلاقات الحكومية» التابعة لكبريات شركات البترول، أعربوا عن رأيهم فى الأحداث اللبنانية وقالوا: إن الأمر كله لا يعدو مجرد تمرد على القانون وخروج على النظام تقوم به الغوغاء، وإنه مهما تفاقمت الأحداث «على حد قول مسؤول بإحدى شركات البترول» فمن الضرورى مقاومة العنف والإرهاب، وعدم فسح المجال أمامها للوصول إلى أية مكاسب، أو تحصيل أية مغانم. وعلى الأقل فقد تمكنت إحدى شركات البترول من تحقيق لقاء بين زعماء المعارضة الحقيقيين «أمثال حماده وكرامى وجنبلاط بدون البيارته الأربعة» وبين أنصار شمعون المعتدلين، واتفقوا فيه على وجوب التوقف عن تخريب «بلدهم الحبيب»، وعلى ضرورة حسم النزاع بينهم بالوسائل السلمية، كما أعربوا عن ترحيبهم بانضمام السفارة الأمريكية إلى هذه البادرة السلمية، وعن رغبتهم فى أن تضطلع ببعض المهام فيها.

ومن الجدير بالذكر أن تلك السلسلة من الخلافات التى برزت بين كبار المتنفذين

الأمريكيين حول سياسة الحكومة الأمريكية واستراتيجيتها، قد لعبت دوراً بارزاً فى بلورة الموقف الأمريكى الجديد «منذ ١٩٥٨» الذى كان له أكبر الأثر فى تحديد طبيعة علاقاتنا مع ناصر وغيره من الحكام الوطنيين، الذين أخذوا فى انتهاج سلوكه واتباع طريقه. ولقد بدأ هذا الأمر واضحاً تماماً بعد انتهاء الأزمة اللبنانية مباشرة «مع أن اثنين من سفرائنا فى القاهرة ظهرا على انهما لا يعلمان عنه شيئا». وما أن أطلت شمس الستينيات حتى أدرك كل مراقبى «لعبة الأمم» والمصريون كذلك أن هذا الاتجاه الجديد قد غدا مسيطراً. كما وأنه استدعى تغييرا كاملاً لطبيعة «لعبة الأمم»، غير أن اللاعبين أنفسهم لم يدركوا هذا إلا بعد حين.

وكان الاتجاه المسيطر على الموقف الأمريكى الجديد هو النفور من العنف والابتعاد عن الإرهاب كوسيلتين من وسائل نيل المطالب، مهما كانت الدوافع لهما سامية والأسباب عادلة، ولإضفاء الهيبة على هذا الاتجاه الجديد، وزرع الرهبة منه فى قلوب الآخرين، كان لابد من إقامة الدليل على أن سياسة العنف سياسة خاسرة، وأن مشاريع أصحابها لن ترى النور، وذلك حتى يتعظ الآخرون بهذا ويرتدعوا. ولقد رفع الدبلوماسيون الأمريكيون المحافظون لواء الدفاع عن هذه الفكرة «وأيدهم فى هذا طبقة رجال الأعمال»، وعززوها باعتقاد آخر سليم. فقد دعوا إلى سحب الثقة نهائياً من أولئك الذين لا يرون بديلاً عن سياسة العنف كوسيلة لتحقيق أهدافهم ونيل مطالبهم، مهما كانت سامية وعادلة، وإلى عدم منحهم إياها ثانية مهما كانت الظروف أو اقتضت الاعتبارات. لقد كره الجميع سياسة العنف، واشمأزوا من دعاتها، وأجمعوا على مقاومة كل من تسول له نفسه باللجوء إليها. وعليه، فكل من عومل بمثل هذه السياسة، له أن يدافع بقوة ضدها، وعلى الآخرين الإصغاء لشكواه دفاعاً أم هجوماً. ولقد فاز هذا الاتجاه الجديد بموافقة جميع الأمريكيين الذين لهم علاقة بالأزمة اللبنانية، ولم يخرج عن هذا الاجماع أحد منهم، رسمى أو غير رسمى. إلا أن شكوك الدبلوماسيين ورجال الأعمال فى صلاحية هذا الاتجاه الجديد وفى مدى انسجامه مع الدوافع البشرية الفطرية بقيت فى تفاوت غير يسير.

ولقد عبر أحد موظفى السفارات عن موقف دبلوماسيينا «بالمقارنة مع موقف رجال الأعمال» عندما توجه إلى ساندى كامبل «فى شركة التابلاين» قائلاً: «وماذا تتوقع غير ذلك؟ فوالله لا يدع اللبنانيون العنف حتى تدع الكلاب مطاردة الهررة». لقد كان الدبلوماسيون الأمريكيون، ودبلوماسيو ما وراء الكواليس، يعتقدون أن سياسية الإرتشاء والإرهاب، ودغدغة

غرائز الإنسان الخسيسة، ليست سوى أحد الملامح المألوفة لمسرح الأحداث، فى لبنان، فقد تأقلم أولئك الديبلوماسيون مع ذاك النوع من «لعبة الأمم» التى تسودها السياسة السالفة الذكر، ولمسوا أنها قد حققت نجاحاً باهراً بدون أدنى ريب أو شك، ولهذا فقد كانوا على طرفى نقيض مع رجال الأعمال الأمريكيين.

وسبب هذا أن علاقة رجال الأعمال بأصدقائهم من اللبنانيين كانت مجرد علاقة منافع مادية ومصالح تجارية، وهذا النوع من المعاملات لا يمكنه أن يجرى إلا فى أجواء يسودها الهدوء وتطفى عليها نزعة جر المغانم وزيادة الأرباح. ولهذا كانت رسائلهم إلى رجال الكونغرس لا تظهر سوى إصرارهم على مخالفة رأى الديبلوماسيين ومعارضتهم له. «وكان رجال الكونغرس بدورهم يوجهون الرسائل ثانية إلى وزارة الخارجية مدعومة بتأييدهم وتشجيعهم لموضوعها».

وأما أميل البستانى «مقاول مليونير مسيحى» وفوزى الحص «مقاول مليونير مسلم» فقد كانا من دعاة «النظام والقانون»، ومن الذين يتمتعون بثقة رجال الأعمال الغربيين واحترامهم. وقد بحثا معى إمكانية التوسط لدى الرئيس ناصر، لما بينى وبينه من صداقة وحسن صلة، وذلك لإيجاد حل مناسب للأزمة اللبنانية يسمح لكل من المصريين والأمريكيين بسحب تأييدهم، على ترتيب «للبيارتة الأربع» ولحكومة شمعون. كما أن الحل المناسب أن يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه أما العناصر المعارضة لشمعون والمؤيدة له للتوصل إلى تسوية سلمية بينهما لإنهاء الصراع، وإنقاذ ما تبقى من البلاد من الخراب والدمار. وكان لى اتصال سابق مع كلا الرئيسين شمعون وناصر، وذلك قبل أن تتفاقم الأحداث وتبلغ الأزمة ذروتها فى لبنان. وبعدما لمست استحسان إحدى كبريات شركات البترول لفكرة الوساطة «وكان ذلك فى حزيران، يونيو» عزمت أولاً على مفاتحة الرئيس شمعون بالفكرة، ومن ثم الرئيس ناصر، ولم يكن جل همى فى البداية ترويج الفكرة والدعوة لها بقدر ما كان الوقوف على مدى استعدادهما للتجاوب مع الفكرة حقاً.

وكميل شمعون بمطلعه الوسيم، وشعره الأشيب، ومظهره الذى يشابه تماماً مظهر الرئيس اليوغوسلافى تيتو، كان من دعاة «العروبة» قبل أن يسمع ناصر بهذه الكلمة بزمن بعيد، ففى الجامعة الأمريكية فى بيروت، حيث ولدت فكرة القومية العربية وترعرع دعاتها، كان شمعون من الدعاة المتحمسين «للوحدة العربية» ولمجابهة عربية واحدة ضد المطامع الصهيونية، ولسنوات خلت، بات الرئيس شمعون متحرراً من فكرة القومية العربية كقضية سياسية

مطروحة للتنفيذ. ويعتقد شمعون أن فكرة القومية العربية ما هى إلا أداة فى يد أكثر رجال السياسة المسلمين فساداً، ناهيك عن أن معظمهم من الماجورين الدائرين فى فلك سلطان القاهرة. كما يستبد الخوف بشمعون من أى نجاح قد يحرزه السياسيون من دعاة الوحدة العربية فى تحقيق أى من أشكالها التى - على حد اعتقاده - ستجعل من المسيحيين فى لبنان أقلية مضطهدة فى وسط بحر من المسلمين المستائين.

وأبدى ناصر تفهماً لقلق شمعون ومخاوفه، وكاد أن يظهر عطفا زائداً على مثل تلك الأفكار، وليس هذا على ناصر ببعيد، فهو لم يقرن الإسلام بفكرة القومية العربية إلا بدفاع المصلحة وبمحض الصدفة. فناصر لا يتمتع بدوافع عقائدية تملى عليه مثل هذه الأفعال. ولقد وفرت فكرةاقتران القومية العربية بالاسلام لناصر فرصاً ملائمة، ووضعت تحت تصرفه وسائل مريحة، مكنته من الاستفادة من فكرة القومية العربية دون أن يستفيد منها الإسلام. إلا أن ناصراً احتج على فكرة بقاء شمعون على الحياد. ولم ينس ناصر مقالة الوزير دالس فى فكرة الحياد هذه. فقد رآها الأخير فكرة «لا أخلاقية» فى مضمار الصراع بين الشرق والغرب. وهكذا لم تختلف حجة ناصر عن حجة دالس بكثير. فالحياد عند الاثنين «لا أخلاقى» إلا فيما يرغبان. ولم يتخل ناصر عن اعتقاده «ودون أن يكون عنده دليل» أن لبنان يستخدم بصورة متزايدة كقاعدة للعمليات ضد الجمهورية العربية المتحدة الفتية، «وكان عبد الحميد السراج، رئيس المخابرات والأمن القومى فى سوريا «الإقليم الشمالى» قد أقنع ناصراً بهذه الفكرة منذ أول اجتماع إدارى بينهما» وبغض النظر عن كل هذا وذاك، فإن ناصرا لم ينس أبداً الحقيقة المشؤومة أن شمعون كان «خارجياً» فالأخير وإن لم ينضم لحلف بغداد «وما كان هذا ليعنى شيئاً لو حدث» فقد كان فى طليعة المرحبين «بمبدأ أيزنهاور» بل لقد فتح له صدره، وهش له وبش.

وفى العشرين من حزيران (يونيو» قمت، بصحبة فوزى الحص، بزيارة للرئيس شمعون، حتى أحصل منه على تفويض بتبليغ الرئيس ناصر موافقته على الالتقاء برشيد كرامى وصبرى حماده وكمال جنبلاط، فى محاولة مخلصة للتوصل إلى هدنة معهم مقابل موافقة ناصر على إيقاف دعمه «للبيارتة الأربعة». إلا أن اعتداد شمعون بإمكانية التدخل الأمريكى عند الطلب «كما ينص على ذلك مبدأ أيزنهاور» جعلته أقل تقبلاً للفكرة السابقة، وأكثر ابتعاداً

عنها. وكان أثر هذا علينا مذهلاً، وجلست وفوزى صامتين. واستمر الرئيس فى عرضه الأحداث قائلاً: «لقد فقدت كل ثقتى فى السفير الأمريكى. لقد خذلنى بعدما جعل من فكرة تجديد رئاستى أمراً عظيماً. إننى أثق كلية ببيل إيفلاند، فقد كان يشد من عزيمتى، ويحثنى على أن أقف صامداً دون تراجع أو ضعف».

وتحت ضغط فوزى الحص وأميل البستانى، غادرت بيروت إلى القاهرة، وقصدت ناصراً للاجتماع به مباشرة بعد تبادل سريع للآراء مع سفيرنا هناك ريموند هير. وكنتيجة لمقابلتى ناصراً وسفيرنا، فقد علمت أن فكرة أميل البستانى وفوزى الحص قد خطرت لناصر، وقدم بها إلى السفير اقتراحاً جاء فيه: «لما كانت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والجمهورية العربية المتحدة تمثلان الطرفين الخارجيين الذين لهما علاقة بالأزمة اللبنانية، فإننى لا أرى مانعاً فى عقد اجتماع يضم الطرفين، وذلك للتوصل إلى اتفاق على حل يفرضانه على اللبنانيين». إلا أن السفير ريموند هير رد على اقتراح ناصر «بعد تبادل الرأى مع واشنطن» بجواب تعمد فيه إساءة تفسير اقتراح ناصر جاء فيه: «إن من دواعى سرور حكومة الولايات المتحدة أن تبذل قصارى جهدها للتوسط فى النزاع بينك وبين الرئيس شمعون». إلا أن ناصراً، الذى اعتاد أن يوقع السفراء الأمريكيين فى شركه، دون تذمر منهم أو احتجاج، قد تضايق من هذه المكيدة التى دبرها له السفير هير. وعندما اجتمعت به أحسست أنه ما زال يعانى من وخزها. ومع ذلك، فقد أسهب ناصر فى شرح آرائه حول الأزمة اللبنانية لينتهى أخيراً إلى القول، إنه لو كانت الأزمة اللبنانية تخصه وحده دون سواه، فإن ما يفعله هو تنصيب الجنرال فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية ورشيد كرامى رئيساً للوزراء. ومن ثم يخرق سفينة «البيارتة الأربعة» ليغرقها بمن عليها، فلقد أذاقوا سفيره «عبد الحميد غالب» الأمرّين. واختتم ناصر الاجتماع معقباً: «ولو أن الأمور بقيت على حالها، فلابد من الوصول بها إلى نهاية ما، نشهدها بأم أعيننا، ونرعاها بأيدينا. ولن يوقف أحد منا دعمه للأطراف الموالية له، وستبقى مصر لحلفائها، والولايات المتحدة لأعوانها».

إلا أننى أخبرت السفير هير، أن كل أصدقائى فى بيروت - الأمريكيين منهم واللبنانيين - سيصابون بخيبة أمل، وسيظنون بجوابه لناصر الظنون.

فهم يرون فى اقتراح ناصر الشكل الوحيد لاتفاق ينهى النزاع ويعيد الهدوء. إلا أن السفير

أجابنى موضحاً أنه - شخصياً - قد آنس فى نفسه ميلاً قوياً نحو اقتراح ناصر. ولكنه كسفير لبلاده، فإنه لا يملك من الأمر شيئاً. فواشنطن هى التى تقبل وترفض، وعلى السفير السمع والطاعة. كما أن تبادل الآراء مع واشنطن قد ترك عنده الانطباع أن طبقة رجال الأعمال فى لبنان تعارض بشدة أى رد لين على ناصر أو جواب مرض له. ثم التفت إلى السفير قائلاً: «ألم تكن قد وافقت على أنه لا ينبغى لطرف من الأطراف أن يفرض نفسه عنوة ويجلس إلى طاولة المفاوضات؟ إذا كان ناصر يرى ضرورة إجراء مفاوضات حول القضية على مستوى الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة، بدلاً من مستوى ناصر وشمعون، فأخبره أن يأتينا بشروط بناءة، ثم نحن حيالها نلقاه». واستشهد السفير هير بهذا الكلام من تقرير أرسله أحد كبار مدراء شركة بترول أمريكية فى بيروت. وتضمن ذلك التقرير الملاحظة التالية: «لقد غدت المعركة فى لبنان بين عملاء ناصر من طرف وأزلام شمعون من طرف آخر. إلا أن أزلام شمعون مازالوا يتمتعون بصبغة قانونية، فهم من الحكومة، وليسوا ضدها». ولم يكن السفير هير مؤيداً وجهة النظر هذه سوى تأييد محدود، إلا انه وصفها بأنها تمثل «الموقف الجديد» فى واشنطن الذى أضحى «إلى حد كبير جداً» تحت التأثير الجديد لتلك التقارير غير الرسمية الصادرة عن رجال الأعمال الأمريكيين فى بيروت. وكانت هذه التقارير تصل إلى وزارة الخارجية مرفقة باستحسان المقررات الرئيسية لشركات البترول، كما كان تتلقى الدعم من رجال الكونغرس الذين كانت الشركات تزودهم بنسخ عنها مباشرة» ومن رجال ذوى نفوذ واسع فى أروقة الحكومة والذين هم بنفس الوقت أعضاء فى مجالس إدارة تلك الشركات. وأما بخصوص تنصيب ناصر للجنرال شهاب رئيساً للجمهورية، ولرشيد كرامى رئيساً للوزراء، فقد كان اعتقاد وزارة الخارجية الأمريكية وطبقة رجال الأعمال الأمريكيين أن اعتلاء هذين الرجلين سدة القيادة دليل، ما بعده دليل، على انهيار سلطة القانون، وفقدان النظام والأمن فى لبنان.

وقفلت عائداً إلى لبنان. وهناك وجدت أن عملية ضخمة كانت فى طور الإنجاز والتنفيذ «وبعبارة أوضح، فقد كان هناك مجموعة عمليات محدودة، ومعدومة التنسيق، وعاجزة عن تحقيق أية نتائج لأنها كانت تضم أطرافاً لا يدرى كل منها ما يريده الآخر ويسعى له» فقد قامت مجموعة أغنياء المسلمين اللبنانيين تحت إشراف فوزى الحص، بالإسهام فى مجهود

مشترك لشراء الأنصار من حول «البيارتة الأربعة» تخفيفاً لحدة التوتر، «ولم تكن هذه العملية باهظة التكاليف، وذلك لأن المصريين كانوا قد علقوا مساعداتهم المالية فى انتظار نتائج تحقيق يجرى حول مزايدات تزعم الأنباء أن أحد «البيارتة الأربعة» يزاولها» كما تطوع عادل عسيران، رئيس المجلس النيابى الشهير، للتوسط بين المعتدلين من أنصار شمعون والمعتدلين من معارضيه. وأثناء غيابى عن بيروت، أخبر السفير الأمريكى الرئيس شمعون أن الأدلة على تدخل الجمهورية العربية المتحدة لم تكن مقنعة ولا حاسمة «كما أن مراقبى الأمم المتحدة لم يعثروا على أى دليل لهذا الغرض»، ولهذا فإن نزول القوات الأمريكية فى لبنان أمر غير وارد البتة. وهكذا أضحى الرئيس شمعون مثبط الهمة، مهيض الجناح «على حد قول فوزى الحص وهو فرح بهذا جذلان» وغدت فكرة التوصل إلى تسوية للنزاع أكثر احتمالاً وأقرب منالا، أرغب بذلك شمعون نفسه أم بقى رافضاً.

ولم تكن فرصة نجاح العملية السابقة قليلة. إلا أن انقلاب العراق قد قلب الوضع رأساً على عقب، وحدث هذا فى صبيحة الرابع عشر من تموز «يوليو» عام ١٩٥٨. وتلقت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أنباء تفيد أن علمية ذات شعب ثلاث قد بدأت لتوها ضد العائلة المالكة ونورى السعيد فى العراق، وضد الرئيس شمعون فى لبنان، وضد الملك حسين فى الأردن. وهى بمساعدة الجمهورية العربية المتحدة، بل وبتحريضها، وبناء على هذا، قرر السفير الأمريكى أن للرئيس شمعون الحق فى طلب المعونة العسكرية الأمريكية استناداً إلى نصوص «مبدأ أيزنهاور». وقدم شمعون للأمر طلباً، وقطع السفير بوصول المساعدة عهداً وضرب لها موعداً لا يزيد عن ثمان وأربعين ساعة زمناً. ونسى السفير أن الأسطول كان على مسيرة يوم واحد بعداً. وهذا ما حدث فعلاً. فقد وصل الأسطول فى أقل من أربع وعشرين ساعة، وتدفق الجنود منه أفواجاً أفواجاً، بوجوه متجهمة وبنادق مصوبة، وعلى شواطئ بيروت الجميلة كان الناس تحت أشعة الشمس متمددين، وفى مياه البحر يستحمون. وسرعان ما علت الدهشة وجوههم، وأضحوا فى ارتباك لا يدرون ما يفعلون، إنهم فى استقبال جنود البحر واقفون، وبهم صدفة مرحبون. وأما الصغار من الصبيان، فإنهم فى زرافات قادمون «وللعلكة» بائعون. وفى تلك اللحظات، كان عادل عسيران مستقلاً سيارته الكاديلاك، وهى مكيفة الهواء. ينهب بها الأرض نهباً وهى متجهة نحو الشمال. لقد كان على موعد، ومع رشيد كرامى بالذات. ويريد أن يحصل منه على موافقة للصلح والسلام. وفجأة وجد نفسه وسط الزحام،

يراقب الأحداث من خلف الزجاج. فينظر فلا يرى إلا جنوداً أمريكيين، على موجات متدفقين، وعلى الساحل «الفينيقى» معسكرين».

وشهدت أمواج الأثير بعد نزول القوات مشادة بين السفير الأمريكى وقائد قوات الإنزال البحرية، وطبعاً، فقد تبادلا فيها التهم، ولم يكترثا. وكان الخلاف يدور حول «من يتلقى الأوامر من الآخر؟». وتمخضت المشادة عن وصول القائد البحرى إلى مقر إقامة السفير، وهناك أعطى التصريح البديع: وجرت هناك مشادات أخرى، وتراشق الأطراف الشتائم. فبين الدبلوماسيين الذين لا يحلمون بالجرأة إلا فى حفلات الكوكتيل، والعسكريين الذين اعتادوا لغة الحديد والنار، ما صنع الحداد، إنهم لا يتبادلون فيما بينهم إلا الاستهزاء، ولا يتخاطبون إلا بلغة التهكم والسخريات. لقد وقف إلى جانب العسكريين كل من الرئيس شمعون ووزرائه ومعظم المسيحيين اللبنانيين، وطبقة رجال الأعمال الأمريكيين، ووكالة المخابرات المركزية. فقد كان الكل لهم مناصرين، وللنجاح لهم متمنين.

وفى الوقت الذى كان يريد السفير أن يظهر جنود البحر الأمريكيون مدى وفاء الولايات المتحدة بالتزاماتها تحت ظل «مبدأ أيزنهاور» ويركزوا على فكرة انسحابهم عائدين، حال استيفاد العملية أغراضها بأقل خسائر ممكنة «ودون أن يتبع ذلك استعمار» فإن الرئيس شمعون كان يريد أن يقوم جنود البحر بغزو لمنطقة المسلمين فى البسطة، فيمشطوها من جميع عناصر المعارضة «ودون تمييز بين المعارضين حقاً وبين المدسوسين منهم فى الصفوف»، وأن يتحركوا من ثم لسد المنافذ أمام المساعدات السورية المتسللة عبر الحدود وفى بطون الأودية وعلى رؤوس الجبال، بيد أن الرعب قد دب فى قلوب رجال الأعمال الأمريكيين فى بيروت نتيجة التقارير الرهيبة التى نقلت إليهم خفايا انقلاب العراق. وأضحوا تقريباً على اتفاق مع الرئيس شمعون بخصوص ما يجب اتخاذه من إجراءات، وأن اختلفت دوافع الطرفين. وفعلاً، فقد أجمع رجال الأعمال على أن للرئيس شمعون الحق بتقرير ما يروق له، دون أن يظهر أى لين، أو خضوعاً للإرهابيين فى بيروت.

وأخيراً رجح موقف السفير فبواسطة سلسلة من التحركات الجديرة بالثناء والإطراء، تمكن السفير من ترسيخ أقدام جنود البحر الأمريكيين فى كل أنحاء بيروت، ودون اصطدام مع الإرهابيين أو التحام مع الجيش اللبنانى «وكان حقيقة قد ضمن مسبقاً مساعدة الجيش اللبنانى» ومكث جنود البحر ثلاثة أشهر فى لبنان، أنفقوا خلالها الملاليين، وبسهولة وطدوا

العلاقات مع اللبنانيين. ومن ثم قفلوا راجعين، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة فى غضب أو طيش كالمجانين، «على حد قول ماكلينتوك سفير الأمريكيين» وكثير من أولئك الذين كان عندهم أقل إلمام بتعقيدات الحالة هناك ومضاعفاتها قد قدروا السفير حق قدره، وعدوا العملية من أبرز مآثره. إلا أن تقارير أخرى كانت تصل إلى واشنطن من مصادر غير السفارة فى بيروت. ومع أن هذه التقارير قد كتبتها أقلام بعض من لا يملكون إلا فهما محدوداً للأحداث الدائرة هناك، فقد كان بعضها مقنعاً للغاية «وخاصة تلك التى كتبت بأسلوب رجال الأعمال الشائع الاستعمال»، كما وأنها تظهر اختلافاً وتبايناً صارخين مع تقارير السفير، تلك التى كان يرسلها بأسلوبه الأدبى البليغ. وعندما شرع بعض رجال الصحافة من أصحاب النفوذ والتأثير بنشر تلك القصص «الشبيهة بالتقارير» عن تقصير السفير وفشله، قرر الوزير دالس، جرياً على عادته فى حل المشاكل، أن يرسل أحد كبار المسؤولين لإحقاق الحق ورفع الظلم.

وكان المحقق يومها روبرت مورفى. وروبرت هذا ذو شهرة واسعة «وذلك يوم وصوله إلى لبنان» على أنه اعتاد على إهمال قيود مهمته وعلى اعتماده على خبرته وحصافته فى إصدار الأحكام بناء على ما يسمى مجاملة «نظرة جديدة على مسرح العمليات» وعندما قرر الوزير دالس إرسال مورفى إلى بيروت، كان الأخير منكباً على دراسة تشكيلة واسعة من المسائل «وكان يعمل اثنتى عشرة ساعة يومياً» دون أن يمت أى منها بصلة إلى الشرق الأوسط. وبعبارة أخرى فقد منح لقب المستشار السياسى لقائد أركان حرب القوات الأمريكية فى لبنان شكلاً، وكانت مهمته حقيقة هى جمع الشخصيات والتقريب بين وجهات نظرها، مستفيداً من علو منصبه وخبرته الطويلة «كدبلوماسى بين المتحاربين» «عنوان ترجمته لحياته» وكان عليه أن يفعل ما يراه ضرورياً ومناسباً لتعزيز مصالح الولايات المتحدة التى برزت فجأة نتيجة نزول قواتها فى لبنان، «وقد أخبر مورفى عن هذا فى كتابه عندما شرح أهداف مهمته». إلا أن بعض الظرفاء من طبقة رجال الأعمال كانوا يرددون أن مهمة مورفى فى بيروت لم تكن سوى «منع وقوع انقلاب فى داخل السفارة الأمريكية» هناك. ومهما كانت الصعوبات التى حالت دون تفهم مورفى للحالة الراهنة وللتأويلات المتضاربة لها تفهما شاملاً وعميقاً، فإنه قد قام بدون شك بمحاولة نزيهة لإيجاد الحلول لها دونما تحيز لأحد أو تشبث برأى.

ومن التفاهة أن نغوص فى تفاصيل مهمة المستر مورفى فى بيروت، فموضوع كتابنا هذا هو دبلوماسية ما وراء الكواليس، وليس فى الحكم والإدارة. إلا أنه يجدر بنا أن ننوه إلى أن

مورفى كان يتوجه فى تصرفاته بوحى من تلك المقطوعة الأثرية لمبادئ الحكمة والحصافة القائلة: «إنى أستمع إلى جميع الآراء المتطرفة، ولجميع الأطراف المتضارية، بأذن صاغية وصدر مفتوح وفى النهاية، فإننى غالباً ما ألمس أن «الحقيقة» فى الوسط، وعلى الطريق الواصل بينهم»، والأطراف المعنية هنا هى: شمعون وكان يومها رئيساً للجمهورية، و«البيارتة الأربعة» الذى كانوا على رأس عصابات الإرهاب المدعومة من قبل سفارة الجمهورية العربية المتحدة. وقد رجوت مورفى فى خلال المقابلة التى سمح لى بها معه «ولم تزد على ثلاثين دقيقة» أن يقتصر فى علاقاته مع زعماء المعارضة على أولئك الذين يمثلون دوائر نفوذهم حقاً، ويبتعد عن أولئك الذين تحوم الشكوك حول أوضاعهم وخاصة أولئك المحسوبين على سفارة الجمهورية العربية المتحدة. ومع أنه قد أصغى إلى بلطف وأدب. إلا أنه لم يمض ساعة من الزمن على لقائنا معاً حتى كان مورفى فى طريقه للاجتماع بأكبر عملاء القاهرة فى لبنان. وقد ازدهر نفوذ هذا الأخير ثانية وزاد بعدما شارف على الانقراض كلياً منذ ظهور محاولات الوساطة وإنهاء النزاع، ومع أن الاجتماع كان مقرراً له أن يبقى سريا «كما قال ذلك مورفى فيما بعد» إلا أنه لم يكن فى صالح ذاك السياسى بالذات أن يبقى الأمر كذلك. بل وعلى العكس، فقد ظهرت صور الاثنين معاً وهما يتصافحان، وللآراء يبادلان، ووزعت فى الشوارع والأحياء، وعلقت على الجدران، وكان مكتوباً عليها تعليق بعنوان: «ممثل الرئيس أيزنهاور يتعاطف مع الثورة!».

ومع أن معظم الكتاب الذين علقوا على الأحداث اللبنانية قد أجمعوا على اعتبار نزول جنود البحر إلى الشواطئ اللبنانية مأثرة دبلوماسية بارعة، إلا أن ذلك لم يكن أكثر من مجرد رأى عالمى لا يمت إلى مسرح الأحداث الحقيقى بصلة لقد برهنت تلك الحادثة على تمسك الولايات المتحدة بالتزاماتها، وأنها على استعداد لأن تمد يد المساعدة لأصدقائها بطريقة عجز السوفييت عن محاكاتها والقيام بمثلها تجاه أصدقائهم. وأما على مسرح الأحداث فى المنطقة، فلقد جاءت نتائجها مطابقة لما كان ناصر يحلم به ويشتهيه، حتى بدا وكأن جنود البحر جاؤوا إلى لبنان لخدمة أهداف ناصر وتحقيق مآربه. فأولاً: أن كلا من رئيس الجمهورية شهاب ورئيس الوزراء كرامى، وهما الرجلان اللذان استلما دفة القيادة بعد انتهاء الاحداث، كانا نفس الرجلين اللذين أرادهما ناصر أن يكونا فى هذين المنصبين. وثانياً: فقد استقر الإرهاب فى نفوس الناس على أنه السلاح الفعال، ودون ازدراء له أو اشمئزاز منه. وفى

خلال الأيام الأولى لانتهاء الأزمة، كانت جميع الطوائف الدينية والفئات السياسية ترفع شعارات تقول: «علينا أن ننتزع بالقوة ما لنا من حقوق، فالحكومة لا تنوى ردها إلينا، ولن تساعدنا على ذلك». وكان هناك من يقول داخل سفارتنا: «إن اللبنانيين ليسوا سوى أفراد فى مجتمع عصابات»، ومن السخف أن نتوقع منهم نتائج أحسن من ذلك. ومع هذا فقد سنحت الفرصة لإقامة قواعد وأنظمة أساسية ولتثبيتها هناك، ولم يكن ليقلل من هذه الفرصة الحقيقية أن علاقاتنا مع زعيم إرهابى لم تكن لتختلف عن علاقاتنا مع رئيس لجمهورية البلاد. وثالثاً: فقد مات «مبدأ أيزنهاور» بعد الأزمة اللبنانية، وأضحى أثراً بعد عين، ونقص عدد «الخوارج» واحداً، وودع ناصر القلق منه واستراح ولسنوات مقبلة لم تعد حكومة لبنانية تفكر بعقد صفقات مع الغرب حتى لا تكون مدعاة لإثارة متاعب جديدة ومبرراً لتدخل ناصرى جديد فى لبنان. فناصر يستطيع ذلك كلما أراد، وقد يفعله دون تردد أو إحجام.



وعندما شارف عام ١٩٥٨ على الانتهاء كان ناصر قد بلغ ذروة القوة ولقد أعنى بكلمة «القوة» فى كتابى هذا، امتلاك الفعالية العظمى فى مجال الصراع مع الدول الكبرى لصالح مصر، ومصر لوحدها وعلى حد قول أحد المعلقين، فإن ناصراً قد فشل فى ضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة، كما فشل فى ضم الأردن لها بعد قيامه بمحاولة انقلاب أخرى هناك بعد انسحاب القوات البريطانية منها «وكانت قد حطت رحالها هناك عندما نزل جنود البحر فى لبنان» وحدث انقلاب فى السودان أطاح بالحكومة هناك فى غفلة من المخابرات المصرية وأعوانها، ووضع السلطة فى يدى حكومة «مستقلة» عن القاهرة. وشن الحبيب بورقيبة، رئيس الجمهورية التونسية، هجوماً عنيفاً على ناصر. وهكذا بدا ناصر فى الأوحال غارقاً وفى المتاعب غائصاً، تعصف به الأنواء، وتنزل به النوازل من كل حدب وصوب من العالم العربى. إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً ولم يكن ناصر ليعبأ به. فهو حقيقته لم يكن وراء حكم العالم العربى، ولقد أخطأ من ظن ذلك. وأن نظرة عابرة على البرقيات الواردة إلى وزارة الخارجية فى واشنطن «وكان يشار فيها إلى ناصر باسم «موضة المستقبل»، أو إحصاء سريعاً للمساعدات المالية والفنية التى كان يومها ناصر يتلقاها من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، كان كافياً لأن يدرك المرء أن ما رآه من هزائم متلاحقة حلت بناصر قد عادت على الأخير بأرباح طائلة ومنافع لا عد لها ولا حصر. لقد بلغ مجموعة المساعدات الأجنبية التى

نالها ناصر، من الولايات المتحدة والدول الشيوعية «دون سواها» في السنوات الأربع التالية لعام ١٩٥٨ أكثر من مليار من الجنيهات المصرية «أى حوالى ٢,٣ ملياراً من الدولارات» بالرغم من كل تلك التقلبات التى طرأت على علاقاته مع الاتحاد السوفييتى أولاً ومع الولايات المتحدة لاحقاً. لقد عزت واشنطن نجاح ناصر إلى كونه «عاملاً تحرص الأطراف على طلب وده وضمان جانبه» وأجمع على هذا الرأى كلا الفريقين القائلين بفشل ناصر أو بنجاحه فى الحرب الباردة التى دارت رحاها فى عام ١٩٥٧-١٩٥٨.

ومع ذلك، فإن تدخل ناصر فى الأزمة اللبنانية قد أثار ضغائن أوساط رجال الأعمال الغربيين وأحقاد مؤسساتهم التجارية. لقد كان بعض هذه المؤسسات لا يتحرج فى أن يتحالف مع الشيطان فى سبيل كسب دراهم معدودات، إلا أنها جميعاً تتوجه فى حقيقة تصرفاتها بإدراك عملى وفهم مرن لأطماع «الشيطان» ذات المدى البعيد. إن عدداً غير يسير من الشركات التجارية التى لا تطمع إلا بمنافع آنية وقصيرة المدى قد أنشأت علاقات تجارية مع مصر منذ عام ١٩٥٨. وفى الوقت نفسه، فإن أروقة التجارة العالمية فى واشنطن بدأت تركز بشدة على كل ما هو «ضد ناصر» وأخذت تضايق باستمرار موظفى وزارة الخارجية الذين يظهرون عطفاً على ناصر وميلاً له، وكانوا يتبعون معهم وسائل التهديد، كنقلهم من وظائفهم، إن لم يلتزموا بالصمت. ولم يستثنوا من حملتهم هذه حتى أولئك الموظفين الذين كانوا يرون فى ناصر بعض الخير وليس كله شراً بشر. ولاعتبارات عالمية يجهلها رجال الأعمال وإن علموا بها فلا يستسيغونها، فإن حكومتنا قد أمسكت فى السنين الأربع التى تلت عام ١٩٥٨ عن اتباع سياسة معادية لناصر كلياً. كما أن قيام ناصر بتأدية بعض الخدمات لنا خارج نطاق «لعبة الأمم» كان من بين العوامل الرئيسية التى أدت إلى تخفيف حدة ضغط الاتجاه المعادى له على حكومة الولايات المتحدة. إلا أن هذا الاتجاه المعادى له ما لبث أن عاد ثانية إلى سابق قوته، بل ولقد زادت ضراوته، إلى الحد الذى أثر على قوة ناصر نفسه فى «لعبة الأمم» تأثيراً مباشراً فشل مرونة حركته التى كانت تعتمد كلياً على مهارته فى أن يزج بنا فى دوامة السباق والتنافس مع السوفييت.

-١٥-

السياسة الناصرية فى الخارج
تمتص ثروات الشعب فى الداخل

... ونفقات الأبهة والعظمة باهظة جدا بل وقاسية، وإذا قصر الإنسان بحقها تركته رهينا عندها وسلعة لها

ومع أن تدخل المصريين فى أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية قد أثار حفيظة طبقة رجال الأعمال الغربيين، فإن الناصريين والدبلوماسيين الغربيين كانوا ينظرون إلى الأحداث اللبنانية على أنها جزء من جبهة أعرض بكثير. وكما ذكرنا آنفا، فقد رد ناصر على توقيع حلف بغداد بشن حملات قاسية ضد نورى السعيد فى العراق، والملك حسين فى الأردن، وكميل شمعون فى لبنان؛ بغية إسقاط أنظمتهم والإطاحة بهم.

وقبيل نشوب الأزمة اللبنانية، كان «أزلام» ناصر قد حرضوا اللاجئين الفلسطينيين فى الأردن ضد الملك حسين، كما أفلح ناصر بإغراء الملك سعود بالتكفل بأعباء الحملة ماليا. إلا أن الحكومة الأمريكية أوفدت كيرميت روزفلت إلى المنطقة وبعدها توجه كيرميت إلى الأردن لبحث أوضاع الملك، ولإيجاد الطرق لدعم نظامه الذى كانت تعتقد الحكومة الأميريكية أنه أقل أنظمة «الخوارج» الثلاثة - نورى وشمعون وحسين- استقرارا وصمودا. وقد حالف النجاح روزفلت فى مهمته.

كما تمكن روزفلت من إقناع الملك سعود بحضور اجتماع القمة الذى كان ناصر قد دعا لانعقاده فى القاهرة فى كانون الثانى (يناير) ١٩٥٧، وبممارسة الضغط على كلٍ من ناصر وصبرى العسلى (رئيس وزراء سوريا يومها) لتقديم مساعدة مالية للأردن كبديلة للمساعدة البريطانية التى خسرها الملك حسين نتيجة رفضه الانضمام لحلف بغداد (تحت ضغط من ناصر).

وهكذا نجحت لعبة الإيقاع بين المصريين والعرب وتبعتها لعبة أخرى للإيقاع بين الأردنيين والمصريين. فقد كان الملك حسين قد انضوى تحت لواء ناصر، وانضم إلى «جمعيته»، إلا أن روزفلت قد انتزعه من بين براثن ناصر ثانية. وقد ادعى ناصر فيما بعد أن روزفلت قد مَرَّرَ معلومات معينة إلى كل من أبى نوار وسليمان النابلسى أغرتهم بالتحضير لانقلاب ضد الملك. وعند التنفيذ وجدوا الملك فى انتظارهما. وهكذا تم لروزفلت ما لم يتم لناصر.

وفى عام ١٩٥٣، شرعت إذاعة القاهرة ببث برامج خاصة تحت اسم «صوت العرب» كوسيلة من وسائل تشييد ناصر لصرح «أسطورة القومية العربية»، وفضح أعدائها والغرباء عنها، ولترسخ فى الأذهان مواصفات «عملاء الاستعمار» حتى يسهل على الجماهير فى المنطقة كشفهم وإماطة اللثام عنهم (وكانت تقصد أيضا مطابقة هذه المواصفات أم لا على كل من شمعون وحسين ونورى).

وبعد توقيع حلف بغداد مباشرة، رفع «صوت العرب» من عدد ساعات البث اليومى ساعتين. كما بدأ يركز على التحذير من أعداء «أسطورة القومية العربية»، بدلا من التركيز على «تشييد صرحها». ومنذ ذاك الوقت وبرامج إذاعة القاهرة تزداد قوة وبثًا وتركيزا (فيما تحتويه من معلومات).

وفى عام ١٩٥٧ كانت إذاعة القاهرة تدعو إلى أعمال الشغب والعنف وتحرض على الاغتيالات جهرا بافتضاح. وقد جاء مرة فى إحدى إذاعاتها: «وأخيرا، فلقد عثرنا على الخائن نوري، وإن كانت العزة والكرامة تجريان من العراقيين مجرى الدم فى العروق فإن عليهم أن يقتلوه ويطرحوا أشلاءه إلى الكلاب».

واسترعت صيحات «صوت العرب» انتباه أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية بعدما تم تسجيلها من قبل «هيئة معلومات الإذاعات الأجنبية» القابعة فى جزيرة قبرص، والتى تلتقط كافة برامج إذاعات الشرق الأوسط، ومعظم إذاعات أفريقيا وإذاعات بعض مناطق الاتحاد السوفيتى وتسجيلها.

وعندما دعا مذيع «صوت العرب» إلى اغتيال نورى السعيد، انكب خبراء الدعاية ومحللو المعلومات فى كل من لندن وواشنطن (وحتما فى كل من باريس وبكين وموسكو وبضع عواصم أخرى)، على دراسة برامج إذاعة القاهرة بجد واهتمام غريبين لم يشهد العالم نظيرا لهما منذ

أيام هتلر. وعلى نحو ارتجاعي، فقد تم تمحيص هذه البرامج الإذاعية أكثر من مرة لتحديد قوة تأثيرها الخارجي، وللوقوف على حقيقة المخطط الذى وراءها، وللعثور على مواد إذاعية صالحة لشن حملات مضادة للدعاية المصرية. ومن الغريب أن تلك البرامج الإذاعية كانت لا تبدو أكثر من مجرد هراء وسفسطة إذا ما محصت جملة جملة، إلا إنها سرعان ما تبدو وكأنها حملة متكاملة ومنظمة بمهارة فائقة عندما يُنظر إليها ككل.

وفى أوائل عام ١٩٥٦، قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل دراسة حول ردود فعل المستمعين لبرامج القاهرة الإذاعية فى كل أنحاء العالم العربي، وانتهت الدراسة إلى النتيجة التالية: أن إذاعة القاهرة قد حظت بأكبر نسبة من المستمعين بَدْوًا كانوا أو حاضرةً، ومارست تأثيرا جيدا على العرب فساقتهم سوق التنويم المغناطيسى تحريكا وتوجيها. وتَجَاوز تأثير إذاعة القاهرة إلى المثقفين الذين هم آخر مَن يتوقع منهم استحسان برامجها واستساغة صيحاتها فانساقوا معها أيضا دون أن يجدوا لسلوكهم تفسيرا مقبولا. وقد أخبرنى يومها أحد خبراء الدعاية أن أى تاجر شرقى ذى ميول غربية يترك مذياعه مفتوحا على إذاعة القاهرة، سرعان ما تساوره الشكوك تجاه الغرب لسماعه أقصر البرامج، كما أنه يشعر بميل وعطف نحو حجج ناصر، ونظراته. وعلى حد قول علماء «الدوافع والبواعث»، فإن نداءات «لا شعورية»، وكانت بدون شك ذات تأثير متصاعد باطراد.

ولم يكترث نورى السعيد للأمر. وكان جل إذاعة بغداد على حملات القاهرة الضارية، هو تكرار إذاعة أغنية هزلية شهيرة حول «البوسطجي»، قاصدة بها التهكم على ناصر (لكونها مهنة أبيه)، والنيل منه. إلا أن أثر إذاعة الأغنية لم يكن ضد ناصر، بل على العكس لصالحه، فقد أحرزت تأثيرا لا يقل عن تأثير برامج إذاعة القاهرة ذاتها. وطفق «صوت العرب» يردد نفس الأغنية ليظهر الدرك الذى انحدر إليه راديو بغداد. وبالمقابل قام راديو بغداد بإعادة تسجيل لصيحات إذاعة «صوت العرب» التى تحرض العراقيين على اغتيال نورى السعيد ليظهر بدوره الدرك الذى انحدرت إليه إذاعة القاهرة. وفى خضم كل هذا التلاسن المتبادل لم تكن الدعاية المضادة لراديو بغداد أكثر من قشة فى مهب الرياح حتى أدركها خبراء الدعاية الغربيون وعدَّلوها.

وقامت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، بتجربة ألوان من الدعاية المضادة لإذاعة القاهرة، التى زادت من قوة بثها فى أوائل عام ١٩٥٦ حتى تغطى مناطق أوسع من أفريقيا.

وتعرض الخبراء الأمريكيون لإمكانية استخدام الإذاعة اللبنانية لهذه الغاية إلا أنه سرعان ما أقلع الجانبان اللبنانى والأمريكى عن هذه الفكرة خشية تفاقم الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان. كما أن الإبقاء على لبنان خارج هذا الميدان من ميادين الحرب الباردة، سيكون أكثر تقبلا وأشد ترحيبا. وقد خطرت ببال الحكومة الأمريكية فكرة إقامة محطة بث جديدة فى أضنه بتركيا، أو مساعدة البريطانيين فى رفع قوة بث إذاعتهم فى قبرص (وفى الحقيقة فقد أحرز بعض التقدم فى هذا المجال الأخير). وسرعان ما بدت فكرة إقامة محطة إذاعة جديدة فى المنطقة لمنافسة محطة إذاعة القاهرة كفكرة نقل مدينة التمثيل الشهيرة «هوليود» إلى مدينة دى ميونى (فى آيوا، إحدى الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة) النائية المقفرة المجدبة. فالقاهرة تموج بأفواج الممثلين والمغنين والمخرجين والكتاب والفنيين، ولن يتوفر ذلك فى أية مدينة عربية أخرى إلا بشق الأنفس، وبعد ردح من الزمن. وفى خضم هذه الأفكار المتضاربة، لمعت بارقة أمل عندما طرحت فكرة تدمير أجهزة إرسال محطة إذاعة القاهرة وإسكاتها نهائيا. وهذا ما حدث بعد ذلك فعلا. ففى أثناء أزمة السويس فى تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٦، قام أحد طيارى سلاح الجو الملكى البريطانى بإلقاء وابل من القنابل عليها، إلا أنه أخطأ الهدف ولم يصبها.

ومهما بلغ دعاية إذاعة القاهرة قوة وعنفا، فإن تكاليف تشغيل الإذاعة غدت باهظة وأكثر مما تطيقه الميزانية المصرية. وكان من نتائج ازدياد نداءات إذاعة «صوت العرب»، تضخم نشاطات أجهزة المخابرات المصرية واحتدام معاركها السياسية، وبالتالي، ارتفاع التكاليف وتكدس الأعباء المالية. ومن العسير أن يحصى المرء ما تكبده المصريون من نفقات كثيرة أثناء الأزمة اللبنانية فى عام ١٩٥٨، إلا أن بعض المطلعين الغربيين على تلك العمليات قد كشفوا النقاب عن نفقات تجاوزت أرقامها الملايين من الدولارات. كما أن الحكومة اللبنانية قد أماطت اللثام بعد انتهاء الأزمة عن أدلة مقنعة تفيد أن أحد «البيارتة الأربعة» قد تلقى ما لا يقل عن سبعة ملايين دولار دون أن يشاركه فيها أحد. وعند جمع مثل هذه الأرقام معا، وضم أرقام نفقات كل أجهزة المخابرات والمباحث والأمن العام فى القاهرة إليها يغدو حاصل نفقات أجهزة الأمن القومى والعمل السياسى المصرية أكبر بكثير من أرقام نفقات مثيلاتها فى الدول الغربية (على حد قول بعض هذه الأجهزة) التى كانت متواضعة فى عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ وليست النفقات المباشرة للعمل السياسى بكثيرة، إلا أن المحافظة على متانة خطوط المجابهة

وضمان الصمود فى المعارك السياسية - وخاصة داخل البلاد - يتطلب الكثير، ويمتص الثروات، ويرفع من أرقام الميزانيات. ولا أزال أذكر شجون الحديث الذى دار بينى وبين أحد ضباط ناصر المسئولين، وقد قال لى يومها: (لو حلت بمصر كارثة سلختها عن بقية العالم، وجعلت منها جزيرة نائية فى وسط بحر هائج لا يهدأ له قرار، وأبقت لنا «نيلَنا» وتربتنا وبقية مصادر طبيعتنا، فإننا - نحن المصريون - لن نعانى من أسى أو نقاسى من ألم. سيزرع البعض قطنا، ويحيك الآخر نسيجا. ستبذر الأرض ذرة وأرزا، ويحصد الفلاح ما نبت من زروع وألقى من بذور. وسيعالج بعضنا الأضراس، ويصنع الآخرون الحذاء، وسيعنى الأساتذة بالناشئة، ولن نعرف للمشردين وجودا. ولكن عندما نصر على أن نكون قوة عالمية، فسنبقى فى الدواوين، ووراء المكاتب جالسين، مستهلكين أبدا غير منتجين أو مصنعين. إن المرء لن يتضور جوعا، ولو كان على جزيرة نائية، مجدبة وقاحلة، طالما أنه لا يطمع بجار له ولا يحشر أنفه فى شؤون صديق، وبعبارة أوضح، طالما ليس هناك من نفوذ يقلق على ضياعه، ولا داع لمراقصة «دهاة الغرب» على مسرح «العلاقات العالمية»).

ولكن لم يكن لمصر سبيل لأن تعتزل العالم وتعيش على انفراد. ولو أنه قدر للمصريين هذا، وغدوا «انعزاليين» راضين أن يقتاتوا بما تخرجه لهم أرضهم وما تدره بلادهم من حولهم لن يدعهم وشأنهم ولن ينفك عن الضغط عليهم بشتى الأساليب. وحتى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، التى ما فتئت تشجعهم من وقت لآخر على العودة إلى مبدأ «مصر أولا»، فإنها لم تمنح ناصرا تأييدها الحقيقى إلا على أساس النظرية القائلة «أن ناصرا سيغدو مثالا يحتذى به فى بقية أنحاء العالم العربى».

ونظرية «الزعامة القدوة» قد ملكت على الأمريكيين تفكيرهم، وملأت عليهم حياتهم. وإن كانت الغبطة تملأ قلب الحكومة الأمريكية ويغمرها السرور كلما عاد زكريا محيى الدين إلى الظهور على مسرح الأحداث فى مصر - كتسلمه منصب رئيس الوزراء أو نائب رئيس الجمهورية أو رئاسة أية لجنة أخرى - فليس سبب ذلك عطف زكريا على الأمريكيين وميله لهم (فهو لم يكن كذلك يوما، ولن يكون)، بل سببه أن زكريا هو أحد أفراد بطانة ناصر القائلين بمبدأ «الزعامة القدوة»، ومن المنادين بمبدأ السيطرة على العرب وقياداتهم، عن طريق البناء والإعمار، وباتباع الوسائل الإيجابية، وليس عن طريق العنف وتحريض الإرهابيين ضد رؤسائهم وحكام بلادهم.

ومن وجهة نظر اقتصادية، لم يكن الأمريكيون يفكرون بأن الأوضاع فى مصر سوف تتغير تغيرا جذريا. لقد كانت نظرتهم أن مصر ستبقى اقتصاديا كما كانت تقريبا قبل قيام ناصر بانقلابه، ولكن مع تحسن وتقدم فى جوانب الحياة ومعالمها، أرادوها أن تلعب دور «نبراسكا» فى حياة «نيويورك أوربا»، وستكون معالم الاقتصاد المصرى كما يلى:

● تصدير المواد الأولية: اعتقد الأمريكيون أنه لن يكون بمقدور المصريين تصنيع أجهزة الراديو والسيارات وغير ذلك بنفس تكاليفها المتدنية التى يمكنهم شراؤها من الدول ذات الخبرات الطويلة فى مجال الصناعة. ويشارك المصريين بهذا الوضع أمم أخرى تخلفت عن ركب الثورة الصناعية بأشواط بعيدة. كما اعتقد الأمريكيون أنه لن يكون هناك أية فرصة لإدراك المصريين الدول المتقدمة صناعيا واللحاق بها. ففى نفس الوقت الذى ينكب المصريون فيه على تطوير أنفسهم وتصنيع بلادهم - دون أن يكون لديهم أية معطيات أولية فى هذا المضمار - يكون الألمان والإيطاليون والفرنسيون - دون ذكر اليابانيين - قد قطعوا أشواطا أكثر بعدا وأصعب منالا. ومهما كان تصميم المصريين على تصنيع أنفسهم وإصرارهم على اللحاق بغيرهم، فإن الهوة الفاصلة بينهم وبين الدول المتطورة صناعيا ستزداد اتساعا، ولن تضيق أبدا. أما إذا التفت المصريون إلى تطوير وتحسين مواردهم الطبيعية فسيبيعونها للأمريكيين بالعملة الصعبة وسيبتاعون بها ما يشاءون من المنتجات المصنعة التى هم فى حاجة إليها.

● التصنيع الخفيف: على المصريين أن ينضموا إلى نادى الصناعة، إلا أن ذلك يجب أن يكون ضمن حدود طاقاتهم، وأن يكون معتمدا على إنتاجهم الزراعي، وأن يضمن لهم قدرا كافيا من العملة الصعبة. وكان الأمريكيون معارضين لمبدأ «التصنيع للتصنيع»، أو ما يسمى «بصناعة العزة والكرامة» مثل إقامة معامل الصلب والحديد ومصانع السيارات التى تظهر أبسط الحسابات على أنها خاسرة وغير مربحة.

● المشاريع الحرة: لقد ارتاع المستشارون فى الشؤون الإدارية الذين خدموا فى مصر فى الأيام الأولى لحكم ناصر لضخامة جهاز الموظفين فى مصر وعجزه عن تأدية واجبه. وبدا لهم جليا أن السبيل الوحيد لخلق مشاريع صناعية وأخرى لتوفير العملة الصعبة، هو فتح الباب على مصراعيه أمام الأفراد للمنافسة والإبداع وإيجاد الحوافز لهم. وباعتقاد أولئك الخبراء،

أن كل ما يمكن للحكومة تقديمه، هو ترك مثل أولئك الأفراد أحرارا يكدحون ويبدعون. وإذا كانت الحكومة ولا بد ناصحة لهم، وموجهة لنشاطاتهم، فإن عليها أن تفعل ذلك بقصد زيادة إنتاجهم، وليس بقصد إعاقتهم وملاحقتهم بتهمة تهريب الأموال والأرباح.

● الاستثمارات الأجنبية، الخبراء الأجانب: رأى الأمريكيون أن الفرصة سانحة أمام المصريين للاستفادة من رغبة رجال الصناعة الغربيين فى الهرب من كابوس الضرائب المرتفعة داخل بلادهم، وفى دخول مصر لإقامة مشاريع صناعية بالاشتراك مع المصريين، أو لعقد اتفاقيات تمنح المصريين حق إنتاج صناعاتهم داخل مصر، أو لإقامة مصانع خاصة بهم (لا تستخدم إلا عمالا مصريين). وقد تراءى يومها، أن هذه الفرصة ستوفر للمصريين ورادا جيدا من العملة الصعبة ومجالا واسعا لتشغيل الأيد العاملة فى بلادهم، ومدها بالخبرات اللازمة. كما أنها تفتح الأسواق أمام كافة المنتجات المصرية سواء التى أنتجتها مصانع الشركات الأجنبية أو المصانع الوطنية، والتى يمكن تصريفها معا بنفس الطرق والوسائل.

● مجتمع مدنى وجيش صغير: لقد أدركت وزاوة الخارجية الأمريكية ضرورة امتلاك ناصر جيشا قويا لدعم قاعدة القمع، وللمساعدة فى المحافظة على الأمن الداخلي، وللاستعانة - إلى حد ما - ببعض ضباطه فى إدارة المؤسسات الحكومية المدنية التى تعانى فسادا عاما وانهيارا شاملا. ويرى الغربيون - الذين لا يهتمون بغير الجانب الاقتصادى لمصر - أن الغاية من وجود حكم قوى فى البلاد هى حفظ النظام وتطبيق القانون، وهذان لا يتطلبان جيشا ذا تعداد كبير كما هو حال طبقة «العسكريتاريا» التى أرادها ناصر دعما «لقاعدة القمع»، وضمانا لبقاء النظام. لقد تعلم رجال الأعمال وعلماء الاقتصاد الغربيون فى مجتمعاتهم أن الحكومة تتغير من وقت لآخر، وبصورة طبيعية نتيجة ثقة يحجبها البرلمان عنها أو انتخابات تجرى فى البلاد. إلا أن ناصرا لم يتعلم هذا. لقد كانت نيته البقاء فى الحكم والخلود فيه.

وتظهر محاضر المناقشات التى دارت بين مختلف الرسميين وغير الرسميين الغربيين، وبين المسئولين المصريين خلال سنوات حكم ناصر الأولى، أنه ليس هناك أى تناقض بين فلسفة ناصر يومها وبين الأفكار الآنفة الذكر. كما أن عدم وضع ناصر تلك الأفكار موضع التنفيذ يعود إلى قلة خبرته، وعدم لمسه أية أهمية لها. ولكن بعد انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية بدا أن ناصرا يحمل أفكارا جديدة من صنعه وإنتاجه، ولا تمت إلى المبادئ الآنفة الذكر بأية صلة

إطلاقا. لقد كانت الأزمة اللبنانية أول ما استرعى انتباه رجال الأعمال الغربيين عامة وأثار حفيظتهم. فيومها، لم يكن قد شعر بنمو الثورة وانتشارها سوى بعض شركات البترول. ولكن حوادث لبنان أثارت انتباه أكثر من مائة وعشرين شركة أمريكية علاوة عن عدد غير قليل من الشركات البريطانية والأوربية الأخرى كانت تتخذ من بيروت مقرا لها ومنطلقا لأعمالها فى منطقة الشرق الأوسط. وقداضطرت يومها أن تعيد النظر بأوضاعها فجأة ودون سابق إنذار. وفى ضوء النتيجة التى انتهت إليها الأزمة اللبنانية، كان السؤال الوحيد الذى أخذ يقلق بال رجال الأعمال الغربيين، ويحير ألبابهم دون أن يعثروا على جواب شافٍ له هو: «ما هى أفكار ناصر ؟ وما هى آراؤه عن اقتصاد المنطقة التى يأمل بالسيطرة عليها؟ وما مدى تأثير هذه الآراء وتلك الأفكار على أوضاع شركاتنا واستثماراتنا؟».

وفى حزيران (يونيو) عام ١٩٥٨، كان لى ولشريكى ثلاثة زبائن: شركة بترول، ومصرف، وشركة طيران. وقبل نهاية أيلول (سبتمبر) من نفس العام تقدمت لنا عشرات الشركات الأمريكية بطلبات لدراسة الاتجاهات التى يتوقع لها أن تسود فى المنطقة بعد «انتصار» ناصر فى صيف عام ١٩٥٨ فى لبنان (ولم يفكر أى رجل أعمال بأن ذلك لم يكن أى شىء آخر غير «انتصار»). ولم يقتصر هذا على شركتنا فقط، بل إن كل الشركات الأخرى التى تزاول نفس مهنتنا قد تلقت طلبات مماثلة. فقد أضحى الموقف مقلقا، وأخذت كافة الشركات الأمريكية التى لها استثمارات رئيسية فى المنطقة إلى جانب شركات أخرى على وشك توظيف أموال طائلة هناك، تدرس الوضع عن كثب. كما قامت معظمها بإجراء دراسات مستفيضة فى مقراتها الرئيسية بدافع من نفسها عن تطورات الأحداث فى المنطقة. وكم ضايق هؤلاء وزارة الخارجية فى واشنطن بطلباتهم المستمرة وأسئلتهم المتواصلة عما يدور فى منطقة الشرق الأرسط من أحداث وعما تجمع لديهم من معلومات.

وبعد انتهاء الأزمة اللبنانية وانقشاع غماماتها، بدأت كل من وزارة الخارجية الأمريكية وطبقة أصحاب المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط تسلك طرقا مستقلة عن بعضها البعض. ولكن لم يبدُ هذا جليا حتى عهد إدارة الرئيس كنيدي، ونزول قوات ناصر فى اليمن. لقد ماتت النظرة السائدة يومها فى أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، أن ناصرا لم يحرز حقيقة أى «انتصار» فى لبنان فالحكومة التى تربعت على عرش السلطة هناك كانت حيادية حقا، «ومبدأ أيزنهاور» - وإن كان ميتا قد حقق هدفا جديرا بالاهتمام والانتباه، وبخصوص

سلوك ناصر مستقبلا، فإننا - نحن الأمريكيين - كنا نفضل ناصرا على أى زعيم آخر يمكن أن يحل محله نتيجة انقلاب يطيح به أو ثورة تجتث نظامه. وأما من الزعماء العرب الآخرين، فما كان أحد من أولئك الذين كانوا فى السلطة يومها يستهوى فؤادنا، ويسحر ألبابنا أكثر من ناصر. كنا نفضله على قاسم العراق (الذى خاض معه ناصر غمار صراع مرير لأنه حاول الخروج على ناصر لصالح الشرق بعدما خرج نورى عليه لصالح الغرب)، وحتى على الرئيس اللبنانى شهاب (الذى كان ينظر إليه بعض دبلوماسيينا على إنه «نجيب ولكن لا ناصر معه»). وبغض النظر عن المصائب التى كانت تحل به كل ثلاثة أو أربعة أعوام، فإن ناصرا كان يزداد قوة وصمودا. فهو هناك، ودائما هناك، والتفكير بغيره عبث، والعبث حرام.

أولا: إن قيام ناصر بدور «نبراسكا» (أى إنتاج المواد الأولية الزراعية) وغيره يقوم بدور «نيويورك» (أى الصناعة) لا يمكن أن يخدم أبدا أيا من أهدافه التى كان يحلم بها. فهو يريد أن يبقى فى الحكم، ويريد الحكم أن يبقى له. وهذا من أول أهدافه وأغلى أحلامه. ولتحقيقه، فهو لا يقبل بحكومة متواضعة الحجم وجهاز إدارى قليل العدد عظيم الفعالية، لأنهما لا يساعدانه البتة على ضمان الحكم واستقرار السلطة. فناصر لا يرى أن هدف الجهاز البيروقراطى فى دولته هو خدمة الأمة والسهر على مصالحها، وإنما هو أحد أركان «قاعدة القوة» التى يرتكز إليها سلطانه - فالآلاف المؤلفة من الموظفين ليسوا موظفين وإنما هم لبنات فى هيكل الحكم وصرح عظمته. إنهم الشعب وقواعد النظام ومرتكزاته. يبلغون المليون فى التعداد، وتعج بهم أحياء القاهرة ويموجون فى شوارعها. يؤلفون طبقة كاملة من طبقات الأمة، ويرفدونه بحشود هائلة من الأتباع والأنصار. وهم فوق كل هذا وذاك، أعضاء حزبه الوحيد، ولا غيرهم من الأمة أعضاء فيه. أما أن يقتصر على مائة وثمانين ألفا من الموظفين (وهذا أقصى ما سمحت له به مؤسسة أمريكية للاستشارات - كان ناصر قد طلب منها دراسة الوضع عن كثب - لإيجاد إدارة فعالة)، فإن هذا لن يفى بالغرض، ولن يحقق الهدف. وكذلك الأمر بالنسبة للجيش، فناصر لا يكتفى بجيش صغير العدد محصور المهام (مثل إخماد الاضطرابات وقمع المظاهرات داخل مدن البلاد)، يقل عن خمسين ألفا وليس أكثر. فهو حقا لم يرد جيشا، بل أراد خلق طبقة من العسكر، «عسكريتاريا». وما كانت لتكون «طبقة» إلا إذا تجاوزت فى التعداد ستمائة ألف أو تزيد.

ثانيا، فالاقتصاد الذى جل همه تصدير الخام من المواد واستيراد الجاهز من الصناعات،

لا يعنى سوى أن الذين يعيشون فى ظله ليسوا أكثر من مواطنين من الدرجة الثانية، ولا يختلفون عن حالهم فى ظل الاحتلال البريطانى إلا قليلا، ولهذا فلا بمكنهم أن يختالوا تيها ويتبختروا زهوا، لاعتقاد ناصر أنهما من الضروريات لشعبه. وليس هذا فحسب، بل قد أدرك ناصر أن اقتصادا هكذا ستتحكم فيه عوامل كثيرة، وستبقى تحت رحمة الزبائن وهواهم. فالتغيرات الطارئة على أسعار القطن وسوقه، ذات تأثير غير يسير على الاقتصاد المصري، وكم سبق أن هزته من أركانه هزا. إلا أن تأثيرى على البلاد المستوردة له طفيف جدا، بل يكاد يكون معدوما. وناصر لا ينسى كم استغلت القوى الأجنبية نقاط الضعف هذه. فهو لا يزال يذكر جيدا كيف عامله أصدقاؤه من السوفييت، ولم يمضِ على هذا زمن بعيد. لقد استغلوا ما حل بسوق القطن فى الغرب من كساد، وما أصابه من ركود، فاشتروا كل ما بوسعهم أن يشتروه، وزادوا فى أسعار قطن مصر حتى يفوزوا بحصة الأسد من جملة صادراتها فيربطوها إليهم، ويخضعوا اقتصادها لهم. إلا أنهم بعدئذ خفضوا الأسعار وباعوا القطن فى أسواق العالم. وأحس ناصر بفعلهم هذا، ولم ينسه. لقد تعلم كيف يتلاعب المتلاعبون باقتصاده، وكيف تجعل القوى الكبرى منه «اقتصاد ما وراء الكواليس». وهكذا أيقن ناصر أن اقتصادا يبنى على إنتاج الخام من المواد وبيعها معرض للخطر دائما، كما أنه اجتماعيا، أمر للقدر محط وللنفس مذل.

وثالثا، فقد اعتقد ناصر أن الأمة التى تقتصر مهمتها على مد الدول الصناعية بالمواد الأولية، وفيها معظم رأسمالييها من التجار وليس من الصناعيين والمستثمرين للأموال (كما هو الحال فى الغرب)، لا تلبث أن تنتج مجتمعا فيه طبقة من الأغنياء الفاسدين الذين لا يشعرون بواجب تجاه وطنهم، ولا يساهمون فى زيادة دخله ورفع إنتاجه، بل إنهم للأرباح فى سويسرا تاركون ولأموالهم إلى الخارج مهربون. وعلى خلاف ما يحلم به ناصر من مجتمع «الفرد للكل، والكل للفرد»، والذى لا وجود له إلا فى «جزيرة الأحلام»، أو فى مجتمع ناصر «الاشتراكي»، فإن المجتمع الذى يبنى اقتصاده على النحو الذى أسلفنا عنه - نحن الأمريكيين - لن يفكر فى غير عطور فرنسا وسيارات السيور من أوربا وتمضية أيام عطلته على شواطئ الريفييرا. وهكذا كانت حقا القشرة الخارجية للمجتمع المصرى قبل قيام ناصر بانقلابه. ولم يكن حرص ناصر على إزالة آثار طبقة التجار الأثرياء أقل من حرصه على خلق طبقة «أصحاب الدواوين» (البيروقراطية)، وطبقة «العسكريتاريا»، وبالتأكيد. فقد كانت طبقة العمال الكادحين

«البروليتاريا» على رأس القائمة وفى مقدمة الصورة.

ويقودنا السياق إلى النقطة الرابعة. فعندما أشار خبراء مؤسسة التمويل العالمية على ناصر، أن يركز اهتمامه على المحافظة على أسعار الجنيه المصري، وأن يستغنى عن المصانع التى سترهق المستهلك بأسعار أعلى من الأسعار المنافسة لها فى الخارج، أجاب يومها قائلا: «إن التصنيع هو هدف بحد ذاته، وليس فقط وسيلة لإنتاج البضائع وتصنيع المواد». إن الأمة التى تحترم نفسها هى تلك التى تملك مجتمعا متكامل الجوانب، فيه الموظفون والجنود والضباط والمفكرون والمهرجون والمهنيون والإداريون والعمال، وكل بنسبة ثابتة لا تفسد تماسك المجتمع ولا تفقده سلامة توازنه. وأخبر ناصر مرة زائرا أمريكيا قائلا: «إن اخترع امرؤ وسيلة ما لإنتاج الغذاء وتحضيره صناعيا بصورة لم يعد هناك حاجة إلى فلاحين ليزرعوه ويحصدوه، فإنكم - معشر الأمريكيين - سترفضون هذا بالتأكيد. وليس ذلك لشىء سوى أنكم تأبون أن تختفى طبقة الفلاحين من مجتمعكم. ولنفس السبب فإننا نريد خلق طبقة من العمال الكادحين، ولو اضطررنا إلى إقامة مصانع لا لزوم لها عندنا ولا حاجة لنا بها».

ولنفس الغاية، وبالأهمية ذاتها، يصر ناصر على خلق طبقة الإداريين. وكان حريصا على خلق «ثورة إدارية» كالتى يتكلم عنها جيمس بورنهام فى كتابه. وفى مصر كانت أولى مدارس علم الإدارة فى الشرق الأوسط، ولم يكن سواها هناك. وكانت تطبق مناهج مدرسة إدارة الأعمال فى جامعة هارفورد (وجامعات شهيرة أخرى)، وتستعير بعضا من أساتذتها. وأما أساتذة علم إدارة الأعمال المصريون فقد أتموا تدريبهم فى الغرب، وكانوا يترددون على بغداد والخرطوم وطرابلس وحتى بيروت حيث يلقون المحاضرات، ويعقدون فصول الدراسة. وهناك أدلة عديدة تظهر أن ناصرا قد أنشأ بضعة معامل - على الأقل - لا لسبب سوى تضخيم سلك الإداريين وزيادة عددهم (وناصر يصر على إنكار هذا). وسألت مرة مدير إدارة (المعهد القومى لتطوير شؤون الإدارة): «لماذا تركت بعض المصانع الحديثة مستمرة فى العمل؟» فأجابنى قائلا: «حسنا، إننا بحاجة إليها. لقد أبقيناها كمخابر نجرب فيها مختلف أنظمة الإدارة». وقد علمت فيما بعد أن عددا آخر من تلك المعامل قد ترك مستمرا فى الإنتاج بعدما قرر له أن يغلق أبوابه، وكان ذلك بسبب التماسات واستعطافات قدمها معهد الشؤون الإدارية نفسه.

وأهم ما نذكره أخيرا فى هدا المجال هو أن «الاستعراض الكبير» أكثر تأثيرا وأكبر صيتا من «الاستعراض الصغير». فقد برهن الأول على أنه أكثر إدرارا للمساعدات الأجنبية للفت أنظار دافعيها واسترعائه لانتباههم مباشرة. أو أنه يدفعهم لبذل المساعدات نتيجة التأثير الذى يحدثه داخل أروقة «مجموعة دول الحياد الإيجابي»، وبالتالى يحركهم على أسس سياسية بحتة. لقد دافع عدد من علماء الاقتصاد الأمريكيين عن الرأى القائل أن بإمكان مصر أن ترسى قواعد اقتصادها على أسس زراعية مع التخفيف من اعتمادها على محصول القطن وزيادة إنتاجها من المحاصيل الغذائية الأخرى. كما أن بإمكانها أن تدخل مرحلة التصنيع بوضع مخطط منظم ودقيق يفيد البلاد أكثر مما تفيدها تلك المعامل المنشورة هنا وهناك بفوضى وعدم تنظيم. إلا أن علماء الاقتصاد أولئك، قد أدركوا (بل وقرروا) أن المساعدات الأجنبية الضخمة لن تستدرها إلا «استعراضات ضخمة». وأن «الاستعراضات المتواضعة» لن تأتى إلا بمساعدات محدودة ويسيرة. لقد أخبرنى مرة أحد أولئك المسئولين عن شؤون المساعدات الخارجية قائلا: «إننا لا نفضل خط الطامحين على خط المتواضعين المتزنين، سوى أنه لا يمكننا إغفال قدر وأهمية من نمنحه مساعداتنا». وهذا حقيقة ما كان يفكر به ناصر أيضا. لقد كان يحلم بالحصول على أكبر قدر من المساعدات ويأبى أن يكتفى بالنذر اليسير. ولهذا فعندما يسمع ناصر عبارة ذاك المسؤول فإنه سينساها كلها ولن يرسخ فى ذاكرته منها سوى «لا يمكننا إغفال قدر وأهمية من نمنحه مساعداتنا».

عندما انكب المستثمرون الغربيون (والذين كان يحتمل أن يوظفوا ثرواتهم) على دراسة أوضاع الشرق الأوسط بأكمله بعد صيف عام ١٩٥٨ المضطرب. اعتقدوا أن «مشاريع ناصر الكبرى» داخل مصر ليست سوى نوع من «الاقتصاد الإمبراطوري». وقد نعتها بهذا الاسم جيلبرت بورك فى مقالة نشرها فى مجلة «فورتشن» فى تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٨، وقرأها يومها كافة رجال الأعمال الأمريكيون الذين عندهم أدنى اهتمام بشؤون الشرق الأوسط. وكشفت المقالة يومها على أن جهود ناصر فى وضع العرب واحدا تلو آخر تحت سيطرة القاهرة ليست سوى أحد طرفى مخطط ضخم، وأن طرفه الآخر هو جعل مصر المركز الصناعى لإمبراطورية عربية حديثة. واستنادا إلى هذه المقالة وعدة دراسات أخرى وزعت على مدراء كبريات شركات البترول والبنوك وفئات أخرى من رجال الأعمال، فمن الخطأ،

تفسير خطط ناصر فى التصنيع وبرامجه الواسعة فى التحويل الاشتراكى وخلقه لطبقتى «أصحاب الدواوين»، «والعسكريتاريا»، وغيرهما على أساس من مصالح مصر فقط وتقدمها، ولو أن مصالح مصر لوحدها تجسدت فى الجزء الطافى من جبل جليد فى بحر ما فإن القسم المغمور منه لا يشير إلى غير نية ناصر التحكم بكافة اقتصاد العالم العربى وموارده الطبيعية دون استثناء البترول منها. ولم يكن اعتقاد أوساط رجال الأعمال فى الغرب غير ذلك.

والمتجردون من المراقبين والنزيهون من أصحاب الفن والخبرة الذين دأبوا على متابعة تحركات ناصر ودراسة تصرفاته (وليس لهم أهداف تجارية أو غايات سياسية)، لم يقتنعوا أن أهداف ناصر وغاياته هى تماما تلك التى تنبأ بها غيرهم آنفا. لقد كان جل اعتقادهم أنها أشد خطرا وأكثر ازعاجا، وهاكم مناقشتهم للأحداث:

أولا: قدر هؤلاء المراقبون رغبة ناصر فى انتهاج سياسة مستقلة واستحسنوها. وفهموا تماما أنه لا يمكن لحاكم أية دولة مستقلة فعلا أن يرضخ لمشيئتنا - نحن الأمريكيين - ويفعل ما نريده له.

ثانيا: وأدرك هؤلاء المراقبون (على خلاف رجال الأعمال) أن البقاء فى الحكم هو من أهداف ناصر الأساسية وغاياته الرئيسية، وأن ذلك يتطلب وجود حكومة قوية وقاعدة قمع متينة.

ثالثا: واقتنع هؤلاء المراقبون أن حصول ناصر على مساندة جماهير الشعب له. (وهذا ما يزيد قوة قاعدة القمع) يستلزم القيام بأعمال سياسية لا تروق لنا نحن الأمريكيين، فللمصريين أذواق سياسية لا تشابه أذواقنا ولا تنسجم معها أبدا.

رابعا: ولمسوا حاجة ناصر الماسة إلى فكرة «الحياد الإيجابى» ليتخذها ستارا عقائديا عند دفع كل من الروس والغرب إلى التنافس على كسب وده وضمان جانبه (وهذا ما أظهرته النتائج حقيقة).

خامسا: ومع أن المراقبين قد استاءوا من ضم ناصر عدة أمم أخرى إلى «رابطة دول الحياد الإيجابي» لزيادة فعاليته وتقوية نفوذه، وقلقوا للجوئه إلى العنف والإرهاب لإخضاع «الخوارج» وإعادتهم إلى الصف، إلا أنهم لم يفاجئوا بها أبدا بل كانوا لها متوقعين وبها متنبئين.

وإذا كان القارئ شاكا بحقيقة إدراكنا لكل ما سبق ذكره أعلاه، وعلمنا به كلية، فله أن يراجع قوائم مساعداتنا الخارجية لناصر حتى يتثبت من الأمر ويقتنع به. فقد زادت مساعداتنا الخارجية له فى السنتين التاليتين عن أية سنتين سابقتين لهذا زيادة ملموسة وكبيرة، لتأكدنا من التزامه بالمبادئ الآنفة الذكر وإصراره على إنتاجها دون شذوذ أو انحراف.



ولكن ناصرا لم يكن من الموفقين، ولم يكن الحظ له من المبتسمين. لقد سجن نفسه فى حلقة مفرغة ما خرج منها، ولن يكون من الخارجين. وقلقت عليه حكومتنا (الحكومة الأمريكية) قلق الحبيب على الحبيب، وشغل بال الأصدقاء، فلم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار. أراد ناصر «الاستعراض الكبير» ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات. غير أن «للاستعراض الكبير» تكاليف ولإبقائه حيا مصاريف. وللعالم الخارجى طاقات وأساليب فهو عن الاستعراض الكبير (عازف) ولنفقاته غير مستجيب، لقد تعطلب عجلات «الاستعراضات الكبري» عن السير، وتوقفت محركاتها عن العمل، وغاصت بمن عليها فى وحول ومستنقعات لن تنجو منها إلا بأعاجيب ومعجزات.

-١٦-

تعدّد القوى العالمية وانتهاء أسطورة القطبين

... وتنقلب الأحوال وتحل بك الأزمات حتى تمسى طريدا لا دور لك، وقد كنت عزيزا منعما

مع انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية، أخذ الضغط يتزايد على حكومة الولايات المتحدة حتى توقف مساعدتها لناصر. وفى الوقت ذاته شرع الدبلوماسيون الأمريكيون فى الدول العربية يعربون عن امتعاضهم من «مبدأ أيزنهاور»، ولم يظهروا له تأييدا أو حماسا. كما أخذوا ينادون بفكرة «القبول بحقيقة وجود ناصر»، وأوضحوا فى رسائلهم الرسمية إلى وزارة الخارجية «أن العالم العربى فى عام ١٩٥٩ لم يعد كما كان أيام لورانس العرب». وكان الانطباع السائد عندى أنه لولا رجاحة عقل ناصر ومسارعته إلى تسوية النزاع بين الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة (سوريا)، وبين شركة خطوط التابلاين التى تملكها نفس شركات البترول الأربع الكبرى (وهى ستاندر أويل أوف نيو جرسى وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا وموبيل وتكساكو) التى تملك أيضا شركة آرامكو (شركة الزيت العربية الأمريكية) فى المملكة العربية السعودية، فإن رواق معارضى ناصر كاد ينجح فى إحكام الحصار حوله وفى حملته عليه. ولم يكن هذا رأيى فقط، بل كان يشاركنى فيه عدد من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين كنت أتباحث وإياهم فى مثل هذه الأمور. ولا يزال سلوك ناصر مع كافة شركات البترول العاملة فى بلاده سلوكا مثاليا وخاليا من الأخطاء والآثام حتى يومنا هذا. وحتى فى الأوقات التى كانت أروقة كبريات شركات البترول تُكره رجال الكونغرس على سماع شكواها من دبلوماسيينا الذين كانت لهم مواقف لينة مع ناصر، كان مدراء شركات بترول أخرى فى تماس مباشر مع ناصر يصرحون سرا فى مجالسهم أنهم يفضلون معاملة كبار المسئولين من الزعماء العرب الآخرين وأصدقهم. وفى الوقت الذى أضحى من الصعب أن يحمل مدراء الشركات فى مقراتهم الرئيسية فى الولايات المتحدة مثل هذا الرأى السابق الذكر (ولشركات البترول رأيان، أولهما رأى المدراء الذين هم وراء مكاتبهم فى واشنطن، وثانيهما رأى خبراء الميدان، وهذا الوضع شبيه بوضع

وزارة الخارجية نفسها) فإن جدارة المصريين وكفاءتهم قد دعت قسما غير يسير من أوساط رجال الأعمال الأمريكيين إلى التخفيف من حدة عدائهم لناصر ونزاعهم معه.

وجاء بعدها عهد الرئيس كنيدي. فبعد شهر، أو ما يقارب الشهر، من تقلده السلطة رسميا، وجوابا على رسائل التحية والمجاملة التى أرسلها لكل رؤساء الدول العربية، استلم الرئيس كنيدى رسالة «من رئيس أفقر دولة فى العالم ولكن أعرقها قدما إلى رئيس أغنى دولة فى العالم ولكن أحدثها سنا». وكانت هذه الرسالة (التى ظن محللو وزارة الخارجية الماهرون الذين لهم سابق تجربة وخبرة بهذا النوع من الرسائل أنها من حياكة الرئيس ناصر نفسه) تعلق على أوجه الشبه فى السن والتكوين العائلى وغير ذلك بين الرئيسين (كنيدى وناصر)، وانتهت بالاقتراح أنه ليس من إضاعة الجهد والوقت بشىء أن يقف الرئيس كنيدى على الفوارق الصارخة بين إدارة دولة كمصر وإدارة أخرى كالولايات المتحدة. كما أنه من دواعى سرور الرئيس ناصر أن يستقبل مبعوثا موثوقا من الرئيس كنيدى حتى يطلعه على الحالة فى مصر ويسهل له دراية أوضاعها ومشاكلها عن كثب.

ولم يقف الرئيس كنيدى موقف اللامبالي، بل هزت الرسالة مشاعره وتحمس لها كثيرا. كما أنه أرسل جوابا عليها بدون تأخير أو تسويف ممهدا الطريق أمام حوار بينه وبين الرئيس ناصر. غير أنه مضت شهور عديدة قبل أن يقبل كنيدى اقتراح الرئيس ناصر إرسال أحد أصدقاء الأول إلى مصر لإجراء فحص دقيق لمصاعب الإدارة ومشاكلها. وفى أيار (مايو) عام ١٩٦٢ قرر كنيدى أخيرا إرسال صديقه الحميم وأستاذه القديم (ادوارد ماسون) إلى القاهرة. وماسون كان أستاذ كنيدى فى علم الاقتصاد عندما كان الأخير فى جامعة هارفرد، كما أن ماسون قد ألف كتبا عدة ونشر مقالات كثيرة حول اقتصاد الدول المختلفة، ولم تكن نظرته حول هذا الموضوع بعيدة عن نظرات كنيدى نفسه. وعلاوة على ذلك، فإن كنيدى واثق من أنه ليس فى قلب ماسون كراهية لإجراءات ناصر الاشتراكية أو حقدا عليها وخصوصا أنها كانت قيد التنفيذ فى مصر (مثل تأميم الشركات المصدرة للقطن وتأميم المصارف وشركات التأمين وما لا يقل عن مئتى مؤسسة تجارية وصناعية)، ولهذا فليس من المحتمل أن يكون (ماسون) متحيزا فى حكمه على أوضاع ناصر وتصرفاته.

وأخيرا وصل البروفسور ماسون إلى القاهرة. ومنذ اليوم الأول لوصوله أخبره ناصر أن له الحق كاملا فى أن يدقق فى أمور البلاد وشؤونها كما يفعل هو (أى ناصر) نفسه، كما أن له أن

يعرف كل شاردة وواردة دون تحرج أو تكلف حتى يلمس المصاعب كما يلمسها ناصر بنفسه، وطلب منه ناصر أخيرا أن يطلع على كافة تفاصيل حلول ناصر لمشاكل البلاد. وأتاح ناصر لماسون حرية التجول والتدخل وبرهن على ذلك بأن طلب من نوابه وكافة وزرائه وكبار المسئولين الرئيسيين تزويد ماسون بتقارير شاملة وافية عن شؤون البلاد وأوضاعها. وفى خلال لقاءاته مع ماسون، كان ناصر يسأله قائلا: «مستر ماسون، هل تظن أننا نتصرف بغير الطريقة التى كنت ستسلكها لو كنت حاكما لهذا البلد؟» وكان ماسون يجيبه: «كلا»، وغالبا ما كان يضيف عليها «كلا سيدى الرئيس».

وفى حزيران (يونيو) عام ١٩٦٢ عاد ماسون إلى واشنطن ليخبر الرئيس كنيدى أنه - وجدانيا - لم يعثر على خطأ فى تصرفات ناصر الرئيسية وأنه ليس لديه ما ينتقده أو يجعله هدف نقاش وجدال. لقد أقنعه ناصر بأن كل تصرفاته التى كانت الولايات المتحدة تنكرها عليه ليست سوى مخارج منطقية يضطر ماسون نفسه إلى سلوكها منطقيا لو كان فى منصب ناصر. وكان من بين تلك التصرفات تأميم ناصر لأجزاء من الاقتصاد المصري، واتخاذه إجراءات ديكتاتورية مثل فرض رقابة صارمة على الصحافة، واعتقاله السياسيين المخالفين له فى الرأي، وشن الحملات الدعائية ضد الزعماء العرب الموالين للغرب على حد اعتقاد ناصر. وقال ماسون: «لقد كان ناصر يعانى من صعوبة الاختيار وقساوته، وكلما وقف عند مفترق الطرق وجد أن عليه أن يختار أكثرها صعوبة وأوعرها مسلكا».

ولم يكن ذلك كل ما قاله ماسون. ففى إحدى جلسات الاستجواب التى عقدت فى وزارة الخارجية، رفض ماسون أن يفسر فهمه لمشاكل ناصر وتبريره للحلول التى يتبعها الأخير على أنه توصية منه لتقديم مساعدات أكبر لناصر، وقال: «إن مسألة انسجام سلوك ناصر وأسلوبه مع المصالح الأمريكية شيء آخر تماما». وأما المسئولون الذين استجوبوا ماسون ودونوا ما اكتشفه فى مصر من حقائق ومعلومات فقد جزموا أنه مهما كانت أعذار ناصر فى تبرير سلوكه وتصرفاته وأنه لا سبيل إلى فعل غير ذلك، فإنها بالتأكيد معادية للمصالح الأمريكية وغير منسجمة معها أبدا. وعليه فعلى الأمريكيين أن يختاروا إما:

(١) تغيير الظروف.

(٢) تبديل مصالحهم وتعديلها.

(٣) الإطاحة بناصر واستبداله بآخر يتصرف بصورة أخرى تحت نفس الظروف مهما كان تصرفه غير منطقى.

(٤) توجيه تصرفاتنا فى المستقبل وتخطيط أعمالنا فى المنطقة على أن ناصرا عدو لنا وعلينا أن نعامله بطريقة ما بغض النظر عن صحة تصرفاته وانسجامها مع مصالحه.

وفى هذه الأثناء تم نقل كل موظفى وزارة الخارجية الذين كانوا يتوزعون الأدوار حول طاولة «لعبة الأمم» (والتى كانت من طراز «ناصر - دالس») باستثناء واحد أو اثنين. وأما الجمع الجديد الذى حل محلهم فكان يتحلى بصفة «الأخلاقية» فى ممارسة أدواره فى «لعبة الأمم». ولهذا فقد وجد من الحرج أن يقبل امرؤ ما أن أمة ما أضحت عدوة له لمجرد أنها تصرفت وفق مصالحها الخاصة بها فضلا عن أن تلك الأمة تدخل فى عداد الدول المتخلفة التى أيد الرئيس كنيدى علنا تحررها من الاستعمار ونيلها لاستقلالها. ولقد رفض بعض أولئك المسئولين التسليم بفكرة إمكانية وقوع مثل هذه الحادثة على الأقل. وأما البعض الآخر والذين كانوا أكثر «واقعية» منهم «أخلاقية»، فقد حققوا تأييدا لرأيهم القائل أن ناصرا إنسان مزعج وخطير، وعلى هذا يجب أن يعامل. وحاولوا أيضا أن يفتشوا عن أسباب تقنعهم بأن ناصرا لا يسيء إلى الغرب فحسب بل وإلى بلاده نفسها، سوى أنهم لم يعثروا على أثر لتلك الأسباب فى تقرير البروفسور ماسون نفسه.

وفى مقابل كل هذا وذاك، ظل تفكير المختصين بشؤون الشرق الأوسط فى كل من البيت الأبيض ووزارة الخارجية فى واشنطن وديا تجاه ناصر طوال عهد ولاية الرئيس كنيدي. وبقيت نظرتهم له مليئة بالعطف نحوه كلما أفلحوا فى مقاومة ضغط أوساط رجال الأعمال الأمريكيين وتحديهم (ومن لف لفهم من رجال الكونغرس) فقد كانت شكواهم من خطابات ناصر العامة التى يهاجم فيها الأمريكيين ويمتدح السوفييت مستمرة، وكذلك كان قلقهم من مغامراته السياسية (منذ أزمة لبنان) التى أمسوا على علم تام بها وبعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١، لم تعد حصافة ناصر ومعاملته الحسنة لشركة التابلاين عنصرا هاما فى موضوعنا بعدما امتصت نقمة شركات البترول على ناصر وخففت من حدتها. وأدرك ناصر هذا، وبقى كله أملا أن تتمخض زيارة ماسون عن نظرات عطف مثمرة تمتد إلى تأييد ملموس وزيادة ملحوظة فى المساعدات دون أن تتورط السلطة التنفيذية فى حكومتنا فى مآزق تضعها فى صراع وجها لوجه مع سلطات الكونغرس.

وبعد عدة أسابيع من عودة ماسون إلى واشنطن أعرب لى ناصر عن ارتياحه البالغ للزيارة التى تمكن من خلالها الإلمام بمشاكل حكومة الولايات المتحدة (كما شرحها ماسون له) كما استطاع عن طريقها نقل وجهات نظره إلى الرئيس كيندى حول المشاكل المصرية وحلولها. وفى أيلول (سبتمبر) قام جون بادو، السفير الأمريكى فى القاهرة، بزيارة لناصر اعترف فيها أمامه بأن تقرير ماسون عن مشاهداته فى القاهرة قد أثار موجة من الاضطراب والتباين فى الآراء بين المسئولين الأمريكيين وأصبحوا فى ارتباك لا يدرون ما يفعلون. كما أن السفير بادو أخبره أن الحكومة الأمريكية شرعت يومها فى إعادة تقييم الدوافع والبواعث كمحاولة منها لاتخاذ موقف ما من الخلافات الأمريكية المصرية التى لم تفقد حججها الأخلاقية بعد. ولم يكن سفيرنا فى القاهرة يومها سوى «أكاديمى» ليس بينه وبين ناصر أى وجه شبه سواء فى طريقة الكلام أو فى طبيعة التفكير. وقد سلم السفير يومها تلك الرسالة لناصر مصحوبة بتأكيدات ودية - اعتاد عليها الطرفان - أن حكومتنا لا تبغى للمنطقة سوى السلام والازدهار والاستقرار وأنها تستلهم فى هذا شعورها بالمسئولية الأخلاقية التى يتسم بها التخطيط السياسى فى عهد إدارة الرئيس كنيدي.

كان السفير ذا وقع على نفس الرئيس ناصر، بل وأدخل فى نفسه روعة أربكته فلم يعثر له على جواب. وعندما التقيت به فى اليوم التالى كان خارجا عن طوره ومحتدما غيظا. فناصر لم يكترث لاكتشافنا البالى أن المصالح الأمريكية والمصرية ليست دائما فى انسجام ووئام، وذلك لأنه ترعرع فى كنف اعتقاد الوزير دالس أن ما هو خير للولايات المتحدة هو خير للعالم أجمع، وقد اعتاد على ذلك منذ أيامه الأولى فى مصر. سوى أنه اضطرب لعلمه أنه بالرغم من وجود الرئيس كنيدى على رأس الإدارة فى واشنطن، فلا تزال وزارة الخارجية تعتبر نفسها أنها تخوض غمار حرب تدور رحاها بين «الخير والشر». كما أننا - نحن الأمريكيين - قد أخفقنا فى التوصل إلى قرار بدافع من مصالحنا الشخصية وبدون أن يتملكنا شعور بالحاجة إلى انتحال موقف أخلاقى ذى طنة ورنة لتبرير ذلك. وأردف ناصر قائلا: «طالما أنكم تخدعون أنفسكم بكل هذه التبريرات الأخلاقية، فإن شعورى بعدم الارتياح أثناء وقوفكم معنا لا يقل عنه أثناء مجابهتكم لنا. إنكم فقط تريدون أن تلعبوا لعبتكم معنا».

وخلال عهد الرئيس أيزنهاور، فإن علاقات ناصر مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا تظهر سوى أن ناصرا كان يرى «اللعبة» على أنها مجرد مواقف عادية لا علاقة لها بعلم

«الأخلاق»، وأن كل طرف فيها (ناصر أو الولايات المتحدة) لا يصر إلا على تحقيق أهدافه والمحافظة على مصالحه أولا وآخرا. وهذا ما عبر عنه زكريا محيى الدين فى إحدى محاضراته قائلا:

إن لعبة الأمم هى المواقف والتصرفات التى تتبناها الأمم جريا وراء مصالحها وطمعا فى تحقيق أهدافها القومية بأية وسيلة غير الحرب، إنها تضع مسبقا فى اعتبارها أن مصالح الأطراف كلها متضاربة متباينة مهما بلغت درجة الصداقة وتوطدت الأواصر بينها. إن أى ربح تجنيه إحدى تلك الأمم لن يكون إلا على حساب أمة أخري، واللاعب الماهر فيها هو الذى يحصل على كل الغنائم لصالحه ويدخل فى ائتلافات آنية وتجمعات تكتيكية مع غيره من اللاعبين الذين تجمعه معهم مصالح ومنافع مشتركة. وعليه أن يوزع الأعباء على الخاسرين بأجمعهم حتى لا يصيب الطرف منهم أكثر من طاقته، وبهذا لن تسوء حالته إلى حد يدفعه إلى القيام بردود فعل عنيفة ومتطرفة، أو إلى حد يضطره الكف كلياً عن المشاركة فى اللعبة وبالتالى اللجوء إلى الحرب واستخدام القوة».

وبالتأكيد فإن ناصرا كان ملما بكل هذا وعلى اطلاع تام بكل ما يجرى داخل «لعبة الأمم» بغض النظر عن عدم سروره منها وارتياحه لها أثناء عهد الرئيس كنيدى على عرش البيت الأبيض طرأ يومها تغيير جديد على «لعبة الأمم»، وتوجب على ناصر أن بعد نفسه ويهيئها للكفاح ضد ما يسمى «بالاعتبارات الأخلاقية والمواقف الوجدانية».

ومنذ الأيام الأولى لولاية الرئيس كنيدى حتى يومنا هذا وناصر حائر إزاء الطريقة التى نظهر بها تحركاتنا «فى لعبة الأمم» لا أخلاقية وغير موضوعية بالمقارنة مع أهدافنا – نحن الأمريكيين – فى جر المغانم وجنى الغنائم. وهى فضلا عن هذا كانت دائما تظهر تجاويا إيجابيا مع تحركاته داخل اللعبة التى كانت تعود على مصر بفوائد ومغانم كثيرة. لقد أفسحت حكومتنا المجال أمامه ليربح «لعبته» بدون أن تظهر وكأن لها «لعبة» خاصة بها وبدون أن يحس الغير بهذه «اللعبة» أو يلمس منها شيئا. وقد اعترف ناصر بهذا عندما قال إن أى محلل سياسى فى زيارة للكرة الأرضية قادما من المريخ سيصاب بنفس دهشته نتيجة تفحصه للتحركات الأمريكية المصرية فى اللعبة وهو ينظر إليها من خلال منظار المنافع الشخصية والمصالح الذاتية.

وفى أواخر عام ١٩٦٢ تحولت حيرة ناصر إلى قلق متزايد عندما لمس أن «لعبة الأمم» أضحت نوعا جديدا من الصراع وباتت كل من المصالح الأمريكية والمصرية فى تعارض بيّن وتضارب جلى يضطران الحكومة الأمريكية أن تقف فى وجه ناصر بصورة أكثر جدية وأشد عتيا. والطريقة التى اعتدنا فيها أن نؤيده تارة ونعارضه أخرى (وقد ظنها أنها لا تتفق ومصالحنا) قد تركت ناصرا فى حالة حذر منا وترقب لشرنا وامتدت حتى عشية انتهاء الحرب العربية الإسرائيلية فى حزيران (يونيو) ١٩٦٧، واستعراض عابر للحوادث التى بدأت فى أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٢ - شهرا من بعد حديث ناصر مع السفير بادو - توضح ذلك جليا.

فى هذا الشهر بالذات (أيلول، سبتمبر) مات إمام اليمن وخلفه ابنه الأمير البدر. ولم يمضِ أسبوع على تنصيب البدر إماما حتى قام ضباط من الجيش اليمنى بانقلاب أدى إلى السيطرة على الحكم واحتلال محطة الإذاعة والإعلان عن إعدام الإمام البدر ونتيجة لذلك أعلنت مصر وبقية الدول العربية باستثناء الأردن والمملكة العربية السعودية[1] اعترافها بالجمهورية اليمنية الجديدة. وخطا الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية نفس الخطوة. وهكذا بدا الانقلاب وكأنه من توجيه شيوعى مما أدى إلى اعتباره خطرا يهدد المصالح الغربية فى الجزيرة العربية الغنية بحقول النفط وآباره. غير أنه سرعان ما عرف أن الإمام الجديد لم يعدم وأنه ما زال على قيد الحياة يجمع القبائل لشن هجوم معاكس على الانقلاب. وهنا قام ناصر بإيفاد بعض المستشارين العسكريين على وجه السرعة لدعم النظام الجديد ومساعدته. وما لبث أن أرسل فى إثرهم أعدادا صغيرة من الجنود ومن ثم أتبعهم بحشود هائلة من الرجال والعتاد ومن مختلف صنوف الأسلحة. وفى هذه اللحظات بدت الحكومة الأمريكية مترددة بين الاعتراف بالنظام الجديد لتقليص النفوذ المصرى والسوفييتى والصينى فى اليمن (على حد قول ناطق بلسان وزارة الخارجية الأمريكية) أو عدمه (كما كان البريطانيون ورجال وزارة الدفاع الأمريكية يرغبون).

وبقى ناصر طوال مدة ترددنا قلقا متلهفا، يثور تارة ويهدأ أخرى. وأكثر ما كان يقلقه ويثير فضوله هو تفكيرنا وراء تريثنا وليس ارتيابه بقرارنا الأخير. وناصر قد لمس هذا من لقاءاته مع السفير جون بادو كما اشتم رائحته من تقارير سفيره فى واشنطن وتحليلات الصحف

(١) اعترفت المملكة العربية السعودية بالنظام الجمهورى باليمن فى تموز (يوليو) ١٩٧٠.

اليومية. وبناء على وجهة نظر ناصر، فإن الاعتبارات التى تحول دون اعترافنا بالنظام الجمهورى فى اليمن تصلح فى نفس الوقت لأن تساق كحجج وبراهين على سلامة الاعتراف بالنظام الجديد والعكس صحيح. وفى كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٦٢، قام السفير بادو بزيارة لناصر وطلب منه تأكيدات على أن اليمن لن تستخدم كقاعدة لشن حملات عسكرية على المملكة العربية السعودية أو المراكز البريطانية فى جنوب الجزيرة العربية. إلا أن ناصرا قد أصيب بالدهشة إزاء هذا الطلب ولم يتردد البتة فى إعطاء السفير ما شاء من تأكيدات وضمانات. وفى ١٩ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ قامت الحكومة الأمريكية بالاعتراف بالنظام الجمهورى فى اليمن السعيد.

ولم تكن نظرة ناصر إلى الأوضاع فى اليمن - واليمن فقط - تختلف عن نظرتنا له. فلو أن اليمن انزلق إلى البحر رويدا رويدا، وغاص فيه شبرا شبرا، وأصبح أثرا بعد عين، فما أظن الجنس البشرى سيفطن له، وإن حدث فلن يعانى من ألم أو يشعر بوخزة ضمير. ومن جهة أخرى، فقد أدرك ناصر أنه ما من امرئ يستطيع أن يجنى أية مكاسب فى منطقة ما عن طريق انتفاضات محلية وحروب عصابات ما لم يكن له فيها موطئ قدم وله بقربها محط رحال. «فالمتعصبون» لا يصلحون لمثل هذه المهمات ولا يفيدون فى مثل تلك الملمات، بل وغالبا ما يتلاشون تلاشى الأسهم النارية فى الأثير وهى تندفع عاليا فى سماء ليل بهيم. أما إذا اختفى وراء الستار انتهازيون (لا متعصبون). وفى اللحظة الحاسمة إلى المسرح يقفزون، وللقيادة بعدئذ يتسلمون، فالأمر عندئذ يهون، وربما قُدُما يسيرون. فناصر لم يكن باليمن من المهتمين، فاليمن عنده موطئ قدم لا هدف وأمل. وكذلك أيضا حكومتنا الأمريكية، فهى ليست حريصة على اليمن ولا ينبغى عليها أن تكون كذلك. فجلّ قلقها قد تركز على أمن عدن واستقرارها. وناصر رأى ذلك يقينا ببعد نظر، ثم عبس بعدها وبسر فلم يصدق أننا - نحن الأمريكيين - لا نرى ما يراه. والحق أننا نظرنا، وبنفس عينه فعلنا، ولكننا لم نكن لنفصح عن هذا وهو بنا من المتربصين، وطفقنا عن «الشيوعية» متكلمين، ومن «توجيهها» لحكم اليمن متخوفين، إذ الحكومة فيه فتيّة ونخشى أن تكون للشيوعية مطية.

ولسنوات متتاليات، تأرجحت العلاقات الأمريكية المصرية بين الحسن والسيئ، فلم تقفز إلى قمة أو تترد إلى هاوية. وفى خلال ذبذباتها لم تكن تنطوى على علاقة ظاهرة بالتحركات المصرية أكثر مما كانت عليه فى الماضى. وأما «حوار» ناصر مع السفير بادو - وكان تابعا

لعلاقات ناصر الودية مع الرئيس كنيدى - فقد تفسّخ وبات ضربا من الترهات والسفسفات يتبادلها الاثنان متناوبين وكاد ينقطع نهائيا لولا احترام ناصر لشخص السفير وذاته. وفى آب (أغسطس) عام ١٩٦٤، حل لويس باتل محل جون بادو كسفير لحكومتنا فى القاهرة. ولويس هذا موظف من موظفى الخدمة الأجنبية المحترفين يتمتع بخبرات مكتبية رائعة، غير أن فهمه «للعبة الأمم» ليس أكثر من اعتقاد خرافى يصور له أن وكالة المخابرات المركزية تشرف (عن طريق اللعبة) على عمليات تخريبية تغطى كافة المنطقة وأنها كانت وراءه ولكنها أخطأته، وبعد حوالى أسبوع من وصول باتل إلى القاهرة، أشعلت مظاهرات الطلبة النار فى مكتبة كنيدى التذكارية فأتت على ما فيها من كتب ومجلدات. وفى نفس الوقت، أسقط سلاح الجو المصرى طائرة «جون مكوم» أحد ملوك النفط فى تكساس وصديق حميم للرئيس جونسون. وبعد كل هذا وذاك، وقف ناصر ليلقى خطابا لاذعا فى جماهير مدينة القاهرة دعا فيه السفير الأمريكى إلى «شرب ماء البحر الأبيض المتوسط»، إن كانت لا تروقه مثل تلك التصرفات. وتكدست يومها الاستفزازت حتى بلغت الذروة وأثارت أعضاء مجلس النواب فى الكونغرس فتداعوا إلى اجتماع قررورا فيه قطع المساعدات عن مصر وإيقاف إرسال الغذاء لها. ولربما يتراءى أن بادرة كهذه ليست سوى نكسة حلّت بالعلاقات الأمريكية - المصرية يومها غير أن مجلس الشيوخ عدل قائمة المساعدات ثانية وأعاد اسم مصر إلى طليعتها.

وبعد شهر من الزمن (فى أيلول، سبتمبر) ظن ناصر أنه قد سدّد صفعة مهينة لنا عندما حرض مجموعة من الدول الإفريقية على قطع علاقاتها وإياه مع بريطانيا، وظن أن عملا غير مباشر كهذا لا يقل قساوة وإهانة عن أى عمل مباشر آخر ضد الولايات المتحدة. غير أن تصرفه هذا قد أقنعه بصورة قاطعة أن التصرفات الأمريكية تجاه مصر تسير فى طريق غامضة عسيرة الفهم، هذا إن كانت هناك طريق. فما أثار دهشة ناصر وأورثه حيرة على حيرته السابقة أنه لم يمضِ سوى يومين على فعلته تلك حتى أرسل الرئيس جونسون مبعوثه الخاص أفريل هاريمان إلى القاهرة علّه يفلح فى توسيط مصر لدى فيتنام الشمالية للإفراج عن الأسرى الأمريكيين هناك. وبعد ثلاثة أيام أعلن السفير الأمريكى فى القاهرة أن شحنات القمح الأمريكى إلى مصر ستبقى متدفقة دون انقطاع أو نقصان. وهكذا بدت حكومة الولايات المتحدة متغافلة عما حدث، وكأن العلاقات مع أخلص حليفاتها ما نالها سوء أو مسها أذى.

وفى صيف عام ١٩٦٥ أخبرنى ناصر أنه قد «رفع يديه واستسلم» ولن يحاول ثانية أن يسبر غور التحركات الأمريكية. وأما محمد حسنين هيكل، صديقه الحميم، فقد نشر مقالة فى صحيفة الأهرام معبرا عن رأيه فى أن السياسة الخارجية المصرية (وهى المغامرات المصرية فى جزيرة العرب وحملات القاهرة الإذاعية ضد الملك حسين والمضايقات المستمرة للمواقف البريطانية والأمريكية فى الشؤون العالمية) ليست سوى «توظيف مثمر» للجهد المصري. فقد عادت على مصر بمنافع سياسية وأخرى عملية ملموسة، فحصلت مصر على مساعدات من الاتحاد السوفييتى دون أن تخسر المساعدات الاقتصادية من الولايات المتحدة، وفصلنا بين مسألة المساعدات الاقتصادية وبين الاعتبارات السياسية، قد حاز على إعجاب ناصر وقبوله، ولم يقصر فى ذلك، وعبّر عن هذا بنفسه. ولكنه بقى مرتابا فى أن يكون ذلك هو كل ما نفعله، ولن يرتاح باله وتهدأ نفسه حتى يقف على كل ما نريده حقا من وراء علاقتنا معه ونبغيه. وبخصوص مقالة هيكل حول «السياسة الخارجية المصرية: توظيف مثمر» كاشفنى ناصر برأيه فيها (كما كاشف غيري) وقال إنه لا يرى بأسا عليها، سوى أننى علمت أنه عنّف كاتبها وأنبه عليها سرا. ومع كل ذلك فقد بقى مصرا على أن علاقتنا معه ما زالت تنطوى على أسرار دفينة وتعقيدات بالغة غير ملم بها، ولا واقف عليها.

وفى أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥، أفلح زكريا محيى الدين ولفيف من ضباط ناصر بإقناع الأخير بتوفير تفاعل أعمق بين المواقف المصرية والمواقف الأمريكية، وستحسن الحكومة المصرية صنعا إن نظرت إليها وكأنها مواقف واحدة. لقد كان يومها أكثر من ثمانين بالمائة من خبز سكان مصر من مساعدات القمح الأمريكي، كما أن المال اللازم لمصر من العملة الصعبة (حوالى ألف مليون دولار) لتنفيذ المشاريع الإنمائية لا يمكن الحصول عليه إلا من المؤسسات المالية التى تحتفظ حكومة الولايات المتحدة بأكبر نصيب من أسهمها. ومن خلال تقارير السفير المصرى فى واشنطن مصطفى كامل، أدرك ناصر أن الرأى العام الأمريكى فى تصاعد مستمر ضده وأن الذين يعطفون عليه من موظفى وزارة الخارجية الأمريكية بدءوا يرزحون تحت ضغط متزايد عليهم. وعلى حد زعم السفير كامل، فإن وزارة الدفاع الأمريكية أضحت فريسة للبريطانيين وتحت مطلق تأثيرهم، وبات اعتقاد وكالة المخابرات المركزية أن ناصرا عميل سوفييتي، وأن مكتب شؤون الشرق الأدنى الملحق بوزارة الخارجية قد أمسى هشيما تذروه الرياح وبات لا يملك مما كان عنده ذرة تأثير أو نفوذ. وإزاء كل هذه المضاعفات وجد

زكريا أنه لا سبيل لإيجاد تفاهم مشترك وبناء مع الولايات المتحدة دون الوصول إلى الرئيس جونسون ولتحقيق هذا هو إنشاء علاقة شبيهة بعلاقة ناصر - ماسون. وعلى حد علم زكريا فإن أكثر الناس حظوة عند الرئيس جونسون هم أصدقاؤه من ملوك النفط التكساسيين. ولزكريا صديق منهم، بل وصديق حميم، كان سابقا وزير مالية الولايات المتحدة، وهو روبرت أندرسون. ومرة، فإن روبرت هذا قد أعطى زكريا سر تحريك «ملوك النفط المليونيريين» وقال له: «عليك بما يسهل صرفه فى بنوكهم. إنهم واقعيون ولن يقبلوا إلا حقائق ملموسة، وبغير هذا لن تجد إليهم سبيلا».

وبعبارة أخرى، أدرك زكريا أن «لعبة الأمم» ليست سوى هراء وهذيان وعلى مصر أن تكف عن المشاركة فيها وتنكبّ على تطوير نفسها وتحسين اقتصادها، وتتخلى - ولو لمدة - عن مصالحها فى العالم العربى وفى العالم الإفريقى الآسيوي. وبهذا السلوك لا بغيره تفلح فى كسب ود أصدقاء الرئيس جونسون من «أصحاب الملايين» وتتفتح حقبة جديدة من العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة خاصة والحكومات الغربية والمؤسسات المالية عامة، دون أن تخاطر بعلاقاتها مع الاتحاد السوفييتى وتخسر صداقته.

ولم يكن لدى ناصر يومها أفكار أصح وآراء أنسب. ففى تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٦٥ أصدر قراره بتعيين زكريا رئيسا للوزراء، ووطد العزم على أن يترك له تسيير دفة الحكم فى البلاد. وشرع زكريا يومها بتنفيذ سياسته المعروفة باسم «مصر أولا» وأعلن أن على مصر أن تتصدر قيادة العرب عن طريق «الزعامة القدوة». و«القدوة» هنا هى إيجاد حكومة أكثر فعالية واستغلال أعظم للموارد الاقتصادية وفى تحقيق مغانم أكثر للشعب، وليست «القدوة» مجرد تسلط سياسى أجوف على الدول الأخري. واعترف زكريا رسميا بوضع مصر الاقتصادى السيئ، فاتخذ إجراءات تقشفية صارمة لاقت قبولا ورواجا عند عامة الشعب فأكسبت الحكومة شهرة ومحبة، (وقد أدهش هذا ناصر نفسه). وأجرى زكريا تعديلات على اتفاقيات الحكومة مع شركات البترول فحصّل عائدات أكبر للمصريين وشحن الشركات بدفعة من النشاط لتوسيع أعمالها وزيادة إنتاجها. ودخل فى مفاوضات مع البنك الدولى ومع هيئة التمويل العالمية ومع صندوق التمويل الكويتى لتطوير العالم العربى ومع بنوك رئيسية خاصة يمكن أن تكون مصدرا حسنا للعملة الصعبة على أساس من «حقائق ملموسة» وليس «اعتبارات سياسية». وأما نجاح زكريا فى إقناع ناصر بالتوصل إلى اتفاق مع الملك فيصل حول قضية

اليمن السعيد (وذلك قبل أشهر من استلامه منصب رئاسة الوزراء) فقد دفع به إلى حث المشير عامر إلى التعجيل بسحب الجنود المصريين من هناك (وكانت هذه مغامرة زكريا اليتيمة فى تدخله بالشؤون العربية خلال فترة ولايته كرئيس للوزراء). ولو أن الحكومة الأمريكية قد زودت زكريا حقا بقائمة اقتراحات لما ينبغى عليه إنجازه لما كانت القائمة تتضمن غير ما فعله هو حقا. وهكذا فقد غامر زكريا بسمعته وجازف بها، وكانت نتيجة «سياسة مصر أولا» أنه قد فاز بلقب «العميل الأمريكى».

ولم يكن رد الفعل الأمريكى تجاه سلوك زكريا حارا ومشجعا، فالسفير باتل لم يقم بزيارته إلا مرة للمجاملة عندما تسلم زكريا مهام منصبه كرئيس للوزراء، ومرة أخرى صحبه فيها دافيد روكفلر، ومذّاك لم تتكرر زياراته إلا مرة أو مرتين وفى ظروف رسمية محضة. ولم يتشرف زكريا برؤية طلعة السفير البهية حتى حان وقت انتهاء خدمة الأخير فى القاهرة فجاءه مودعا حسب ما تقتضيه الأعراف والتقاليد. وفى نفس الوقت لم تنقطع المشاورات بين كبار موظفى السفارة الأمريكية فى القاهرة وبين موظفى وزارة الخارجية المصرية حول مختلف الشؤون العالمية وأحداثها. وكم دارت أحاديث بينهم حول الأوضاع السياسية فى اليمن وفيتنام وآسيا وأفريقيا. ولم يكن مستشارو القصر الجمهورى عن هذه الأحاديث ببعيدين، فشاركوا فيها بكل نشاط واكتراث. وهكذا سفّه الأمريكيون بأنفسهم النظرية القائلة أن حكومتنا تهتم بمصر «لأجل مصر فقط»، وأعادوا إلى ذهن ناصر أن الحكومة الأمريكية تبدى اهتماما بالأوضاع المصرية بقدر المظهر التى تظهر به مصر على مسرح الأحداث العالمية، وهذا حقا ما عبر عنه هيكل فى مقالته الشهيرة: «السياسة الخارجية المصرية توظيف مثمر».

وأيقن زكريا أخيرا، أن التفاعل الأعمق بين المواقف الأمريكية والمصرية قد بات عكس ما كان يحلم به ويتمناه. فالملك فيصل قد شرع فى الدعوة إلى إقامة تحالف إسلامى للوقوف فى «وجه الشيوعية» (وبالتالى للوقوف فى وجه ناصر) وذلك بعد أن سحب المصريون خمسة عشر ألفا من جنودهم فى اليمن. كما أن الملك خشى أن تخف فى واشنطن حدة المعارضة ضد ناصر التى كانت قد تكدست ليومها. وكنتيجة متوقعة لهذا، قام ناصر بإعادة الجنود إلى اليمن ثانية وفتح باب النزاع والشقاق على مصراعيه. وفى تلك الأثناء، أخفق زكريا فى التأثير على أصحاب الملايين الذين كان يأمل منهم أن يساعدوا على انتشال مصر من ضائقتها المالية. فقد صرح «أصحاب الملايين» الأمريكيون أنهم لا يفضلون توظيف أى من أموالهم فى مصر إلا إذا

أقدمت الأخيرة على تخفيض قيمة عملتها (وهذا غير مقبول عند زمرة أصحاب الديون) وعلى إيقاف كافة مشاريع «صناعة العزة والكرامة» الخاسرة (وهذا لا يتناسب والأحوال السياسية فى الداخل). وقد أخبر أحد «أصحاب الملايين» زكريا قائلا: «إنه لا يكفى أن تكون مصر بلدا مغريا للتوظيف المالى وصالحا للاستثمار، بل يتوجب عليها أن تكون أصلح كل تلك البلدان، التى مدت أيديها لنا تتلقفنا من كل الجهات، حتى نفكر فيها - أى مصر - وفيكم، يا حضرة رئيس الوزراء».

وهذا ما حدث تماما. فقد بقيت «لعبة الأمم» مستمرة وحتى مع الولايات المتحدة (وقال لى زكريا إنها مستمرة «وخاصة» مع الولايات المتحدة). وكم لام زكريا نفسه لارتيابه يوما بحقيقتها وقدرتها! ولم تكن لتعنى شيئا عنده، فقد ظن بحتمية وجود «طريقة قياسية ما» يطبقها المرء دائما ويصحح خط سيره بحسبها دون أن تتغير الطريقة أو تتبدل، ودون أن يصاب أيضا بخيبة أمل كلما أراد أن يسبر الأغوار ويعرف الأسباب. ومهما كان، فلقد كان فلقد بلغت الأوضاع مبلغا دفعت بنواب الرئيس الثلاثة - عامر وزكريا وعلى صبرى - أن يختلوا برئيسهم ناصر فى تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٦٦ حتى يضعوا «تفسيرا عاما» للأحوال والأحداث.

وكلمة «التفسير العام» قد ترجمها المتأثرون بعبادات الوزير دالس وديباجاته إلى الإنكليزية على أنها «إعادة التقييم للأحداث المؤلمة والأوضاع المتردية». والحقيقة أن «التفسير العام» شىء آخر تماما. «فإعادة التقييم للأحداث المؤلمة والأوضاع المتردية» على طريقة دالس ليست سوى عمل أخلاقى بحت يتمثل فى «صراع الضمير» لإقتناع المرء بشىء ومحاولته إبرازه على أنه شىء آخر كليا. وأما «التفسير العام» فهو عمل واقعى لا علاقة «لعلم الأخلاق» به، وهو نوع من المراجعة التى يجريها قائد عسكرى أو رئيس فريق كرة قدم عندما يدرك أن استراتيجيته التى اعتاد على تطبيقها فى الماضى لا تصلح للمستقبل فيطلب تعطيل اللعب مؤقتا حتى يتسنى له إعادة تحديد أهدافه وفهم حقيقة العثرات القابعة فى طريقه والمساعدات المطروحة أمامه (والتى ربما تكون قد أضحت ذات مفعول مضاد) ولاستنباط استراتيجيات جديدة يتخذها طريقا له ومنهجا. وفى الوقت الذى كان ناصر عاكفا مع نوابه الثلاثة على إعداد «التفسير العام»، فإن البنوك وشركات الطيران وشركات البترول وغيرها من الشركات الأمريكية كانت هى الأخرى بصدد إعادة تخطيط استراتيجياتها بعد أن شعرت أنها لن تتمكن

من صيانة مصالحها إلا عن طريق العمل مستقلة - إلى حد ما - عن العلاقات الدبلوماسية بين المصريين والأمريكيين. وكان على بعض أجهزة حكومة الولايات المتحدة أن تحذو حذو الشركات تأمينا للمصالح الأمريكية وبغض النظر عن تلك القيود التى كانت تفرضها «الاعتبارات العالمية، الأخلاقية منها أو القانونية» (مثل معاهدة الأمم المتحدة والأعراف الدبلوماسية المتبعة). وهكذا قفزت إلى المسرح «لعبة» من نوع جديد عجزت بعدها الدبلوماسية التقليدية أن تمارسها أو تؤدى أدوارها.

وكما ذكرت آنفا فى هذا الفصل، فلم تكن تلك المرة الأولى التى رقد فيها أحد المشتركين فى «اللعبة» من الأمريكيين أو المصريين لإجراء تقييم عام وتقدير شامل. كما أنها لم تكن تلك المرة الأولى التى يستعان فيها «بغير الرسميين» «وبغير الدبلوماسية التقليدية» لتأخذ بنواصى الأمور ولكن من «خلف الكواليس» وسرا ولتحل محل الدبلوماسية التقليدية التى لم يبقَ لها سوى مهمة مراقبة تصرفات حكومتنا وتحديد ما إذا كانت فى انسجام أخلاقى مع القواعد الشائعة داخل البلاد وخارجها. ولهذا «التفسير العام» خاصة أهمية فائقة لأنه وجد نتيجة ظهور ملامح أربعة جديدة «للعبة الأمم»، تعززت أركانها حتى قادت إلى الحرب العربية الإسرائيلية فى حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧، كما أنها لا تزال قائمة تدفع بذيول الحرب إلى التفاقم ثانية، وتطرح قضايا ومسائل مشابهة فى أماكن أخرى من العالم. والملامح الأربعة هي:

١- انتهاء أسطورة القطبين (اللذين كان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يضعونها فى دوامة التنافس لكسب ودهم) وظهور أقطاب جديدة أخرى فى العالم.

٢- انعدام الأمن والنظام فى كافة أرجاء العالم العربى مع ضياع آخر الآمال فى الوصول إلى «وحدة عربية» مهما كان لونها وشكلها.

٣- نفاد صبر الإسرائيليين مما دعاهم إلى التصريح فى أوائل عام ١٩٦٧ قائلين: «إننا لن نصبر بعد الآن، وكفانا كل هذا، فسنتربص بالعرب الدوائر ونغتنم أول فرصة سانحة لننقض عليهم ونغيّر ما حولنا ونجعله كما نريد ونهوى».

٤- وقرر السوفييت أن يتخلوا عن فكرة الوقوف على الحياد فى الصراع العربى الإسرائيلى وباتوا على استعداد لأن يتعاونوا مع أية حكومة عربية تلتقى معهم عند منتصف الطريق.

وبكل تأكيد فإن هذه التحولات فى الأحداث العالمية تتطلب استراتيجيات من نوع جديد ولكل الأطراف اللاعبة على المسرح عامة والمصريين خاصة. وخير دليل على حاجة المصريين الماسة لاستراتيجية جديدة يقفزون بها إلى مسرح الأحداث برشاقة وخفة جديدتين هو ما قاله صحفى أمريكى بارز لأحد الدبلوماسيين المصريين وجاء فيه: «إننا - نحن الأمريكيين - لم نعد لننظر إلى ناصر على أنه مصدر إزعاج لنا أو قلق، بل إن ناصرا لم يعد كذلك». وكان هذا فى أواخر عام ١٩٦٦، آخر عام قبل عام الحرب الخاطفة.

-١٧-

النهاية
الحربُ العربَية الإسرائيلية
حزيران (يوليو) ١٩٦٧ وذيولها

... واخيراً، فكل حال يزول..

ترى ما هى الاستراتيچية اللائقة بزعم مثل ناصر ليلعب بها على المسرح الحالى للأحداث العالمية؟ سأفترض أنك تقبل النقاط التالية:

* أن ناصراً هو من ذلك النوع من الناس الذين يهمهم أن يتمتعوا بقسوة شخصية واسعة وإلا لما كان بوسعه أن يمسك بدفة الحكم، ويبقى عليها مسيطراً.

* وأن من المنطقى لزعيم كهذا أن يلجأ إلى الاستعانة بأجهزة العنف والإرهاب (قاعدة القمع) وأن أجهزة كهذه يتضمن قوامها بالضرورة آلافا مؤلفة من الموظفين وجيشا جراراً لا تستطيع مصر تحمل نفقاتهم ضمن قدرتها العادية.

* وأن الحصول على تأييد جماهير الشعب المحرومة التى تملأ شوارع مصر وتعج بها مدنها، اتخاذ مواقف لو نظر اليها امرؤ ذو عقل وبصيرة لما وجدها مجدية أو مثمرة.

* وأن دعم الشعب لناصر يقوم على حياده، وحين يكون حيادياً فلا مناص من أن يعتبر الحياد ليس هدفا فحسب بل واستراتيچية لابد منها لمجابهة «القوى العظمى» ومواجهتها.

* وأنه عندما بدأت استراتيچية كهذه عملها (وكان الغرب، وليس ناصر، هو الذى دفعها إلى العمل) فعلى ناصر أن يصل بفعاليتها إلى القمة عن طريق إشراك أطراف أخرى معه لتواجه كلها «القوى العظمى» كوحدة متماسكة.

* وحالما تبنع ثمار استراتيجية «التكتلات» (وهذا ما حصل فعلاً) فعلى ناصر أن يضرب بعنف كل من شق عصا الطاعة عنه وخرج على «تكتله» أو فكر بإنشاء «تكتل جديد».

❖ وأخيراً، ففى الوقت الذى يعتبر المحللون المحتكون فى لندن وواشنطن وموسكو أن سلوك ناصر لمثل هذا المسلك أمر معقول ومقبول، فإن بقية العالم قد سئمته وضجرت منه حتى تكاد إحدى تلك الدول العظمى أن توقف مجاملتها فجأة وتقول: «فليأخذ الآخرون هذا الرجل، فلقد نلت منه ما يزيد عن طاقتى ويفيض عن كفايتى»، وهنا يتقدم آخرون ليتلقفوه لقمة سائغة، ويبتلعوه هنيئا مريئا.

ومن السهل إبداء الجواب لأى امرئ لم يسلك هذا الطريق. والجواب مماثل لجواب مسألة فيها رجل كان يجنبى خمسين ألفا من الدولارات فى العام، ثم انخفض دخله فجأة إلى اثنى عشر ألفا. ففى هذه الحالة عليه أن يقلص طموحه إلى حدود معقولة، ويرضى نفسه قدر ما يستطيع بدخله الجديد. وهذا بالضبط ما اقترحه بعضنا - وخاصة روبرت اندرسون، وزير المالية السابق لحكومة الوليات المتحدة والصديق الحميم للرئيس جونسون - على الرئيس ناصر. وفى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٦٧، رتب أندرسون - بالتعاون مع أحد أعضاء سفارة الجمهورية العربية المتحدة فى واشنطن وهو محمد حبيب - قائمة بأسماء كبار المولين ورجال الأعمال الذين لهم نفوذ وسطوة، وكلهم من أصدقاء الرئيس جونسون، ومهد محمد حبيب الطريق أمام ناصر لدعوتهم إلى زيارة القاهرة. وفى شباط (فبراير) وصلوا القاهرة، وأعجبوا إلى حد بالغ ليس بمستقبل مصر الاقتصادى فحسب بل وبالرئيس ناصر شخصياً. ونقلوا انطباعهم الحسن إلى الرئيس جونسون عندما عادوا إلى واشنطن. وبدا إلى حين كأن من الممكن لحكومة الولايات المتحدة والرئيس ناصر أن يبدأ من الصفر علاقة جديدة يتخلى فيها ناصر عن فكرة إنشاء التكتلات» (مع أنه على مسرح الأحداث الجديدة يمكنه أن يكون حياديا قدر ما يرغب ويهوى) ويقلص طموحه إلى أبعاد معقولة مركزاً اهتمامه على بناء مصر، وسوف تدعمه حكومة الولايات المتحدة ماليا ليكون قادراً على هذا، ولن يقصر رجال المال والأعمال الأمريكيون عن مد يد المساعدة لتتضافر الجهود وينشط العمل.

إلا أن تفاؤلا كهذا لم يضع فى حسابه قوة الدفع الضخمة لحركة ناصر هذه والتى تتصاعد بازدياد، ولا الحدود التى ستوصله إليها تلك القوة الدافعة كما تدفع بطائرة ضخمة فتوصلها إلى أجواء عالية. هل يخفض ناصر عدد أفراد جيشه إلى خمسين ألفا؟ هل يخفض

ناصر عدد «طبقة الموظفين» إلى مائة وثمانين ألفا ؟ هل سيعيد ما أممه من صناعات إلى أصحابها الشرعيين؟ هل يعلن حل «الاتحاد العربى الاشتراكى» تاركا للحظ اختيار وريث له؟ إنك حينما تأتى إلى تنفيذ مثل هذه الإجراءات، ستجدها فجأة من «رابع المستحيلات تفكيراً وتنفيذاً» ولو أن ناصراً رآها هكذا فليس ذلك لأنه قد أضحى «مجنون سلطة» أو أنه قد فقد عقله.

ولم يكن تأثير الاتحاد السوفييتى بقليل. فالسوفييت يمتازون عنا بعدم حاجتهم لممارسة أى ضغط على ناصر مباشرة، لأن سلوكه وسياسته فى المنطقة يوافقان رغباتهم ويجدان هوى فى أنفسهم دونما تحوير أو تعديل. ومرة قال ناصر لسفيرنا فى القاهرة: «إننى أفعل ما أفعال فى اليمن وأماكن أخرى، وسأفعله، ولو لم يكن الاتحاد السوفييتى على قيد الحياة وفى حيز الوجود». إلا أن مصالحنا فى المنطقة ومسؤولياتنا تجاه أصدقائنا هناك لن تسمح لنا أبدا أن نغض الطرف عن ناصر وأن نصم عنه الآذان.

وهكذا. فبعد أن غادر ملوك المال الأمريكيون عائدين إلى واشنطن، استحوذت أحداث المنطقة على انتباه ناصر واهتمامه إلى حد جعل الرجوع إلى برنامج «مصر أولا» بعيداً عن تفكيره بعد المشرق عن المغرب.

إن سلسلة الأحداث التى ابتدأت فى تلك اللحظة واستمرت حتى نشوب الحرب بين العرب وإسرائيل فى حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مفصلة تفصيلاً بديعا فى كتاب والترلاكور واسمه «الطريق إلى حرب عام ١٩٦٧» ، وهذا الكتاب من أهم ما كتب حول هذا الموضوع بالذات. فالبروفسور «لاكور» ذو خبرة واسعة بمصالح السوفييت فى الشرق الأوسط وله بها إلمام غزير، ولهذا فهو من أقدر من يكتب موضحاً الأسرار التى انطوت عليها سياستهم هناك (ولن أستطيع ذلك بنفسى). ولقد أراد الروس من ناصر أن يقوم «باستعراض عضلاته» وليس أكثر من ذلك بل ودون أن تورطه استفزازاته تلك فى «حرب حقيقية لا تبقى ولا تذر». ولعلى أصدق هذا على ضوء ما سمعته من الكثير من أصدقائى المصريين. وأجد ميلا فى نفسى لموافقة البروفسور لاكور على تفسيره الواضح البسيط حول بداية الحرب واشتعال نيرانها وقد قال فى ذلك: «لقد تعثر ناصر وانجرف نحو درك الحرب انجرافاً، ولم تكن إسرائيل قد تهيأت لها قلبا بل وكانت مضطربه وحيرى. وأما أجهزة مخابرات السوفييت فلم تكن تتمتع بالكفاءة اللازمة ولم يكن تخطيط الروس وتقديوهم سليمين قديرين بل وكانا ضعيفين. وكانت أمريكا

هى الأخرى عاجزة عن فعل أى شىء». سوى أننى أود أن أضيف هنا قائلاً: «إن ناصراً لم يتورط فى الحرب تورطا ولم يدفع لها دفعاً، ولم تكن إسرائيل مضطربة حيرى بل كانت للصدام متوقعة وللحرب متشوقة». لقد أمسك ناصر بزمام الأمور جيداً وظل لها مخططا، وبالعناية بها منفذاً، حتى لحظة تنازل نائب الرئيس زكريا محيى الدين - وبالنيابة عن ناصر نفسه - عن مطالب مصر فى مضائق تيران، استجابه لنداء الأمم المتحدة، بسماحة نفس ورحابة صدر. غير أن الإسرائيليين لم يكونوا راغبين فى ترك ناصر يجنبى ثمار تلك الواقعة فوجهوا لمصر الضربة القاضية فى نفس الصباح الذى كان مقررا فيه مغادرة زكريا القاهرة قاصداً نيويورك مع أنهم كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهداً أن يمسكوا عن الحرب حتى يصل زكريا إلى هناك. ولسنوات غير قليلة بقى الإسرائيليون يتدربون على انقضاضهم ذلك، ولو لم ينفذوه يومها فما كانت الفرصة لتسنح لهم مرة أخرى أو تتوفر لهم ثانية ظروف مُثلى.

وها أنذا أساهم بتقديم ما شاهدته بأم عينى فى القاهرة، فقد كنت جاهلاً لما كان يجرى يومها فى تل أبيب أو واشنطن ولم يكن علمى بمجريات الأمور فى موسكو إلا عن طريق أصدقائى من المصريين. وهذا ما علمته:

١- كان شغل ناصر وضباطه الشاغل قبل الحرب بشهرين خراب اقتصاد البلاد وانهياره. ففى بداية تلك السنة (١٩٦٧) قام فريق من الباحثين يعملون لشركتى بإحصاء أدق الأرقام التى توفرت عن مقدار العملة الصعبة والذهب المخزون فى مصر عام ١٩٥٢ يوم قام ناصر بانقلابه. ثم أضافوا إليه مجموع المساعدات الأجنبية (من قروض وهبات) التى تلقتها الحكومة، وأضافوا إليه أيضا مجموع ما أدخرته مصر من ثمن الصادرات بين منتصف ١٩٥٢ وحتى نهاية عام ١٩٦٦ ، وأنقصوا من المجموع الحاصل النفقات والمصروفات (الخارجية وثمن الواردات) فكانت النتيجة أن معدل عجز مصر التجارى قد بلغ حوالى أربع مائة مليون دولار سنويا وقد استنفد تقريبا كل تلك الواردات بما فيها قروض استدانتها الحكومة وعجزت عن أدائها. وعلى حد قول البروفسور لاكور فإن احتياطى مصر قد تدنى حتى أضحى حوالى أربعين مليونا من الدولارات كذهب مخزون وستة وأربعين مليونا من الدولارات بشكل عملات صعبة. ولو أن امرءا حاول أن يبحث حثيثا فى القاهرة عن تلك الستة والأربعين مليون دولار، لما كان له - لدهشته - أن يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة يجب دفعها لتسديد ثمن مشتريات طارئة لا مناص منها. فكم من معامل أغلقت أبوابها لنقص فى قطع التبديل التى لا

تكلف أكثر من بضعه ألوف من الدولارات. وأوقفت يومها شركة الطيران العربية المتحدة أربعا من طائراتها الكوميت السبعة لنقص في قطع الغيار مع أن هذه الشركة تعتبر أحد مصادر العملة الصعبة في مصر. ولو أن الحكومة المصرية باعت يومها كل ما تبقى لديها من ذهب ما كان ليكفيها هذا لأكثر من شهر واحد تسدد به ثمن ما اعتادت عليه من واردات وتدخر منه دراهم معدودات. وفي التقارير الاقتصادية الربع سنوية للسفارة الأمريكية في القاهرة تجد رأيا أن الحكومة المصرية كانت مفلسة فعلاً قبل عام من الزمن (أي في أوائل١٩٦٦). وأما الساخرون من بين المراقبين الأجانب الذين حنكتهم الظروف ومرستهم الأحداث فقد قالوا يومها :«لقد اعتدنا على سماع هذا النغم القديم أعواما، ولكن مصر دائما تجد منطلقا لها ومخرجا من هذه الأزمات». غير أن هذه المرة كان من الواضح جدا أن الجمهورية العربية المتحدة قد هوت إلى الحضيض، وعندما أدرك السوفييت أن مساعدات الغرب قد نضبت والمنافسة بينهم وبين الأمريكيين قد انتهت بدؤا بتقديم المساعدات شيئا فشيئا، وبمقادير قليلة وحسب ما يرونه من ظروف مناسبة وأحوال ملائمة.

٢- وكنت أعتبر ولسنين عديدة، أن نظام ناصر أكثر النظم حصانة ضد الانقلابات في العالم العربي. ولا أزال أرى ذلك. إلا أنه في آذار (مارس) ونيسان (أبريل) عام ١٩٦٧ بدا بدون أدنى شك أن ناصراً قد وصل إلى طريق مسدود، وأنه كان وضباطه بذلك عالمين. وبدا يومها في مصر أن «الاستعراض الكبير» قد انتهى، وقررت حكومتنا (وكانت قد قدمت ليومها أكثر من خمس مائة مليون من الدولارات كمساعدات منذ انتهاء الأزمة اللبنانية ١٩٥٨) أنها لن تقدم مساعدات جديدة إلا على أساس من طرق استثمارها والاستفادة منها وليس على أساس من الضغط السياسي. ولو جمح الخيال ما جمح فلن ينجح هذا الأسلوب الجديد في مصر. ولقد عبر «وورد اليرت» (وهو محام من واشنطن ويكتب في مجلة «السياسة العامة» التي تصدر عن جامعة هارفرد) عما يجول حقيقة في عقول كل موظف غربي يعمل في «ديوان المساعدات» وكل أصحاب البنوك الغربيين عندما قال: «إن إصرار ناصر على القفز إلى مسرح السياسة العالمية ليلهو هناك قد كلف المصريين نفقات باهظة كان يمكن استغلالها بشكل أجدى في مجالات أخرى. وعلى كل دولة تساعد مصر أن تدرك أنها بذلك تقدم دعما لناصر لتحقيق أطماعه وآماله خارج بلاده، كما تساعده على ضم ممالك جديدة لعرشه والتغرير بها».

والناحية الهامة هى أن كبار المسؤولين المصريين فى الجهاز الحكم فى الجمهورية العربية المتحدة أدركوا أخيراً تلك التحولات فى مواقفنا ووجهات نظرنا. ولا شك أنه خطر لبعض أصدقاء ناصر المخلصين •مع أننى كنت أعتقد باستحالة قيام أى انقلاب ضده) أن يجعلوا منه «سوكارنو» ولو على مضض منه (كما عبَّر عن ذلك سى سولزبيرجر). فقد وقعت أندونيسيا فى معضلة مشابهة لوضع مصر فكان الحل لها هناك أن رفعوا سوكارنو إلى مستوى رئيس مجلس إدارة واستلم أمناء عامون توجيه أمور البلاد وشؤونها وأعادوا بناء البلاد ثانية بعدما تردت الحالة فيها حتى بلغت حد الإفلاس. وقد علمت من مصادر موثوقة لدى أن مثل هذه الفكرة قد بحثت جديا للخروج بالبلاد من مصاعبها ومصائبها وأن رجالا لا يشك بولائهم لناصر قد تكلفوا بوضعها قيد التنفيذ، ولا أستبعد أن يكون أحدهم قد بلغ حداً من التهور والطيش لأن ينقلها لناصر ويبلغه إياها. ومن خلال معرفتى بناصر فإننى كنت واثقاً أن مشروعا كهذا لن ينجح أو يرى بصيصا من نور. فناصر لن يرحل بتذمر أو شكوى، ولن يتقوض نظامه وينهار إلا بضربة عنيفة وضجة مدوية، ويومها ستنازل الآلهة أعداءها وتدور رحى حرب ضروس لا تبقى منهم أحداً ولا نذر لهم على الأرض دياراً.

٣- ولم يعد ضباط ناصر يكترثون بما يفكر العرب بالنظام المصرى، وأخذ حرصهم على سمعته يقل رويدا رويدا. إلا أنهم أضحوا فى قلق متزايد إزاء الصورة التى أخذ العالم المتحضر يرسمها عنهم وهى شبيهة بقصة افيلين واه المسماة «بالمؤذى الشرير». ولكن ناصراً كان حريصاً على أن لا يفقد ماء وجهه أمام العرب- والعرب على الأقل - أو يبدو من الخاسرين. وقبل أيام من فرارى من القاهرة فى وجه الكارثة التى بدأت تلوح يومها فى الأفق سألت أحد أشد اتباع ناصر تعصبا له قائلاً: «لماذا يصر ناصر على الظهور بمظهر زعيم كبير بين جملة أفراد خاسرين؟» ولم يستطع أن يجيبنى بأكثر من: «من كل قلبى، أتمنى لو كنا ندرى ذلك».

وكان هذا مُهما لناصر. ولهذا فعندما استفزه والأردنيون معلنين أنه لم يبد أى تأثر بغارات الإسرائيلين المتزايدة على سورية والأردن، تحرك ناصر وأشغل نفسه بدعاية إذاغية مضادة وأهمل مسائل بلاده الاقتصادية العامة. وغالب اعتقادى أن وصم الأردنيين له خاصة بالجبن والاختفاء خلف قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة قد دفعه إلى إغلاق مضائق تيران فى وجه الإسرائيلين. وعلى هذا يعلق البروفسور لاكور قائلاً: «لقد كان من واجب السوريين

وناصر أن يعلموا أن إطلاق التهديد من موقف الضعف أمر خطير». سوى أننى أعتقد أن السوريين وناصرا يجهلون خطر مثل تلك السياسة بل وتجاهلوها بنجاح لسنوات عديدة خلت. (وحتى بعد الهزيمة النكراء التى حلت بهم فى حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، فما زالوا يتحدثون بلهجة القوى المنتصر. ولا يقع اللوم عليهم فى هذا فلهجتهم القوية تبدو طبيعية بل ومفيدة أحيانا).

٤- وأخيراً، فهناك مشكلة سوريا. ففى السابع من نيسان (أبريل) عام ١٩٦٧ كانت بعض الطائرات السورية تحلق فوق المنطقة المجردة من السلاح فرأت بعض الجرارات الإسرائيلية تحرث وتزرع. فاغتنمت الطائرات السورية الفرصة وانقضت على الجرارات تصليها وابلا من رصاصها وقنابلها، ومهما كان فقد كان الإغراء يومها طاغيا، فدمرت الجرارات عن بكرة إيها وقتل من المزارعين نذر غير يسير. ولكن لم تكد غارة السوريين تنتهى حتى ظهرت فى الجو بضع طائرات من الميراج الإسرائيلى ولحقت بالطائرات السورية إلى دمشق وأسقطت ستا منها فانتشر حطامها فى ضواحى المدينة وفى الجوار. وتألم السوريون من ذلك، وأطلقت صحفهم والحكومة صيحات الحرب والثار. وأخذت الإذاعة السورية فى الأسابيع التالية تدعو إلى الحرب علنا وإلى التحرير جهاراً بشكل يجعل كل من لا يعرف السوريين أن يظن بهم خيراً وأنهم على مهاجمة الإسرائيليين لا محالة مصممون. (وكان السوريون مدفوعين بالاتفاقية العسكرية التى وقعوها مع المصريين فى تشرين الثانى (نوفمبر)عام ١٩٦٦).

وعقد المصريون هذه الاتفاقية وهم يظنون، والروس معهم، أنهم يحسنون صنعا. إلا أن سعيهم قد ضل ولم تخفف شيئا من مغالاة السوريين، بل وكان أثرها عكس ما توقعوا تماماً. فقد ظن السوريون أن الجيش المصرى رهن إشارتهم، فاندفعوا تحت حماية الاتفاقية يزأرون ويزمجزون، ولولاها لبدأ حماسهم فى تلك الفترة متهوراً حتى فى منظارهم أنفسهم. وأضحى جليا فى بداية أيار (مابو)، أن السوريين وليس ناصراً قد أخذوا يندفعون إلى حافة الحرب.

ومع أننى كنت فاقداً أى اتصال مع السوريين يومها، فقد أخبرنى أصدقائى من المصريين الذين كانوا على صلة بهم أن الأوائل قد ضمنوا أن النصر سيكون حليفهم فى الحرب القادمة، شريطة أن يكون المصريون معهم فيها. هذا عن السوريين، وأما عن المصريين فإننى أعتقد، خلافا لكتاب كثيرين، أنهم لم يلمسوا من أنفسهم القوة الكافية لهزيمة إسرائيل. لقد أخبرنى

ناصر نفسه، وقبل أسبوع واحد من الحرب، عن محادثة جرت بينه وبين المشير عامر عنفه فيها قائلاً: «إنك - عزيزى عامر - متخلف ما لا يقل عشر سنين عن العصر الذى أنت فيه. كيف ستلحق هزيمة بجيش حديث وحسن التدريب مثل الجيش الإسرائيلى وجيشك لم يتمكن لسنوات أن يخضع شراذم اليمنيين من المدمنين على المخدرات!». وأزيد على هذا أن النظرة الآنفة الذكر لم ينفرد بها ناصر وحده بل أبدى كبار ضباطه شكا كبيراً فى قدرة الجيش المصرى على العمل وكفاءته فى القتال. ولا أزال أذكر ما خاطبنى به أحدهم قائلاً: «ان استطاعت مصر الإفلات من هذه الأزمة بنصر ديبلوماسى فستدع السوريين يخوضون غمار الحرب لوحدهم إن بقوا ليومها مصرِّين على ذلك دون تراجع أو خوف».

وكان الضباط المصريون يعلمون، ويعلم الأمريكيون المقيمون فى القاهرة وأنا من بينهم، وكذلك كان يعلم كل المراقبين من ذوى الاطلاع أن فرصة ناصر فى إحراز نصر ديبلوماسى مؤزر تعادل فرصة خسارته. وقد أقلق خطاب ناصر فى ٢٩ أيار (مايو) عام ١٩٦٧ كثيراً منا حيث قال فيه: «لقد باتت استعداداتنا كاملة، ونحن الآن مهيئون لمواجهة إسرائيل... أصبحنا قادرين على معالجة قضية فلسطين بأكملها ..» وكذلك قوله: «سوف نقرر نحن وليس هم زمان المعركة ومكانها». وصحيح أن أشكول رئيس وزراء إسرائيل قد صرح فى ١١ أيار (مايو) بما لا يقل فحواه خطورة عن ذلك، غير أن عبارة ناصر أضافت حجة للإسرائيلين فوق الحجة التى وهبهم إياها السوريون ليقوموا بالضربة الأولى، بل لعلها جعلت من المحتم عليهم فعل ذلك. وعندما غادرت القاهرة فى تلك الأثناء عائدا إلى لندن، أخبرت أصدقائى من المصريين قبل سفرى بأننى أراهن حتى الدولار الأخير الذى أمتلكه بأن ناصرا سوف يواجه هجوماً صاعقاً كذاك الذى وقع على بيرل هاربر. قلت ذلك وأنا أعلم أن بعثة زكريا محيى الدين إلى نيويورك قد قررت أن تكون صباح الخامس من حزيران (يونيو) وأن الإسرائيليين قد قطعوا على أنفسهم عهدا للرئيس جونسون أنهم لم يقوموا بتسديد أية ضربة لمصر قبل أن يرى العالم زكريا فى نيويورك ويسمع منه ما يريد أن يقوله. وكما قلت سابقا فلقد كانت فرصته خمسين بالمئة، لا تزيد عن هذا أبدا. ولكن ناصراً قامر وغامر ولعله قد خسر الرهان.

ولامرئ أن يسأل : هل ربحت إسرائيل الحرب؟ إننى أرجع هنا إلى قول «أندريه بوفر»، وهو استراتيجى فرنسى عظيم يُعَرِّف النصر فيقول: «هو اما أن تحطم عدوك تماما أو تجعله فى موقف يقبل ما تمليه عليه من شروط الاستسلام». فإذا أخذنا بهذا التعريف وجدنا

الإسرائيليين لم ينتصروا حقا وذلك حينما نراقب الكلام الذى جرى بينهم وبين العرب فى أعقاب الحرب. كما أن موقف ناصر فى بلاده بعد الحرب أصبح أشد صلابة من موقفه لو لم تقع الحرب. وإذا اتضح هذا لم يعد لأحد أن يسأل: ماذا سيكون موقف ناصر لو تكررت المأساة؟ إن الجواب على هذا السؤال فى رأيى واضح لكل من قرأ هذا الكتاب بإمعان وغاص بين سطوره.

بعد كل هذا نأتى إلى هذا السؤال: إلى أين تمضى بنا علاقتنا مع ناصر انطلاقا من هذه الأحداث؟ لقد كنت أحاول فى كل هذا الكتاب أن ابين أن ما يقوم به ناصر كان دائما طبيعيا ويمكن التنبؤ به إن أخذنا بعين الاعتبار تلك الظروف التى كانت تحيط به. وكان يسلك طريقا يسلكه فيما أظن كل امرئ يحمل عقليته وثقافته، هذه العقلية والثقافة التى دفعته ابتداء إلى سدة الحكم، وعرش القيادة فى داخل بلاده. إننى أحب ناصراً محبة شخصية، وما من أحد أحب إلى قضاء سهرة مليئة بالحديث والنوادر من قضائها معه. إنه من أكثر من عرفت من بين الزعماء جراة، لا يقبل الرشوة ولكنه لا يؤمن «بعلم الأخلاق» والتعصب للمبادىء، وعلى طريقته الخاصة، فإنه ميال للخير العام والإصلاح الاجتماعى وما أظن أننى قد التقيت بمن يفوقه فى هذا من الزعماء. وروح النكتة متوفرة عند ناصر إلا أنه لا يتصرف بدافع من غل أو حقد أو هوى أو غير ذلك من الدوافع الدنيا. لقد مهدنا - نحن الأمريكيين - الطريق لناصر، ولقد سلك ناصر هذا الطريق ولم يكن من المخالفين. ولو أننا رسمنا له طريقا مختلفاً فلعل الأمور كانت ستجرى على غير هذا النهج. ويبقى دور ناصر فى «مستقبل الأمريكيين ومستقبل أمريكا» معتمدا على نوع المستقبل الذى يخبئه لنا القدر.

وأخيراً، ما هو مستقبل «لعبة الأمم»؟ لست أدرى إن كان «مركز اللعبة» فى وزارة الخارجية فى واشنطن لا يزال قائما أم أنه قد تلاشى واضمحل، لكننى متأكد أن عددا لا بأس به من كبريات الجامعات الأمريكية مهتمة بممارسة هذه «اللعبة» والتدرب على أدوارها. إلا أننى أجزم أن كثيرا من رجال الدبلوماسية الأمريكية (الذين كانت لهم دراية سطحية ضحلة بشؤون الشرق الأوسط فى عام ١٩٤٧) قد اكتسبوا خبرات فائقة فى هذا المجال وقطعوا فيه شوطاً بعيدا. لقد كانت نظرتنا للمناورات السياسية المجدية التى تتبعها الدول المتخلفة أنها أساس الحياة الديموقراطية التى بدورها من أهم مقومات السلم والرخاء. إلا أنها باتت الآن فى نظرنا ذات صبغة مستقلة لا تمت إلى كل ما ذكرناه بصلة، ولكننا مع الأسف لم نحط

بمعرفة هذا قبل عشرين عاماً. ولكننا من الآن فصاعدا لن ننظر إلى تلك المناورات السياسية للبلدان المتخلفة إلا بنفس الطريقة التى يعالج بها الطبيب سقيما عليلاً. وبالتأكيد فإن نظرة الطبيب له ستكون مشوبة بالهمّ والقلق ولكن دون تورط منه فيها أو تدخل. وأننى أعتقد أنه فى المستقبل سيكون فى كل سفارة أمريكية موظف خاص أو سكرتير «ثالث» ليس له من مهمة سوى اقتفاء أثر الخلافات الداخلية والنزاعات بين سكان البلاد ولن ينكَبَّ المحللون السياسيون على دراسة تقاريره إلى واشنطن بل ستنتقل مباشرة إلى أيدى علماء الإنسان وتاريخه الطبيعى. فتلك التقارير لن تحتوى غير سرد لأخبار ومعلومات حول ما يدور من صراع بين «عادات الآلهة وطقوسها المقدسة» وبين «الهياج العصبى ضدها والنرفزة منها» أو ما يدور من نزاع بين «الاشتراكيين الوطنيين» وبين «الوطنيين الاشتراكيين». وسيغدو شغلنا الشاغل الإجابة على أسئلة مثل: ماذا ستفعل حكومة «آزانيا» (الحكومة العابثة اللاهية) إزاء تضخم عدد السكان، هذا إن كان لديها ما تفعله؟ ما هى الإجراءات التى على هذه الحكومة أو تلك أن تتخذها لتطوير وسائل الزراعة فى بلادها؟ وما هى المسالك التى يجب أن تسلكها حكومة ثالثة حتى ترفع من قوة إنتاج القوى العاملة فى مصانعها؟ إلا أننا سنتوجه فى سلوكنا مستقبلاً بالفكاهة التالية:

«أمة من أمم الأرض عازمة على إنزال رجل على القمر وإيجاد عقار مضاد لمرض السرطان وللحمَّات الراشحة، كما تنوى أيضا إيجاد حلول لكل مشاكل تضخم عدد السكان وشح المواد الأولية. إن أى امرئ يرغب بالمشاركة فليتفضل، ولن يحول دون ذلك لون أو دين أو جنس. كما أن أى امرئ يفضل أن يشغل نفسه بأهداف وغايات أخرى كحرق السفارات الأجنبية ورفض «المادية» الغربية أو أية غايات أخرى بغية التحرر من الاستعمار» فلن نضن ببركاتنا عليه، ولعلمه فإن «التحرر من الاستعمار» هو ذاك الشىء الذى باستطاعتنا أن نوزعه على غيرنا وبجرعات كبيرة».

***

انتهى الكتاب وقد وضعنا «الملحق» حول «مشاكل السلطة والأنظمة الثورية» فى بدايته.

المحتويات

المحتويات

■ لعبة الأمم !!

لم يهتز العالم في تاريخه - ولا يزال - لكتاب كما فعل عند ظهور كتاب مايلز كوبلاند: (لعبة الأمم) الذي صدر في عام ١٩٦٩، ونفدت طبعته اللندنية الأولى في ثلاثة أيام فقط، ويصور فيه الأمم كقطع شطرنج يجري تحريكها من قبل وزارة الخارجية الأميركية، وبحسب سيناريوهات تتفق و(لعبة الأمم) عنوان كتابه. وإذا كان هذا هو حال العالم، فقد كان لكتاب كوبلاند بالنسبة للعرب وقع الزلزال، بعد أن اتهم فيه بعض زعمائهم بالخيانة، وآخرين منهم بالعمالة، وكشف فيه عن أسرار ديبلوماسية ما وراء الكواليس في المنطقة العربية، واختراق المخابرات المركزية الأمريكية (سي . آي . إيه) لأنظمة الحكم فيها، وأظهر سلوك حكام ورجالات سياسة عرب في صور مغايرة لما كان شائعاً ومعروفاً عنهم قبل خروج كتابه للنور، و كان دوره المحوري في الأحداث، أو معايشته لما يجري، هو مصدر قوة الكتاب، الذي يثير إشكاليات كثيرة في عالمنا العربي حتى يومنا هذا. ومن بين ما يتناوله كوبلاند في كتاب (لعبة الأمم) كيف أشرف على تنفيذ كثير من الانقلابات في العالم العربي، ويتحدث عن عمالة محمد حسنين هيكل للمخابرات الأمريكية، وجهودها أمريكا في استبعاد الإسلام عن أي سلطة، وتشجيعها جمال عبد الناصر في مصر شعار (القومية العربية) كما أرادوا أن تكون القومية العربية أداة لكبح جماح التيار الإسلامي المتنامي، فحصل المراد وتم ضرب ذلك التيار في مصر وكثير من الدول العربية ضربة كبيرة كما يزعم كوبلاند. كما تحدث عن ناصر وصدام معتبراً إياهما (صناعة أمريكية)، و قال إن هزيمة يونيو ١٩٦٧ في ستة أيام ، جاءت بسبب انشغال عبد الناصر بتثبيت سلطانه في اختيار القيادات الزائفة والمنافقة، وتقديم أهل الولاء والنفاق على أهل الخبرة. نحن مازلنا إذن، أمام كتاب مفتوح للعبة الأمم، بدأت فصوله منذ ٣٧ عاما، وما زالت تضاف وتتجدد فصوله، وتتلون و[illegible]ل الكبرى!!

لعبة الأمم كتاب مصنف (خطير جداً) لأنه يتضمن أسرارا تتعلق [illegible]ية بقيت في طي النسيان، وزعامات زلزل الكتاب الأرض تحتها، ود[illegible]دة تقييم مواقفها من الأحداث ، التي شهدتها فترات حكمها!!



